

للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير

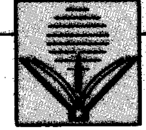
إختصار
الشيخ محمد كريم راجح

المجلد الثاني

دار المعرفة
بيروت - لبنان

الطبعة السابعة 1420 هـ 1999 م

DAR EL-MAREFAH
Publishing & Distributing



دار المعرفة
للطباعة والنشر والتوزيع

مستديرة المطار، شارع البرجاوي، ص.ب ٧٨٧٦، هاتف: ٨٣٤٣٠١ – ٨٣٤٣٣٢، فاكس: ٦٠٣٣٨٤، برقياً: معرفكار بيروت – لبنان

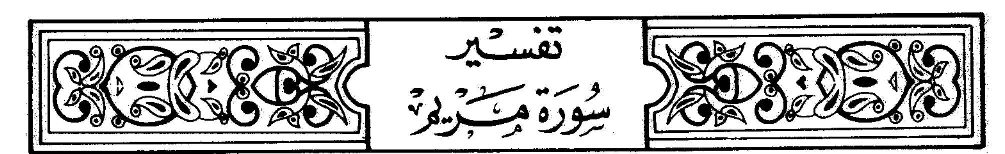
Airport Square, P.O.Box: 7876, Tel: 834332, 834301, Fax: 603384, Beirut - Lebanon

مختصر

تفسير ابن كثير

٢


بسم الله الرحمن الرحيم



تفسير سورة مريم

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود في قصته عن الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه :

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ كهيعص ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾

﴿ ذكر رحمت ربك ﴾ أي هذا ذكر رحمة الله عبده زكريا ، وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل ، وفي صحيح البخاري أنه كان نجاراً ، يأكل من عمل يده في النجارة .

(٣) ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾

﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ قيل : إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره ، وقيل : إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله ، فإن الله يعلم القلب التقي ، ويسمع الصوت الخفي . قال بعض السلف : قام عليه السلام من الليل ، وقد نام أصحابه فجعل يهتف بربه يقول خفية : يا رب ، يا رب ، فقال الله له : لبيك لبيك لبيك .

(٤) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾

﴿ قال رب إني وهن العظم مني ﴾ أي ضعفت وخارت القوى ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ أي اضطرم المشيب في السواد . والمراد من هذه الإخبار عن الضعف والكبر ، ودلائله الظاهرة والباطنة . ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ أي ولم أعهد منك إلاّ الإجابة في الدعاء ولم تردني قط فيما سألتك .

(٥) ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾

﴿ وإني خفت الموالي من ورائي ﴾ أراد بالموالي العصبة ، وقيل : الكلالة ، وخوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً فسأل الله ولدا يكون نبياً من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحى إليه ، فأجيب في ذلك ، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله ، فإن

النبي أعظم منزلة ، وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده ، وأن يأنف من وراثة عصباته له ، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم ، هذا وجه ، والوجه الثاني أنه لم يذكر أنه كان ذا مال ، بل كان نجاراً ، يأكل من كسب يديه ، ومثل هذا لا يجمع مالاً ، ولاسيما الأنبياء ، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا والوجه الثالث أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » . وفي رواية عن الترمذي في الصحيحين « نحن معشر الأنبياء لا نورث » وعلى هذا فتعين حمل قوله ﴿ فهب لي من لدنك ولياً ﴾ .

(٦) ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾

﴿ يرثني ﴾ على ميراث النبوة . ولهذا قال ﴿ ويرث من آل يعقوب ﴾ أي نبوتهم كقوله ﴿ وورث سليمان داوود ﴾ أي في النبوة ﴿ واجعله رب رضياً ﴾ أي مرضياً عندك وعند خلقك تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه .

(٧) ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾

هذا الكلام يتضمن محذوفاً وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه فقيل له ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم ، أو شبيهاً كقوله ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ أي شبيهاً . عن ابن عباس : لم تلد العواقر قبله مثله ، وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له ، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها ، بخلاف إبراهيم وسارا ، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما لا لعقرهما .

(٨) ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد ، ففرح فرحاً شديداً ، وسأل عن كيفية ما يولد له ، والوجه الذي يأتي منه الولد مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها ، ومع أنه قد كبر وعتا أي عسى عظمه ونحل ، ولم يبق فيه لقاح وجماع ، والعرب تقول للعود إذا يبس « عتا ، وعسى يعني نحول العظم » .

(٩) ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾

(قال) أي الملك مجيباً زكريا عما استعجب منه ﴿ كذلك قال ربك هو علي هين ﴾ أي ايجاد الولد منك ومن زوجتك هذه ، لا من غيرها ﴿ هين ﴾ أي يسير سهل على الله .

ثم ذكر له ما هو اعجب مما سأل عنه فقال ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تـك شيئاً ﴾ كما قال تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ .

(١٠) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام انه ﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ اي علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني لتستقر نفسي ، ويطمئن قلبي بما وعدتني كما قال ابراهيم عليه السلام ﴿ رب أرني كيف تحي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ ﴿ قال آيتك ﴾ أي علامتك ﴿ أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ﴾ اي ان تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال وانت صحيح سوي من غير مرض ولا علة . قال زيد بن اسلم : كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه الا إشارة .

(١١) ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ أي الذي بشر فيه بالولد ﴿ فأوحى إليهم ﴾ أي إشارة خفية سريعة ﴿ ان سبحوا بكرة وعشياً ﴾ زيادة على اعماله شكراً لله على ما أولاه .

(١٢) ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً ، تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به ، وهو يحيى عليه السلام ، وان الله علمه الكتاب ، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم ، ويحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً ، فلهذا نوه بذكره ، وبما انعم به عليه وعلى والديه فقال ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ أي تعلم الكتاب بقوة أي بجد وحرص واجتهاد ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ أي الفهم والعلم والجد والحزم والاقبال على الخير والإكباب عليه ، والاجتهاد فيه ، وهو صغير حدث . قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، فقال ما للعب خلقنا .

(١٣) ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾

﴿ وحناناً من لدنا ﴾ يقول : ورحمة من عندنا ، وتعطفاً من ربه عليه ، أي وجعلناه ذا حنان وزكاة ، فالحنان في شفقة وميل ، والزكاة والطهارة من الدنس والآثام والذنوب ﴿ وكان تقياً ﴾ طهر فلم يعمل بذنب .

(١٤) ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾

﴿ وبرا بوالديه ولم يكن جباراً عصيا ﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه ، وانه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقىً عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما ، ومجانبته عقوقهما قولا وفعلاً امراً ونهياً ، ولهذا قال ﴿ ولم يكن جباراً عصياً ﴾ .

(١٥) ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾

﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا ﴾ أي له الأمان في هذه الثلاثة الاحوال . في الحديث « ما أحد يلقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا » عن الحسن قال : إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا ، فقال له عيسى ، استغفر لي أنت خير مني ، فقال له الآخر : أنت خير مني ، فقال له عيسى : أنت خير مني ، سلمت على نفسي ، وسلم الله عليك فعرف والله فضلهما .

(١٦) ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وانه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً مباركاً عطف عليه بذكر قصة مريم في إيجاده عيسى عليه السلام منها من غير أب ، فان بين القصتين مشابهة ومناسبة ، ولهذا ذكرهما في آل عمران وههنا وفي سورة الانبياء يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى ، ليدل عباده على قدرته ، وعظمة سلطانه ، وانه على ما يشاء قادر ، فقال : ﴿ واذكر في الكتاب مريم ﴾ وهي مريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام ﴿ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ اي اعتزلتهم وتنحت عنهم ، وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس .

(١٧) ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾

﴿ فاتخذت من دونهم حجاباً ﴾ اي استترت منهم وتوارت فأرسل الله تعالى اليها جبريل عليه السلام ﴿ فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ اي على صورة انسان تام كامل .

(١٨) ﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾

لما تبدى لها الملك في صورة بشر ، وهي في مكان منفرد ، وبينها وبين قومها حجاب خافته ، وظنت أنه يريدها على نفسها فقالت : (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) اي ان كنت تخاف الله تذكيرا له بالله .

(١٩) ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾

فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها : لست مما تظنين ، ولكن رسول ربك ، اي بعثني الله اليك ، وقال ﴿ إنما انا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾

(٢٠) ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾

(قالت أنى يكون لي غلام) اي فتعجبت مريم من هذا ، وقالت : كيف يكون لي غلام ؟ اي على اي صفة يوجد هذا الغلام مني ، ولست بذات زوج ، ولا يتصور مني الفجور ، ولهذا قالت (ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً) والبغي هي الزانية ، ولهذا جاء في الحديث النهي عن مهر البغي .

(٢١) ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾

أي فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت : ان الله قد قال : إنه سيوجد منك غلاماً وان لم يكن لك بعل ، ولا يوجد منك فاحشة ، فانه على ما يشاء قادر ، ولهذا قال : ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم ، وخالقهم الذي نوع في خلقهم ، فخلق أباهم آدم من غير ذكر وانثى ، وخلق حواء من ذكر بلا انثى ، وخلق بقية الذرية من ذكر وانثى الا عيسى ، فانه اوجده من انثى بلا ذكر ، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، فلا اله غيره ولا رب سواه وقوله ﴿ ورحمة منا ﴾ أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبياً من الأنبياء يدعو الى عبادة الله تعالى وتوحيده وقوله ﴿ وكان امراً مقضياً ﴾ يحتمل ان هذا من تمام كلام جبريل لمريم يخبرها ان هذا امر مقدر في علم الله تعالى وقدره ومشيئته ، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ ، وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها . والمراد أن الله عزم على هذا فليس منه بد .

(٢٢) ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم انها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال انها استسلمت لقضاء الله تعالى والظاهر انها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن تسعة أشهر ، وقيل : لم يكن الا ان حملت فوضعت .

(٢٣) ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾

﴿ فأجاءها المخاض الى جذع النخلة ﴾ أي فاضطرها والجأها الطلق الى جذع النخلة في

المكان الذي تنحت اليه ﴿ قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة ، فانها عرفت انها ستبتلى ، وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس فيه امرها على السداد ، ولا يصدقونها في خبرها ، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية . ﴿ وكنت نسياً منسياً ﴾ أي لم اخلق ولم أك شيئاً .

(٢٤) ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾

﴿ فناداها من تحتها ﴾ جبريل ، أو عيسى بن مريم ﴿أن لا تحزني ﴾ اي ناداها قائلاً : لا تحزني ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ هو الجدول ـ النهر الصغير .

(٢٥) ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾

﴿ وهزي اليك بجذع النخلة ﴾ اي وخذي اليك بجذع النخلة ، والظاهر انها لم تكن في ابان ثمرها ، ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعاماً وشراباً فقال ﴿ تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ .

(٢٦) ﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

﴿ فكلي واشربي وقري عينا ﴾ اي طيبي نفساً . قال عمرو بن ميمون : ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب ، ثم تلا هذه الآية الكريمة ﴿ فإما ترين من البشر أحداً ﴾ اي مهما رأيت من أحد ﴿ صوماً ﴾ صمتاً .

(٢٧) ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن مريم حين أمرت ان تصوم يومها ذلك وان لا تكلم احدا من البشر ، فإنها ستكفى امرها ، ويقام بحجتها ، فسلمت لأمر الله عز وجل ، واستسلمت لقضائه ، فأخذت ولدها ، فأتت به قومها تحمله ، فلما رأوها كذلك اعظموا امرها واستنكروه جداً ، وقالوا (يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً) أي امراً عظيماً .

(٢٨) ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾

﴿ يا أخت هارون ﴾ أي يا شبيهة هارون في العبادة ﴿ ما كان ابوك امرأ سوء . . . ﴾ اي

انت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة ، فكيف صدر هذا منك ، وقيل : نسبت الى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون ، فكانت تتأسى به في الزهادة والعبادة .

(٢٩) ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾

﴿ فأشارت اليه . . . ﴾ اي لما استرابوا في امرها ، واستنكروا قضيتها ، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية ، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة ، فأحالت الكلام عليه ، واشارت لهم الى خطابه وكلامه ، فقالوا متهكمين بها ظانين أنها تزدري بهم ، وتلعب بهم ﴿ كيف نكلم من كان في المهد صبياً ﴾ .

(٣٠) ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾

﴿ قال إني عبد الله ﴾ أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى ، برأه عن الولد ، واثبت لنفسه العبودية لربه . ﴿ آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ تبرئة لأمه مما نسبت اليه من الفاحشة ، والمراد انه قضى ان يؤتيني الكتاب في ما قضى ، ﴿ وجعلني نبياً ﴾ .

(٣١) ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾

﴿ وجعلني مباركاً اينما كنت ﴾ أي وجعلني معلما للخير نفاعاً آمراً بالمعروف ، وناهياً عن المنكر اينما كنت ﴿ واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ .

(٣٢) ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾

﴿ وبراً بوالدتي ﴾ اي وامرني ببر والدتي ، ذكره بعد طاعة ربه لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الامر بعبادته ، وطاعة الوالدين كما قال ﴿ وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ﴾ ﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ اي ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتي فأشقى بذلك . قال بعض السلف : لا تجد احداً عاقاً لوالديه الا وجدته جباراً شقياً .

(٣٣) ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

﴿ والسلام علي يوم ولدت . . . ﴾ هذا اثبات لعبوديته لله عز وجل ، وانه مخلوق من خلق الله الذي يحيي ويميت ، ويبعث كسائر الخلائق ، ولكن له السلامة في هذه الاحوال

الثلاثة التي هي اشق ما يكون على العباد ، صلوات الله وسلامه عليه .

(٣٤) ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿ قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ اي يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به .

(٣٥) ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

ولما ذكر تعالى انه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه المقدسة فقال ﴿ ما كان لله ان يتخذ من ولد سبحانه ﴾ عما يقول الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً ﴿ اذا قضى امراً . . . ﴾ اي اذا اراد شيئاً فانما يأمر به فيصير كما يشاء .

(٣٦) ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

﴿ وان الله ربي وربكم فاعبدوه . . . ﴾ اي ومما أمر به عيسى قومه ، وهو في مهده أن اخبرهم اذ ذاك ان الله ربه وربهم وامرهم بعبادته فقال ﴿ فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ اي هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم اي قويم ، من اتبعه رشد وهدي ، ومن خالفه ضل وغوى .

(٣٧) ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

﴿ فاختلف الاحزاب من بينهم ﴾ اي اختلف قول اهل الكتاب في عيسى بعد بيان امره ووضوح حاله ، وانه عبده ورسوله ، وكلمته القاها الى مريم وروح منه فصممت طائفة منهم ، وهم جمهور اليهود عليهم لعائن الله أنه ولد زنية ، وقال آخرون : هو ابن الله ، وقال آخرون ثالث ثلاثة ، وقال آخرون : هو عبد الله ورسوله ، وهذا هو قول الحق الذي ارشد الله اليه المؤمنين . ﴿ فويل للذين كفروا . . . ﴾ تهديد ووعيد شديد لمن يكذب على الله ، وافترى ، وزعم ان له ولداً ، ولكن أنظرهم تعالى الى يوم القيامة واجلهم حلماً وثقة بقدرته عليهم ، فإنه الذي لا يعجل على من عصاه . وفي الصحيحين ﴿ إن الله ليملي للظالم حتى اذا اخذه لم يفلته ثم قرأ رسول الله : ﴿ وكذلك أخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة إن اخذه اليم شديد ﴾ وقوله ﴿ من مشهد يوم عظيم ﴾ اي يوم القيامة .

(٣٨) ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ اسمع بهم وابصر ﴾ اي ما اسمعهم وابصرهم ﴿ يوم يأتوننا ﴾ اي يوم القيامة ﴿ لكن الظالمون اليوم ﴾ اي في الدنيا ﴿ في ضلال مبين ﴾ اي لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون ، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون ، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك .

(٣٩) ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ وانذرهم يوم الحسرة ﴾ من اسماء يوم القيامة ، عظمه الله ، وحذره عباده .

(٤٠) ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

﴿ انا نحن نرث الارض . . ﴾ يخبر تعالى انه الخالق المالك المتصرف ، وان الخلق كلهم يهلكون ، ويبقى هو تعالى وتقدس ، ولا احد يدعي ملكاً ، ولا تصرفاً ، بل هو الوارث لجميع خلقه ، الباقي بعدهم ، الحاكم فيهم ، فلا تظلم نفس شيئاً ، ولا جناح بعوضة ، ولا مثقال ذرة .

(٤١) ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ واذكر في الكتاب ابراهيم ﴾ واتل على قومك هؤلاء ، الذين يعبدون الاصنام ، واذكر لهم ما كان من خبر ابراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذريته ، ويدعون أنهم على ملته ، وقد كان صديقاً نبياً مع أبيه كيف نهاه عن عبادة الاصنام فقال :

(٤٢) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾

﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع . . . ﴾ أي لا ينفعك ولا يدفع عنك ضررا .

(٤٣) ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ .

﴿ يا أبت اني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ﴾ يقول : وان كنت من صلبك وتراني اصغر منك لأني ولدك فاعلم اني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه انت ، ولا اطلعتَ عليه ، ولا جاءك ﴿ فاتبعني أهدك صراط سوياً ﴾ اي طريقاً مستقيماً موصلاً الى نيل المطلوب ، والنجاة من المهروب .

(٤٤) ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾

﴿ يا ابت لا تعبد الشيطان ﴾ اي لا تطعه في عبادتك هذه الاصنام ، فإنه هو الداعي الى ذلك والراضي به ﴿ ان الشيطان كان للرحمن عصياً ﴾ اي مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه ، فاطرده، وأبعده ، فلا تتبعه تصر مثله .

(٤٥) ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾

﴿ يا ابت إني اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن ﴾ اي على شركك وعصيانك لما آمرك به ﴿ فتكون للشيطان ولياً ﴾ يعني فلا يكون لك ولياً ولا ناصراً ، ولا مغيثاً الا ابليس . وليس اليه ولا الى غيره من الأمر شيء ، بل اتباعك له موجب لاحاطة العذاب بك .

(٤٦) ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب ابراهيم لولده فيما دعاه اليه ﴿ أراغب انت عن آلهتي يا ابراهيم ﴾؟ يعني ان كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها فانته عن سبها وشتمها وعيبها ، فإنك ان لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك ، وهو قوله ﴿ لأرجمنك ﴾ وقوله ﴿ واهجرني ملياً ﴾ ابداً ، او سوياً سالماً قبل ان تصيبك مني عقوبة .

(٤٧) ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾

قال ابراهيم لأبيه ﴿ سلام عليك ﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين ﴿ واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ ومعنى قول ابراهيم لأبيه ﴿ سلام عليك ﴾ يعني اما انا فلا ينالك مني مكروه، ولا أذى لحرمة الابوة ﴿سأستغفر لك ربي﴾ ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿ إنه كان بي حفياً ﴾ لطيفاً اي في ان هداني لعبادته والاخلاص له ، او ﴿ حفياً ﴾ عودة الاجابة ، او الحفي الذي يهتم بأمره ، وقد استغفر ابراهيم لأبيه مدة طويلة ، وبعد ان هاجر الى الشام وبنى المسجد الحرام وبعد ان ولد له اسماعيل واسحاق عليه السلام ، وقد استغفر المسلمون لقراباتهم واهليهم من المشركين في ابتداء الاسلام ، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك . ثم بين تعالى ان ابراهيم اقلع عن ذلك ورجع عنه فقال ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعدما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم . وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن ابراهيم لأواه حليم ﴾ .

(٤٨) ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾

﴿ واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعو ربي ﴾ اي أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله ﴿ وادعو ربي ﴾ اي واعبد ربي وحده لا شريك له ﴿ عسى ان لا اكون بدعاء ربي شقياً ﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة ، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ .

﴿٤٩﴾ ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾

يقول تعالى : فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله ابدله الله من هو خير منهم ، ووهب له اسحاق ويعقوب ﴿ وكلا جعلنا نبياً ﴾ .

﴿٥٠﴾ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾

﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا . . . ﴾ يعني الثناء الحسن، وإنما قال ﴿ عليا ﴾ لأن جميع الملل والاديان يثنون عليهم ويمدحونهم .

﴿٥١﴾ ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾

لما ذكر تعالى ابراهيم الخليل واثنى عليه ، عطف بذكر الكليم فقال ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً ﴾ مصطفى ﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ جمع الله له بين الوصفين ، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة ، وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

﴿٥٢﴾ ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾

﴿ وناديناه من جانب الطور ﴾ أي الجانب ﴿ الأيمن ﴾ من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار ، جذوة فرآها تلوح فقصدها فوجدها في جانب الطور الأيمن منه ، غريبة عند شاطىء الوادي فكلمه وناداه وقربه فناجاه ﴿ وقربناه نجياً ﴾ .

﴿٥٣﴾ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾

﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ أي وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً ، وكان هارون أكبر من موسى .

﴿٥٤﴾ ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾

هذا ثناء من الله تعالى على اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام ، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه صادق الوعد . روى ابن جرير ان اسماعيل النبي عليه السلام وعد رجلاً مكاناً يأتيه فيه ، فجاء ونسي الرجل ، فظل به اسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد فقال : ما برحت من ههنا ؟ قال : اني نسيت ، قال : لم اكن لأبرح حتى تأتيني ، فلذلك ﴿ كان صادق الوعد ﴾ او ﴿ كان صادق الوعد ﴾ لأنه قال لأبيه ﴿ ستجدني ان شاء الله من الصابرين ﴾ فصدق في ذلك ، فصدق الوعد من الصفات الحميدة . كما ان خلفه من الصفات الذميمة وقوله ﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ في هذا دلالة على شرف اسماعيل على اخيه اسحاق ، لأنه انما وصف بالنبوة فقط ، واسماعيل وصف بالنبوة والرسالة ، وقد ثبت في صحيح مسلم ان رسول الله ﷺ قال « ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل » .

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ ﴿٥٥﴾

﴿ وكان يأمر اهله بالصلاة . . . ﴾ هذا ايضا من الثناء الجميل ، والصفة الحميدة ، والخلة السديدة ، حيث كان صابراً على طاعة ربه عز وجل ، آمراً بها لأهله .

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ ﴿٥٧﴾

ذكر ادريس بالثناء عليه بأنه كان صديقاً نبياً ، وان الله رفعه مكاناً علياً ، وقد مر به رسول الله ﷺ في ليلة الاسراء ، وهو في السماء الرابعة ، أو ﴿ مكاناً علياً ﴾ في الجنة .

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى : هؤلاء النبيون ﴿ الذين انعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ﴾ فالذي عنى من ذرية آدم ادريس ، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح ابراهيم ، والذي عنى به من ذرية ابراهيم اسحاق ويعقوب واسماعيل ، والذي عنى به من ذرية اسرائيل موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم ﴿ اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ اي اذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة حمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة ، والبكي : جمع باك ، فلهذا اجمع العلماء على شريعة السجود ههنا اقتداء بهم ، واتباعاً لمنوالهم .

(٥٩) ﴿ * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام ، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله واوامره المؤدين فرائض الله التاركين لزواجره ، ذكر انه خلف من بعد ﴿ خلف ﴾ اي قرون أخر ﴿ اضاعوا الصلاة ﴾ واذا اضاعوها فهم لما سواها من الواجبات اضيع ، لأنها عماد الدين ، وقوامه ، وخير اعمال العباد ، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها فهؤلاء سيلقون غيا اي خسارا يوم القيامة . وقد اختلفوا في المراد باضاعة الصلاة ههنا ، فقال قائلون : المراد باضاعتها تركها بالكلية ، ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو مشار عن الامام احمد ، وقول عن الشافعي الى تكفير تارك الصلاة ، للحديث « بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة » والحديث الآخر « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » وقيل : اضاعوا المواقيت ، ولو كان تركا كان كفراً ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ روى ابن ابي حاتم عن ابي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يكون خلف بعد ستين سنة اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ، ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ومنافق وفاجر » وقال الحسن البصري : عطلوا المساجد ولزموا الضيعات ﴿ فسوف يلقون غيا ﴾ اي خسراناً .

(٦٠) ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾

﴿ الامن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ اي الا من رجع عن ترك الصلوات ، واتباع الشهوات فإن الله يقبل توبته ، ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولهذا قال ﴿ فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴾ وذلك لأن التوبة تجب ما قبلها . وفي الحديث الآخر « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

(٦١) ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِالْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾

يقول تعالى : الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي ﴿ جنات عدن ﴾ اي إقامة ﴿ التي وعد الرحمن عباده ﴾ بظهر الغيب ، اي هي من الغيب الذي يؤمنون به ، وما رأوه ، وذلك لشدة ايقانهم ، وقوة ايمانهم . وقوله ﴿ انه كان وعده مأتياً ﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره ، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله ﴿ مأتياً ﴾ اي العباد صائرون اليه وسيأتونه ، ومنهم من قال ﴿ مأتياً ﴾ بمعنى آتياً ، لأن كل ما أتاك فقد اتيته .

(٦٢) ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

﴿ لا يسمعون فيها لغوا ﴾ اي هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له ، كما قد يوجد في الدنيا . وقوله ﴿إلا سلاما﴾ استثناء منقطع . وقوله ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ اي في مثل وقت البكرات ، ووقت العشيات ، لا أن هناك ليلاً ونهاراً ، ولكنهم في اوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار . روى الامام احمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اول زمرة تلج الجنة ، صورهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ، ولا يتمخطون فيها ، ولا يتغوطون ، آنيتهم وامشاطهم الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيا » أخرجاه في الصحيحين .

(٦٣) ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾

﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا ﴾ اي هذه الجنة التي وصفناها بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء ، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس .

(٦٤) ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾

روى الامام احمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل : « ما يمنعك ان تزورنا اكثر مما تزورنا ؟ قال فنزلت ﴿ وما نتنزل الا بأمر ربك ﴾ وقوله ﴿ له ما بين أيدينا . . ﴾ ما بين أيدينا من أمر الدنيا، ﴿وما خلفنا﴾ من أمر الآخرة» ﴿وما بين ذلك﴾. ما بين النفختين ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ معناه ما نسيك ربك . روى ابن ابي حاتم عن أبي الدرداء يرفعه « ما احل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فان الله لم يكن لينسى شيئاً » ثم تلا هذه الآية .

(٦٥) ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾

﴿ رب السموات والارض وما بينهما ﴾ اي خالق كل شيء ومدبره والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ﴾ اي هل تعلم للرب مثلاً وشبيهاً ، أوْ ليس احد يسمى الرحمن غيره ، تبارك وتعالى وتقدس اسمه .

(٦٦) ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴾ (٦٧)

يخبر تعالى عن الانسان انه يتعجب ويستبعد اعادته بعد موته كما قال تعالى ﴿ وان تعجب فعجب قولهم إئذا كنا تراباً ائنا لفي خلق جديد ﴾ وفي الصحيح « يقول تعالى : كذبني ابن آدم ، ولم يكن له ان يكذبني ، وآذاني ابن آدم ولم يكن له ان يؤذيني ، اما تكذيبه فقوله لن يعيدني كما بدأني ، وليس اول الخلق بأهون علي من آخره ، واما أذاه اياي فقوله : ان لي ولداً ، وانا الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد » .

(٦٨) ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴾

﴿ فوربك لنحشرنهم والشياطين ﴾ اقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة انه لا بد ان يحشرهم جميعاً ، وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ﴿ ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ﴾ يعني قعوداً ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ او قياما .

(٦٩) ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴾

﴿ ثم لننزعن من كل شيعة ﴾ يعني من كل امة ﴿ ايهم اشد على الرحمن عتيا ﴾ اي لننزعن من اهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر .

(٧٠) ﴿ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴾

﴿ ثم لنحن اعلم بالذين هم اولى بها صليا ﴾ والمراد انه تعالى اعلم بمن يستحق من العباد ان يصلى بنار جهنم ، ويخلد فيها ، وبمن يستحق تضعيف العذاب .

(٧١) ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾

عن الحسن البصري قال : قال رجل لأخيه : هل أتاك انك وارد النار؟ قال : نعم ، قال : فهل اتاك انك صادر عنها؟ قال : لا ، قال : ففيم الضحك؟ قال : فما رئى ضاحكاً حتى لحق الله . قال رسول الله ﷺ : « يرد الناس كلهم ، ثم يصدرون عنها بأعمالهم » رواه الامام احمد والترمذي . وروى ابن جرير عن عبد الله قال : الصراط على جهنم مثل حد السيف فتمر الطبقة الاولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، ثم يمرون والملائكة يقولون : اللهم سلم سلم . روى الامام احمد « لا يدخل النار احد شهد بدراً والحديبية » قالت حفصة : اليس الله يقول

﴿ وإن منكم الا واردها ﴾ ؟ فقرأ رسول الله ﷺ ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا . . . ﴾ وفي الصحيحين « ولا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة القسم » .

(٧٢) ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾

﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ اي اذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط من الكفار والعصاة نجى الله المتقين منها بحسب اعمالهم فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر اعمالهم التي كانت في الدنيا ، ثم يشفعون في اصحاب الكبائر من المؤمنين ، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيخرجون خلقاً كثيراً ، وقد اكلتهم النار الإدارات وجوههم ، وهي مواضع السجود ، واخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الايمان ، فيخرجون اولا من كان في قلبه مثقال دينار من ايمان وثم الذي يليه ، ثم الذي يليه حتى يخرجوا من كان في قلبه ادنى ادنى ادنى مثقال ذرة من ايمان ، ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر « لا اله الا الله » ولم يعمل خيراً قط ولا يبقى في النار الا من وجب عليه الخلود كما وردت بذلك الاحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

(٧٣) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة ، بينة الحجة ، واضحة البرهان انهم يصدون ويعرضون عن ذلك ، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ، ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿ خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ اي احسن منازل ، وارفع دوراً ، واحسن ندياً ، وهو مجتمع الرجال .

(٧٤) ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾

﴿ وكم اهلكنا قبلهم من قرن ﴾ اي وكم من أمة وقرن من المكذبين قد اهلكناهم بكفرهم ﴿ هم احسن اثاثاً ورئياً ﴾ اي كانوا احسن من هؤلاء اموالاً وامتعة ومناظر وأشكالاً .

(٧٥) ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾

يقول تعالى ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين انهم على الحق ، وانكم على الباطل ﴿ من كان في الضلالة ﴾ اي منا ومنكم ﴿ فليمدد له الرحمن مداً ﴾ اي

فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه ، وينقضي اجله ﴿ اما العذاب ﴾ يصيبه ﴿ وإما الساعة ﴾ بغتة تأتيه ﴿ فسيعلمون ﴾ حينئذ ﴿ من هو شر مكاناً واضعف جنداً ﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خير المقام ، وحسن الندي .

(٧٦) ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾

لما ذكر تعالى امداد من هو في الضلالة فيما هو فيه ، وزيادته على ما هو عليه اخبر بزيادة المهتدين هدى كما قال تعالى ﴿ واذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول ايكم زادته هذه ايماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ وقوله ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً ﴾ اي جزاء ﴿ وخير مردّاً ﴾ اي عاقبة ومردا على صاحبها . روى عبد الرزاق قال : جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عوداً يابساً فحط ورقه ، ثم قال : « إن قول لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح ، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن ، هن الباقيات الصالحات ، وهن من كنوز الجنة » .

(٧٧) ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾

روى الإمام أحمد عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لي على العاصي بن وائل دين ، فأتيته اتقاضاه منه فقال : لا والله لا اقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا اكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث ، قال : فاني اذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك ، فأنزل الله ﴿ افرأيت الذي كفر . . . ﴾ الى قوله ﴿ ويأتينا فرداً ﴾ اخرجه صاحبا الصحيحين وغيرهما .

(٧٨) ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾

﴿ ام اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ موثقاً .

(٧٩) ﴿ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾

﴿ كلا ﴾ هي حرف ردع لما قبلها ، وتأكيد لما بعدها ﴿ سنكتب ما يقول ﴾ اي من طلبه ذلك ، وحكمه لنفسه بما يتمناه ، وكفره بالله العظيم . ﴿ ونمد له من العذاب مداً ﴾ اي في الدار الآخرة على قوله ذلك ، وكفره بالله في الدنيا .

(٨٠) ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾

﴿ ونرثه ما يقول ﴾ اي من مال وولد ، نسلبه منه ، عكس ما قال : إنه يؤتى في الدار

الآخرة مالاً وولداً زيادة على الذي له في الدنيا ، بل في الآخرة يسلب من الذي له في الدنيا ، ولهذا قال : ﴿ ويأتينا فرداً ﴾ اي من المال والولد .

(٨١) ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴾

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم انهم اتخذوا من دونه آلهة ، لتكون تلك الآلهة ﴿عزاً﴾ يعتزون بها ويستنصرونها .

(٨٢) ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾

ثم اخبر انه ليس الامر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا فقال ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ﴾ اي يوم القيامة ﴿ ويكونون عليهم ضداً ﴾ اي بخلاف ما ظنوا فيهم كما قال تعالى ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . واذا حشر الناس كانوا لهم اعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ وقوله ﴿ ويكونون عليهم ضداً ﴾ أي بخلاف مارجوا منهم .

(٨٣) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾

﴿ تؤزهم أزّاً﴾ تغريهم اغراء ، او تحرضهم على محمد واصحابه ، او تزعجهم ازعاجا الى معاصي الله .

(٨٤) ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾

﴿ فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عداً ﴾ لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم ﴿ انما نعدّ لهم عداً ﴾ اي انما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، وهم صائرون لا محالة الى عذاب الله ونكاله . ﴿ انما نعد لهم عداً ﴾ نعد انفاسهم في الدنيا .

(٨٥) ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾

يخبر تعالى عن اوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا ، واتبعوا رسله ، وصدقوهم فيما اخبروهم واطاعوهم فيما امروهم به ، وانتهوا عما زجروهم انه يحشرهم يوم القيامة ، وفدا اليه . والوفد هم القادمون ركباناً ، ومنه الوفود ، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة ، وهم قادمون على خير موفود اليه إلى دار كرامته ورضوانه .

(٨٦) ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾

واما المجرمون المكذبون للرسل ، المخالفون لهم ، فإنهم يساقون عنفاً الى النار ﴿ وردا ﴾ عطاشاً .

(٨٧) ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾

﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ اي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض كما قال تعالى مخبراً عنهم ﴿ فمالنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ وقوله ﴿ الا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ هذا استثناء منقطع ، بمعنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً ، وهو شهادة ان لا اله الا الله ، والقيام بحقوقها .

(٨٨) ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ (٨٩)

لما قرر هذا تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام ، وذكر خلقه من مريم بلا أب شرع في مقام الانكار على من زعم ان له ولداً ، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كله علوا كبيراً ، فقال ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم ﴾ اي في قولكم هذا ﴿ شيئاً إدّاً ﴾ عظيماً .

(٩٠) ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ (٩١)

﴿ تكاد السموات يتفطرن منه . . . ﴾ اي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم اعظاماً للرب واجلالاً ، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده ، وانه لا اله الا هو ، وانه لا شريك له ، ولا نظير له ، ولا ولد له ، ولا صاحبة له ، ولا كفء له ، بل هوالاحد الصمد . وفي الحديث « لقنوا موتاكم شهادة ان لا إله الا الله ، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة » فقالوا : يا رسول الله ، فمن قالها في صحته ؟ قال : « تلك اوجب واوجب » ثم قال : « والذي نفسي بيده ، لو جيء بالسموات والارضين ، وما فيهن ، وما بينهن ، وما تحتهن ، فوضعن في كفة الميزان ، ووضعت شهادة ان لا اله الا الله في الكفة الاخرى لرجحت بهن » هكذا رواه ابن جرير .

(٩٢) ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾

﴿ وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولداً ﴾ اي لا يصلح له ، ولا يليق به لجلاله وعظمته ، لأنه لا كفء له من خلقه ، لأن جميع الخلائق عبيد له .

(٩٣) ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ (٩٤)

﴿ إن كل من في السموات والارض . . . ﴾ اي قد علم عددهم منذ خلقهم الى يوم القيامة ، ذكرهم وأنثاهم وصغيرهم وكبيرهم .

(٩٥) ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾

﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ اي لا ناصر له ، ولا مجير الا الله وحده لا شريك له ، فيحكم في خلقه بما يشاء ، وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة ، ولا يظلم احداً .

(٩٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾

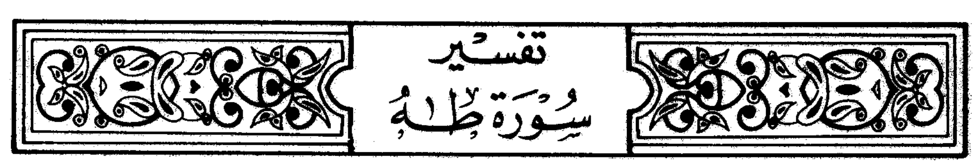
يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، وهي الأعمال التي ترضي الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية ، يخبر أنه يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، وهذا أمر لا بد منه ، ولا محيد عنه ، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه ، روى مسلم والبخاري والامام أحمد عن النبي ﷺ قال : « ان الله اذا أحب عبداً دعا جبريل ، فقال : يا جبريل اني أحب فلاناً فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، قال : ثم ينادي في أهل السماء : ان الله يحب فلاناً فأحبوه ، قال : فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، وان الله اذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : ان الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، قال : فيبغضه أهل السماء ، ثم يوضع له البغضاء في الأرض » .

(٩٧) ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾

﴿ فإنما يسرناه ﴾ يعني القرآن ﴿ بلسانك ﴾ أي يا محمد ، وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل ﴿ لتبشر به المتقين ﴾ أي المستجيبين لله المصدقين لرسوله ﴿ وتنذر به قوماً لدا ﴾ أي عوجا عن الحق ، مائلين الى الباطل . والألد : الخصم ، أو الكذاب .

(٩٨) ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾

﴿ من قرن ﴾ أي من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ أي هل ترى منهم أحداً ، أو تسمع لهم صوتاً ؟ والركز في أصل اللغة هو الصوت الخفي .



تفسير سُورَةُ طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ طه ﴾

﴿ طه ﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (٣)

روى القاضي عياض في كتابه الشفاء عن الربيع بن انس قال : كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الاخرى ، فأنزل الله ﴿ طه ﴾ يعني طأ الارض يا محمد ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ ثم قال : ولا يخفى ما في هذا من الاكرام وحسن المعاملة . عن الضحاك لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه فقال المشركون من قريش : ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى . ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكره لمن يخشى ﴾ فليس الأمر كما زعم المبطلون ، بل من أتاه الله العلم وقد أراد به خيراً كثيراً كما ثبت في الصحيحين عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » وما أحسن الحديث الذي رواه الطبراني عن رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده : إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي » إسناده جيد . قال قتادة : لا والله ، ما جعله شقاء ، ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة . ﴿ إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ أي أن الله أنزل كتابه ، وبعث رسوله رحمة رحم بها عباده ليتذكر ذاكر ، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله ، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه .

﴿٤﴾ ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾

﴿ تنزيلاً ممن خلق الارض والسموات العلى ﴾ اي هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك رب كل شيء ومليكه القادر على ما يشاء ، الذي خلق الارض بانخفاضها ، وكثافتها ، وخلق السموات العلى في ارتفاعها ولطافتها .

﴿٥﴾ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾

﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ من غير تكييف ولا تحريف ، ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل .

﴿٦﴾ ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾

﴿ له ما في السموات وما في الأرض . . . ﴾ اي الجميع ملكه وفي قبضته وتحت تصرفه ، ومشيئته وارادته وحكمه ، وهو خالق ذلك ومالكه وآلهه ، لا إله سواه، ولا رب غيره وقوله ﴿ ما تحت الثرى ﴾ اي ما تحت الارض السابقة .

﴿٧﴾ ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾

﴿ وان تجهر بالقول فانه يعلم السر واخفى ﴾ اي انزل هذا القرآن الذي خلق الارض والسموات العلى الذي يعلم السر واخفى والسر ما اسره ابن آدم في نفسه ، واخفى ما اخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل ان يعلمه ، فالله يعلم ذلك كله ، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد ، وجميع الخلائق عنده كنفس واحدة ، وهو قوله ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ﴾ او السر هو ما تحدث به نفسك ، وأخفى هو ما لم تحدث به نفسك بعد .

﴿٨﴾ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾

﴿ الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى ﴾ اي الذي انزل عليك القرآن هو الله الذي لا اله الا هو ذو الاسماء الحسنى والصفات العلى .

﴿٩﴾ ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ ﴿١٠﴾

من ههنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى ، كيف كان ابتداء الوحي اليه ، وتكليمه

اياه ، وذلك بعد ما قضى موسى الاجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم وسار بأهله ، قيل : قاصداً بلاد مصر بعدما طالت الغيبة عنها اكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته ، فأضل الطريق ، وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء ، وسحاب ظلام وضباب وجعل يقدح بزند معه ليوري ناراً كما جرت له العادة به ، فجعل لا يقدح شيئاً ، ولا يخرج منه شرر ولا شيء ، فبينما هو كذلك اذ آنس من جانب الطور ناراً ، اي ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه فقال لأهله يبشرهم ﴿ إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس ﴾ اي شهاب من نار ، وقوله ﴿ بقبس ﴾ دل على وجود الظلام . وقوله ﴿ او اجد على النار هدى ﴾ اي من يهديني الطريق ، دل على انه قد تاه عن الطريق ، فان لم اجد احدا يهديني الى الطريق أتيتكم بنار توقدون بها .

(١١) ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ (١١) إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ (١٢)

يقول تعالى ﴿ فلما أتاها ﴾ اي النار واقترب منها ﴿ نودي يا موسى ﴾ وفي الآية الاخرى ﴿ نودي من شاطىء الوادي الايمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني انا الله ﴾ وقال ههنا ﴿ اني أنا ربك ﴾ أي الذي يكلمك ويخاطبك ﴿ فاخلع نعليك ﴾ قيل : انما امره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة . ﴿ طوى ﴾ هو اسم وادي .

(١٣) ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾

﴿ وأنا اخترتك ﴾ كقوله ﴿ إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ اي على جميع الناس من الموجودين في زمانه ﴿ فاستمع لما يوحى ﴾ اي استمع الآن ما اقول لك ، وأوحيه اليك .

(١٤) ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾

﴿ انني انا الله لا اله الا أنا ﴾ هذا اول واجب على المكلفين ان يعلموا انه لا اله الا الله وحده لا شريك له ﴿ فاعبدني ﴾ اي وحدني وقم بعبادتي من غير شريك ﴿ واقم الصلاة لذكري ﴾ قيل : معناه ، صل لتذكرني ، وقيل : معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي ، ويشهد لهذا ما رواه الامام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : اذا رقد أحدكم عن الصلاة ، أو غفل عنها فليصلها اذا ذكرها فان الله تعالى قال ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ وفي الصحيحين

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « من نام عن صلاة أو نسيها فكفارته أن يصليها اذا ذكرها ، لا كفارة لها الا ذلك » .

(١٥) ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾

﴿ ان الساعة آتية ﴾ أي قائمة لا محالة، وكائنة لا بد منها . وقوله ﴿ أكاد أخفيها ﴾ يقول : لا أطلع عليها أحداً غيري ، قال السدي يقول : كتمتها عن الخلائق حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسي لفعلت ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ أي أقيمها لا محالة لأجزي كل عامل بعمله .

(١٦) ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾

﴿ فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها ﴾ المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة ، وأقبل على ملاذه في دنياه ، وعصى مولاه ، واتبع هواه ، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿ فتردى ﴾ أي تهلك وتعطب .

(١٧) ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾

هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام ، ومعجزة عظيمة ، وخرق للعادة باهر دل على انه لا يقدر على مثل هذا الا الله عز وجل ، وانه لا يأتي به الا نبي مرسل . وقوله ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ قال بعض المفسرين : انما قال ذلك على سبيل الايناس له ، وقيل : انما ذلك على وجه التقرير ، اي أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها فسترى ما نصنع بها الان .

(١٨) ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾

﴿ قال هي عصاى أتوكأ عليها ﴾ اي اعتمد عليها في حال المشي ﴿ وأهش بها على غنمي ﴾ اي اهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي ﴿ ولي فيها مآرب اخرى ﴾ اي مصالح ومنافع وحاجات اخرى غير ذلك .

(١٩) ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴾

﴿ قال ألقها يا موسى ﴾ اي هذه العصا التي في يدك ألقها .

(٢٠) ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾

﴿فألقاها فاذا هي حية تسعى ﴾ اي صارت في الحال حية عظيمة ثعباناً طويلاً يتحرك حركة سريعة ، فاذا هي تهتز كأنها جان ، وهو اسرع الحيات حركة ، ولكنه صغير ، فهذه في غاية الكبر ، وفي غاية سرعة الحركة . ﴿ تسعى ﴾ اي تمشي وتضطرب .

﴿٢١﴾ ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾

﴿ قال خذها ﴾ بيمينك ﴿ ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى ﴾ اي الى حالها التي تعرف قبل ذلك .

﴿٢٢﴾ ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ ﴿٢٣﴾

وهذا برهان ثان لموسى عليه السلام ، وهو ان الله امره ان يدخل يده في جيبه ﴿ واضمم يدك الى جناحك ﴾ ضع كفك تحت عضدك ، وذلك ان موسى كان اذا ادخل يده في جيبه ثم اخرجها تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر . وقوله ﴿ تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ اي من غير برص ولا أذى ومن غير شين ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ .

﴿٢٤﴾ ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿ قال رب اشرح لي صدري ﴾ هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل ان يشرح له صدره فيما بعثه به ، فانه قد امره بأمر عظيم ، وخطب جسيم ، بعثه الى اعظم ملك على وجه الارض اذ ذاك ، وأجبرهم وأشدهم كفراً ، واكثرهم جنوداً ، واعمرهم ملكاً ، واطغاهم وابلغهم تمرداً ، بلغ من امره ان ادعى انه لا يعرف الله ، ولا يعلم لرعاياه الها غيره ، هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه ، ثم قتل منهم نفساً فخافهم ان يقتلوه ، فهرب منهم هذه المدة بكاملها ، ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل اليهم نذيراً يدعوهم الى الله عز وجل ان يعبدوه وحده لا شريك له ، ولهذا قال ﴿ رب اشرح لي صدري ويسر لي امري ﴾ اي ان لم تكن انت عوني ونصيري ، وعضدي وظهيري ، والا فلا طاقة لي بذلك.

﴿٢٧﴾ ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿ واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾ وذلك لما كان اصابه من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه وما سأل أن يزول ذلك بالكلية بل بحيث يزول الغي ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة ولو سأل الجميع لزال ، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة ، ولهذا بقيت بقية ، قال تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ﴾ أي يفصح بالكلام . قال الحسن البصري : ﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ حل عقدة واحدة ، ولو سأل أكثر من ذلك أعطى .

(٢٩) ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَٰرُونَ أَخِي ﴾ (٣٠)

﴿ واجعل لي وزيراً من اهلي هارون اخي ﴾ وهذا ايضاً سؤال من موسى عليه السلام في امر خارجي عنه ، وهو مساعدة اخيه هارون له . عن عائشة انها خرجت فيما كانت تعتمر فنزلت ببعض الاعراب فسمعت رجلاً يقول : أي رجل كان في الدنيا انفع لأخيه . قالوا : لا ندري ، قال : أنا والله ادري ، قالت : فقلت في نفسي : لا يستثني في حلفه ، إنه ليعلم أيّ أخ كان في الدنيا انفع لأخيه ، قال : موسى حين سأل لأخيه النبوة ، فقلت : صدق والله .

(٣١) ﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ (٣٥)

﴿ اشدد به أزري ﴾ ظهري ﴿ وأشركه في امري ﴾ في مشاورتي ﴿ كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ﴾ قال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً . ﴿ انك كنت بنا بصيراً ﴾ اي في اصطفائك لنا وإعطائك إيانا النبوة ، وبعثتك لنا الى عدوك فرعون ، فلك الحمد على ذلك .

(٣٦) ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ (٣٨) أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ (٣٩) إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ

وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾

هذه اجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام من ربه عز وجل ، وتذكير له بنعمه السالفة عليه فيما كان من أمر أمه حين كانت ترضعه وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه ، لأنه قد ولد في السنة التي كانوا يقتلون بها الغلمان ، فاتخذت له تابوتاً فكانت ترضعه ، ثم تضعه فيه ، وترسله في البحر ، وهو النيل ، وتمسكه الى منزلها بحبل ، فذهبت مرة لتربط الحبل ، فانفلت منها وذهب به البحر فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها في قوله ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ فذهب به البحر الى دار فرعون ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ فحكم الله ، وله السلطان العظيم ، والقدرة التامة أن لا يربى الا على فراش فرعون ، ويغذى بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له ، ولهذا قال تعالى ﴿ يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ﴾ أي عند عدوك جعلته يحبك ، وحببتك الى عبادي ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ تربى بعين الله . وقوله ﴿ اذ تمشي اختك فتقول هل أدلكم . . . ﴾ وذلك أنه لما استقر عند فرعون عرضوا عليه المراضع فأباها ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ فجاءت أخته وقالت ﴿ هل ادلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ تعني هل أدلكم على من يرضعه لكم بالاجرة فذهبت به وهم معها الى أمه فعرضت عليه ثديها فقبله ففرحوا بذلك فرحاً شديداً واستأجروها على ارضاعه فنالها بسببه سعادة وفرحة وراحة في الدنيا ، وفي الآخرة أعظم وأجزل ، ولهذا جاء في الحديث « مثل الصانع الذي يحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها » ولهذا قال تعالى ﴿ فرجعناك الى أمك كي تقر عينها ولا تحزن ﴾ أي عليك ﴿ وقتلت نفساً ﴾ يعني القبطي ﴿ فنجيناك من الغم ﴾ وهو ما حصل بسبب عزم فرعون على قتله ففر منه هارباً حتى ورد ماء مدين ، وقال له ذلك الرجل الصالح ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ ﴿ فلبثت سنين في اهل مدين . . . ﴾ يقول تعالى مخاطباً لموسى انه لبث مقيماً في اهل مدين فاراً من فرعون وملئه يرعى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الاجل ، ثم جاء موافقاً لقدرة الله وإرادته من غير معاد ، والأمر كله لله تبارك وتعالى وهو المسيِّر عباده وخلقه فيما يشاء ﴿ ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ على قدر الرسالة والنبوة .

﴿٤١﴾ ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ اي اصطفيتك واجتبيتك رسولاً لنفسي ، اي كما اريد واشاء . وفي البخاري عن رسول الله ﷺ قال : « التقى آدم وموسى ، فقال موسى : انت الذي اشقيت الناس واخرجتهم من الجنة ، فقال آدم : وانت الذي اصطفاك الله برسالته ، واصطفاك لنفسه ، وانزل عليك التوراة ؟ قال : نعم ، قال : فوجدته مكتوباً علي قبل ان يخلقني ؟ قال : نعم ، فحج آدم موسى » ﴿ اذهب انت واخوك بآياتي ﴾ أي بحججي وبراهيني ومعجزاتي ﴿ ولا تنيا في ذكرى ﴾ لا تبطئا ، او لا تضعفا ، والمراد انهما لا يفتران في ذكر الله ، بل يذكران الله في مواجهة فرعون ، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه ، وقوة لهما ، وسلطاناً كاسراً له ، كما جاء في الحديث « ان عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه » وقوله ﴿ اذهبا الى فرعون انه طغى ﴾ اي تمرد وعتا ، وتجبر على الله وعصاه ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ هذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو ان فرعون في غاية العتو والاستكبار ، وموسى صفوة الله من خلقه اذ ذاك ، ومع هذا أُمر ان لا يخاطب فرعون الا بالملاطفة واللين ، فإن ذلك اوقع وأبلغ وانجع ، كما قال تعالى ﴿ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ﴾ وقوله ﴿ لعله يتذكر او يخشى ﴾ فالتذكر الرجوع عن المحذور ، والخشية تحصيل الطاعة .

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ (٤٨)

يقول تعالى اخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام انهما قالا مستجيرين بالله تعالى شاكيين له ﴿ اننا نخاف ان يفرط علينا او ان يطغى ﴾ يعنيان ان يبادر اليهما بعقوبته ، او يعتدي عليهما فيعاقبهما ، وهما لا يستحقان منه ذلك ﴿ قال لا تخافا انني معكما اسمع وأرى ﴾ اي لا تخافا منه ، فإنني معكما اسمع كلامكما وكلامه ، وارى مكانكما ومكانه ، لا يخفى علي من امركم شيء ، واعلما ان ناصيته بيدي ، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش الا باذني ، وبعد أمري ، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي ﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾ أي بدلالة ومعجزة من ربك ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ أي والسلام عليك ان اتبعت الهدى ﴿ إنا قد أوحي الينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه الينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله ، وتولى

عن طاعته ، كما قال تعالى ﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى ﴾ .

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون انه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق إله كل شيء وربه ومليكه قال ﴿ فمن ربكما يا موسى ﴾ أي الذي بعثك وأرسلك من هو ، فإني لا أعرفه ، وما علمت لكم من اله غيْري ﴿ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ﴾ أعطى كل شيء صورته ، أو أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه ، ولم يجعل للانسان من خلق الدابة ، ولا للدابة من خلق الكلب ، ولا للكلب من خلق الشاة ، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح، وهيأ كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والرزق والنكاح ﴿ثم هدى﴾ كقوله ﴿الذي قدر فهدى﴾ أي قدر وهدى الخلائق اليه ، أي كتب الأعمال والآجال والأرزاق ، ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه ، ولا يقدر أحد على الخروج منه ، يقول : ربنا الذي خلق الخلق ، وقدر القدر ، وجبر الخليقة على ما أراد .

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ ﴿٥٢﴾

﴿ قال فما بال القرون الاولى ﴾ اصح الاقوال في معنى ذلك ان فرعون لما اخبره موسى بأن ربه الذي ارسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى شرع يحتج بالقرون الاولى ، اي الذين لم يعبدوا الله ، أي فما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك ، بل عبدوا غيره ؟ فقال له موسى في جواب ذلك : هم ، وان لم يعبدوه فان عملهم عند الله مضبوط عليهم ، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله ، وهو اللوح المحفوظ ، وكتاب الاعمال ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ أي لا يشذ عنه شيء ، ولا يفوته صغير ولا كبير ، ولا ينسى شيئاً . يصف علمه بأنه بكل شيء محيط وأنه لا ينسى شيئاً تبارك وتعالى وتقدس وتنزه ، فإن علم المخلوقين يعتريه نقصاً بين أحدهما عدم الاحاطة بالشيء والآخر نسيانه بعد علمه ، فنزه نفسه عن ذلك .

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾

* ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ ﴿٥٦﴾

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه عز وجل حين سأله فرعون عنه قال ﴿ الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ ثم اعترض الكلام بين ذلك ، ثم قال ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾ اي قرار تستقرون عليها ، وتقومون وتنامون عليها ، وتسافرون على ظهرها ﴿ وسلك لكم فيها سبلاً ﴾ أي جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها كما قال تعالى ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ﴾ ﴿ وانزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾ أي من انواع النباتات من زروع وثمار ، ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع . ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ أي شيء لطعامكم وفاكهتكم ، ولأنعامكم لأقواتها خضراً ويبساً ﴿ ان في ذلك الآيات ﴾ أي لدلالات وحججاً وبراهين ﴿ لأولي النهى ﴾ أي لذوي العقول السليمة المستقيمة على انه لا اله الا الله ولا رب سواه ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ أي من الأرض مبدؤكم ، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من اديم الأرض ، وفيها نعيدكم أي واليها تصيرون اذا متم وبليتم ، ومنها نخرجكم تارة اخرى ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا ﴾ وهذه الآية كقوله ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ وقوله ﴿ ولقد اريناه آياتنا كلها فكذب وابى ﴾ يعني فرعون انه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات ، وعاين ذلك وابصره فكذب بها واباها كفراً ، وعناداً وبغياً ، كما قال تعالى ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً ﴾ .

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون انه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى ، وهي إلقاء عصاه ، فصارت ثعباناً عظيماً ، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء ، فقال : هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس فيتبعونك وتكاثرنا بهم ، ولا يتم هذا معك ، فان عندنا سحراً مثل سحرك ، فلا يغرنك ما انت فيه ﴿ فاجعل بيننا وبينك

موعداً ﴾ اي يوماً نجتمع نحن وانت فيه ، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين ، فعند ذلك ﴿ قال ﴾ لهم موسى ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ وهو يوم عيدهم ونيروزهم وتفرغهم من اعمالهم ، واجتماع جميعهم ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء ومعجزات الانبياء وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية ، ولهذا قال : ﴿ وان يحشر الناس ﴾ أي جميعهم ﴿ ضحى ﴾ أي ضحوة من النهار ، ليكون أظهر واجلى وابين واوضح . وهكذا شأن الانبياء كل امرهم بين واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج ، وكان يوم الزينة يوم عاشوراء

(٦٠) ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون انه لما تواعد هو وموسى عليه السلام الى وقت ومكان معلومين ﴿ تولى ﴾ اي شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته كل من ينسب الى السحر في ذلك الزمان ، وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً ، كما قال تعالى ﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم ﴾ ﴿ ثم اتى ﴾ أي اجتمع الناس لميقات يوم معلوم ، وهو يوم الزينة ، ووقفت السحرة بين يدي فرعون ، صفوفاً ، وهو يحرضهم ويحثهم ويرغبهم في اجادة عملهم في ذلك اليوم ، ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم ويقولون ﴿ أئن لنا لأجراً ان كنا نحن الغالبين قال نعم وانكم اذا لمن المقربين ﴾ .

(٦١) ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾

﴿ قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً ﴾ أي لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها وأنها مخلوقة فتكونون قد كذبتم على الله ﴿فيسحتكم بعذاب ﴾ أي يهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقية له ﴿ وقد خاب من افترى ﴾ .

(٦٢) ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾

قيل : معناه انهم تشاجروا فيما بينهم ، فقائل يقول : ليس هذا بكلام ساحر ، انما هذا كلام نبي ، وقائل يقول : بل هو ساحر وقيل غير ذلك والله اعلم . ﴿ واسروا النجوى ﴾ أي تناجوا فيما بينهم .

(٦٣) ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾

﴿ قالوا إن هذان لساحران ﴾ والغرض ان السحرة قالوا فيما بينهم : تعلمون ان هذا الرجل واخاه ـ يعنون موسى وهارون ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر ، يريدان في هذا اليوم ان يغلباكم وقومكم ، ويستوليا على الناس ، وتتبعهما العامة ، ويقاتلا فرعون وجنوده ، فينصرا عليه ويخرجاكم من ارضكم . وقوله ﴿ ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ أي ويستبدا بهذه الطريقة ، وهي السحر ، فإنهم كانوا معظمين بسببها ، لهم اموال وارزاق عليها .

(٦٤) ﴿ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾

﴿ فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا ﴾ أي اجتمعوا كلكم صفا واحداً ، والقوا ما في ايديكم مرة واحدة ، لتبهروا الابصار ، وتغلبوا هذا وأخاه .

(٦٥) ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾

﴿ وقد افلح اليوم من استعلى ﴾ أي منا ومنكم ، اما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل ، واما هو فينال الرياسة العظيمة .

(٦٦) ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ (٧٠)

يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقواهم وموسى عليه السلام انهم قالوا لموسى ﴿ اما ان تلقي ﴾ أي انت اولاً ﴿ واما ان نكون اول من القى . قال بل القوا ﴾ اي انتم اولاً لنرى ماذا تصنعون من السحر ، وليظهر للناس جلية امرهم ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿ قالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ وقال ﴿ سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ وذلك انهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب ، وتميد بحيث يخيل للناظر انها تسعى باختيارها وانما كانت حيلة ، وكانوا جماً غفيراً ، وجمعاً كثيراً ، فألقى كل منهم عصاً وحبلاً حتى صار الوادي ملآن حيات يركب بعضها بعضاً . وقوله ﴿ فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴾ أي خاف على الناس ان يفتنوا بسحرهم

ويغتروا بهم قبل ان يلقي ما في يمينه ، فأوحى الله تعالى اليه في الساعة الراهنة ان الق ما في يمينك ، يعني عصاك ، فإذا هي تلقف ما صنعوا ، وذلك انها صارت تنيناً عظيماً هائلاً ذا قوائم وعنق ورأس واضراس فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق منها شيئاً الا تلقفته وابتلعته ، والسحرة والناس ينظرون الى ذلك عياناً ، جهرة نهاراً ضحوة ، فقامت المعجزة واتضح البرهان ، ووقع الحق وبطل السحر ، ولهذا قال ﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث اتى ﴾ فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه ، وإنهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه علموا علم اليقين ان هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل ، وانه حق لا مرية فيه ، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون ، فعند ذلك وقعوا سجداً لله ، وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ، فكانوا اول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء بررة .

(٧١) ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته بالباطل حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة ، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم ، وغلب كل الغلب شرع في المكابرة والبهت ، وعدل الى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة فتهددهم وتوعدهم وقال ﴿ آمنتم له ﴾ أي صدقتموه ﴿ قبل ان آذن لكم ﴾ أي وما أمرتكم بذلك ، وافتتنتم علي في ذلك ، وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ أي أنتم انما اخذتم السحر عن موسى ، واتفقتم انتم واياه علي وعلى رعيتي لتظهروه كما قال تعالى في الآية الاخرى ﴿ ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ﴾ ثم أخذ يتهددهم فقال ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ أي لأجعلنكم مثلة ، ولأقتلنكم ولأشهرنكم ، قال ابن عباس فكان أول من فعل ذلك .
﴿ ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾ أي أنتم تقولون : إني وقومي على ضلالة ، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه ؟ فلما صال عليهم بذلك ، وتوعدهم هانت عليهم أنفسهم في الله عز وجل .

(٧٢) ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾

﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ أي لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين ﴿ والذي فطرنا ﴾ يحتمل أن يكون قسماً ، ويحتمل أن يكون معطوفاً على البينات ، يعنون لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم ، والمبتدي خلقنا من الطين ، فهو المستحق للعبادة والخضوع ، لا أنت ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ أي فافعل ما شئت وما وصلت اليه يدك ﴿ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ أي انما لك تسلط في هذه الدار ، وهي دار الزوال ، ونحن قد رغبنا في دار القرار .

(٧٣) ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾

﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ﴾ أي ما كان منا من الآثام ، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لتعارض به آية الله ،ومعجزة نبيه ﴿ والله خير وأبقى ﴾ أي خير لنا منك ﴿ وأبقى ﴾ أي أدوم ثواباً مما كنت وعدتنا ومنيتنا .

(٧٤) ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون ، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي ، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد فقالوا ﴿ إنه من يأت ربه مجرماً ﴾ أي يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم ﴿ فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ كقوله ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ﴾ وقال ﴿ ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ وقال ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون ﴾ روى الامام احمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « اما اهل النار الذين هم اهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن اناس تصيبهم النار بذنوبهم فتميتهم إماته حتى اذا صاروا فحماً اذن في الشفاعة جيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ، فيقال : يا اهل الجنة ، افيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل » فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية . وهكذا أخرجه مسلم في كتابه الصحيح .

(٧٥) ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾

﴿ ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات ﴾ أي من لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب ، قد صدق ضميره بقوله وعمله ﴿ فأولئك لهم الدرجات العلى ﴾ أي الجنة ذات الدرجات

العاليات ، والغرف الآمنات ، والمساكن الطيبات ، روى الامام احمد عن النبي ﷺ « الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . والفردوس اعلاها درجة ، ومنها تخرج الانهار الأربعة ، والعرش فوقها ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس » رواه الترمذي .

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ (٧٦)

﴿ جنات عدن ﴾ أي إقامة ، وهي بدل من الدرجات العلى ﴿ تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ﴾ أي ماكثين ابداً ﴿ وذلك جزاء من تزكى ﴾ أي طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك ، وعبد الله وحده لا شريك له ، واتبع المرسلين فيما جاءوا به من خير وطلب .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ (٧٧)

يقول تعالى مخبراً انه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون ان يرسل معه بني اسرائيل أن يسري بهم في الليل ، ويذهب بهم من قبضة فرعون ، وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة ، وذلك ان موسى لما خرج ببني اسرائيل اصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب ، فغضب فرعون غضباً شديداً ، وارسل في المدائن حاشرين ، أي من يجمعون له الجند من بلدانه ورساتيقه ، يقول ان هؤلاء لشرذمة قليلون ، وانهم لنا لغائظون ، ثم لماجمع جنده واستوثق له جيشه ساق في طلبهم ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ أي عند طلوع الشمس ﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ أي نظر كل من الفريقين الى الآخر ﴿ قال اصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ ووقف موسى ببني اسرائيل ، البحر امامهم ، وفرعون وراءهم فعند ذلك اوحى الله اليه ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ﴾ فضرب البحر بعصاه ، وقال انفلق علي بإذن الله فانفلق ﴿ فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ أي الجبل العظيم ، فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابساً كوجه الأرض ، فلهذا قال ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركا ﴾ أي من فرعون ﴿ ولا تخشى ﴾ يعني من البحر ان يغرق قومك .

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ (٧٩)

﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ﴾ أي البحر ﴿ ما غشيهم ﴾ اي الذي هو معروف ومشهور ، كما قال تعالى ﴿ والمؤتفكة اهوى فغشاها ما غشى ﴾ وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم وما هداهم الى سبيل الرشاد ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ﴾ .

(٨٠) ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ (٨٠) كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴾ (٨١)

يذكر تعالى نعمه على بني اسرائيل العظام ، ومننه الجسام ، حيث أنجاهم من عدوهم فرعون ، وأقر أعينهم منه ، وهم ينظرون اليه والى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة لم ينج منهم احد كما قال ﴿ واغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون ﴾ وفي البخاري عن ابن عباس قال لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء فسألهم فقالوا : هذا اليوم الذي اظفر الله فيه موسى على فرعون فقال « نحن اولى بموسى فصوموه » رواه مسلم ايضاً في صحيحه . ثم انه تعالى واعد موسى وبني اسرائيل بعد هلاك فرعون الى جانب الطور الأيمن ، وهو الذي كلمه الله تعالى عليه ، وسأل فيه الرؤية ، واعطاه التوراة هنالك ، وفي غضون ذلك عبد بنو اسرائيل العجل ، والمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء ، والسلوى طائر يسقط عليهم فيأخذون من كل قدر الحاجة الى الغد لطفاً من الله ورحمة بهم واحسانا اليهم . ولهذا قال ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه ﴾ أي كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم ولا تطغوا في رزقي فتأخذوه من غير حاجة ، وتخالفوا ما امرتكم به ﴿ فيحل عليكم غضبي ﴾ أي أغضب عليكم ﴿ ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ أي فقد شقي .

(٨٢) ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾

﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ أي كل من تاب إليّ تبت عليه من أي ذنب كان حتى انه تاب على من عبد العجل من بني اسرائيل ﴿ تاب ﴾ أي رجع عما كان فيه من كفر او شرك او معصية او نفاق ﴿ وآمن ﴾ أي بقلبه ﴿ وعمل صالحاً ﴾ أي بجوارحه ﴿ ثم اهتدى ﴾ لم يشكك ، واستقام على السنة والجماعة ، ولزم الاسلام حتى يموت .

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴾ ﴿٨٦﴾

لما سار موسى عليه السلام ببني اسرائيل بعد هلاك فرعون ﴿ فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الهاً كما لهم آلهة قال : انكم قوم تجهلون ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ وواعده ربه ثلاثين ليلة ، ثم اتبعها عشراً فتمت اربعين ليلة أي يصومها ليلاً ونهاراً فسارع موسى عليه السلام مبادراً الى الطور واستخلف على بني اسرائيل اخاه هارون ولهذا قال تعالى ﴿ وما اعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري ﴾ أي قادمون ينزلون قريباً من الطور ﴿ وعجلت اليك رب لترضى ﴾ أي لتزداد عني رضا ﴿ قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك واضلهم السامري ﴾ أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني اسرائيل وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري . أي بعدما اخبره تعالى بذلك في غاية الغضب والحنق عليهم ، وهو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم ، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم ، وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يعلم كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه ، وسخافة عقولهم واذهانهم . والاسف شدة الغضب ، او هو الجذع على ما صنع قومه من بعده ﴿ قال يا قوم الم يعدكم ربكم وعداً حسناً ﴾ أي أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته اياكم علي عدوكم ، واظهاركم عليه وغير ذلك من أيادي الله ﴿ أفطال عليكم العهد ﴾ أي في انتظار ما وعدكم الله ، ونسيان ما سلف من نعمة ، وما بالعهد من قدم ﴿ ام اردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي ﴾ بل أردتم بصنيعكم هذا ان يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي .

﴿٨٧﴾ ﴿ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾

﴿ قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ﴾ أي عن قدرتنا واختيارنا ، ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم

حين خرجوا من مصر ﴿ فقذفناها ﴾ أي القيناها عنا ، وكان هارون هو الذي امرهم بالقاء الحلي في حفرة فيها نار ، وانما اراد هارون ان يجتمع الحلي كله في تلك الحفرة ويجعل حجراً واحداً ، حتى اذا رجع موسى رأى فيه ما يشاء ، ثم جاء ذلك السامري فألقى عليها تلك القبضة التي اخذها من اثر الرسول ، وسأل من هارون ان يدعوا الله ان يستجيب له في دعوة فدعا له هارون ، وهو لا يعلم ما يريد فأجيب له ، فقال السامري عند ذلك : اسأل الله ان يكون عجلاً فكان له خوار ، اي صوت استدراجاً وإمهالاً ومحنة ، ولهذا قال ﴿ فكذلك ألقى السامري ﴾ .

(٨٨) ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾

﴿ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى ﴾ فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط مثله ﴿ فنسي ﴾ أي نسيه موسى وذهب يتطلبه، أو نسي أن يذكركم ان هذا آلهكم .

(٨٩) ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾

﴿ افلا يرون ألاّ يرجع اليهم قولاً ﴾ أي العجل ، افلا يرون لا يجيبهم اذا سألوه ، ولا اذا خاطبوه . ﴿ ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ أي في دنياهم ولا أخراهم . قال ابن عباس : لا والله ، ما كان خواره الا ان يدخل الريح في دبره فيخرج من فمه فيسمع له صوت . وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة لموسى عليه السلام انهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم وعبدوا العجل ، فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير ، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر انه سأل رجل من أهل العراق عن دم البعوض اذا اصاب الثوب ، يعني هل يصلي فيه ام لا ؟ فقال ابن عمر انظروا الى اهل العراق قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ ، يعني الحسين ، وهم يسألون عن دم البعوضة .

(٩٠) ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴾

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام لهم عن عبادتهم العجل ، واخباره اياهم انما هذا فتنة لكم ، وان ربكم الرحمن الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً ، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد ﴿ فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴾ أي فيما آمركم به ، واتركوا ما انهاكم عنه .

(٩١) ﴿ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾

﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى ﴾ أي لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه : وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه وكادوا ان يقتلوه .

(٩٢) ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ (٩٣)

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع الى قومه فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم فامتلأ عند ذلك غضباً ، وألقى ما كان في يده من الالواح الالهية ، واخذ برأس اخيه يجرُّه اليه ، وشرع يلوم اخاه هارون فقال ﴿ ما منعك اذ رأيتهم ضلوا الا تتبعن ﴾ اي فتخبرني بهذا الأمر اول ما وقع ﴿ أفعصيت أمري ﴾ أي فيما كنت قدمت اليك ، وهو قوله ﴿ اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ .

(٩٤) ﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

﴿ قال يا بن أم ﴾ ترقق له بذكر الأم ، ومع انه شقيقه لأبويه ، لأن ذكر الأم ههنا ارق وابلغ في الحنو والعطف ، ولهذا قال ﴿ يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴾ هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم قال ﴿ إني خشيت ﴾ ان اتبعك فأخبرك بهذا فتقول لي : لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ؟ ﴿ ولم ترقب قولي ﴾ أي وما راعيت ما امرتك به حيث استخلفتك فيهم ، قال ابن عباس : وكان هارون هائباً مطيعاً له .

(٩٥) ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾

يقول موسى عليه السلام للسامري ما حملك على ما صنعت ، وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت ؟

(٩٦) ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾

﴿ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾ أي رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿ فقبضت قبضة من اثر الرسول ﴾ أي من اثر فرسه ، أي من تحت حافر فرس جبريل ، والقبضة ملء الكف ، والقبضة بأطراف الاصابع : ﴿ فنبذتها ﴾ أي القى ما كان في يده على حلية

بني اسرائيل فانسبك عجلاً جسداً له خوار ﴿ وكذلك سولت لي نفسي ﴾ أي حسنته وأعجبها إذ ذاك .

(٩٧) ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَانظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾

﴿ قال فاذهب فإن لك في الحياة ان تقول لا مساس﴾ أي كما اخذت ومسست ما لم يكن لك اخذه ومسه من اثر الرسول فعقوبتك في الدنيا ان تقول لا مساس ، اي لا تماس الناس ولا يمسونك ﴿ وان لك موعداً ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لن تخلفه ﴾ أي لا محيد لك عنه ﴿ وانظر الى الهك ﴾ أي معبودي ﴿ الذي ظلت عليه عاكفاً ﴾ أي اقمت على عبادته ، يعني العجل ﴿ لنحرقنه ﴾استحله بالمبارد والقاه على النار ﴿ ثم لننسفنه في اليم نسفاً ﴾ .

(٩٨) ﴿ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

﴿ انما الهكم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علماً ﴾ يقول لهم موسى عليه السلام : ليس هذا الهكم ، انما الهكم الله الذي لا اله الا هو ، اي لا يستحق ذلك على العباد الا هو ، ولا تنبغي العبادة الا له ، فإن كل شيء فقير اليه ، عبد له . وقوله ﴿ وسع كل شيء علما ﴾ أي هو عالم بكل شيء ، احاط بكل شيء علماً ، واحصى كل شيء عدداً ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة ، ﴿ وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ورطب ولا يابس الا في كتاب مبين ﴾ .

(٩٩) ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : كما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع ، كذلك نقص عليك الاخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص ، هذا ﴿ وقد آتيناك من لدنا ﴾ أي من عندنا ﴿ ذكراً ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ الذي لم يعط نبي من الانبياء منذ بعثوا الى ان ختموا بمحمد ﷺ كتاباً مثله ، ولا اكمل منه ، ولا اجمع لخبر ما سبق ، وخبر ما هو كائن ، وحكم الفصل بين الناس منه .

(١٠٠) ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴾

﴿ من اعرض عنه ﴾ أي كذب به ، وأعرض عن اتباعه امراً وطلباً ، وابتغى الهدى من غيره فإن الله يضله ويهديه الى سواء الجحيم ، ولهذا قال ﴿ فإنه يحمل يوم القيامة وزراً ﴾ أي اثما كما قال ﴿ ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده ﴾ وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم اهل الكتاب وغيرهم ، كما قال ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع ، فمن اتبعه هدي ، ومن خالفه واعرض عنه ضل ، وشقي في الدنيا والأخرة ، والنار موعده يوم القيامة .

(١٠١) ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴾

﴿ خالدين فيه ﴾ أي لا محيد لهم عنه ولا انفكاك ﴿ وساء لهم يوم القيامة حملاً ﴾ أي بئس الحمل حملهم .

(١٠٢) ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾

ثبت في الحديث ان رسول الله ﷺ سئل عن الصور فقال : « قرن ينفخ فيه » وفي الحديث « كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، وانتظر ان يؤذن له » فقالوا يا رسول الله ، كيف نقول ؟ قال : قولوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » وقوله ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ﴾ قيل : معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال .

(١٠٣) ﴿ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾

﴿ يتخافتون بينهم ﴾ يتساورون بينهم ، أي يقول بعضهم لبعض : إن لبثتم إلا عشراً ، أي في الدار الدنيا لقد كان لبثكم فيها قليلاً عشرة ايام او نحوها .

(١٠٤) ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾

﴿ نحن اعلم بما يقولون ﴾ أي في حال تناجيهم بينهم ﴿ اذ يقول امثلهم طريقة ﴾ اي العاقل الكامل فيهم ﴿ ان لبثتم الا يوماً ﴾ أي لقصر مدة الدنيا في انفسهم يوم المعاد ، لأن الدنيا كلها ، وان تكررت اوقاتها ، وتعاقبت لياليها وايامها وساعاتها كأنها يوم واحد ، ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة ، وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة ، ولهذا قال تعالى ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا

غير ساعة ﴾ ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين . قال إن لبثتم الا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾

(١٠٥) ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾

يقول تعالى ﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ أي هل تبقى يوم القيامة ، او تزول ؟ ﴿ فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾ اي يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً .

(١٠٦) ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾

﴿ فيذرها ﴾ أي على الأرض ﴿ قاعاً صفصفاً ﴾ أي بساطاً واحداً ، والقاع هو المستوى من الارض ، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك ، وقيل : الذي لا نبات فيه ، والاول اولى ، وان كان الآخر مراداً ايضاً باللازم ، ولهذا قال :

(١٠٧) ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾

﴿ لا ترى فيها عوجاً ولا امتاً ﴾ لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً .

(١٠٨) ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾

﴿ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾ أي يوم يرون هذه الأحوال والأهوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي ، حيثما امروا بادروا إليه ، ولو كان هذا في الدنيا لكان انفع لهم ، ولكن حيث لا ينفعهم . ﴿ لا عوج له ﴾ لا يميلون ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ سكنت ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ وطء الاقدام ، أو الصوت الخفي ، أما وطء الاقدام فالمراد سعي الناس إلى المحشر ، وهو مشيهم في سكون وخضوع ، وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال ، فقد قال تعالى ﴿ يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ﴾ .

(١٠٩) ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾

يقول تعالى ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لا تنفع الشفاعة ﴾ أي عنده ﴿ إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾ كقوله ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وفي الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد آدم ، واكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال :

« آتي تحت العرش ، وأخر لله ساجداً ، ويفتح عليّ بمحامد لا احصيها الآن ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقول : يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع ، واشفع تشفع ، قال : فيحد لي حدا فأدخلهم جنة ثم اعود » فذكر اربع مرات صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء . وفي الحديث ايضاً يقول تعالى ﴿ أخرجوا من النار من قال في قلبه مثقال حبة من ايمان ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقول أخرجوا من النار من كان في قلبه نصف مثقال من ايمان ، اخرجوا من النار من كان في قلبه ما يزن ذرّة ، من كان في قلبه ادنى مثقال ذرة من ايمان ﴾ الحديث .

(١١٠) ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾

﴿ يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ﴾ أي يحيط علماً بالخلائق كلهم ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ كقوله ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ .

(١١١) ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾

﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ خضعت وذلت ، واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت ، القيوم الذي لا ينام ، وهو قيم على كل شيء ، يدبره ويحفظه ، فهو الكامل في نفسه الذي كل شيء فقير إليه ، لا قوام له إلا به ، ﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ أي يوم القيامة ، فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ، وفي الحديث يقول الله عز وجل : ﴿ وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم ﴾ وفي الصحيح اياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، والخيبة كل الخيبة من لقي الله وهو به مشرك ، فإن الله تعالى يقول ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

(١١٢) ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾

﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ لما ذكر الظالمين ووعيدهم ثنى بالمتقين وحكمهم ، وهو إنهم لا يظلمون ولا يهضمون أي لا يزاد في سيئآتهم ، ولا ينقص من حسناتهم ، فالظلم الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره والهضم النقص .

(١١٣) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾

يقول تعالى : ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعا لا محالة أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً بلسان عربي مبين فصيح ، لا لبس فيه ولا عيّ ﴿ وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون ﴾ أي يتركون المآثم والمحارم والفواحش ﴿ أو يحدث لهم ذكراً ﴾ وهو ايجاد الطاعة وفعل القربات .

(١١٤) ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾

﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ أي تنزه وتقدس الملك الحق الذي هو حق ووعده حق ، ووعيده حق ، ورسله حق ، والجنة حق ، والنار حق ، وعدله حق ، أن لا يعذب أحداً قبل الانذار ، وبعثه الرسل والاعذار إلى خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة ، وقوله ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ كقوله تعالى في سورة لا أقسم بيوم القيامة ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ﴾ وثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة ، فكان مما يحرك به لسانه ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ أي زدني منك علماً . قال ابن عيينة رحمه الله : ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عز وجل ، ولهذا جاء في الحديث « إن الله تابع الوحي على رسوله حتى كان الوحي اكثر ما كان يوم توفي رسول الله ﷺ » يقول : « اللهم انفعني بما علمتني ، وعلمني ما ينفعني ، وزدني علماً ، والحمد لله على كل حال ، واعوذ بالله من حال أهل النار » .

(١١٥) ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ (١١٦)

إنما سمي الانسان لأنه عهد إليه فنسي ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً ، وقد أمر الله تعالى ابليس بالسجود لآدم تشريفاً له وتكريماً ﴿ فسجدوا الا ابليس أبى ﴾ أي امتنع واستكبر .

(١١٧) ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾

﴿ فقلنا يا آدم إن هذا عدوّ لك ولزوجك ﴾ يعني حواء عليهما السلام ﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ أي إياك أن تسعى في اخراجك منها فتتعب وتعنى وتشقى في طلب

رزقك ، فإنك ههنا في عيش رغيد هنيء بلا كلفة ولا مشقة .

(١١٨) ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾

﴿ إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ﴾ إنما قرن بين الجوع والعري ، لأن الجوع ذل الباطن ، والعري ذل الظاهر .

(١١٩) ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾

﴿ وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ وهذان أيضاً متقابلان ، فالظمأ حر البطن ، وهو العطش ، والضحى حر الظاهر .

(١٢٠) ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾

قد تقدم أنه دلاهما بغرور ، ﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ .

(١٢١) ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ يرقعان كهيئة الثوب ، عن ابن عباس . ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوآتهما . ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ .

(١٢٢) ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾

﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ في البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « حاج موسى آدم ، فقال له : أنت الذي اخرجت الناس من الجنة بذنبك واشقيتهم ؟ قال آدم : يا موسى ، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، اتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني ، أو قدره الله عليّ قبل أن يخلقني ؟ قال رسول الله ﷺ : « فحج آدم موسى » وهذا الحديث له طرق في الصحيحين .

(١٢٣) ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

يقول تعالى لآدم وحواء وابليس : اهبطوا منها جميعاً أي من الجنة كلكم ، ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ آدم وذريته ، وابليس وذريته ﴿ فإما يأتينكم مني هدى ﴾ الأنبياء والرسل

والبيان ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ أي لا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ ﴿١٢٥﴾

﴿ ومن أعرض عن ذكري ﴾ أي خالف امري ، وما انزلته على رسولي أي اعرض عنه وتناساه ، واخذ من غيره هداه .

﴿١٢٦﴾ ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾

﴿ فإن له معيشة ضنكا ﴾ أي في الدنيا ، فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق حرج لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك ، فلا يزال في ريبة يتردد ، فهذا من ضنك العيشة ، أو الضنك الشقاء ، أو هو عذاب القبر ﴿ ونحشره يوم القيامة اعمى ﴾ لا حجة له ، عمى عليه كل شيء إلا جهنم ، ويحتمل أن يكون المراد أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم ﴾ ﴿ وقد كنت بصيراً ﴾ أي في الدنيا .
﴿ قال كذلك اتتك آياتنا . . . ﴾ أي لما اعرضت عن آيات الله ، وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها اليك تناسيتها ، واعرضت عنها واغفلتها ، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك. ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل. فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص ، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى ، فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد والوعيد الشديد روى الإمام أحمد قال : « ما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم » .

﴿١٢٧﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾

يقول تعالى : وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق ﴾ ولهذا قال ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ أي أشد ألماً من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم، فهم

مخلدون فيه ، ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين « إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة » .

(١٢٨) ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾

يقول تعالى ﴿ افلم يهد لهم﴾ أي لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمد ، كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها يمشون فيها ﴿ إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ أي العقول الصحيحة ، والألباب المستقيمة .

(١٢٩) ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك . . . ﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله ، وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة .

(١٣٠) ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾

﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ أي من تكذيبهم لك ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿ وقبل غروبها ﴾ يعني صلاة العصر ، كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤ يته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ هذه الآية وفي الحديث « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » رواه مسلم ﴿ ومن آناء الليل فسبح ﴾ أي من ساعاته فتهجد به ، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء ﴿وأطراف النهار﴾ في مقابلة آناء الليل ﴿ لعلك ترضى ﴾ كما قال تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وفي الصحيح « يقول الله تعالى : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا ، وما لنا لا نرضى ، وقد أعطيتنا ما لم تعط احداً من خلقك ، فيقول : إني أعطيكم أفضل من ذلك ،

فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني ، فلا اسخط عليكم بعده ابداً » وفي الحديث الآخر « يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو؟ الم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ، ويزحزحنا عن النار ، ويدخلنا الجنة ؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه ، وهي الزيادة » .

(١٣١) ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم فإنما هو زهرة زائلة ، ونعمة حائلة ، لنختبرهم بذلك ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ قال تعالى ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم . لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به ازواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ لنبتليهم فيه ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ .

(١٣٢) ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

﴿ وأمر اهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ أي استنقذهم من عذاب الله باقام الصلاة ، واصبر انت على فعلها كما قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم نارا ﴾ ﴿ لا نسألك رزقا نحن نرزقك ﴾ يعني إذا اقمت الصلاة اتاك الرزق من حيث لا تحتسب كما قال تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ أي وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة ، وهي الجنة لمن اتقى الله . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت الليلة كأنا في دار عقبة بن نافع ، وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب ، فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة ، وأن ديننا قد طاب » .

(١٣٣) ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم ﴿ لولا ﴾ أي هلا يأتينا محمد بآية من ربه ، أي بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله ﴿أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ يعني القرآن الذي انزله عليه الله ، وهو أمي لا يحسن الكتابة ، ولم يدارس أهل الكتاب ، وقد جاء فيه اخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها ، فإن القرآن مهيمن عليها ، يصدق الصحيح ، ويبين خطأ المكذوب فيها

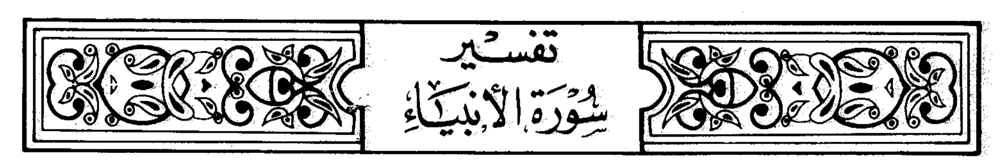
وعليها . وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ فأرجو أن اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة » .

(١٣٤) ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾

﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب . . . ﴾ أي لو أنا اهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا : ﴿ ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه ، كما قال ﴿ فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون ﴿ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

(١٣٥) ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾

﴿ قل ﴾ يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿ كل متربص ﴾ أي منا ومنكم ﴿ فتربصوا ﴾ أي فانتظروا ﴿ فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ﴾ أي الطريق المستقيم ﴿ ومن اهتدى ﴾ إلى الحق ، وسبيل الرشاد ، وهذا كقوله ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾ .



تفسير سورة الأنبياء

في البخاري عن عبدالله قال : بنو اسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ، هن من العتاق وهن من تلادي .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾

هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها، وإن الناس في غفلة عنها، أي لا يعلمون لها ولا يستعدون من أجلها. نزل ضيف بعامر بن ربيعة فأكرم عامر مثواه، وكلم

فيه رسول الله ﷺ ، فجاءه الرجل فقال : إني استقطعت من رسول الله ﷺ واديا في العرب ، وقد اردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر : لا حاجة لي في قطيعتك ، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ .

(٢) ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾

ثم اخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله ، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار فقال ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ أي جديد إنزاله ﴿ الا استمعوه وهم يلعبون ﴾ .

(٣) ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾

﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ أي قائلين فيما بينهم خفية ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ يعنون رسول الله ﷺ ، يستبعدون كونه نبياً ، لأنه بشر مثلهم ، فكيف اختص بالوحي دونهم ، ولهذا قال ﴿ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ أي أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر ، وهو يعلم أنه سحر .

(٤) ﴿ قَٰلَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

قال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب ﴿ قال ربي يعلم القول في السماء والأرض) أي الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية ، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض . وقوله ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم ، وفي هذا تهديد لهم ووعيد .

(٥) ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه ﴾ هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم ، واختلافهم فيما يصفون به القرآن ، وحيرتهم فيه ، وضلالهم عنه ، فتارة يجعلونه سحرا ، وتارة يجعلونه شعرا ، وتارة يجعلونه اضغاث احلام ، وتارة يجعلونه مفترى ﴿ انظر كيف ضربوا

لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ وقوله ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ يعنون كناقة صالح ، وآيات موسى وعيسى ، وقد قال الله ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ .

(٦) ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

ولهذا قال تعالى : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾ هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات ، والدلائل البينات على يديه رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى وأبهر وأقطع وأقهر مما شوهد مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(٧) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى رداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم ﴾ أي جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر ، لم يكن فيهم أحد من الملائكة ﴿ فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ أي اسئلوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى ، وسائر الطوائف ، هل كان الرسل الذين أتوهم بشرا أو ملائكة ، وإنما كانوا بشرا ، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه ، إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم ، والأخذ عنهم .

(٨) ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴾

﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴾ أي بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام ، كما قال تعالى ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ أي قد كانوا بشرا من البشر ، يأكلون ويشربون مثل الناس ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بضار لهم ، ولا ناقص منهم شيئاً . ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ أي في الدنيا ، بل كانوا يعيشون ويموتون .

(٩) ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ أي الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين ﴿ فأنجيناهم ومن نشاء ﴾ أي اتباعهم من المؤمنين ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ أي المكذبين بما جاءت به الرسل .

(١٠) ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن ، ومحرضا لهم على معرفة قدره ﴿ لقد انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم ﴾ فيه شرفكم ، أو حديثكم ، أو دينكم ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي هذه النعمة وتتلقونها بالقبول .

(١١) ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾

﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ﴾ هذه صيغة تكثير كما قال تعالى ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾ ﴿ وانشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ أي أمة أخرى بعدهم .

(١٢) ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾

﴿ فلما أحسوا بأسنا ﴾ أي تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم ﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ أي يفرون هاربين .

(١٣) ﴿ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾

﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم ﴾ هذا تهكم بهم ، أي لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة ﴿ لعلكم تسئلون ﴾ أي عما كنتم فيه من أداء شكر النعم .

(١٤) ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك .

(١٥) ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾

﴿ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ أي ما زالت تلك المقالة ، وهي الاعتراف بالظلم هجيراهم حتى حصدناهم حصداً ، وخمدت حركاتهم ، وأصواتهم خمودا .

(١٦) ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق ، أي بالعدل والقسط ، ليجزي الذين أساؤ وا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، وإنه لم يخلق ذلك عبثا ولا لعبا ﴿ وما

خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾

(١٧) ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

﴿ لـو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ﴾ يعني من عندنا ، اللهو هنا المرأة ، أو الولد ﴿ إن كنا فاعلين ﴾ أي ما كنا فاعلين . قال مجاهد : كل شيء في القرآن ﴿ إن ﴾ فهو انكار .

(١٨) ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾

﴿ بل نقذف بالحق على الباطل ﴾ أي نبين الحق فيدحض الباطل ، ولهذا قال ﴿ فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ أي ذاهب مضمحل ﴿ ولكم الويل ﴾ أيـها القائلـون لله ولد ﴿ مما تصفون ﴾ أي تقولون وتفترون .

(١٩) ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً فقال ﴿ وله من في السموات والأرض ومن عنده ﴾ يعني الملائكة ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ أي لا يستنكفون عنها ، كما قال ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا ﴾ وقوله ﴿ ولا يستحسرون ﴾ أي لا يتعبون ولا يملون .

(٢٠) ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾

﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً ، مطيعون قصداً وعملاً ، قادرون عليه كما قال تعالى ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ روى ابن أبي حاتم عن حكيم بن حزام قال : بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم « هل تسمعون ما أسمع » ؟ قالوا : ما نسمع من شيء ، فقال رسول الله ﷺ « إني لأسمع اطيط السماء ، وما تلام أن تئط ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم » غريب ولم يخرجوه .

(٢١) ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾

أي أهم يحيون الموتى ، وينشرونهم من الأرض ؟ أي لا يقدرون على شيء من ذلك ، فكيف جعلوها لله ندا ، وعبدوها معه ؟

(٢٢) ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض فقال ﴿ لو كان فيهما آلهة ﴾ أي في السموات والأرض ﴿ لفسدتا ﴾ كقوله تعالى ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلّه إذا لذهب كل إلّه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾ وقال ههنا ﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ أي عما يقولون إن له ولداً ، أو شريكاً ، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون ، علواً كبيراً .

(٢٣) ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾

﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله ، وكبريائه وعلمه ، وعدله ولطفه ﴿ وهم يسئلون ﴾ أي وهو سائل خلقه عما يعملون ، كقوله ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ .

(٢٤) ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ ام اتخذوا من دونه آلهة قل ﴾ يا محمد ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ أي دليلكم على ما تقولون ﴿ هذا ذكر من معي ﴾ يعني القرآن ﴿ وذكر من قبلي ﴾ يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون ، فكل كتاب انزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله ولكن انتم أيها المشركون لا تعلمون الحق ، فأنتم معرضون عنه .

(٢٥) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾

ولهذا قال ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً ، والمشركون لا برهان لهم ، وحجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد .

(٢٦) ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾

يقول تعالى ردا على من زعم أن له ـ تعالى وتقدس ـ ولد من الملائكة كمن قال ذلك من العرب : إن الملائكة بنات الله فقال ﴿ سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ أي الملائكة عباد الله ، مكرمون عنده في منازل عالية ، ومقامات سامية ، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً .

(٢٧) ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ أي لا يتقدمون بين يديه بأمر ، ولا يخالفونه فيما أمرهم به ، بل يبادرون إلى فعله ، وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليهم منه خافية .

(٢٨) ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾

﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ ، وقوله ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ كقوله ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقوله ﴿ وهم من خشيته ﴾ أي من خوفه ورهبته ﴿ مشفقون ﴾ .

(٢٩) ﴿ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ ومن يقل منهم إني إلَه من دونه ﴾ أي من ادعى منهم أنه إلَه من دون الله ، أي مع الله ﴿ فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ أي كل من قال ذلك .

(٣٠) ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى منبها على قدرته التامة ، وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء ، وقهره لجميع المخلوقات فقال ﴿ أولم يـر الذين كفروا ﴾ أي الجاحدون لالهيته ، العابدون معه غيره ، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق ، المستبد بالتدبير ، فكيف يليق أن يعبد غيره ، أو يشرك به ما سواه ؟ ألم يروا ﴿ أن السموات والأرض كانتا رتقا ﴾ أي كان الجميع متصلا بعضه ببعض ، متلاصقا متراكما بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ففتق هذه فجعل السموات سبعا ، والأرض سبعا ، وفصل بين السماء والدنيا والأرض بالهواء ، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض ، ولهذا قال ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾ أي وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً ، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء . ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ أي أصل كل الأحياء .

(٣١) ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

﴿ وجعلنا في الأرض رواسي ﴾ أي جبالاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس ، أي تضطرب وتتحرك ، فلا يحصل لهم قرار عليها ، ولهذا قال ﴿ أن تميد بهم ﴾ أي لئلا تميد بهم ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً ﴾ أي ثغراً في الجبال يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، كما هو المشاهد في الأرض ، يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد ، فيجعل الله فيه فجوة ـ ثغرة ـ ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا ، ولهذا قال ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ .

(٣٢) ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾

﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ أي على الأرض ، وهي كالقبة عليها ، كما قال ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ وقال ﴿ والسماء وما بناها ﴾ والبناء هو نصب القبة ، كما قال رسول الله ﷺ : « بني الإسلام على خمس » ﴿ محفوظاً ﴾ أي عالياً محروساً أن ينال ، أو مرفوعاً . ﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾ كقوله ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ أي لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم ، والارتفاع الباهر ، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها .

(٣٣) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

﴿ وهو الذي خلق الليل والنهار ﴾ أي هذا في ظلامه وسكونه ، وهذا بضيائه وأنسه ، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى ، وعكسه الآخر ﴿ والشمس والقمر ﴾ هذه لها نور يخصها ، وفلك بذاته ، وزمان على حدة ، وحركة وسير خاص ، وهذا بنور آخر ، وفلك آخر ، وسير آخر ، وتقدير آخر . ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ عن ابن عباس أي يدورون كما يدور المغزل في الفلكة ، قال مجاهد : فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ، ولا الفلكة إلا بالمغزل ، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ، ولا يدور إلا بهن .

(٣٤) ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك ﴾ يا محمد ﴿ الخلد ﴾ أي في الدنيا ، بل ﴿ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾ وقد استدل بهذه الآية الكريمة من

ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات ، وليس بحي إلى الآن ، لأنه بشر ، سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً ، وقوله ﴿ افائن مت ﴾ أي يا محمد ﴿ فهم الخالدون ﴾ أي يؤملون أن يعيشوا بعدك ؟ لا يكون هذا ، بل كل إلى الفناء .

(٣٥) ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

ولهذا قال ﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ أي نختبركم بالمصائب تارة ، وبالنعم أخرى فننظر من يشكر ومن يكفر ، ومن يصبر ومن يقنط ﴿ وإلينا ترجعون ﴾ أي فنجازيكم بأعمالكم .

(٣٦) ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وإذا رآك الذين كفروا ﴾ يعني كفار قريش كأبي جهل واشباهه ﴿ إن يتخذونك إلا هزواً ﴾ أي يستهزئون بك ، وينتقصونك ، يقولون ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ يعنون : أهذا الذي يسب آلهتكم ، ويسفه أحلامكم ؟ قال تعالى ﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ أي وهم كافرون بالله ، ومع هذا يستهزئون برسول الله .

(٣٧) ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾

﴿ خلق الانسان من عجل ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿ وكان الإنسان عجولا ﴾ أي في الأمور . والحكمة في ذكر عجلة الانسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وقع في النفوس سرعة الانتقام منه ، لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، يؤجل ثم يعجل ، وينظر ثم لا يؤخر ، ولهذا قال ﴿ سأريكم آياتي ﴾ أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿ فلا تستعجلون ﴾ .

(٣٨) ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم تكذيباً وجحوداً ، وكفراً وعناداً ، واستبعاداً ، فقال ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

(٣٩) ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

﴿ لـو يعلم الذين كفروا حين . . . ﴾ أي لو تيقنوا أنها واقعة بهم ، لا محالة لما استعجلوا ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي لا ناصر لهم .

(٤٠) ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

﴿ بل تأتيهم بغتة ﴾ أي تأتيهم النار فجأة ﴿ فتبهتهم ﴾ أي تذعرهم فيستسلمون لها حائرين ، لا يدرون ما يصنعون ﴿ فلا يستطيعون ردها ﴾ أي ليس لهم حيلة في ذلك ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة .

(٤١) ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ يعني من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه ، كما قال تعالى ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ .

(٤٢) ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾

ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده في حفظه لهم بالليل والنهار ، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام فقال ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾ أي بدل الرحمن ، يعني غيره ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ أي لا يعترفون بنعمة الله عليهم ، وإحسانه إليهم ، بل يعرضون عن آياته وآلائه .

(٤٣) ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾

﴿ أم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ استفهام انكار وتوبيخ ، أي ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا ؟ أي الأمر كما توهموا ، لا ، ولا كما زعموا ، ولهذا قال ﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴾ أي هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم . وقوله ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ أي يجارون ، أو لا يصحبون من الله بخير ، أو﴿ولاهم منا يصحبون ﴾أي يمنعون .

(٤٤) ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين : إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم متعوا في الحياة الدنيا ، ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه ، فاعتقدوا أنهم على شيء . وقوله ﴿ أفلا يرون أن نأتي الأرض ننقصها من اطرافها ﴾ أحسن ما فسر بقوله تعالى ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ قال الحسن البصري : يعني بذلك ظهور الاسلام على الكفر ، والمعنى أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه واهلاكهم الأمم المكذبة ، والقرى الظالمة وانجائه لعباده المؤمنين ، ولهذا قال ﴿ أفهم الغالبون ﴾ يعني بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأخذلون .

(٤٥) ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾

﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ﴾ أي إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إليّ ، ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه ، ولهذا قال ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ﴾ .

(٤٦) ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

﴿ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك . . . ﴾ أي ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ليعترفون بذنوبهم وإنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا .

(٤٧) ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ﴾ أي ونضع الموازين العدل ليوم القيامة . الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه . وقوله ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ كما قال تعالى ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ وقال لقمان لابنه ﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت

بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله ، وبحمده سبحان الله العظيم .

(٤٨) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، وبين كتابيهما ، ولهذا قال ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾ يعني الكتاب، أي التوراة : حلالها وحرامها ، وما فرق الله بين الحق والباطل ، ولهذا قال ﴿ الفرقان وضياء وذكراً للمتقين ﴾ أي تذكير لهم وعظة .

(٤٩) ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾

ثم وصفهم فقال : ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ كقوله ﴿ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ أي خائفون وجلون .

(٥٠) ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ يعني القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿ أفأنتم له منكرون ﴾ أي أفتنكرونه ، وهو في غاية الجلاء والظهور .

(٥١) ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل ، أي من صغره الهمه الحق والحجة على قومه ، كما قال تعالى ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ ﴿ وكنا به عالمين ﴾ أي وكان أهلاً لذلك .

(٥٢) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾

﴿ إذ قال لأبيه وقومه ﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره الانكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله عز وجل فقال ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ أي معتكفون على عبادتها . روى ابن أبي حاتم أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مر على قوم يلعبون بالشطرنج فقال : ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ ؟ لأن يمس

أحدكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسها .

(٥٣) ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾

أي لم يكن لهم حجة إلا صنيع آبائهم الضلال .

(٥٤) ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

ولهذا ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ أي الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بهم كالكلام معكم ، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم .

(٥٥) ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾

فلما سفه أحلامهم ، واحتقر آلهتهم ﴿ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ يقولون : هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعبا أو محقا فيه ؟ فإنا لم نسمع به قبلك .

(٥٦) ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

﴿ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن ﴾ أي ربكم الذي لا إله غيره ، وهو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهن ، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿ وانا على ذلكم من الشاهدين ﴾ أي وأنا أشهد أنه لا إله غيره ، ولا رب سواه .

(٥٧) ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم ، أي ليحرضن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين أي إلى عيدهم ، وكان لهم عيد يخرجون إليه . قال السدي : لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه : يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا ، فخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق القى نفسه إلى الأرض وقال : إني سقيم فجعلوا يمرون عليه ، وهو صريع ، فيقولون : مه ، فيقول : إني سقيم ، فلما جاوز عامتهم ، وبقي ضعفاؤهم قال ﴿ تالله لأكيدن أصنامكم ﴾ فسمعه أولئك .

(٥٨) ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾ أي حطاماً ، كسرها كلها إلا كبيراً لهم ، يعني إلا الصنم الكبير

عندهم ، كما قال ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ وقوله ﴿ لعلهم إليه يرجعون ﴾ ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه ، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها .

(٥٩) ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا ﴾ أي حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الاهانة والازلال الدال على عدم الهيتها ، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿ إنه لمن الظالمين ﴾ أي في صنيعه هذا .

(٦٠) ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾

أي قال من سمعه يحلف ليكيدنهم ﴿ سمعنا فتى ﴾ أي شاباً ﴿ يذكرهم ﴾ ﴿ يقال له إبراهيم ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ما بعث الله نبياً إلا شاباً ، ولا أوتي العلم عالم إلا هو شاب ، وتلا هذه الآية .

(٦١) ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾

﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس ﴾ أي على رؤوس الاشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم ، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام ، أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم ، وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرا ، ولا تملك لها نصرا فكيف يطلب منها شيء من ذلك ؟

(٦٢) ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ (٦٣)

﴿ قال بل فعله كبيرهم هذا ﴾ يعني الذي تركه لم يكسره ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ وإنما أراد من هذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون ، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد . وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث : ثنتين في ذات الله : قوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ : وقوله ﴿ إني سقيم ﴾ ، قال : وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ، ومعه سارة إذ نزل منزلاً ، فأتى الجبار رجل فقال : إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك ، معه امرأة أحسن الناس ، فأرسل إليه فجاء ، فقال : ما هذه المرأة منك ؟ قال : اختي ، قال :

فاذهب ، فأرسل بها إلي ، فانطلق إلى سارة ، فقال إن هذا الجبار قد سألني عنك ، فأخبرته أنك اختي فلا تكذبيني عنده ، فإنك أختي في كتاب الله ، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي ، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها ،فأخذها أخذاً شديداً ، فقال: ادعي الله ولي ولا أضرك ، فدعت له فأرسل ، فأهوى إليها ، فتناولها فأخذ بمثلها ، أو أشد ، ففعل ذلك الثالثة ، فأخذ فذكر مثل المرتين الأولتين ، فقال : ادعي الله فلا أضرك فدعت له فأرسل ثم دعا أدنى حجابه فقال : إنك لم تأت بإنسان، ولكنك أتيتني بشيطان ، أخرجها واعطها هاجر ، فأخرجت ، وأعطيت هاجر فأقبلت ، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال : مهيم ؟ قالت : كفى الله كيد الكافر الفاجر ، وأخذ مني هاجر .

(٦٤) ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم ابراهيم حين قال لهم ما قال ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ أي بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم ، فقالوا ﴿ إنكم أنتم الظالمون ﴾ أي في تركهم لها مهملة لا حافظ عندها .

(٦٥) ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾

﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾ أي ثم أطرقوا في الأرض فقالوا ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ فكيف تقول لنا : سلوهم إن كانوا ينطقون ، وأنت تعلم أنها لا تنطق .

(٦٦) ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾

فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك ﴿ أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ﴾ أي إذا كانت لا تنطق ، وهي لا تنفع ولا تضر ، فلم تعبدونها من دون الله ؟ .

(٦٧) ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

أي أفلا تتدبرون ما أنتم فيه الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر، فأقام عليهم الحجة والزمهم بها، ولهذا قال تعالى ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ .

(٦٨) ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾

لما دحضت حجتهم ، وبان عجزهم ، وظهر الحق ، واندفع الباطل عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم ، فقالوا ﴿ حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ فجمعوا حطباً كثيراً جداً ، ثم جعلوه في حومة من الأرض وأضرموها ناراً فكان لها شرر عظيم ، ولهب مرتفع ، لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق فلما ألقوه قال حسبي الله ونعم الوكيل ، كما رواه البخاري ، عن ابن عباس أنه قال : حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ .

(٦٩) ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾

﴿ قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ يقول : لا تضريه .

(٧٠) ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾

أي المغلوبين الأسفلين لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً فكادهم الله ونجاه من النار فغلبوا هنالك .

(٧١) ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه سلمه الله من نار قومه واخرجه من بين اظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام إلى الأرض المقدسة منها ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ .

(٧٢) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾

﴿ نافلة ﴾ عطية ، ﴿ وكلا جعلنا صالحين ﴾ أي الجميع أهل خير وصلاح .

(٧٣) ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾

﴿ أئمة ﴾ أي يقتدى بهم ﴿ يهدون بأمرنا ﴾ أي يدعون إلى الله باذنه ﴿ وكانوا لنا عابدين ﴾ أي فاعلين لما يأمرون الناس به .

(٧٤) ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (٧٥)

ثم عطف بذكر لوط عليه السلام ، كان قد آمن بابراهيم عليه السلام ، واتبعه وهاجر معه كما قال تعالى ﴿ فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ فآتاه الله حكماً وعلماً ، وأوحى إليه وجعله نبياً ، وبعثه إلى سدوم واعمالها فخالفوه وكذبوه فأهلكهم الله ودمر عليهم ، كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز ، ولهذا قال ﴿ ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين . وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين ﴾ .

(٧٦) ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ ولهذا قال هنا ﴿ إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله ﴾ أي الذين آمنوا به ﴿ من الكرب العظيم ﴾ أي من الشدة والتكذيب والأذى ، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل ، وكانوا يتصدون لأذاه ، ويتواصون قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل على خلافه .

(٧٧) ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ ونصرناه من القوم ﴾ أي ونجيناه وخلصناه منتصرا من القوم ﴿ الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم اجمعين ﴾ أي أهلكهم الله بعامة ، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد كما دعا عليهم نبيهم .

(٧٨) ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (٧٩)

﴿ إذ نفشت فيه غنم القوم ﴾ النفش لا يكون إلا بالليل ، والهمل بالنهار ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ عن ابن عباس : قال : قضى داوود بالغنم لأصحاب الحرث فخرج الرعاء معهم الكلاب ، فقال لهم سليمان : كيف قضى بينكم ؟ فأخبروه ، فقال : لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا ، فأخبر بذلك داوود فدعاه فقال : كيف تقضي بينهم ؟ قال : أدفع الغنم لصاحب الحرث ، فيكون له اولادها والبانها وسلاؤها ومنافعها ، ويبذر اصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم ، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه اخذه اصحاب الحرث ، وردوا الغنم إلى اصحابها . ﴿ وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير وكنا

فاعلين﴾ وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويباً ، ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل ، وكان له صوت طيب جداً فوقف واستمع لقراءته وقال : « لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داوود » قال يا رسول الله ، لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً .

(٨٠) ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴾

﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ﴾ يعني صنعة الدروع . قال قتادة : إنما كانت الدروع قبله صفائح ، وهو أول من سردها حلقاً كما قال تعالى ﴿ وألنا له الحديد أن أعمل سابغات وقدر في السرد » أي لا توسع الحلقة فتقلق المسمار ، ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة، ولهذا قال ﴿لتحصنكم من بأسكم﴾ يعني في القتال ﴿فهل أنتم شاكرون ﴾ أي نعم الله عليكم لما الهم به عبده داوود فعلمه ذلك من أجلكم.

(٨١) ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴾

﴿ ولسليمان الريح عاصفة ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ﴿ تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ يعني أرض الشام ﴿ وكنا بكل شيء عالمين ﴾ وذلك أنه كان له بساط من خشب ، يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند ، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ، ثم تحمله فترفعه ، وتسير به وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض فينزل ، وتوضع آلاته وحشمه ، قال الله تعالى ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ وقال تعالى ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ .

(٨٢) ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ﴾

﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ﴾ أي في الماء يستخرجون اللآليء والجواهر وغير ذلك ﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ أي غير ذلك كما قال تعالى ﴿ والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين في الاصفاد ﴾ وقوله ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ أي يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء ، بل كل في قبضته ، وتحت قهره ، لا يتجاسر أحد منهم

على الدنو إليه ، والقرب منه ، بل هو يحكم فيهم ، إن شاء أطلق ، وإن شاء حبس منهم من يشاء ، ولهذا قال ﴿ وآخرين مقرنين في الاصفاد ﴾ .

(٨٣) ﴿ * وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ ﴿٨٤﴾

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والانعام والحرث شيء كثير ، وأولاد كثيرة ، ومنازل مرضية ، فابتلي في ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره ، ويقال : إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من اجله ، وقد قال النبي ﷺ « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل » وفي الحديث الآخر « يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه » وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر ، وبه يضرب المثل في ذلك . ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ وقوله ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ أوتي أجرهم في الآخرة ، وأعطي مثلهم في الدنيا ، وقوله ﴿ رحمة من عندنا ﴾ أي فعلناه به ذلك رحمة من الله به ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ أي وجعلناه في ذلك قدوة لئلا يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا ، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء ، وله الحكمة البالغة في ذلك .

(٨٥) ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ﴿٨٦﴾

واما اسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وقد تقدم ذكره في سورة مريم ، وكذا ادريس عليه السلام ، واما ذو الكفل فالظاهر أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي ، وقال آخرون : إنما كان رجلا صالحاً ، وكان ملكاً عادلاً ، وحكماً مقسطاً .

(٨٧) ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

هذه القصة مذكورة ههنا وفي سورة الصافات وفي سورة نٓ ، وذلك أن يونس بن متى عليه السلام بعثه الله إلى أهل قرية « نينوى » وهي قرية من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله

تعالى فأبوا عليه ، وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم ، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ، فلما تحققوا منه ذلك ، وعلموا أن النبي لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم ، وانعامهم ومواشيهم ، وفرقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل ، وجأروا إليه ، ورغت الابل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وسخالها ، فرفع الله عنهم العذاب ، قال الله تعالى ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ واما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم ، وخافوا أن يغرقوا ، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه فوقعت القرعة على يونس ، فأبوا أن يلقوه ، ثم اعادوها فوقعت عليه أيضاً فأبوا ، ثم اعادوها فوقعت عليه أيضاً ، قال الله تعالى ﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾ أي وقعت عليه القرعة ، فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه ثم القى نفسه في البحر ، وقد ارسل الله سبحانه من البحر حوتا يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين القى نفسه من السفينة فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ، ولا تهشم له عظماً فإن يونس ليس لك رزقا ، وإنما بطنك تكون له سجناً ، وقوله ﴿ وذا النون ﴾ يعني الحوت ﴿ إذ ذهب مغاضباً ﴾ أي لقومه ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ أي نضيق عليه في بطن الحوت ، أو نقضي عليه ، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر وظلمة الليل .

(٨٨) ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ﴾ أي أخرجناه من بطن الحوت ، وتلك الظلمات ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ أي إذا كانوا في الشدائد ، ودعونا منيبين إلينا ، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء ، فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء ، « دعوة » ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له » رواه الترمذي والنسائي والامام أحمد .

(٨٩) ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً ، وقد ذكرت قصته في أول سورة مريم ، وفي سورة آل عمران . ﴿ إذ نادى ربه ﴾ أي خفية عن قومه

﴿ رب لا تذرني فردا ﴾ أي لا ولد لي ، ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة .

(٩٠) ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾

﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ﴾ أي امرأته ، كانت عاقرا لا تلد فولدت وقيل : كان في لسانها طول ، فأصلحها الله ، وقيل : كان في خلقها شيء فأصلحها الله والأظهر من السياق الأول . ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ﴾ أي في عمل القربات وفعل الطاعات ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ رغباً فيما عندنا ، ورهباً مما عندنا ﴿ وكانوا لنا خاشعين﴾ أي مصدقين بما أنزل الله، أو مؤمنين حقاً، أو خائفين، أو الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً ، أو ﴿ خاشعين ﴾ أي متواضعين ، أو متذللين لله عز وجل ، وكل هذه الأقوال متقاربة .

(٩١) ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

هكذا يذكر الله تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، فيذكر اولا قصة زكريا ، ثم يتبعها بقصة مريم ، لأن تلك مربوطة بهذه ، فإنها ايجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن ، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها ، ثم يذكر قصة مريم ، وهي اعجب ، فإنها ايجاد ولد من أنثى بلا ذكر . ﴿ والتي احصنت فرجها ﴾ يعني مريم عليها السلام كما قال في سورة التحريم ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ وقوله ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ أي دلالة على أن الله على كل شيء قدير ، وأنه يخلق ما يشاء ، وإنما امره اذا اراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وهذا كقوله ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ ﴿ للعالمين ﴾ الجن والانس ، أي أن هذه شريعتكم التي بينت لكم ، ووضحت لكم .

(٩٢) ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ يقول : دينكم دين واحد ، وسنتكم سنة واحدة ، ﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ وفي الحديث « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد » يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ .

(٩٣) ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴾

﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ أي اختلفت الأمم على رسلها ، فمن بين مصدق لهم ، ومكذب . ولهذا قال ﴿ كل الينا راجعون ﴾ أي يوم القيامة ، فيجازى كل بحسب عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

(٩٤) ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٌ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾

﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴾ أي قلبه مصدق ، وعمل عملاً صالحاً ﴿ فلا كفران لسعيه ﴾ كقوله ﴿ انا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ أي لا يكفر عمله ، بل يشكر ، فلا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال ﴿ وإنا له كاتبون ﴾ أي يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه شيء منه .

(٩٥) ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ وحرام على قرية ﴾ قال ابن عباس يعني قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة ، وقيل ﴿ لا يرجعون ﴾ لا يتوبون ، والقول الأول أظهر .

(٩٦) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾

﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ هم من سلالة آدم ، بل هم من نسل نوح أيضاً ، تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ أي يسرعون في المشي إلى الفساد ، والحدب هو المرتفع من الأرض ، وهذه صفتهم في حال خروجهم كأن السامع مشاهد لذلك ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ هذا إخبار عالم ما كان ، وما يكون ، الذي يعلم غيب السموات والأرض ، لا إله إلا هو .

(٩٧) ﴿ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل والبلابل ، ازفت الساعة ، واقتربت ، فإذا كانت ووقعت قال الكافرون : هذا يوم عسر ، ولهذا قال ﴿ فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ أي من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام ﴿ يا ويلنا ﴾ أي يقولون يا ويلنا ﴿ قد كنا في غفلة من هذا ﴾ أي في الدنيا ﴿ بل كنا ظالمين ﴾

يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك .

(٩٨) ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ أي وقودها ، يعني كقوله ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ ، أو حصب جهنم ، شجر جهنم ، ﴿ أنتم لها واردون ﴾ أي داخلون .

(٩٩) ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

﴿ لـو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ﴾ يعني لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار وما دخلوها ﴿ وكل فيها خالدون ﴾ أي العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون .

(١٠٠) ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾

﴿ لهم فيها زفير ﴾ كما قال تعالى ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ والزفير خروج أنفاسهم ، والشهيق ولوج أنفاسهم ﴿ وهم فيها لا يسمعون ﴾ .

(١٠١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾

﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ السعادة ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾ لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله ، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة ، وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾ .

(١٠٢) ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾

﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ أي حريقها في الأجساد ﴿ وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ فسلمهم من المحذور والمرهوب ، وحصل لهم المطلوب والمحبوب .

(١٠٣) ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ قيل : المراد بذلك الموت ، أو هو النفخة في الصور

﴿ وتتلقاهم الملائكة ﴾ يعني تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿ هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ أي فأملوا ما يسركم .

(١٠٤) ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

يقول تعالى : هذا كائن يوم القيامة ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾ روى البخاري عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين ، وتكون السموات بيمينه » والمراد بالسجل الكتاب ، ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ يعني هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقا جديدا كما بدأهم ، وهو القادر على اعادتهم ، وذلك واجب الوقوع ، لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل ، وهو القادر على ذلك .

(١٠٥) ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة كقوله تعالى ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ وقال تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ الزبور : التوراة والانجيل والقرآن ، وقال مجاهد : الزبور الكتاب ، وقال آخرون : الزبور الذي أنزل على داود، أو الذكر : التوراة ، وعن ابن عباس : الذكر القرآن . ﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ عن ابن عباس قال : أرض الجنة .

(١٠٦) ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾

﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ أي إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً وكفاية لقوم عابدين ، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم .

(١٠٧) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين ، أي أرسله رحمة لهم كلهم ، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة ، ومن ردها وجحدها خسر الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين

بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ .

(١٠٨) ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن يقول للمشركين ﴿ إنما يوحى إلي أنما الهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ﴾ أي متبعون على ذلك ، مستسلمون له ، منقادون له .

(١٠٩) ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾

﴿ فإن تولوا ﴾ أي تركوا ما دعوتهم إليه ﴿ فقل آذنتكم على سواء ﴾ أي أعلمتكم أني حرب لكم كما أنكم حرب لي ، بريء منكم كما أنتم برآء مني كقوله ﴿ فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ . ﴿ وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ أي هو واقع لا محالة ، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده .

(١١٠) ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾

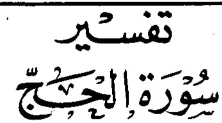
﴿ إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾ أي أن الله يعلم الغيب جميعه ، ويعلم ما يظهره العباد، وما يسرون ، يعلم الظواهر والضمائر ، ويعلم السر وأخفى ، ويعلم ما العباد عاملون في اجهارهم واسرارهم ، وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل .

(١١١) ﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

﴿ وإن ادري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ أي وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين ، قال ابن جرير : لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى اجل مسمى .

(١١٢) ﴿ قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

﴿ قال رب احكم بالحق ﴾ أي إفصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق . قال قتادة : كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ ؛ وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك ﴿ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ أي على ما يقولون ويفترون من الكذب ويتنوعون في مقامات التكذيب والافك ، والله المستعان عليكم في ذلك .


تفسير سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده بتقواه ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة ، وزلازلها، وأحوالها ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ قيل إن زلزلة الساعة قبل قيام الناس من أجداثهم كما قال تعالى ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض اثقالها ﴾ وقال تعالى ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ وقال تعالى ﴿ إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا ﴾ وقيل : هذه الزلزلة بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة . ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ أي أمر عظيم ، وخطب جليل ، وطارق مفظع ، وحادث هائل ، وكائن عجيب .

(٢) ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

﴿ يوم ترونها ﴾ هذا من باب ضمير الشأن ، ولهذا قال مفسرا له ﴿ تذهل كل مرضعة عما ارضعت ﴾ أي فتشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها ، والتي هي أشفق الناس عليه ، تدهش عنه في حال ارضاعها له ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ أي قبل تمامه لشدة الهول ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ أي من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه ، فدهشت عقولهم ، وغابت اذهانهم ، فمن رآهم حسب أنهم سكارى ﴿ وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ .

(٣) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾

يقول تعالى ذاما لمن كذب بالبعث ، وانكر قدرة الله على احياء الموتى معرضا عما انزل الله على انبيائه متبعا في قوله وانكاره وكفره كل شيطان مريد من الإنس والجن ، وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل ويتركون ما انزل الله على رسوله من الحق المبين ، ويتبعون اقوال رؤوس الضلالة ، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء

ولهذا قال في شأنهم وأشباههم ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ أي علم صحيح ﴿ ويتبع كل شيطان مريد ﴾ .

(٤) ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

﴿ كتب عليه ﴾ قال مجاهد : يعني الشيطان ، يعني كتب عليه كتابة قدرية ﴿أنه من تولاه ﴾ أي اتبعه وقلده ﴿ فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ أي يضله في الدنيا ، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير ، وهو الحار المؤلم المقلق ، المزعج .

(٥) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدئه للخلق فقال ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب ﴾ أي شك ﴿ من البعث ﴾ وهو المعاد ، وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ، أي أصل برئه لكم من تراب ، وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام ﴿ ثم من نطفة ﴾أي﴿ثم جعل نسله من سِلالة من ماء مهين ﴾ ﴿ ثم من علقة ثم من مضغة ﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوماً كذلك ، يضاف إليه ما يجتمع إليها ، ثم تنقلب علقة حمراء باذن الله فتمكث كذلك اربعين يوماً ، ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ، ثم يشرع في التشكيل ، والتخطيط ، فيصور منها رأس ويدان ، وصدر وبطن ، وفخذان ورجلان ، وسائر الأعضاء ، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل ، والتخطيط ، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ولهذا قال تعالى ﴿ ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾ أي كما تشاهدونها ﴿ لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾ أي تارة تستقر في الرحم ، لا تلقيها المرأة ولا تسقطها . وفي الصحيحين « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع

كلمات ، فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح » ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ أي ضعيفاً في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله ، ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً ، ويلطف به ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار ، ولهذا قال ﴿ ثم لتبلغوا أشدّكم ﴾ أي يتكامل القوي ويتزايد ، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ أي في حال شبابه وقواه ﴿ ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر ﴾ وهو الشيخوخة والهرم وضعف القوة والعقل والفهم وتناقض الأحوال من الخرف وضعف الفكر، ولهذا قال ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ وقوله ﴿وترى الأرض هامدة﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحي الأرض الميتة الهامدة ، وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ أي فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أي تحركت بالنبات ، وحييت بعد موتها وربت أي ارتفعت لما سكن فيها الثرى ثم انبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع واشتات النباتات في اختلاف الوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ، ولهذا قال تعالى ﴿ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ أي حسن المنظر طيب الريح .

(٦) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أي الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿ وأنه يحي الموتى ﴾ أي كما أحيا الأرض الميتة ، وأنبت منها هذه الأنواع ﴿ إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ .

(٧) ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾

﴿ وإن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ أي كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿ وأن الله يبعث من في القبور ﴾ أي يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمما ، ويوجدهم بعد العدم ، كما قال تعالى ﴿ وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ .

(٨) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين في قوله ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر

والبدع فقال ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ أي بلا عقل صحيح ، ولا نقل صريح ، بل بمجرد الرأي والهوى .

(٩) ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾

﴿ ثاني عطفه ﴾ مستكبراً عن الحق إذا دعي إليه ، أي لاوي عطفه ، وهي رقبته يعني يعرض عما يدعى إليه من الحق ويثني رقبته استكباراً كقوله تعالى ﴿ وفي موسى إذ ارسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ، فتولى بركنه ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤ وسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴾ وقال لقمان لابنه ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ وقوله ﴿ ليضل عن سبيله ﴾ هي لام العاقبة ، أو لام التعليل ، ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين ، أو أن يكون المراد بها أن هذا الفاعل ، لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الدنيء لنجعله ممن يضل عن سبيل الله ﴿ له في الدنيا خزى ﴾ وهو الاهانة والذل ، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لقّاه الله المذلة في الدنيا ، عاقبة فيها قبل الآخرة ، لأنها أكبر همه ، ومبلغ علمه ، ﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ .

(١٠) ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾

﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ أي يقال له هذا تقريعا وتوبيخا ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ كقوله تعالى ﴿ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ .

(١١) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾

﴿ على حرف ﴾ على شك ، أو على طرف ، ومنه حرف الجبل أي طرفه ، أي دخل في الدين على طرف ، فإن وجد ما يحبه استقر ، وإلا انشمر . روى البخاري عن ابن عباس ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ قال : كان الرجل يقدم المدينة ، فإن ولدت

امرأته غلاماً ، ونتجت خيله قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء ﴿ انقلب على وجهه ﴾ أي ارتد كافراً ، وقوله ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ أي فلا هو حصل من الدنيا على شيء ، واما الآخرة فقد كفر بالله العظيم فهو في غاية الشقاء والاهانة ، ولهذا قال تعالى ﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾ أي هذه هي الخسارة العظيمة ، والصفقة الخاسرة .

(١٢) ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾

﴿ يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه ﴾ أي من الأصنام والانداد يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها ، وهي لا تنفعه ولا تضره ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ .

(١٣) ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾

﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ أي ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها ، واما في الآخرة فضره محقق متيقن وقوله ﴿ لبئس المولى ﴾ يعني الوثن ، يعني بئس هذا الذي دعاه من دون الله مولى ، يعني ولياً وناصراً ﴿ وبئس العشير ﴾ وهو المخالط والمعاشر ، واختار ابن جرير أن المراد لبئس ابن العم والصاحب .

(١٤) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم ، وصدقوا إيمانهم بأفعالهم ، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات ، وتركوا المنكرات ، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات . ولما ذكر تعالى أنه أضل أولئك وهدى هؤلاء قال ﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾ .

(١٥) ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾

قال ابن عباس : من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة ﴿ فليمدد بسبب ﴾ أي بحبل ﴿ إلى السماء ﴾ أي سماء بيته ﴿ ثم ليقطع ﴾ يقول : ثم ليختنق به . وقيل : ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ أي ليتوصل إلى بلوغ السماء فإن النصر إنما يأتي محمداً من السماء ﴿ ثم ليقطع ﴾ ذلك عنه إن قدر على ذلك . وقول ابن عباس أولى

وأظهر في المعنى وأبلغ في التهكم ، فإن المعنى من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه ، فإن الله ناصره لا محالة ، قال الله تعالى ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ﴾ ولهذا قال ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ .

(١٦) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾

﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ أي القرآن ﴿ آيات بينات ﴾ أي واضحات في لفظها ومعناها حجة من الله على الناس ﴿ وأن الله يهدي من يريد ﴾ أي يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، وله الحكمة التامة ، والحجة القاطعة في ذلك ﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ أما هو فلحكمته ورحمته وعدله وعلمه وقهره وعظمته ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

(١٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين ومن سواهم من اليهود والصابئين والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره فإنه تعالى ﴿ يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ ويحكم بينهم بالعدل فيدخل من آمن به الجنة ، ومن كفر به النار ، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم ، حفيظ لأقوالهم ، عليم بسرائرهم ، وما تكن ضمائرهم .

(١٨) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً ، وسجود كل شيء مما يختص به كما قال تعالى ﴿ أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون ﴾ وقال ههنا ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض ﴾ أي من الملائكة في أقطار السموات والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطير ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ وقوله ﴿ والشمس والقمر والنجوم ﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص لأنها قد عبدت من دون الله ، فبين أنها تسجد لخالقها ، وأنها مربوبة مسخرة ﴿ لا تسجدوا للشمس

ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ﴾ وفي الصحيحين عن أبي ذر قال : قال لي رسول الله ﷺ « أتدري أين تذهب هذه الشمس ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت » وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل ﴿ والدواب ﴾ أي الحيوانات كلها ، وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر ، فرب مركوبة خيراً وأكثر ذكراً لله تعالى من راكبها ، وقوله ﴿ وكثير من الناس ﴾ أي يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك ﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾ أي ممن امتنع وأبى واستكبر ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ روى ابن أبي حاتم أنه قيل لعلي رضي الله عنه أن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة ، فقال له : يا عبد الله ، خلقك الله كما يشاء أو كما شاء ؟ قال : بل كما شاء ، قال فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال بل إذا شاء ، قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء ؟ قال : بل حيث يشاء ، قال : ولو قلت : غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك . وفي الحديث « إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي ، يقول : يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار » رواه مسلم .

(١٩) ﴿ * هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾

ثبت في الصحيحين عن أبي ذر أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه ، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر - وصاحبا علي هما حمزة وعبيدة ، وصاحبا عتبة هما شيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة - أو اختصم المسلمون وأهل الكتاب ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : كتابنا يقضي على الكتب كلها ، ونبينا خاتم الأنبياء ، فنحن أولى بالله منكم ، فأفلج الله الإسلام على من ناوأه ، وأنزل الله ﴿ هذان خصمان . . . ﴾ أو مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث ، أو هم المؤمنون والكافرون ، وهذا القول يشمل الأقوال كلها ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ أي فصلت لهم مقطعات من النار ، ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ .

(٢٠) ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾

أي إذا صب على رؤوسهم الحميم ، وهو الماء الحار في غاية الحرارة تذوب جلودهم .

(٣١) ﴿ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾

﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال « لو أن مقمعا من حديد وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض » وقال ابن عباس في قوله ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ قال : يضربون بها فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور .

(٣٢) ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾

﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ عن سلمان قال : النار سوداء مظلمة ، لا يضيء لهبها ، ولا جمرها ، ثم قرأ ﴿ كلما أرادوا أن . . . ﴾ وقال الفضيل بن عياض : والله ما طمعوا في الخروج ، إن الأرجل لمقيدة ، وإن الأيدي لموثقة ، ولكن يرفعهم لهبها ، وتردهم مقامعها . ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ كقوله ﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً .

(٣٣) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار ـ عياذاً بالله من حالهم ـ وما هم فيه من العذاب والنكال والحريق والاغلال ، وما أعد لهم من الثياب من النار ذكر حال أهل الجنة ، نسأل الله من فضله وكرمه فقال: ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي تتحرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها ، وتحت أشجارها ، وقصورها ، يصرفونها حيث شاءوا أو أين أرادوا ﴿ يحلون فيها ﴾ من الحلية ﴿ من أساور من ذهب ولؤلؤاً ﴾ أي في أيديهم كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم ، لباس هؤلاء من الحرير : استبرقه وسندسه ، كما قال تعالى ﴿ عاليهم سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهورا ﴾ وفي الصحيح « لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » .

(٣٤) ﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾

﴿ وهدوا إلى الطيب من القول ﴾ كقوله تعالى ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ وقوله ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ ﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ أي إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم ، وأنعم به وأسداه إليهم ، أو هدوا إلى الطريق المستقيم في الدنيا .

(٢٥) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

يقول تعالى منكراً على الكفار في صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام ، وقضاء مناسكهم فيه ، ودعواهم أنهم أولياؤه ﴿ وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ﴾ أي ومن صفاتهم أنهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر . ﴿ الذي جعلناه للناس سواء العاكفُ فيه والباد ﴾ أي يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام ، وقد جعله الله شرعاً سواء ، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد ﴾ تقديره الحاداً ، فالباء زائدة ، أو ضمن الفعل معنى بهم ولهذا عداه بالباء فقال ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد ﴾ أي يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار ﴿ بظلم ﴾ أي عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمتأول .

(٢٦) ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت ، أي أرشده إليه ، وسلمه له ، وأذن له في بنائه ، واستدل به كثير ممن قال : إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق ، وإنه لم يبن قبله كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذر قلت : يا رسول الله ، أي مسجد وضع أول ؟ قال « المسجد الحرام » قلت : ثم أي ؟ قال : « بيت المقدس » قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » وقد قال الله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً ﴾ وقوله ﴿ أن لا تشرك بي شيئاً ﴾ أي إبنه على اسمي وحدي ﴿ وطهر بيتي ﴾ من الشرك ﴿ للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ أي اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك

له ، فالطائف به معروف ، وهو أخص العبادات عند البيت ، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿ والقائمين ﴾ أي في الصلاة ، ولهذا قال ﴿ والركع السجود ﴾ فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت ، فالطواف عنده ، والصلاة إليه في غالب الأحوال إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة ، وفي الحرب ، وفي نافلة السفر ، والله أعلم .

(٢٧) ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾

﴿ وأذن في الناس بالحج ﴾ أي ناد في الناس بالحج داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه،وقوله ﴿ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر ﴾ استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً ، لأنه قدمهم في الذكر ، والذي عليه الأكثرون أن الحج راكباً أفضل اقتداء برسول الله ﷺ ، فإنه حج راكباً مع كمال قوته عليه السلام . وقوله ﴿ يأتين من كل فج ﴾ طريق . وقوله ﴿ عميق ﴾ أي بعيد ، وهذه كقوله تعالى ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤ ية الكعبة والطواف ، والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار .

(٢٨) ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾

قال ابن عباس ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ قال منافع الدنيا والآخرة ، أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات . ﴿ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ الأيام المعلومات أيام العشر . وفي حديث البخاري عن النبي ﷺ « ما العمل في أيام أفضل منها في هذه » قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء » وهذا هو العشر الذي أقسم الله به ﴿ والفجر وليال عشر ﴾ وقال بعض السلف : انه المراد بقوله : ﴿ وأتممناها بعشر ﴾ وفي سنن أبي داوود أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر ، وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة ، وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عرفة فقال : « أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية ،

والآتية » ويشتمل هذا العشر على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر ، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله ، وفضل هذا العشر كثير على عشر رمضان الأخير لأنه يمتاز باختصاصه بأداء فرض الحج فيه ، وقيل : ذلك أفضل لاشتماله على ليلة القدر ، وتوسط آخرون ، فقالوا : أيام هذا أفضل ، وليالي ذاك أفضل ، وبهذا يجتمع شمل الأدلة . والله أعلم ﴿ فكلوا منها ﴾ والأكثرون على أن الأكل من لحوم الأضاحي مستحب ، وقيل : بوجوبه ، وهو غريب ﴿ وأطعموا البائس الفقير ﴾ هو المضطر الذي عليه البؤس ، وهو الفقير المتعفف .

(٢٩) ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾ هو وضع الاحرام عن حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر ونحو ذلك ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ يعني نحر ما نذر من أمر البدن . ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ يعني الطواف الواجب يوم النحر .

(٣٠) ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَٰنِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ ﴾

﴿ ومن يعظم حرمات الله ﴾ أي ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ، ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه ﴿ فهو خير له عند ربه ﴾ أي فله على ذلك خير كثير ، وثواب جزيل ﴿ وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم ﴾ أي أحللنا لكم جميع الأنعام ، وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام وتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به .
﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ .

(٣١) ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾

﴿ حنفاء لله ﴾ مخلصين له الدين ﴿ فتخطفه الطير ﴾ أي تقطعه الطيور في الهواء ﴿ سحيق ﴾ بعيد مهلك لمن هوى فيه .

(٣٢) ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾

﴿ ومن يعظم شعائر الله ﴾ أي أوامره ﴿ فإنها من تقوى القلوب ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا

والبدن ، وعن ابن عباس : تعظيمها استسمانها واستحسانها . وصحيح البخاري « ضحى بكبشين أملحين أقرنين » .

(٣٣) ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾

﴿ لكم فيها منافع ﴾ أي لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها إلى أجل مسمى ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ أي محل الهدي وانتهاؤه إلى البيت العتيق ، وهو الكعبة كما قال تعالى ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ .

(٣٤) ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك ، وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل . وقوله ﴿ ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال : أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين فسمى وكبر ووضع رجله على صفاحهما . ﴿ فإلهكم إله واحد فله أسلموا ﴾ أي معبودكم واحد ، وإن تنوعت شرائع الأنبياء ، ونسخ بعضها بعضاً ، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له . ﴿ وبشر المخبتين ﴾ المطمئنين ، أو المتواضعين ، أو المختبين الذين لا يظلمون ، وإذا ظلموا لم ينتصروا .

(٣٥) ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ أي خافت منه قلوبهم ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ أي من المصائب ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ أي المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم ، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله ، وهذه بخلاف صفات المنافقين ، فإنهم بالعكس من هذا كله .

(٣٦) ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا

وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما خلق لهم من البدن ، وجعلها من شعائره ، وهو أنه جعلها تهدى إلى بيته الحرام ، بل هي أفضل ما يهدى إليه كما قال تعالى ﴿ لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام ﴾ والبدن البقرة والبعير ﴿ لكم فيها خير ﴾ أي ثواب في الدار الآخرة،عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق دم ، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها ، وأن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض ، فطيبوا بها نفساً » رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه . ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ عن جابر بن عبدالله قال : صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى ، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه فقال : « باسم الله والله أكبر ، هذا عني ، وعمن لم يضح من أمتي » رواه أحمد وأبو داوود والترمذي ﴿ صواف ﴾ قياماً على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى يقول باسم الله والله أكبر لا إله إلا الله اللهم منك ولك . ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ سقطت إلى الأرض . ﴿ فكلوا منها ﴾ أمر إباحة ، وقال مالك : يستحب ذلك ، وقال غيره : يجب . والقانع : المستغني بما أعطيته وهو في بيته ، والمعتر الذي يتعرض لك ويلم بك أن تعطيه من اللحم ، ولا يسأل . ﴿ سخرناها لكم ﴾ أي ذللناها لكم ، وجعلناها منقادة لكم خاضعة ، إن شئتم ركبتم ، وإن شئتم حلبتم ، وإن شئتم ذبحتم .

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٧)

يقول تعالى إنما شرع لكم هذه الهدايا الضحايا لتذكروه عند ذبحها ، فإنه الخالق الرازق لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها ، فإنه تعالى هو الغني عما سواه ، وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ، ونضحوا عليها من دمائها ﴿ ولكن يناله التقوى منكم ﴾ أي يتقبل ذلك ويجزي عليه ، كما جاء في الصحيح « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ﴿ كذلك سخرها لكم ﴾ أي من أجل ذلك سخر لكم البدن ﴿ لتكبروا الله على ما هداكم ﴾ أي لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه ، وما يحبه ويرضاه ، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه ﴿ وبشر المحسنين ﴾ أي وبشر يا محمد المحسنين ، أي في عملهم القائمين بحدود

الله ، المتبعين ما شرع لهم المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل .

(٣٨) ﴿ * إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه ، وأنابوا إليه شر الاشرار ، وكيد الفجار ، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ، كما قال تعالى ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ وقال ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ وقوله ﴿ إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ أي لا يحب من عباده من اتصف بهذا ، وهو الخيانة في العهود والمواثيق أي لا يفي بما قال ، والكفر: الجحد للنعم فلا يعترف بها .

(٣٩) ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

نزلت في محمد ﷺ وأصحابه حين أخرجوا من مكة ، فقال أبو بكر عند نزولها : فعرفت أنه سيكون قتال . ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ أي هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته .

(٤٠) ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعني محمداً ﷺ ﴿ إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ أي ما كان لهم إلى قومهم إساءة ، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض ، ولأهلك القوي الضعيف ﴿ لهدمت صوامع ﴾ وهي المعابد الصغار للرهبان ﴿ وبيع ﴾ وهي أوسع منها ، وأكثر عابدين فيها ، وهي للنصارى أيضاً ، وقيل إنها كنائس اليهود ، ﴿ وصلوات ﴾ الكنائس ، أو الكنائس اليهود ، وهم يسمونها صلوات أو مساجد لأهل الكتاب ، ولأهل الإسلام بالطرق ، وأما المساجد فهي للمسلمين ﴿ يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ الضمير عائد إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات ، وقيل الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ كقوله ﴿ إن تنصروا الله ينصركم

ويثبت أقدامكم ﴾ وقوله ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة ، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرا ، وبعزته لا يقهره قاهر ، ولا يغلبه غالب ، بل كل شيء ذليل لديه ، فقير إليه ، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور ، وعدوه المقهور .

(٤١) ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾

عن عثمان بن عفان قال : فينا نزلت ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض . . . ﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا : ربنا الله ثم مكنا في الأرض فأقمنا الصلاة ، وآتينا الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ، فهي لي ولأصحابي .

(٤٢) ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (٤٤)

يقول تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح . . . ﴾ إلى أن قال ﴿ وكذب موسى ﴾ أي مع ما جاء به من الآيات البينات ، والدلائل الواضحات ﴿ فأمليت للكافرين ﴾ أي أنظرتهم وأخرتهم ﴿ ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم ، ومعاقبتي لهم ؟ وذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ وبين إهلاك الله له أربعين سنة . وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

(٤٥) ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾

﴿ فكأين من قرية أهلكناها ﴾ أي كم من قرية أهلكناها ﴿ وهي ظالمة ﴾ أي مكذبة لرسلها ﴿ فهي خاوية على عروشها ﴾ سقوفها أي قد خربت منازلها ، وتعطلت حواضرها ﴿ وبئر معطلة ﴾ أي لا يستقي منها ولا يردها أحد بعد كثرة وارديها ، والازدحام عليها . ﴿ وقصر مشيد ﴾ يعني المبيَّض بالجص ، أو المشيد: المنيع الحصين .

(٤٦) ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى

ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾

﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ أي بأبدانهم وبفكرهم أيضاً ، وذلك كاف ﴿ فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ﴾ أي فيعتبرون بها ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ أي ليس العمى عمى البصر ، وإنما عمى البصيرة ، إن كانت القوة الباصرة سليمة ، فإنها لا تنفذ إلى العبر ، ولا تدري ما الخبر .

(٤٧) ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ أي هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله ، وكتابه ورسوله واليوم الآخر . كما قال تعالى ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ أي الذي وعد من إقامة الساعة ، والانتقام من أعدائه ، والاكرام لأوليائه ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ أي هو تعالى لا يعجل ، فإن مقدار ألف سنة من خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه ، لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شيء وإن أجل وأنظر وأملى ، ولهذا قال بعد هذا .

(٤٨) ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾

﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير ﴾ وفي الحديث « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم ، خمسمائة سنة » رواه الترمذي والنسائي .

(٤٩) ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب ، واستعجلوه به ﴿ قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴾ أي إنما أرسلني الله إليكم نذيراً بين يدي عذاب شديد ، وليس إلي من حسابكم من شيء ، أمركم إلى الله ، إن شاء عجل لكم العذاب ، وإن شاء أخره عنكم ، وإن شاء تاب على من يتوب إليه ، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة ، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار ﴿ لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴾ .

(٥٠) ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي آمنت قلوبهم ، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿ لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ أي مغفرة لما سلف من سيئاتهم ، ومجازاة حسنة على القليل من

حسناتهم . أو ﴿ ورزق كريم ﴾ الجنة .

(٥١) ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾

﴿ والذين سعوا في آياتنا معاجزين ﴾ يثبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ ﴿ معاجزين ﴾ مراغمين ﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ وهي النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها . أجارنا الله منها . قال تعالى ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ .

(٥٢) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنها من طريق مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح . والله أعلم . عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم ، فلما بلغ هذا الموضع ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ قال : فألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ، قالوا : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا ، فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته . . . ﴾ هذا فيه تسلية من الله لرسوله ﷺ أي لا يهيدنك فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء ﴿ في أمنيته ﴾ أي إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ﴿ ثم يحكم الله آياته ﴾ ﴿ والله عليم ﴾ أي بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية ، ﴿ حكيم ﴾ أي في تقديره وخلقه وأمره ، له الحكمة التامة ، والحجة البالغة .

(٥٣) ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾

﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شك وشرك وكفر ونفاق كالمشركين حين فرحوا بذلك ، واعتقدوا أنه صحيح من عند الله ، وإنما كان من الشيطان ﴿ والقاسية قلوبهم ﴾ هم المشركون ، أو هم اليهود ﴿ وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾ أي في ضلال ومخالفة وعناد بعيد أي من الحق والصواب .

﴿٥٤﴾ ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به ﴾ أي وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل ، والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره ، بل هو كتاب عزيز ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ وقوله ﴿ فيؤمنوا به ﴾ أي يصدقوه وينقادوا ﴿ فتخبت له قلوبهم ﴾ أي تخضع وتذل له قلوبهم ﴿ وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه ، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه ، وفي الآخرة يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات ، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات . وقد أجيب عن قصة الغرانيق بأجوبة من ألطفها أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك ـ تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ـ فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ ، وليس كذلك في نفس الأمر ، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا من رسول الرحمن ﷺ . والله أعلم .

﴿٥٥﴾ ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم لا يزالون في مرية ، أي في شك من هذا القرآن ﴿ حتى تأتيهم الساعة بغتة ﴾ فجأة ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون . ﴿ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ هو يوم بدر ، أو هو يوم القيامة ، لا ليل له ، وهذا هو القول الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به .

﴿٥٦﴾ ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾

﴿ الملك يومئذ لله يحكم بينهم ﴾ كقوله ﴿ مالك يوم الدين ﴾ وقوله ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي آمنت قلوبهم وصدقوا بالله ورسوله ، وعملوا بمقتضى ما علموا ، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم . ﴿ في جنات النعيم ﴾ أي لهم النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد .

﴿٥٧﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أي كفرت قلوبهم بالحق وجحدته وكذبوا به وخالفوا الرسل واستكبروا عن اتباعهم ﴿ فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي مقابلة استكبارهم وإبائهم عن الحق . ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين .

(٥٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾

يخبر تعالى عمن خرج مهاجراً في سبيل الله ابتغاء مرضاته ، وطلباً لما عنده وترك الأوطان والأهلين والخلان ، وفارق بلاده في الله ورسوله ، ونصره لدين الله ، ثم قتلوا ، أي في الجهاد ، أو ماتوا أي حتف أنفهم من غير قتال على فرشهم فقد حصلوا على الأجر الجزيل ، والثناء الجميل ، كما قال تعالى ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ وقوله ﴿ ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ﴾ أي ليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ﴿ وإن الله لهو خير الرازقين ﴾ .

(٥٩) ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾

﴿ ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم ﴾ أي بمن يهاجر ويجاهد في سبيله وبمن يستحق ذلك ﴿ حليم ﴾ أي يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ، ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه ، وتوكلهم عليه . فأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر فإنه حي عند ربه يرزق كما قال تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ .

(٦٠) ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾

﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به . . . ﴾ نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعاً من المشركين في شهر محرم فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم في الشهر الحرام فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم فقاتلهم المسلمون فنصرهم الله عليهم ﴿ إن الله لعفو غفور ﴾ .

(٦١) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾

يقول تعالى منبهاً على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء ، كما قال ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء

بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ ومعنى إيلاجه الليل في النهار ، والنهار في الليل إدخاله من هذا في هذا ، ومن هذا في هذا ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء ، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف . وقوله ﴿ وأن الله سميع بصير ﴾ أي سميع لأقوال عباده ، بصير بهم ، لا تخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم .

﴿٦٢﴾ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أي الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له ، لأنه ذو السلطان العظيم الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وكل شيء فقير إليه ، ذليل لديه ﴿ وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ﴾ أي من الأصنام والأنداد والأوثان ، وكل ما عبد من دون الله فهو باطل لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً . وقوله ﴿ وأن الله هو العلي الكبير ﴾ كما قال ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ وقال ﴿ وهو الكبير المتعال ﴾ فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، لأنه العظيم الذي لا أعظم منه ، العلي الذي لا أعلى منه ، الكبير الذي لا أكبر منه ، تعالى وتقدس وتنزه عز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً .

﴿٦٣﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾

وهذا أيضاً من الدلالة على قدرته ، وعظيم سلطانه ، وأنه يرسل الرياح فتثير سحاباً فتمطر على الأرض الجرز التي لا نبات فيها ، هامدة يابسة سوداء ممحلة ﴿ فتصبح الأرض مخضرة ﴾ أي خضراء بعد يباسها ومحولها . ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ أي عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب ، وإن صغر ، لا يخفى عليه خافية ، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به .

﴿٦٤﴾ ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي ملكه جميع الأشياء ، وهو غني عما سواه ، وكل شيء فقير إليه عبد لديه .

(٦٥) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ﴾ أي من حيوان وجماد وزروع وثمار ﴿ والفلك تجري في البحر بأمره ﴾ أي بتسخيره وتسييره أي في البحر العجاج ، وتلاطم الأمواج ، تجري الفلك بأهلها بريح طيبة ، ورفق وتؤدة ، فيحملون فيها ما شاؤوا من تجائر وبضائع ومنافع من بلد إلى بلد ، وقطر إلى قطر ، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء كما ذهبوا مما عند هؤلاء إلى أولئك مما يحتاجون إليه ويطلبونه ويريدونه ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ أي لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها ، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، ولهذا قال ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ أي مع ظلمهم .

(٦٦) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾

﴿ وهو الذي أحياكم ﴾ أي خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر فأوجدكم ﴿ ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إن الانسان لكفور ﴾ أي جحود .

(٦٧) ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكاً ، وأصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الانسان ويتردد إليه ، إما لخير أو شر ، ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لترداد الناس إليها ، وعكوفهم عليها ، ﴿ هم ناسكوه ﴾ أي فاعلوه ، أي هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته فلا تتأثر بمنازعتهم لك ، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق ، ولهذا قال ﴿ وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ أي طريق واضح مستقيم ، موصل إلى المقصود .

(٦٨) ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ﴾ كقوله ﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ وقوله ﴿ الله أعلم بما تعملون ﴾ تهديد شديد ، ووعيد أكيد .

(٦٩) ﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

وهذه الآية كقوله ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾.

(٧٠) ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه ، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها ، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ كما ثبت في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » .

(٧١) ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ، يعني حجة وبرهاناً ، ﴿ وما ليس لهم به علم ﴾ أي ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه ، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم ، بلا دليل ، ولا حجة ، واصلة مما سول لهم الشيطان وزينه لهم ، ولهذا توعدهم تعالى بقوله ﴿ وما للظالمين من نصير ﴾ أي من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال .

(٧٢) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ أي وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج الواضحات على توحيد الله ، وأنه لا إله إلا هو ، وأن رسله الكرام حق وصدق ﴿ يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ أي يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن ، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لهؤلاء ﴿ أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾ أي النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا ، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم إن نلتم بزعمكم وإرادتكم . وقوله

﴿ وبئس المصير ﴾ أي وبئس النار مقيلاً ومنزلاً ومرجعاً وموئلاً ومقاماً ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ .

(٧٣) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾

يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل ﴾ أي لما يعبده الجاهلون ، المشركون به ﴿ فاستمعوا له ﴾ أي أنصتوا وتفهموا ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾ أي لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك . وقد روى الإمام أحمد مرفوعا « ومَن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا مثل خلقي ذرة أو حبة » وأخرجه صاحبا الصحيح ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ﴾ أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد ، بل أبلغ من ذلك ، عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب ، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت عليه ، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ، ولهذا قال ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ الطالب الصنم ، والمطلوب الذباب ، وقيل : الطالب العابد والمطلوب الصنم .

(٧٤) ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

﴿ ما قدروا الله حق قدره ﴾ أي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾ أي هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ ﴿ إن بطش ربك لشديد إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ وقوله ﴿ عزيز ﴾ أي قد عز كل شيء فقهره وغلبه فلا يمانع ولا يغالب لعظمته وسلطانه ، وهو الواحد القهار .

(٧٥) ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره ومن الناس لإبلاغ رسالته ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ أي سميع لأقوال عباده ، بصير بهم ، عليم بمن يستحق ذلك منهم ، كما قال ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ .

(٧٦) ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

أي يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به فلا يخفى عليه شيء من أمورهم كما قال ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول﴾ فهو سبحانه رقيب عليهم شهيد على ما يقال لهم ، حافظ لهم ، ناصر لجنابهم .

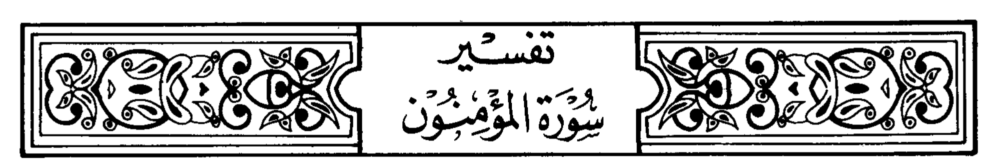
﴿٧٧﴾ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴾

اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه السجدة الثانية من سورة الحج ، هل هو مشروع السجود فيها أم لا ؟ على قولين ، وفي الحديث عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ « فضلت سورة الحج بسجدتين ، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما » .

﴿٧٨﴾ ﴿ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾

﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ أي بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم ، كما قال ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ وقوله ﴿ هو اجتباكم ﴾ أي يا هذه الأمة ، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم ، وفضلكم وشرفكم ، وخصكم بأكرم رسول ، وأكمل شرع ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ أي ما كلفكم ما لا تطيقون ، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً . ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ أي ، بل وسع الدين عليكم ، كلمة أبيكم إبراهيم ، أو الزموا ملة أبيكم إبراهيم ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ يعني إبراهيم ، وذلك قوله ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ قال ابن جرير : وهذا لا وجه له لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسم هذه الأمة في القرآن مسلمين ، وقد قال تعالى ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ﴾ قال مجاهد : الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة ، وفي الذكر ﴿ وفي هذا ﴾ يعني القرآن ، وهذا هو الصواب ، لأنه تعالى قال ﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ وقوله ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ أي إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم لتكونوا يوم القيامة ﴿ شهداء على الناس ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها ، فلهذا تقبل

شهادتهم عليهم يوم القيامة من أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها . ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أي قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها ، فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض ، وطاعة ما أوجب وترك ما حرم ، ومن أهم ذلك إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وهو الاحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاويج ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أي اعتضدوا بالله واستعينوا به ، وتوكلوا عليه وتأيدوا به ﴿ هو مولاكم ﴾ أي حافظكم وناصركم ، ومظفركم على أعدائكم ﴿ فنعم المولى ونعم النصير ﴾ يعني نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء .



تفسير سُورَةُ المؤْمِنُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

في مسند الامام أحمد عن عمر بن الخطاب يقول : كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ، ورفع يديه وقال « اللهم زدنا ولا تنقصنا واكرمنا ولا تهنا ، واعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وارضنا ، ثم قال : « لقد انزل علي عشر آيات ، من اقامهن دخل الجنة » ثم قرأ ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى ختم العشر . و ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ قد فازوا أو سعدوا ، وحصلوا على الفلاح ، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف .

(٢) ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾

﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ خائفون ساكنون ، والخشوع خشوع القلب .

(٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾

﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ أي عن الباطل ، وهو يشتمل الشرك ، والمعاصي ، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ، كما قال تعالى ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ .

(٤) ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾

﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ المراد ههنا زكاة الأموال ، ويحتمل أن يكون المراد زكاة النفس من الشرك والدنس .

(٥) ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾

﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام ، فلا يقعون فيما نهاهم من زنا ولواط .

(٦) ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾

﴿ الا على ازواجهم أو ما ملكت إيمانهم﴾ أي لا يقربون سوى ازواجهم التي احلها الله لهم ، أو ما ملكت أيمانهم من السراري ومن تعاطى ما احله الله له فلا لوم عليه ولا حرج ولهذا قال ﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ .

(٧) ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾

﴿ فمن ابتغى وراء ذلك ﴾ اي غير الأزواج والاماء ﴿ فأولئك هم العادون ﴾ أي المعتدون . وقد استدل الامام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة .

(٨) ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾

﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ أي إذا أؤتمنوا لم يخونوا ، بل يؤدونها إلى اهلها وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك ، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » .

(٩) ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ أي يواظبون عليها في مواقيتها كما قال ابن مسعود : سألت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، أي العمل احب إلى الله ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قلت ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » قلت ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » اخرجاه في الصحيحين . وقال قتادة : على مواقيتها وركوعها وسجودها . وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة ، واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها

كما قال رسول الله ﷺ : « استقيموا ، ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » .

(١٠) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (١١)

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه العرش »، وثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ « يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ، ويضعها على اليهود والنصارى » وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا ﴾ وكقوله ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

(١٢) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن مبدأ خلق الانسان من سلالة من طين ، وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون (من سلالة من طين) قال قتادة : استل آدم من الطين ، فإن آدم خلق من طين لازب ، وهو الصلصال من الحمأ المسنون ، وذلك مخلوق من التراب .

(١٣) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾

﴿ ثم جعلناه نطفة ﴾ هذا الضمير عائد على جنس الانسان ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ أي ضعيف ، كما قال ﴿ الم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين ﴾ يعني : الرحم معد لذلك .

(١٤) ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾

﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ أي ثم صيرنا النطفة ، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل ، وهو ظهره وترائب المرأة ، وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة ، وهي دم ﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾ وهي

قطعة كالبضعة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿ فخلقنا المضغة عظاماً ﴾ يعني شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها ، ﴿ فكسونا العظام لحماً ﴾ أي جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ أي ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر ، وادراك وحركة واضطراب ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ عن علي بن أبي طالب قال : إذا أتت على النطفة أربعة أشهر بعث الله اليها ملكاً فنفخ فيها الروح في ظلمات ثلاث ، فذلك قوله ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ يعني نفخنا فيه الروح .

(١٥) ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾

يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت .

(١٦) ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾

يعني النشأة الآخرة ﴿ثم الله ينشىء النشأة الآخرة﴾ يعني المعاد وقيام الأرواح إلى الأجساد ، فيحاسب الخلائق .

(١٧) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾

﴿ سبع طرائق ﴾ يعني السموات السبع ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ فيعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ، ولا أرض أرضاً ، ولا جبل إلا يعلم ما في وعره ، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره ، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ .

(١٨) ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾

يذكر تعالى نعمه على عباده التي لا تعد ولا تحصى في انزاله القطر من السماء بقدر ، أي بحسب الحاجة ، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار ، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به ، حتى أن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزرعها ، ولا تحتمل دمنتها انزال المطر يسوق اليها الماء من بلاد أخرى ، كما في أرض مصر ، ويقال لها : الأرض الجرز ، يسوق الله اليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان امطارها فيأتي الماء معه طين أحمر فيسقي أرض مصر ، ويقر

الطين على أرضهم ليزرعوا فيه ، لأن أرضهم سباخ ، يغلب عليها الرمال ، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور . ﴿ فأسكناه في الأرض ﴾ أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض ، وجعلنا في الأرض قابلية له ، وتشربه وتتغذى به ما فيها من الحب والنوى ﴿ وانا على ذهاب به لقادرون ﴾ أي لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا ، ولو شئنا اذى لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والقفار ، ولو شئنا لجعلناه اجاجا ، لا ينتفع به لشرب ، ولا لسقي لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض ، بل ينجر على وجهها ، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا ، ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالا فيسكنه في الأرض ، ويسلكه ينابيع في الأرض ، فيفتح العيون والأنهار ، ويسقي به الزروع والثمار تشربون منه أنتم ودوابكم وأنعامكم وتغتسلون منه ، وتتطهرون منه ، وتتنظفون ، فله الحمد والمنة .

(١٩) ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾

﴿ فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب ﴾ يعني فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق ، فيها نخيل واعناب ﴿ لكم فيها فواكه كثيرة ﴾ أي من جميع الثمار ﴿ ومنها تأكلون ﴾ .

(٢٠) ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴾

﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء ﴾ يعني الزيتونة ، والطور هو الجبل ، وطور سيناء هو طور سينين ، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام ، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون . ﴿ تنبت بالدهن ﴾ قال بعضهم الباء زائدة أي تنبت الدهن ، أو على التضحية ، أي تأتي بالدهن ﴿ وصبغ ﴾ أي أدم ﴿ للآكلين ﴾ أي فيها ما ينتفع به من الدهن والاصباغ . روى الامام احمد عن رسول الله ﷺ « كلوا الزيت وادهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة » .

(٢١) ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ (٢٢)

﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة . . . ﴾ يذكر تعالى ما جعل لخلقه من الأنعام من المنافع ، وذلك أنهم يشربون من البانها الخارجة من بين فرث ودم ويأكلون من حملانها ، ويلبسون

من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ويركبون ظهورها ، ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم .

(٢٣) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد ، وانتقامه ممن أشرك به ، وخالف أمره ، وكذب رسله ﴿ أفلا تتقون ﴾ أي ألا تخافون من الله في إشراككم به ؟ .

(٢٤) ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

فقال الملأ وهم السادة والأكابر منهم ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾ يعنون يترفع عليكم ويتعاظم بدعوى النبوة ، وهو بشر مثلكم ، فكيف أوحى إليه دونكم ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ أي لو أراد أن يبعث نبيه لبعث ملكاً من عنده ، ولم يكن بشرا ، ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ أي ببعثة البشر في آبائنا الأولين ، يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية .

(٢٥) ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

﴿ إن هو إلا رجل به جنة ﴾ أي مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله اليكم ، واختصه من بينكم بالوحي ﴿ فتربصوا به حتى حين ﴾ أي انتظروا به ريب المنون ، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه .

(٢٦) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه ليستنصره على قومه كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ وقال ههنا ﴿ رب انصرني بما كذبون ﴾ .

(٢٧) ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾

فعند ذلك أمره الله بصنعه السفينة وإحكامها واتقانها ، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، أي ذكراً وأنثى ، من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار ، وغير ذلك ، وأن يحمل فيها أهله ﴿ الا من سبق عليه القول منهم ﴾ أي من سبق عليه القول من الله بالهلاك ، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته ، ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ أي عند معاينة انزال المطر العظيم ، لا تأخذنك رأفة بقومك ، وشفقة عليهم ، وطمع في تأخيرهم ، لعلهم يؤمنون ، فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان .

(٢٨) ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿ فإذا استويت أنت ومن معك﴾ كما قال ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم علَيه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وانا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أي إن في هذا الصنيع ، وهو انجاء المؤمنين واهلاك الكافرين لآيات ، أي لحججاً ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاؤ وا به عن الله تعالى ، وإنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شيء عليم بكل شيء ﴿ وإن كنا لمبتلين ﴾ أي لمختبرين للعباد بارسال المرسلين .

(٣١) ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه انشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين قيل : المراد بهم عاد ، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم ، وقيل : المراد بهؤلاء ثمود لقوله ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق ﴾ .

(٣٢) ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾

فأرسل الله فيهم رسولا منهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فكذبوه وخالفوه ،

وأبوا عن اتباعه لكونه بشرا مثلهم .

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ (٣٤)

فاستنكفوا عن اتباع رسول بشري ، وكذبوا بلقاء الله في القيامة ، وأنكروا المعاد الجثماني .

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤١)

وقالوا ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون ﴾ أي بعد ذلك ﴿ إن هو الا رجل افترى على الله كذبا ﴾ أي فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد ﴿ وما نحن له بمؤمنين . قال رب انصرني بما كذبون ﴾ أي استفتح عليهم الرسول ، واستنصر ربه عليهم فأجاب دعاءه ﴿ قال عما قليل ليصبحن نادمين ﴾ أي بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق ﴾ أي وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم . والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي البارد . وقوله ﴿ فجعلناهم غثاء ﴾ أي صرعى هلكى كغثاء السيل ، وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه ﴿ فبعدا للقوم الظالمين ﴾ أي بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله ، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤٤)

يقول تعالى ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ﴾ أي أمماً وخلائق ﴿ ما تسبق من امة اجلها وما يستأخرون ﴾ يعني بل يؤخذون على ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ ، وعلمه قبل كونهم أمة بعد أمة ، وقرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، وخلفاً بعد سلف .

﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى ﴾ يتبع بعضهم بعضاً . وقوله ﴿ كلما جاء امة رسولها كذبوه ﴾ يعني جمهورهم وأكثرهم ﴿ فأتبعنا بعضهم بعضاً ﴾ أي أهلكناهم . ﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾ أي اخباراً واحاديث للناس كقوله ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ .

(٤٥) ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٤٩)

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام واخاه هارون إلى فرعون وملئه بالآيات والحجج الدامغات ، والبراهين القاطعات ، وإن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما ، لكونهما بشرين كما انكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر ، تشابهت قلوبهم ، فأهلك الله فرعون وملأه، واغرقهم في يوم واحد اجمعين ، وأنزل على موسى الكتاب ، وهو التوراة فيها أحكامه وأوامره ونواهيه ، وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقبط ، وأخذ أخذ عزيز مقتدر ، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة ، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين ، كما قال ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴾ .

(٥٠) ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس ، أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى . ﴿ وآويناهما إلى ربوة ﴾ الربوة المكان المرتفع من الأرض ، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ﴿ ذات قرار ﴾ يقول : ذات خصب ﴿ ومعين ﴾ الماء الجاري . هل هذه الربوة بمصر ، أو دمشق ، أو هي الرملة من فلسطين ؟ أقوال للعلماء .

(٥١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي

ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال ، والقيام بالصالح من الأعمال ، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح ، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام ، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ودلالة ونصحا . فجزاهم الله عن العباد خيراً ﴿ من الطيبات ﴾ يعني الحلال . . وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة : قال : قال رسول الله ﷺ « يا أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين » فقال ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾ وقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، يمد يديه إلى السماء ، يا رب يا رب ، فأنى يستجاب لذلك ؟ وقوله ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد ، وملة واحدة . وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ولهذا قال ﴿ وأنا ربكم فاتقون ﴾ . ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا ﴾ أي الأمم الذين بعثت إليهم الأنبياء ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي يفرحون بما هم فيه من الضلال ، لأنهم يحسبون أنهم مهتدون ، ولهذا قال مهدداً لهم ومتوعداً ﴿ فذرهم في غمرتهم ﴾ أي في غيهم وضلالهم ﴿ حتى حين ﴾ أي إلى حين حينهم وهلاكهم . وقوله ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ يعني أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ، ومعزتهم عندنا ؟ كلا ، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ لقد أخطأوا في ذلك ، وخاب رجاؤهم ، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاء ، ولهذا قال ﴿ بل لا يشعرون ﴾ .

﴿٥٧﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾

أي هم مع إحسانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه ، وجلون من مكره بهم .

﴿٥٨﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

أي يؤمنون بآياته الكونية والشرعية .

﴿٥٩﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾

أي لا يعبدون معه غيره ، بل يوحدونه ، ويعلمون أنه لا إله إلا الله ، أحد صمد ، لم يتخذ ولداً ، وأنه لا نظير له ، ولا كفء له .

(٦٠) ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُوْلَٰئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ (٦١)

﴿ والذين يؤتون ما آتوا . . . ﴾ أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا بشروط الاعطاء ، وهذا من باب الاشفاق والاحتياط . روى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله ، الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة : هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال : لا ، يا بنت الصديق ، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق ، وهو يخاف الله عز وجل » رواه الترمذي .

(٦٢) ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، أي إلا ما تطيق حمله ، والقيام به وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور ، لا يضيع منه شيء ، ولهذا قال ﴿ ولدينا كتاب ينطق بالحق ﴾ يعني كتاب الاعمال ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يبخسون من الخير شيئاً ، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين .

(٦٣) ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾

ثم قال منكراً على الكفار والمشركين من قريش ﴿ بل قلوبهم في غمرة ﴾ أي في غفلة وضلالة ﴿ من هذا ﴾ أي القرآن الذي أنزل على رسوله ﷺ . وقوله ﴿ ولهم أعمال ﴾ أي سيئة ﴿ من دون ذلك ﴾ يعني الشرك ﴿ هم لها عاملون ﴾ لا بد أن يعملوها . وقال آخرون ﴿ لهم أعمال من دون ذلك . . . ﴾ أي قد كتبت عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة لتحق عليهم كلمة العذاب . وفي الحديث « فوالذي لا إله غيره إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » .

(٦٤) ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾

﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب ﴾ يعني حتى إذا جاء مترفيهم ، « وهم المنعمون في الدنيا » عذابُ الله وبأسه ونقمته بهم ﴿ إذا هم يجأرون ﴾ أي يصرخون ويستغيثون .

(٦٥) ﴿ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾

﴿ لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ﴾ أي لا يجيركم أحد مما حل بكم ، سواء جأرتم ، أو سكتم ، لا محيد ولا مناص ولا وزر ، لزم الأمر ووجب العذاب .

(٦٦) ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾

ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال ﴿ قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾ أي إذا دعيتم أبيتم ، وإن طلبتم امتنعتم .

(٦٧) ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾

﴿ مستكبرين به سامراً تهجرون ﴾ مستكبرين بالبيت ، يقولون : نحن أهله ﴿ سامرا ﴾ يتكبرون ويسمرون فيه ، ولا يعمرونه ويهجرونه .

(٦٨) ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم ، وتدبرهم له ، وإعراضهم عنه ، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل على رسول أكمل منه ، ولا أشرف ، لاسيما آباؤهم الذين ماتوا في الجاهلية حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير ، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها ، والقيام بشكرها وتفهمها ، والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار ، كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول ﷺ ورضي عنهم . ﴿ أفلم يدبروا القول ﴾ إذاً والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله ، لو تدبره القوم وعقلوه ، ولكنهم أخذوا بما تشابه فهلكوا عند ذلك .

(٦٩) ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾

ثم قال منكراً على الكافرين من قريش ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾ أي أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التي نشأ بها فيهم ؟ أفيقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه ؟ .

(٧٠) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾

﴿ أم يقولون به جنة ﴾ يحكي قول قريش عن النبي ﷺ . أنه تقوّل القرآن ، أي افتراه من عنده ، أو أن به جنوناً ، ولا يدري ما يقول ، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به ، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن ، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يطاق ولا يدافع ، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ، ولا يستطيعون أبد الآبدين ، ولهذا قال : ﴿ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ﴾ جملة مستأنفة أو حالية .

(٧١) ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾

﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم . . . ﴾ والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى وشرّع الأمور على وفق ذلك ﴿ لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ أي لفساد أهوائهم ، واختلافها ﴿ بذكرهم ﴾ أي القرآن ﴿ فهم عن ذكرهم معرضون ﴾ .

(٧٢) ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾

﴿ خرجا ﴾ أجرا ، أو جعلا ﴿ فخراج ربك خير ﴾ أي أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلا ولا شيئا على دعوتك إياهم إلى الهدى ، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه .

(٧٣) ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴾ (٧٤)

﴿لناكبون﴾ أي لعادلون حاشرون منحرفون ، تقول العرب : نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها .

(٧٥) ﴿ * وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

﴿ ولو رحمناهم . . . ﴾ يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم بأنه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له ، ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم .

(٧٦) ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾

﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب ﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿ فما استكانوا لربهم ﴾ أي فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة ، بل استمروا على غيهم وضلالهم .

فما استكانوا : أي ما خشعوا ﴿ وما يتضرعون ﴾ أي ما دعوا ، كما قال تعالى ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾ .

(٧٧) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾

﴿ حتى إذا فتحنا عليهم باباً . . . ﴾ أي حتى إذا جاءهم أمر الله ، وجاءتهم الساعة بغتة ، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون ، فعند ذلك أبلسوا من كل خير ، وأيسوا من كل راحة ، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم .

(٧٨) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والابصار والأفئدة ، وهي العقول والفهوم التي يذكرون بها الأشياء ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله ، وأنه الفاعل المختار لما يشاء . وقوله ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم . كقوله ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

(٧٩) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر في برئه الخليقة ، وذرئه لهم في سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم وصفاتهم ، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم ، فلا يترك منهم صغيراً ولا كبيراً ولا ذكراً ولا أنثى ولا جليلاً ولا حقيراً إلا أعاده كما بدأه ، ولهذا قال :

(٨٠) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وهو الذي يحيي ويميت ﴾ أي يحيي الرمم ، ويميت الأمم ﴿ وله اختلاف الليل والنهار ﴾ أي وعن أمره تسخير الليل والنهار ، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، يتعاقبان لا يفتران ، ولا يفترقان بزمان غيرهما ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شيء ، وعز كل شيء ، وخضع له كل شيء .

(٨١) ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (٨٢)

ثم قال مخبراً عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين ﴿ بل قالوا مثل ما

قال الأولون . قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ﴾ يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى .

(٨٣) ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا . . . ﴾ يعنون : الاعادة محال ، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلافهم .

(٨٤) ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو ، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ، ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وأنه لا شريك له فيها ، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً ولا يملكون شيئاً ، ولا يستبدون بشيء ، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ؟ ﴾ أي من مالكها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ .

(٨٥) ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ سيقولون لله ﴾ أي فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له ، فإذا كان ذلك ﴿ قل أفلا تذكرون ﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره .

(٨٦) ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

أي من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات ، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات ﴿ورب العرش العظيم﴾ أي الكبير .

(٨٧) ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

﴿ سيقولون لله قل أفلا تتقون ﴾ أي إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه ، وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به .

(٨٨) ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ﴾ أي بيده الملك ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ أي متصرف فيها ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يخفر في جواره . وليس لمن دونه أن يجير عليه ، لئلا يفتات عليه ولهذا قال تعالى وهو يجير ولا يجار عليه أي وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه الذي له الخلق والأمر . ولا معقب لحكمه الذي لا يمانع ولا يخالف ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿٨٩﴾ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ﴿٩٠﴾

﴿ سيقولون لله ﴾ أي سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿ قل فأنى تسحرون ﴾ أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم بذلك ﴿ بل أتيناهم بالحق ﴾ وهو الاعلام بأنه لا إله إلا الله ، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ أي في عبادتهم مع الله غيره ، ولا دليل لهم على ذلك ، فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال ، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لآبائهم ، وأسلافهم الحيارى الجهال كما قال الله عنهم ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ .

﴿٩١﴾ ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة فقال ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله . . . ﴾ أي لو قدر الآلهة لانفرد منهم بما خلق ، فما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق ، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض ﴿ ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾ أي عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً .

﴿٩٢﴾ ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه ﴿ فتعالى عما

يشركون ﴾ أي تقدس وتنزه وتعالى عز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون .

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٩٤﴾

يقول تعالى آمراً نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم ﴿ رب إما تريني ما يوعدون ﴾ أي إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلني فيهم كما جاء في الحديث « وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون » .

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾ ﴿٩٥﴾

أي لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن .

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ ﴿٩٦﴾

ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس ، وهو الاحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة فقال تعالى ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة ﴾ وهذا كما قال في الآية الأخرى ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ ﴿٩٨﴾

﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ أمره الله أن يستعيذ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل ، ولا ينقادون بالمعروف ، وقد كان النبي يقول « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزة ونفخة ونفثة » وقوله تعالى ﴿ وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ أي في شيء من أمري ، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور ، وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى ،

وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته ، ولهذا قال ﴿ رب ارجعون لعلي اعمل صالحا فيما تركت ﴾ وقوله ﴿ كلا إنها كلمة ﴾ كلا حرف ردع وزجر ، أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه . وقوله تعالى ﴿ هو قائلها ﴾ أي لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم ، أو إذا قال الكافر ﴿رب ارجعون لعلي أعمل صالحا ﴾ يقول الله تعالى : كلا كذبت ، وقوله ﴿ ومن ورائهم ﴾ يعني أمامهم . ﴿ برزخ ﴾ البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أي يستمر به العذاب إلى يوم البعث ، كما جاء في الحديث ﴿ فلا يزال معذباً فيها ﴾ وفي هذا تهديد لهؤلاء المحتضرين .

(١٠١) ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور ، وقام الناس من القبور ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ أي لا تنفع الأنساب يومئذ ، ولا يرثي والد لولده ، ولا يلوي عليه .

(١٠٢) ﴿ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾

﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ أي رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ الذين فازوا فنجوا من النار ، وادخلوا الجنة .

(١٠٣) ﴿ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾

﴿ ومن خفت موازينه ﴾ أي ثقلت سيئاته على حسناته ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي خابوا وهلكوا ، وباؤوا بالصفقة الخاسرة ﴿ في جهنم خالدون ﴾ أي ماكثون فيها ، دائمون مقيمون ، فلا يظعنون .

(١٠٤) ﴿ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾

﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ كما قال تعالى ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم ﴿ وهم فيها كالحون ﴾ في الحديث « تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته » رواه الترمذي والامام أحمد .

(١٠٥) ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾

هذا تقريع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك فقال تعالى ﴿ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ أي قد أرسلت اليكم الرسل ، وأنزلت اليكم الكتب وأزلت شبهكم ، ولم يبق لكم حجة .

(١٠٦) ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾

أي قد قامت علينا الحجة ، ولكن كنا اشقى من أن نتقاد لها ونتبعها فضللنا عنها ولم نرزقها .

(١٠٧) ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾

أي رُدَّنا إلى الدنيا ، فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة ، كما قال تعالى ﴿فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾ .

(١٠٨) ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾

هذا جواب من الله للكفار إذا سألوا الخروج من النار ، والرجعة إلى هذه الدار يقول ﴿ اخسئوا فيها ﴾ أي امكثوا فيها صاغرين مهانين اذلاء ﴿ ولا تكلمون ﴾ أي لا تعودوا إلى سؤالكم هذا ، فإنه لا جواب لكم عندي .

(١٠٩) ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا ، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه فقال ﴿ إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ﴾ .

(١١٠) ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾

﴿ فاتخذتموهم سخريا ﴾ أي فسخرتم منهم في دعائهم اياي وعبادتهم ﴿ حتى أنسوكم ذكري ﴾ أي حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتي ﴿ وكنتم منهم تضحكون ﴾ أي من صنيعهم وعبادتهم .

(١١١) ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾

﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا ﴾ أي على اذاكم لهم واستهزائكم ﴿ أنهم هم الفائزون ﴾ أي جعلتهم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار .

(١١٢) ﴿ قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾

يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ، لو صبروا في مدة الدنيا لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ﴾ أي كم كانت إقامتكم في الدنيا ؟ .

(١١٣) ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾

﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين ﴾ أي الحاسبين .

(١١٤) ﴿ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ قال إن لبثتم الا قليلاً ﴾ أي مدة يسيرة على كل تقدير ﴿ لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ أي لما آثرتم الفاني على الباقي ، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء ، ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة ، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا .

(١١٥) ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ افحسبتم أنما خلقناكم عبثا ﴾ أي أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا ارادة منكم ولا حكمة لنا ، وقيل: للعبث أي لتلعبوا وتعبثوا ، كما خلقت البهائم ، لا ثواب لها ولا عقاب ، وإنما خلقناكم للعبادة ، وإقامة أوامر الله تعالى ﴿ وأنكم الينا ترجعون ﴾ أي لا تعودون في الدار الآخرة .

(١١٦) ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾

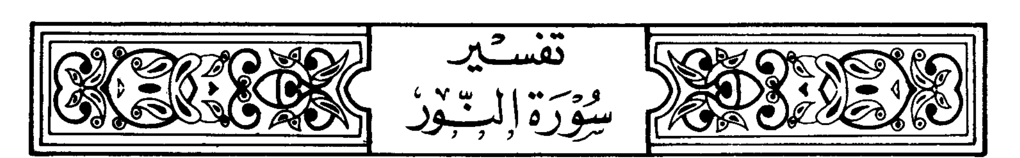
﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ أي تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً ، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك ﴿ لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ، ووصفه بأنه كريم ، أي حسن المنظر ، بهي الشكل .

(١١٧) ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره ، وعبد معه سواه ، ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان له ، أي لا دليل له على قوله فقال تعالى ﴿ ومن يدع مع الله لها آخر لا برهان له به ﴾ وهذه جملة معترضة ، وجواب الشرط في قوله ﴿ فإنما حسابه عند ربه ﴾ أي الله يحاسبه على ذلك . ثم أخبر ﴿ إنه لا يفلح الكافرون ﴾ أي لديه يوم القيامة ، لا فلاح لهم ، ولا نجاة .

(١١٨) ﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾

هذا ارشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء ، فالغفر إذا اطلق معناه غفر الذنب ، وستره عن الناس . والرحمة معناها أن يسدده ، ويوفقه في الأقوال والأفعال .



تفسير سُوْرَةُ النُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى : هذه السورة ﴿ أنزلناها ﴾ فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها ﴿ وفرضناها ﴾ أي بينا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود . ﴿ وأنزلنا فيها آيات بينات ﴾ أي مفسرات واضحات ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ .

(٢) ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ يعني هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد ، الزاني إذا كان لم يتزوج فإن حده مائة جلدة ، وإذا كان محصنا ، وهو الذي قد وطيء في نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل ، فإنه يرجم ﴿ ولا تأخذكم بهما

رأفة في دين الله ﴾ أي في حكم الله ، أي لا ترأفوا بالزاني والزانية في شرع الله ، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد ، فلا يجوز ذلك . ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي فافعلوا ذلك وأقيموا الحدود على من زنى . وشددوا عليه الضرب ، ولكن ليس مبرحاً ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك . ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس ، فإن ذلك يكون ابلغ في زجرهما وانجع في ردعهما ، فإن في ذلك تقريعاً وتوبيخاً وفضيحة إذا كان الناس حضوراً .

(٣) ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة ، أي لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك . وكذلك ﴿ الزانية لا ينكحها إلا زان ﴾ أي عاص بزناه ﴿ أو مشرك ﴾ لا يعتقد تحريمه ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ أي تعاطيه والتزويج بالبغايا أو تزويج العفائف بالرجال الفجار .

(٤) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة ، وهي الحرة البالغة العفيفة ، فإذا كان المقذوف رجلاً فكذلك يجلد قاذفه أيضاً ، وليس فيه نزاع بين العلماء ، فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درأ عنه الحد ، ولهذا قال تعالى ﴿ ثم لم يأتوا بأربعة شهداء . . . ﴾ فأوجب على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام أن يجلد ثمانين جلدة ، وأنه ترد شهادته أبدا ، وأن يكون فاسقا ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس . وأولئك هم الفاسقون .

(٥) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ وهل يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط ، ويبقى مردود الشهادة دائما ، وإن تاب ، أو يعود إلى الجملتين فلا تقبلوا لهم الشهادة ابدا وأولئك هم الفاسقون ـ . واما الجلد فقد ذهب وانقضى سواء

تاب أو أصر ، وإلا حكم له بعد ذلك بلا خلاف . فذهب الامام مالك واحمد والشافعي إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته وارتفع عنه حكم الفسق . وقال أبو حنيفة . إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة أبداً .

(٦) ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج ، وزيادة مخرج إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل ، وهو أن يحضرها إلى الامام فيدعي عليها بما رماها به فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين ، أي فيما رماها به من الزنا .

(٧) ﴿ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء ، وحرمت عليه ابدا ، ويعطيها مهرها ، ويتوجب عليها حد الزنا .

(٨) ﴿ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد اربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، أي فيما رماها به .

(٩) ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

ولهذا قال ﴿ويدرأ عنها العذاب﴾ يعني الحد وخصها بالغضب مع أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور ، وهي تعلم صدقه فيما رماها به ، لهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها ، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه .

(١٠) ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾

ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون بهم من الضيق فقال ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ أي لحرجتم ولشق عليكم كثير

من امورکم ﴿ وأن الله تواب ﴾ على عباده وإن كان ذلك بعد الحلف والايمان المغلظة . ﴿ حكيم ﴾ فيما يشرعه ويأمر به ، وفيما ينهى عنه .

﴿١١﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة رضي الله عنها حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب والبهت ، والفرية التي غار الله عز وجل لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض رسول الله ﷺ فقال تعالى ﴿ إن الذين جاؤ وا بالإفك عصبة منكم ﴾ أي جماعة منكم ، يعني ما هو واحد ولا اثنان ، بل جماعة فكان المقدم في هذه اللعنة عبدالله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين ، فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في اذهان بعض المسلمين فتكلموا به وجوزه آخرون منهم . وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن ، وقال رسول الله ﷺ « أبشري يا عائشة ، اما الله عز وجل فقد برأك » فقوله تعالى ﴿ إن الذين جاؤ وا بالإفك ﴾ أي بالكذب والبهت والافتراء ﴿ عصبة منكم ﴾ أي جماعة منكم ﴿ لا تحسبوه شراً لكم ﴾ أي يا آل أبي بكر ﴿ بل هو خير لكم ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، لسان صدق في الدنيا ، ورفعة منازل في الآخرة . واظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم الذي﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ وقوله ﴿ لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ﴾ أي لكل من تكلم في هذه القضية ، ورمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب ﴿ والذي تولى كبره منهم ﴾ قيل : ابتدأ به ، وقيل : الذي كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه ﴿ له عذاب عظيم ﴾ أي على ذلك . ثم إن الأكثرين على أن المراد بذلك إنما هو عبدالله بن أبي ابن سلول قبحه الله ولعنه .

﴿١٢﴾ ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها حين افاض بعضهم في ذلك الكلام السوء ، وما ذكر من شأن الافك فقال تعالى ﴿ لولا ﴾ هلا ﴿ إذ سمعتموه ﴾ أي ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿ ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم . فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين

رضي الله عنها أولى بالبراءة منهم بطريق الأولى والأحرى وقوله ﴿ وقالوا ﴾ أي بألسنتهم ﴿ هذا إفك مبين ﴾ أي كذب ظاهر على أم المؤمنين رضي الله عنها ، فإن الذي وقع لم يكن ريبة ، وذلك إن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة والجيش بكامله يشاهدون ذلك ، ولو كان الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا

(١٣) ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾

﴿ لولا ﴾ هلا ﴿ جاؤ وا عليه ﴾ أي على ما قالوه ﴿ بأربعة شهداء ﴾ يشهدون على صحة ما جاؤ وا به ﴿ فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ أي في حكم الله ، كاذبون فاجرون .

(١٤) ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة ﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة بأن قبل توبتكم ، وإنابتكم إليه في الدنيا ، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿ لمسكم فيما أفضتم فيه ﴾ من قضية الافك ﴿ عذاب عظيم ﴾ وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش ، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبدالله بن أبي ابن سلول وأضرابه فليس أولئك مرادين في هذه الآية لأنهم ليسوا مؤمنين .

(١٥) ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾

﴿ إذ تلقونه بألسنتكم ﴾ أي يرويه بعضكم عن بعض ، يقول هذا : سمعته من فلان ، وقال فلان : كذا . وذكر بعضهم كذا ﴿ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ﴾ أي تقولون ما لا تعلمون ﴿ وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ﴾ أي تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين وتحسبون ذلك يسيرا سهلا ، ولو لم تكن زوجة رسول الله ﷺ لما كان هينا ، فكيف وهي زوجة النبي الأمي خاتم الأنبياء وسيد المرسلين فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل ، فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا ، وهو سبحانه وتعالى لا يقدّر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك ، حاشا وكلا ، ولما لم يكن ذلك ، فكيف يكون هذا في

سيدة نساء الأنبياء وزوجة سيد ولد آدم على الاطلاق في الدنيا والآخرة . وفي الصحيحين الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ ، يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض » وفي رواية « لا يلقي لها بالا » .

(١٦) ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾

هذا تأديب آخر بعد الأول ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ﴾ أي ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام . ولا نذكره لأحد ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ أي سبحان الله أن يقال : هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله .

(١٧) ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً ﴾ أي ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسول الله ﷺ . فأما من كان متصفاً بالكفر فله حكم آخر .

(١٨) ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ ويبين الله لكم الآيات ﴾ أي يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدرية ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عليم بما يصلح عباده ، حكيم في شرعه وقدره .

(١٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئا من الكلام السيء فقام بذهنه شيء منه وتكلم به ، فلا يكثر منه ، ولا يشيعه ، ويذيعه ، فقد قال تعالى ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم ﴾ بالحد ، وفي الآخرة بالعذاب ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ أي فردوا الأمور إليه ترشدوا . روى الامام أحمد عن النبي ﷺ قال :«لا تؤذوا عباد الله ، ولا تعيروهم ، ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من طلب عورة اخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته».

(٢٠) ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول الله تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم ﴾ أي لولا هذا

لكان أمر آخر ، ولكنه تعالى رؤوف بعباده رحيم بهم ، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية ، وطهر منهم بالحد الذي اقيم عليهم .

(٢١) ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ يعني طرائقه ومسالكه وما يأمر به ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفشحاء والمنكر ﴾ هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها ، ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد ابدا ﴾ أي لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ويزكي النفوس من شركها وفجورها ودنسها وما فيها من أخلاق رديئة ، كل بحسبه لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيرا ﴿ ولكن الله يزكي من يشاء ﴾ أي من خلقه ، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي ، وقوله ﴿ والله سميع ﴾ أي سميع لأقوال عباده ﴿ عليم ﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال

(٢٢) ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى ﴿ ولا يأتل ﴾ من الألية ، وهي الحلف ، أي لا يحلف ﴿أولوا الفضل منكم ﴾ أي الطول والصدقة والاحسان ﴿ والسعة ﴾ أي الجدة ﴿ أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ﴾ أي لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين ،وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام ولهذا قال ﴿ وليعفوا وليصفحوا ﴾ أي عما تقدم منهم من الاساءة والأذى ، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم ، وهذه الآية نزلت في الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفع مسطح بن اثاثه بنافعة أبداً بعد ما قال في عائشة ما قال ، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ قال الصديق : بلى والله وإنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة ، وقال : والله لا أنزعها منه ابدا .

(٢٣) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ، ولا سيما التي كانت سبب النزول ، وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما . وقد اجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية فإنه كافر معاند للقرآن، وفي بقية أمهات المؤمنين قولان : اصحهما أنهن كهي . والله اعلم . وقوله تعالى ﴿ لعنوا في الدنيا والآخرة ﴾ كقوله ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة ﴾.

(٢٤) ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم . . .﴾ عن ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إنهم يعني المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا تعالوا حتى نجحد فيجحدون فيختم على افواههم ، وتشهد ايديهم وأرجلهم ، ولا يكتمون الله حديثا .

(٢٥) ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾

﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾ أي حسابهم ، وكل ما في القرآن دينهم أي حسابهم ﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ أي وعده ووعيده وحسابه ، هو العدل الذي لا جور فيه .

(٢٦) ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

قال ابن عباس : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول ، والطيبات من القول للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من القول ، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة من كلامهم أولى به ، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾ أي هم بعداء عما يقوله أهل الافك والعدوان ﴿ لهم مغفرة ﴾ أي بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿ ورزق كريم ﴾ اي عند الله في جنات النعيم . وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة .

(٢٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ

خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

هذه آداب شرعية ، أدب الله بها عباده المؤمنين ، فقد أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده ، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات ، فإن أذن له وإلا انصرف كما ثبت في الصحيح أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً فلم يؤذن له انصرف ، ثم قال عمر : ألم اسمع صوت عبدالله بن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له . فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما ارجعك ؟ قال : إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي ، وإني سمعت النبي ﷺ يقول : إن استأذن احدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف ، فقال عمر : لتأتيني على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضرباً ، فذهب إلى ملأ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر ، فقالوا . لا يشهد لك إلا أصغرنا ، فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك ، فقال : الهاني عنه الصفق بالأبواق . ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ يعني الاستئذان خير لكم بمعنى هو خير من الطرفين : للمستأذن ، ولأهل البيت ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ .

(٢٨) ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾

﴿ فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ﴾ وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير اذنه ، فإن شاء أذن ، وإن لم يشأ لم يأذن ﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ أي إذا ردوكم من الباب قبل الاذن أو بعده ﴿ فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ أي رجوعكم أزكى لكم وأطهر ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾. قال بعض المهاجرين : لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها ان استأذن على بعض اخواني فيقول لي ارجع فأرجع وأنا مغتبط .

(٢٩) ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾

هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها ، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاع فيها بغير اذن كالبيت المعد للضيف إذا أذن له فيه أول مرة كفى . وقال آخرون : هي بيوت التجار كالخانات ، ومنازل الأسفار وبيوت مكة وغير ذلك .

(٣٠) ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه ، وأن يغمضوا ابصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعا ، كما رواه مسلم عن عبدالله البجلي قال : سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن اصرف بصري . وفي الصحيح « إياكم والجلوس على الطرقات » قالوا يا رسول الله ، لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال رسول الله ﷺ : « إن ابيتم فاعطوا الطريق حقه » قالوا وما حق الطريق يا رسول الله ؟» قال : « غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » ﴿ ويحفظوا فروجهم ﴾ وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا ، وتارة يكون بحفظه من النظر إليه ، كما جاء في مسند الامام أحمد « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » ﴿ ذلك أزكى لهم ﴾ أي أطهر لقلوبهم ، واتقى لدينهم ، كما قيل : من حفظ بصره أورثه الله نورا في بصيرته .

(٣١) ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

هذا امر من الله تعالى للنساء المؤمنات ، وغيرة منه لأزواجهن عباده المؤمنين ، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات . وسبب نزول هذه الآية أن أسماء بنت مرثد كانت في محلها في بني حارثة فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبدو ما في ارجلهن من الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء ما أقبح هذا فأنزل الله ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ﴾ أي عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير ازواجهن ، ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب

بشهوة ولا بغير شهوة اصلا . ﴿ ويحفظن فروجهن ﴾ عن الفواحش ، او أن لا يراها أحد ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾ أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن اخفاؤه كالرداء والثياب ، او هو وجهها وكفاها والخاتم . ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ والخمر جمع خمار ، وهو ما يخمر به ، اي يغطى به الرأس والنحر والصدر فلا يرى منه شيء . ﴿ إلا لبعولتهن ﴾ أي أزواجهن ﴿ أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو ابنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بني اخوانهن أو بني اخواتهن ﴾ كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ، ولكن من غير تبرج ولم يذكر العم ولا الخال لأنهما ينعتان لأبنائهما ، ولا تضع خمارها عند العم والخال ، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره . ﴿ أو نسائهن ﴾ يعني تظهر بزينتها أيضاً للنساء المسلمات ، دون نساء أهل الذمة لئلا تصفهن لرجالهن ، والمرأة المسلمة تعلم أن وصف المرأة الأجنبية للرجل الأجنبي حرام فتنزجر عنه ، ﴿ او ما ملكت أيمانهن ﴾ من نساء المشركين فيجوز لها أن تظهر زينتها لها ، وإن كانت مشركة ، لأنها أمتها . وقال الأكثرون : بل يجوز لها أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء . ﴿ او التابعين غير أولي الاربة من الرجال ﴾ يعني كالأجراء والاتباع الذين ليسوا بأكفاء ، وهم مع ذلك في عقولهم وله وحوب ، ولا همة لهم إلى النساء ، ولا يشتهونهن ، ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾ يعني لصغرهم لا يفهمون احوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرحيم ، وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن ، فإذا كان الطفل صغيرا لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء ، وفي الحديث « إياكم والدخول على النساء » قيل يا رسول الله ، أفرأيت الحمو؟ قال : « الحمو الموت » ﴿ ولا يضربن بأرجلهنّ ﴾ كانت المرأة في الجاهلية اذا كانت تمشي في الطريق ، وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوته ضربت برجلها الأرض فيسمع الرجال طنينه فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك ، ومن ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها ، وفي الحديث : « كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا » يعني زانية ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا . . . ﴾ أي افعلوا ما آمركم به من هذه الصفات الجميلة ، والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما كان عليه اهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة ، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله ، وترك ما نهيا عنه .

(٣٢) ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن

فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبنية على جمل من الأحكام المحكمة والأوامر المبرمة . فقوله تعالى ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم . . . ﴾ هذا امر بالتزويج . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ وعن ابن مسعود : « التمسوا الغنى في النكاح » وفي الحديث « ثلاثة حق على الله عونهم الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء والغازي في سبيل الله ».

(٣٣) ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ هذا امر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجا بالتعفف عن الحرام . كما قال ﷺ « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ﴾ هذا امر من الله تعالى للسادة اذا طلب عبيدهم منهم الكتابة ، أن يكاتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾ فقال بعضهم اطرحوا لهم من الكتابة بعضها ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ﴾ كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم امة ارسلها تزني ، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت ، فلما جاء الاسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك ﴿ إن أردن تحصنا ﴾ هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ﴿ لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾ أي من خراجهن ومهورهن واولادهن ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام ومهر البغي وحلوان الكاهن ، ﴿ ومن يكرههن فإن الله من بعد اكراههن غفور رحيم ﴾ غفور لهن ما أكرهن عليه ، وإثمهن على من أكرههن .

(٣٤) ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

ولما فصل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها قال تعالى ﴿ ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات ﴾ يعني القرآن ، فيه آيات واضحات مفسرات ﴿ ومثلا من الذين خلوا من قبلكم ﴾ أي خبرا

عن الأمم الماضية ، وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى . كما قال تعالى ﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ أي زاجرا عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿ وموعظة للمتقين ﴾أي لمن اتقى الله وخافه . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفة القرآن : فيه حكم ما بينكم وخبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله .

﴿ * ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣٥)

عن ابن عباس ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ يقول هادي اهل السموات والأرض ، وعن ابن عباس أيضاً يدبر الأمر فيهما ، نجومهما وشمسهما وقمرهما . فبدأ بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن ، ﴿ مثل نوره ﴾ في هذا الضمير قولان احدهما أنه عائد إلى الله عز وجل ، والثاني أنه عائد الى المؤمن ، تقديره : مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة ، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى ، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه . ﴿ كمشكاة ﴾ هو موضع الفتيلة من القنديل ﴿ فيها مصباح ﴾ وهو الزبالة التي تضيء ، أو المشكاة كوة في البيت ، والمصباح هو النور الذي في الزبالة ﴿ المصباح في زجاجة ﴾ أي هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية ﴿ الزجاجة كأنها كوكب دري ﴾ أي كأنها كوكب من درّ . ﴿ يوقد من شجرة مباركة ﴾ أي يستمد من زيت شجرة مباركة ﴿ زيتونة ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ أي ليست في شرق بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ، ولا في غربها فيقلص عنها الفيء قبل الغروب بل هي في مكان وسط ، تعصرها الشمس من اول النهار إلى آخره ، فيجيء زيتها صافياً معتدلاً مشرقاً ، ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ يعني كضوء إشراق الزيت ﴿ نور على نور ﴾ يعني نور النار ونور الزيت أو هو ايمان العبد وعمله ، وقال ابي بن كعب : ﴿ نور على نور ﴾ فهو يتقلب في خمسة من النور ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة . ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ اي يرشد الله إلى هدايته من يختاره ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ أي

هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الاضلال .

(٣٦) ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقدة من زيت طيب ، وذلك كالقنديل مثلاً ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض ، وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحد . فقال ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ أي أمر الله تعالى بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها وأمر الله ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها ﴿ ويذكر فيها اسمه ﴾ أي اسم الله أو يتلى فيها كتابه ﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴾ أي في البكرات والعشيات . والآصال جمع أصيل ، وهو آخر النهار ، وعن ابن عباس : كل تسبيح في القرآن هو الصلاة .

(٣٧) ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾

﴿ رجال ﴾ فيه إشعار بهممهم السامية ، ونياتهم وعزائمهم العالية التي بها صاروا عماراً للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ، ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه . ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ يقول عن الصلاة المكتوبة ، أو عن الصلاة في جماعة . والمراد أن يقيموها كما أمرهم الله ، وأن يحافظوا على مواقيتها وما استحفظهم الله فيها ﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والابصار ﴾ أي يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والابصار ، أي من شدة الفزع وعظمة الأهوال .

(٣٨) ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

أي هؤلاء ، من الذين يتقبل الله حسناتهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم وقوله ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أي يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

(٣٩) ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار فأما الأول فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم

لذين يحسبون أنهم على شيء من الاعمال والاعتقادات ، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض من بعد كأنه بحر طام، والقيعة جمع قاع كجار وجيرة ، والقاع أيضاً واحد القيعان كما يقال : جار وجيران ، وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة ، وفيه يكون السراب ، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار ، وأما الأول فإنما يكون في أول النهار ، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض ، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء يحسبه ماء قصده ليشرب منه فلما انتهى إليه ﴿ لم يجده شيئاً ﴾ فكذلك الكافر ، يحسب أنه قد عمل عملاً ، وأنه قد حصل شيئاً ، فإذا وافى الله يوم القيامة ، وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله لم يجد له شيئاً بالكلية ، إما لعدم الإخلاص ، أو لعدم سلوك الشرع كما قال تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ وقال ههنا ﴿ ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ .

(٤٠) ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾

﴿ أو كظلمات في بحر لجي ﴾ هو العميق ﴿ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام ، فهذا هو المثل الثاني ﴿ ومن لم يجعل الله نوراً فما له من نور ﴾ أي من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائر كافر ، كقوله ﴿ من يضلل الله فلا هادي له ﴾ وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً ، وعن شمائلنا نوراً ، وأن يعظم لنا نوراً .

(٤١) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له من في السموات والأرض أي من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد كما قال تعالى ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ ﴾ وقوله ﴿ والطير صافات ﴾ أي في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه ، وهو يعلم ما هي فاعلة ، ولهذا قال ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ أي كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عباد الله عز وجل .

(٤٢) ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذي لا تبتغي العبادة إلا له . ولا معقب لحكمه ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء ، أي فهو الخالق المالك ، الإله الحكم في الدنيا والآخرة ، وله الحمد في الأولى والآخرة .

﴿٤٣﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾

يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة ، وهو الازجاء ﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ أي يجمعه بعد تفرقه ﴿ ثم يجعله ركاما ﴾ أي متراكماً ، أي يركب بعضه بعضاً ﴿ فترى الودق ﴾ أي المطر ﴿ يخرج من خلاله ﴾ أي من خلله . قال عبيد بن عمير الليثي : يبعث الله المنيرة ، فتقم الأرض قماً ، ثم يبعث الله الناشئة فتنشىء السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه ، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ قال بعض النحاة ﴿ من ﴾ الأولى لابتداء الغاية ، والثانية للتبعيض ، والثالثة لبيان الجنس . وهذا إنما يجيء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله ﴿ من جبال فيها من برد ﴾ معناه أن في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد ، وأما من جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب فإن ﴿ من ﴾ الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضاً ، لكنها بدل من الأولى والله أعلم . وقوله تعالى ﴿ فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ﴾ يحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿ فيصيب به ﴾ أي بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد فيكون قوله ﴿ فيصيب به من يشاء ﴾ رحمة لهم ﴿ ويصرفه عمن يشاء ﴾ أو يؤخر عنهم الغيث ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿ فيصيب به ﴾ أي بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم ، وإتلاف زروعهم ، وأشجارهم ، ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم . وقوله ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ أي يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته .

﴿٤٤﴾ ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾

﴿ يقلب الله الليل والنهار ﴾ أي يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا ، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيراً ، ويقصر الذي كان طويلاً ،

والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه ﴿ إن في ذلك لعبرة لأولي الابصار ﴾ أي دليلاً على عظمته تعالى .

(٤٥) ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يذكر تعالى قدرته التامة ، وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد ﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ﴾ كالحية وما شاكلها ﴿ ومنهم من يمشي على رجلين ﴾ كالإنسان والطير ﴿ ومنهم من يمشي على أربع ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات ، ولهذا قال ﴿ يخلق الله ما يشاء ﴾ أي بقدرته لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا قال ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

(٤٦) ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والحِكَم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً ، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنهى ، ولهذا قال ﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

(٤٧) ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، يقولون قولاً بألسنتهم ﴿ آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ﴾ أي يخالفون أقوالهم بأعمالهم ، فيقولون ما لا يفعلون ، ولهذا قال ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ .

(٤٨) ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ﴾ أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه ، واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً. وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ﴾ .

(٤٩) ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾

﴿ وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾ أي وإذا كانت الحكومة لهم ، لا عليهم جاءوا سامعين مطيعين ، وهو معنى قوله ﴿ مذعنين ﴾ وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق ، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي ﷺ ليروج باطله ثم ، فإذعانه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق ، بل لأنه موافق لهواه ، ولهذا لما خالف الحق قصدَه عدل عنه إلى غيره ولهذا قال .

(٥٠) ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

﴿ أفي قلوبهم مرض . . . ﴾ أي لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها ، أو قد عرض لها شك في الدين ، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم ، وأياً ما كان فهو كفر محض ، والله عليم بكل منهم ، وما هو منوط عليه من هذه الصفات . وقوله تعالى ﴿ بل أولئك هم الظالمون ﴾ أي بل هم الظالمون الفاجرون ، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور . تعالى الله ورسوله عن ذلك .

(٥١) ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

أي سمعاً وطاعة ، ولهذا وصفهم الله بالفلاح ، وهو نيل المطلوب ، والسلامة من المرهوب فقال ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ .

(٥٢) ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾

﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ فيما أمره به ، وترك ما نهياه عنه ، ويخشى الله فيما مضى من ذنوبه ، ويتقيه فيما يستقبل ﴿ فأولئك هم الفائزون ﴾ يعني الذين فازوا بكل خير ، وأُمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة .

(٥٣) ﴿ * وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ : لئن أمرتهم ليخرجن في الغزو ، قال تعالى ﴿ قل لا تقسموا ﴾ أي لا تحلفوا ﴿ طاعة معروفة ﴾ قيل : معناه طاعتكم طاعة معروفة ، أي قد علم طاعتكم إنما هي قول لا فعل معه ، وكلما حلفتم كذبتم ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي هو خبير بكم ، وبمن يطيع ممن يعصي ، فالحلف وإظهار الطاعة والباطن بخلافه ، وإن راج على المخلوق فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى ، لا يروج عليه شيء من التدليس ، بل هو خبير بضمائر عباده ، وإن أظهروا خلافها .

(٥٤) ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ أي اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله ، وقوله ﴿ فإن تولوا ﴾ أي تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به ﴿ فإنما عليه ما حمل ﴾ أي إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ أي بقبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ وقوله ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ كقوله ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ .

(٥٥) ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أي أئمة الناس والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، وقد فعله تبارك وتعالى فله الحمد والمنة ، ﴿ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ أي فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه . وكفى بذلك ذنباً عظيماً ، فالصحابة رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم ، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب ،

وأيدهم تأييداً عظيماً ، وحكموا في سائر البلاد والعباد ، ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم ، ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة » .

(٥٦) ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بإقامة الصلاة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهي الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا في ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ ، سالكين وراءه فيما به أمرهم ، وترك ما عنه زجرهم ، لعل الله يرحمهم بذلك ، ولا شك أن من فعل هذا أن الله سيرحمه كما قال تعالى ﴿ أولئك سيرحمهم الله ﴾ .

(٥٧) ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ لا تحسبن الذين كفروا ﴾ أي الذين خالفوك وكذبوك يا محمد ﴿ معجزين في الأرض ﴾ أي لا يعجزون الله ، بل هو قادر عليهم وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ، ولهذا قال ﴿ ومأواهم ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ النار ولبئس المصير ﴾ أي بئس المآل مآل الكافرين ، وبئس القرار .

(٥٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ الْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْءَايَٰتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

هذه الآية الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض ، وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب : بعضهم على بعض ، فأمر الله المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم ، وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال ، من قبل صلاة الغداة ، لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً في فراشهم ﴿ وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ﴾ أي في وقت القيلولة ، لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله

﴿ ومن بعد صلاة العشاء ﴾ لأنه وقت النوم ، فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال ، لما يخشى أن يكون الرجل على أهله ، أو نحو ذلك من الأعمال ، ولهذا قال ﴿ ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ﴾ أي إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال ، فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم ، ولا عليهم إن رأوا شيئاً من غير تلك الأحوال لأنه قد أذن لهم في الهجوم ، ولأنهم طوافون عليكم ، أي في الخدمة وغير ذلك . ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم ، ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ .

(٥٩) ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

يعني إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث ، إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال . بالنسبة إلى أجانبهم وإلى الأحوال التي يمكن أن يكون الرجل فيها على امرأته وإن لم يكن في الأحوال الثلاث .

(٦٠) ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ والقواعد من النساء ﴾ هن اللواتي انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد ﴿ اللاتي لا يرجون نكاحا ﴾ أي لا يبقى لهن شوق إلى التزوج ﴿ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ﴾ أي ليس عليهن من الحجر في التستر كما على غيرها من النساء ، ﴿ أن يضعن ثيابهن ﴾ الجلباب ، أو الرداء ﴿ وأن يستعففن خير لهن ﴾ أي وترك وضعهن لثيابهن ، وإن كان جائزاً خيرا وأفضل لهن والله سميع عليم .

(٦١) ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ

عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

اختلف المفسرون رحمهم الله في المعنى الذي رفع لأجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ههنا ، فقيل : إنها نزلت في الجهاد . وقيل : المراد ههنا أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما سبقه غيره إلى ذلك ، ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه ، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم ، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك ﴿ ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم ﴾ إنما ذكر هذا ، وهو معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ ، وليساوي به ما بعده في الحكم . وتضمن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم ، ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وفي الحديث « أنت ومالك لأبيك » روي في المسند والسنن وقوله﴿ أو بيوت آبائكم ﴾ إلى قوله ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ هذا ظاهر ، وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، كما هو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد رحمهما الله في المشهور عنهما ، ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ أي بيوت الرجل من عبد وقهرمان ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف ﴿ أو صديقكم ﴾ أي بيوت أصدقائكم وأصحابكم فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ، ولا يكرهون ذلك ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾ فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ، ومع الجماعة ، وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل . وفي مسند الإمام أحمد أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إنا نأكل ولا نشبع ، قال : « لعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه » رواه أبو داوود وابن ماجه .

﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ فليسلم بعضكم على بعض ، وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل : السلام على رسول الله ، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ لما ذكر تعالى ما في هذه السورة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة نبه تعالى عباده على أنه يبين لعباده الآيات بياناً شافياً ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون .

(٦٢) ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ

فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول كذلك امرهم بالاستئذان عند الانصراف ، لا سيما اذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه من صلاة جمعة ، او عيد جماعة او اجتماع في مشورة ونحو ذلك ، امرهم الله تعالى أن لا يتفرقوا عنه ، والحالة هذه الا بعد استئذانه ومشاورته ، وان من يفعل ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين ، ثم أمر رسوله صلوات الله عليه اذا استأذنه احد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء ، ولهذا قال ﴿ فائذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ﴾ وفي مسند الامام أحمد قال : قال رسول الله ﷺ « إذا انتهى احدكم إلى المجلس فليسلم ، فإذا اراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة » وهكذا رواه الترمذي والنسائي .

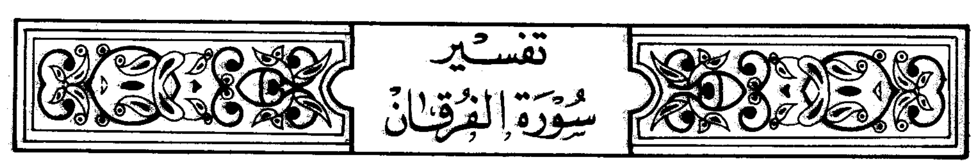
(٦٣) ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

كانوا يقولون: يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله عز وجل عن ذلك اعظاماً لنبيه ﷺ قال: فقولوا : يا نبي الله ، يا رسول الله . وقال قتادة : امر الله أن يهاب نبيه ﷺ وأن يبجل ، وأن يعظم وأن يسود ، أو معناه : لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره فإن دعاءه مستجاب ، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا . ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ﴾ هم المنافقون ، كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة ، ويعني بالحديث الخطبة فيلوذون ببعض اصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد . وقال السدي : كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم . ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ أي عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قبل ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ « من عمل عملاً ليس عليه امرنا فهو ردّ » أي فليحذر وليخش من خالف شريعة رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً ﴿ أن تصيبهم فتنة ﴾ أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿ أو يصيبهم عذاب اليم ﴾ أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك . روى الامام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما اضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللائي يقعن في النار يقعن فيها ، وجعل

يحجزهنّ ويغلبنه فيقتحمن فيها ـ قال ـ فذلك مثلي ومثلكم ، انا آخذ بحجزكم عن النار ، هلمّ عن النار فتغلبوني وتقتحمون فيها » اخرجاه من حديث عبد الرزاق .

(٦٤) ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم فقال ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ قد للتحقيق كما قال قبلها ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ﴾ أي هو عالم به مشاهد له ، لا يعزب عنه مثقال ذرّة ﴿ ويوم يرجعون إليه ﴾ أي يوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ أي يخبرهم بما عملوا في الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ .



تفسير سُورَةِ الفُرقان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾

يقول تعالى حامداً لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم ، كما قال تعالى﴿الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب ﴾ وقال ههنا ﴿ تبارك ﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة ﴿ الذي نزل الفرقان ﴾ نزل فعل من التكرر والتكثر كقوله ﴿ والكتاب الذي نزل على رسوله . والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة والقرآن نزل منجما مفرقا مفصلا آيات بعد آيات ، واحكاما بعد احكام ، وسورا بعد سور ، وهذا أشد وأبلغ ، وأشد اعتناء بمن أنزل عليه، كما قال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ، ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا ﴾ ولهذا سمله ههنا الفرقان ، لأنه يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، والحلال والحرام ، وقوله ﴿ على عبده ﴾ هذه صفة مدح وثناء ، لأنه اضافة إلى عبوديته ، كما وصفه بها في

اشرف احواله ، وهي ليلة الاسراء فقال ﴿ سبحان الذي اسرى بعبده ليلا ﴾ وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة اليه ﴿ وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ وقوله ﴿ ليكون للعالمين نذيرا ﴾ اي انما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ الذي جعله فرقانا عظيما ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ، ويستقل على الغبراء ، كما قال ﷺ « بعثت إلى الأحمر والأسود » .

(٢) ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾

﴿ الذي له ملك السموات . . . ﴾ ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك ، وكل شيء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شيء ، وربه ، ومليكه والهه ، وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره .

(٣) ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء ، المالك لأزمة الأمور ، الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لم يقدر على خلق جناح بعوضة بل هم مخلوقون ، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، فكيف يملكون لعابديهم ؟ ﴿ ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴾ أي ليس لهم من ذلك شيء ، بل ذلك كله مرجعه إلى الله عز وجل الذي هو يحي ويميت ، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة : أولهم وآخرهم .

(٤) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن ﴿ إن هذا إلا إفك ﴾ أي كذب ﴿ افتراه ﴾ يعنون النبي ﷺ ﴿ واعانه عليه قوم آخرون ﴾ أي واستعان على جمعه بقوم آخرين ﴿ فقد جاءوا ظلما وزورا ﴾ أي فقد افتروا هم قولاً باطلاً ، وهم يعلمون أنه باطل ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه .

(٥) ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ﴾ يعنون كتب الأوائل أي استنسخها ﴿ فهي تملى عليه ﴾ أي تقرأ عليه ﴿ بكرة وأصيلا ﴾ أي في أول النهار وآخره ، وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل احد بطلانه فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمداً رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة ، لا في أول عمره ، ولا في آخره ، وقد نشأ بين اظهرهم من اول مولده إلى أن بعثه الله نحوا من اربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه ونزاهته وبره وامانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة ، حتى أنهم كانوا يسمونه في صغره ، وإلى أن بعث الأمين ، لما يعلمون من صدقه وبره ، فلما أكرمه الله بما اكرمه به نصبوا له العداوة . ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها ، وحاروا فيما يقذفونه به ، فتارة من افكهم يقولون : ساحر ، وتارة يقولون شاعر ، وتارة يقولون : مجنون ، وتارة يقولون : كذاب ﴿ أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ .

(٦) ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

﴿ قل انزله الذي يعلم السر في السموات والأرض . . . ﴾ أي انزل القرآن المشتمل على اخبار الأولين والآخرين اخبارا حقا صادقا مطابقا للواقع في الخارج ماضيا ومستقبلا ﴿ يعلم السر ﴾ أي الله الذي يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر ﴿ إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ دعاء لهم إلى التوبة والانابة ، واخبار لهم بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، وأن من تاب إليه تاب عليه ، فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعنادهم وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم إلى التوبة والاقلاع عما هم فيه إلى الاسلام والهدى .

(٧) ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم ، وانما تعللوا بقولهم ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ﴾ يعنون كما نأكله ، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿ ويمشي في الأسواق ﴾ أي يتردد فيها واليها طلبا للتكسب والتجارة ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾ يقولون : هلا انزل اليه ملك من عند الله فيكون له شاهدا على صدق ما يدعيه .

(٨) ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾

﴿ أو يلقى إليه كنز ﴾ أي علم الكنز ينفق منه ﴿ أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ أي تسير معه حيث سار ، وهكذا كله سهل يسير على الله ، ولكن الحكمة في ترك ذلك ، وله الحجة البالغة ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ .

(٩) ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا ﴾ أي جاءوا بما يقذفونك به ، ويكذبون به عليك من قولهم : ساحر مسحور ، مجنون كذاب شاعر وكلها اقوال باطلة ، كل احد ممن له ادنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك ، ولهذا قال ﴿ فضلوا ﴾ عن طريق الهدى ﴿ فلا يستطيعون سبيلا ﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى ، فإنه ضال حيثما توجه ، لأن الحق واحد ، ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضاً .

(١٠) ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾

﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك . . . ﴾ قال مجاهد : يعني في الدنيا ، قال : وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصرا ، كبيرا كان أو صغيرا . عن خيثمة قيل للنبي ﷺ : إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبيا قبلك ، ولا نعطي أحدا من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله فقال : « اجمعوها لي في الآخرة » فأنزل الله ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك ﴾ .

(١١) ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾

﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ أي انما يقول هؤلاء هكذا تكذيبا وعنادا ، لا إنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً ، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال ﴿ أعتدنا ﴾ أي ارصدنا ﴿ لمن كذب بالساعة سعيرا ﴾ أي عذاباً اليماً حاراً ، لا يطاق في نار جهنم .

(١٢) ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾

﴿ إذا رأتهم ﴾ أي جهنم ﴿ من مكان بعيد ﴾ يعني في مقام الحشر ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ أي حنقاً عليهم .

(١٣) ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾

﴿ وإذا القوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين ﴾ مثل الزج في الرمح أي من ضيقة وفي الحديث « والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط » ﴿ مقرنين ﴾ مكتفين ﴿ دعوا هنا لك ثبورا ﴾ أي بالويل والحسرة والخيبة .

(١٤) ﴿ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾

﴿ لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا ﴾ أي لا تدعوا اليوم ويلا واحدا ، وادعوا ويلا كثيرا . وقال الضحاك: الثبور : الهلاك . والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار .

(١٥) ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴾

يقول تعالى : يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم فتلقاهم بوجه عبوس وزفير ، ويلقون في اماكنها الضيقة مقرنين لا يستطيعون حراكا ، ولا استنصارا ولا فكاكا مما هم فيه ، اهذا خير ام جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده التي اعدها لهم وجعلها لهم جزاء ومصيرا على ما اطاعوه في الدنيا ، وجعل مآلهم اليها .

(١٦) ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾

﴿ لهم فيها ما يشاءون ﴾ من الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ومناظر وغير ذلك مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب أحد ، وهم في ذلك خالدون أبدا دائما سرمدا ، بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ولا يبغون عنها حولا . وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم ، واحسن به اليهم ، ولهذا قال ﴿ كان على ربك وعدا مسئولا ﴾ أي لا بد أن يقع ، وأن يكون كما حكاه أبو جعفر بن جرير الطبري عن بعض علماء العربية أن معنى قوله ﴿ وعدا مسئولا ﴾ أي وعدا واجبا .

(١٧) ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ﴾ هو عيسى والعزيز والملائكة ﴿ فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء . . . ﴾ أي فيقول تعالى : للمعبودين : أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم ، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم . ؟

(١٨) ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾

أي ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك ، لا نحن ولا هم فنحن ما دعوناهم إلى ذلك ، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم ﴿ ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ﴾ أي طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر ، أي نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك ﴿ وكانوا قوماً بوراً ﴾ أي هلكى .

(١٩) ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾

﴿ فقد كذبوكم بما تقولون ﴾ أي فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى ﴿ فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ﴾ أي لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ﴿ ومن يظلم منكم ﴾ أي يشرك بالله ﴿ نذقه عذاباً كبيراً ﴾ .

(٢٠) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين أنهم كانوا يأكلون الطعام ، ويحتاجون إلى التغذي به ، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم ، فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكاملة ، والخوارق الباهرة ، والأدلة الظاهرة ما يستدل به كل ذي لب سليم ، وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاءوا به من الله ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ أي اختبرنا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصي ، ولهذا قال ، ﴿ أتصبرون وكان ربك بصيرا ﴾ أي بمن يستحق أن يوحي إليه . وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى : إني مبتليك ومبتلي بك » وفي المسند عن رسول الله ﷺ « لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة » وفي الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً فاختار أن يكون عبداً رسولاً .

(٢١) ﴿ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ

أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن تعنت الكفار في كفرهم وعنادهم في قولهم ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ أي بالرسالة كما تنزل على الأنبياء ، فنراهم عيانا فيخبرونا أن محمداً رسول الله ﴿ أو نرى ربنا ﴾ ولهذا قال الله تعالى ﴿ لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ .

(٢٢) ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾

﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً ﴾ أي هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم ، بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم ، وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار ، والغضب من الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : أخرجي ايتها الروح الخبيثة في الجسد الخبيث ، اخرجي إلى سموم وحميم وظل من يحموم ، فتأبى الخروج ، وتتفرق في البدن فيضربونه كما قال الله تعالى ﴿ ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات ، وحصول المسرات ، قال تعالى ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ﴾ . ﴿ ويقولون حجراً محجوراً ﴾ أي وتقول الملائكة للكافرين : حرام محرم عليكم الفلاح اليوم ، وأصل الحجر المنع ، ومنه يقال : حجر القاضي على فلان إذا منعه التصرف اما لفلس او سفه أو صغر أو نحو ذلك ، ومنه سمي الحجر عند البيت الحرام ، لأنه يمنع الطواف أن يطوفوا فيه ، وانما يطاف من ورائه ، ومنه يقال للعقل : حجر لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق .

(٢٣) ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾

﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل . . . ﴾ هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر ، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي ، إما الاخلاص ، وإما المتابعة لشرع الله ، ﴿ هباء ﴾ هو شعاع الشمس اذا دخل الكوة ، والغرض أنهم عملوا اعمالاً اعتقدوا أنها على شيء ، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم احداً إذ أنها

لا شيء بالكلية ، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية ، كما قال تعالى ﴿ مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ﴾ .

(٢٤) ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾

﴿ أصحاب الجنة يومئذ ﴾ يوم القيامة ﴿ خير مستقراً وأحسن مقيلا ﴾ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ، اصحاب الجنة هم الفائـزون أي بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا ، وصاروا إلى ما صاروا اليه بخلاف أهل النار فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضي دخول الجنة لهم ، والنجاة من النار . ﴿ مقيلا ﴾ مأوى ومنزلا .

(٢٥) ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فمنها انشقاق السماء ، وتفطرها ، وانفراجها بالغمام ، وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار ، ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام الحشر ، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

(٢٦) ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾

﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ وفي الصحيح أن الله يطوي السموات بيمينه ، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول أنا الملك ، أنا الديان ، اين ملوك الأرض ؟ اين الجبارون اين المتكبرون ؟ ﴿ وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ فهذا حال الكافرين في هذا اليوم ، واما المؤمنون ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ .

(٢٧) ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾

﴿ ويوم يعضّ الظالم على يديه ﴾ يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ وما جاء به من عند الله ، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة في كل ظالم ﴿ يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ﴾ .

(٢٨) ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾

﴿ يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ﴾ يعني من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق

الضلال من دعاة الضلالة ، سواء في ذلك أمية بن خلف ، أو اخوه أبي بن خلف أو غيرهما .

(٢٩) ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴾

﴿ لقد أضلني عن الذكر ﴾ وهو القرآن ﴿ بعد إذ جاءني ﴾ أي بعد بلوغه إليّ ﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ أي يخذله عن الحق ، ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل بعد بلوغه الحساب .

(٣٠) ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ (٣١)

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾ أي كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضية، لأن الله جعل لكل نبي عدواً من المجرمين يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم ﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن ، لئلا يهتدي أحد به ، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن ، فلهذا قال ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين . . ﴾ .

(٣٢) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيهم حيث قالوا ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ أي هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه جملة واحدة كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلّهية ، فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به كقوله ﴿ وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ﴾ ولهذا قال ﴿ لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ﴾ بيناه تبييناً ، وفسرناه تفسيراً .

(٣٣) ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾

﴿ ولا يأتونك بمثل ﴾ أي بحجة وشبهة ﴿ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ أي ولا

يقولون قولا يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر ، وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم .

﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ﴿٣٤﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة ، وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات ، وأقبح الصفات ﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً ﴾ وفي الصحيح عن أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : « إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ ﴿٣٩﴾

يقول الله تعالى متوعداً من كذب رسوله محمداً ﷺ من مشركي قومه ومن خالفه ، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً ، أي نبياً موازراً ومؤيداً ، وناصراً ، فكذبهما فرعون وجنوده ﴿ فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً عليه السلام ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ، إذ لا فرق بين رسول ورسول ، ولهذا قال ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل ﴾ ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل ، ويحذرهم نقمته ﴿ فما آمن معه إلا قليل ﴾ ولهذا أغرقهم الله جميعاً ، ولم يبق منهم أحداً من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط ﴿ وجعلناهم للناس آية ﴾ أي عبرة يعتبرون بها كما قال تعالى ﴿ إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ أي وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لجج البحار لتذكروا نعمة الله الله عليكم من إنجائكم من الغرق ، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره . وقوله تعالى ﴿ وعاداً وثمود وأصحاب الرسِّ ﴾ وأصحاب الرسِّ هم أهل قرية من قرى ثمود .

﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ أي وأمماً أضعاف من ذكر أهلكناهم ، ولهذا قال ﴿ وكلًا ضربنا له الأمثال ﴾ أي بينا لهم الحجج ووضحنا لهم الأدلة ، وأزحنا الأعذار عنهم ﴿ وكلًا تبرنا تتبيراً ﴾ أي أهلكنا إهلاكاً ، كقوله تعالى ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾ والقرن هو الأمة من الناس كقوله ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ﴾ وحده بعضهم بمائة وعشرين سنة ، وقيل بمائة ، وقيل بثمانين ، وقيل : أربعين وقيل : غير ذلك ، والأظهر أن القرن هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد ، وإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهو قرن آخر كما ثبت في الصحيحين « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » .

(٤٠) ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾

﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء ﴾ يعني قرية قوم لوط ، وهي « سدوم » التي أهلكها الله بالقلب وبالمطر من الحجارة التي من سجيل ، كما قال تعالى ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ﴾ وقال ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل ﴾ وقال ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ ولهذا قال ﴿ أفلم يكونوا يرونها ﴾ أي فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول ، وبمخالفتهم أوامر الله ﴿ بل كانوا لا يرجون نشوراً ﴾ يعني المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشوراً ، أي معاداً يوم القيامة .

(٤١) ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولاً ؟ ﴾ أي على سبيل التنقص والازدراء ، فقبحهم الله .

(٤٢) ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا ﴾ يعنون أنه كان يثنيهم عن عبادة الأصنام لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها . قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً ﴾ .

(٤٣) ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾

ثم قال تعالى لنبيه ﷺ منبهاً أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال ، فإنه لا يهديه أحد إلا الله عز وجل ﴿ أرأيت من اتخذ إلٓهه هواه ﴾ أي مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه كما قال تعالى ﴿ أفمن زين له سو عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول .

﴿٤٤﴾ ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

أي هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة ، فإن تلك تفعل ما خلقت له ، وهؤلاء خلقوا للعبادة لله وحده لا شريك له فلم يفعلوا ، وهم يعبدون غيره ويشركون به مع قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم .

﴿٤٥﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾

من ههنا شرع سبحانه وتعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة فقال تعالى ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾ الظل : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ أي دائماً لا يزول ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ أي لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف ، فإن الضد لا يعرف إلا بضده .

﴿٤٦﴾ ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾

﴿ ثم قبضناه إلينا ﴾ أي الظل ، وقيل :الشمس ﴿ قبضاً يسيراً ﴾ أي سهلاً ، أو سريعاً ، أو خفيفاً حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة ، وقد أظلت الشمس ما فوقه ، أو ﴿ يسيراً ﴾ قليلاً قليلاً .

﴿٤٧﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾

﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً ﴾ أي يلبس الوجود ويغشاه . كما قال تعالى ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ ﴿ والنوم سباتاً ﴾ أي قاطعاً للحركة لراحة الأبدان ، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش ، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات فاستراحت فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معاً ﴿ وجعل النهار

نشوراً ﴾ أي ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم .

﴿٤٨﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات ، أي بمجيء السحاب بعدها . والرياح أنواع في صفات كثيرة من التسخير ، فمنها ما يثير السحاب ، ومنها ما يحمله ، ومنها ما يسوقه ، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً ، ومنها ما قبل ذلك تغم الأرض ، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر ، ولهذا قال ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ أي آلة يتطهر بها .

﴿٤٩﴾ ﴿ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾

﴿ لنحيي به بلدة ميتاً ﴾ أي أرضاً قد طال انتظارها للغيث ، فهي هامدة لانبات ولا شيء فيها ، فلما جاءها الماء عاشت واكتسبت رباها أنواع الأزاهير والألوان ، كما قال تعالى ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ ﴿ ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً ﴾ أي وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناس محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وثمارهم .

﴿٥٠﴾ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ﴾ أي أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب يمر على الأرض الأخرى فيمطرها ويكفيها ويجعلها غدقاً ، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء ، وله في ذلك الحجة البالغة ، والحكمة القاطعة . قال ابن عباس وابن مسعود : ليس عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه كيف يشاء ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا . . . ﴾ أي ليذكروا بإحياء الأرض الميتة أن الله قادر على إحياء الأموات ، والعظام الرفات ، أو ليذكر من منع المطر أنما أصابه ذلك بذنب أصابه ، فيقلع عما هو فيه ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ يعني الذين يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا . وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ قال : « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذاك مؤمن بي ، كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكواكب » .

﴿٥١﴾ ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾

﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل ، ولكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ .

(٥٢) ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾

﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به ﴾ يعني بالقرآن ﴿ جهاداً كبيراً ﴾ كما قال تعالى ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ .

(٥٣) ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾

أي خلق الماءين : الحلو والملح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار وهذا هو البحر الحلو العذب الفرات الزلال ، وهذا المعنى لا شك فيه ، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن ، وهو عذب فرات ، والله سبحانه وتعالى إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه ، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً وعيوناً في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم وأراضيهم . وقوله ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ أي مالح مر زعاق ، لا يستساغ ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب . ﴿ وجعل بينهما برزخاً ﴾ أي بين العذب والمالح ، أي حاجزاً وهو اليبس من الأرض ﴿ وحجراً محجوراً ﴾ أي مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر .

(٥٤) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾

﴿ وهو الذي خلق من الماء بشراً . . . ﴾ أي خلق الإنسان من نطفة ضعيفة وعدله وجعله كامل الخلقة ذكراً وأنثى كما يشاء . ﴿ فجعله نسباً وصهراً ﴾ فهو في ابتداء أمره ولد نسيب ، ثم يتزوج فيصير صهراً ، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات ، وكل ذلك من ماء مهين ، ولهذا قال ﴿ وكان ربك قديراً ﴾ .

(٥٥) ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً بلا دليل قادهم إلى ذلك ، ولا حجة أدتهم إليه ، بل بمجرد الآراء والتشهي

والأهواء ، فهم يوالونهم ، ويقاتلون في سبيلهم ، ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم ، ولهذا قال ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ يقول : عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك ، أو موالياً .

(٥٦) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ أي بشيراً للمؤمنين ، ونذيراً للكافرين ، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله ، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله .

(٥٧) ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾

﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر ﴾ أي على هذا البلاغ ، وهذا الانذار من أجرة أطلبها من أموالكم ، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ ﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ أي طريقاً ومسلكاً ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به .

(٥٨) ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾

﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾ أي في أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً الذي ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ الدائم الباقي السرمدي الأبدي الحي القيوم رب كل شيء ومليكه ، اجعله ذخرك وملجأك ، وهو الذي يتوكل عليه ، ويفزع إليه ، فإنه كافيك وناصرك ، ومؤيدك ومظفرك . ﴿ وسبح بحمده ﴾ أي اقرن بين حمده وتسبيحه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك » أي أخلص له العبادة والتوكل . ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ أي بعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة .

(٥٩) ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾

﴿ الذي خلق السموات والأرض ﴾ أي هو الحي الذي لا يموت ، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع في ارتفاعها واتساعها ، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها ﴿ في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ أي يدبر الأمر ويقضي الحق ، وهو خير الفاصلين . ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ أي استعلم عنه من هو خبير به ، عالم

به ، فاتبعه ، واقتد به ، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ، ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم على الاطلاق في الدنيا والآخرة الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، فما قاله فهو الحق ، وما أخبر به فهو الصدق ، وهو الإمام المحكم الذي إذا تنازع الناس في شيء وجب رد نزاعهم إليه ، فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق ، وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ أو ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ أي ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك ، أو هذا القرآن خبير به .

(٦٠) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴾

﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمٰن قالوا وما الرحمن ﴾ أي لا نعرف الرحمٰن ، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمٰن ، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب : اكتب « باسم الله الرحمن الرحيم » فقالوا : لا نعرف الرحمٰن ولا الرحيم ، ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم ، ولهذا أنزل الله ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمٰن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ أي هو الله وهو الرحمٰن . ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ أي لمجرد قولك ﴿ وزادهم نفوراً ﴾ فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمٰن الرحيم ، ويفردونه بالإلٰهية ويسجدون له .

(٦١) ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾

يقول تعالى ممجداً نفسه ومعظماً على جميل ما خلق في السماوات من البروج ، وهي الكواكب العظام ﴿ وجعل فيها سراجاً ﴾ وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود ﴿ وقمراً منيراً ﴾ أي مشرقاً مضيئاً .

(٦٢) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾

﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ﴾ أي يخلف كل واحد منهما صاحبه ، يتعاقبان لا يفتران ، إذا ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب ذاك ﴿ لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ أي جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له عز وجل ، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل . وفي الحديث الصحيح « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » .

(٦٣) ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ أي بسكينة ووقار، من غير جبرية ولا استكبار كقوله ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما يخط من صبب، وكأنما الأرض تطوى له ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ أي إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيىء لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً.

(٦٤) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾

﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ أي في طاعته وعبادته، كما قال تعالى ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون ﴾.

(٦٥) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾

﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾ أي ملازماً دائماً.

(٦٦) ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾

أي بئس المنزل منظراً، وبئس المقيل مقاماً.

(٦٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾

﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون في حقهم، فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا، ولا هذا ﴿ وكان بين ذلك قواماً ﴾ كما قال تعالى ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال: « من فقه الرجل قصده في معيشته » ولم يخرجوه. وروى أيضاً عن رسول الله ﷺ « ما عال من اقتصد » لم يخرجوه. وروى البزار عن رسول الله ﷺ قال: « ما أحسن القصد في الغنى، وما أحسن القصد في الفقر، وما أحسن القصد في العبادة ». وقال الحسن البصري: ليس في النفقة في سبيل الله سرف. وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرف، وقال غيره: السرف النفقة في معصية الله.

(٦٨) ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾

روى الإمام أحمد عن عبدالله ، هو ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ : أي الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله أنداداً وهو خلقك ، قال : ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قال : ثم أي ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك » قال عبدالله : وأنزل الله تصديق ذلك ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلّهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون . . . ﴾ وقد أخرجه البخاري ومسلم . وقد ذكر أن لقمان الحكيم كان يقول : يا بني ، إياك والزنا ، فإن أوله مخافة وآخره ندامة . ﴿ يلق آثاماً ﴾ جزاء .

(٦٩) ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾

﴿ يضاعف له العذاب يوم القيامة ﴾ هذا تفسير لقوله ﴿ يلق آثاماً ﴾ وهو بدل منه . أي يكرر عليه ويغلظ ﴿ ويخلد فيه مهاناً ﴾ أي حقيراً ذليلاً .

(٧٠) ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

﴿ إلا من تاب ﴾ أي في الدنيا إلى الله عز وجل من جميع ذلك ، فإن الله يتوب عليه ، وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أي إنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات ، أو أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة والنصوح حسنات ، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار .

(٧١) ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾

﴿ ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾ أي فإن الله يقبل توبته كما قال ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ .

(٧٢) ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمٰن أنهم لا يشهدون الزور ، قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام ، وقيل : الكذب والفسق ، والكفر واللغو الباطل ، أو هو اللغو والغناء. أو المراد

شهادة الزور ، وهي الكذب متعمداً على غيره كما في الصحيحين عن أبي بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » ثلاثاً ، قلنا : بلى ، يا رسول الله ، قال : « الشرك بالله ، وعقوق الوالدين » وكان متكأ فجلس فقال : « ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت . ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ أي لا يحضرون الزور ، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء .

(٧٣) ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾

﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم . . . ﴾ لم يصموا عن الحق ، ولم يعموا فيه ، فهم عقلوا عن الحق ، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه .

(٧٤) ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا . . . ﴾ يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له ﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ أئمة يقتدى بنا في الخير ، وهداة مهتدين دعاة إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم ، وذرياتهم ، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر ثواباً ، وأحسن مآباً ، ولهذا ثبت في صحيح مسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعده ، أو صدقة جارية » .

(٧٥) ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾

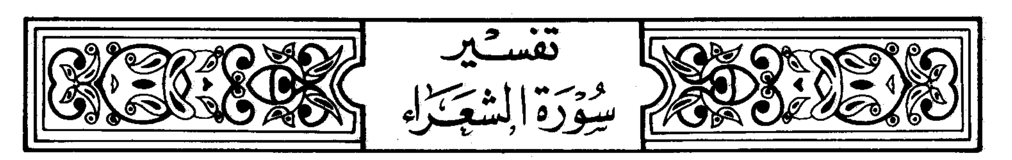
لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة ، والأقوال والأفعال الجليلة قال بعد ذلك كله : ﴿ أولئك ﴾ أي المتصفون بهذه ﴿ يجزون ﴾ يوم القيامة ﴿ الغرفة ﴾ وهي الجنة ﴿ بما صبروا ﴾ أي على القيام بذلك ﴿ ويلقون فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ تحية وسلاماً ﴾ أي يبتدرون فيها بالتحية والإكرام ، ويلقون التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

(٧٦) ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾

﴿ خالدين فيها ﴾ أي مقيمين لا يظعنون ، ولا يحولون ، ولا يموتون ، ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولاً . ﴿ حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ أي حسنت منظراً ، وطابت مقيلاً ومنزلاً .

(٧٧) ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴾

﴿ قل ما يعبأ بكم ربي ﴾ أي لا يبالي ، ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه ، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ، ويسجوه بكرة وأصيلاً ﴿ فقد كذبتم ﴾ أيها الكافرون ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ أي فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم ، يعني مقتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة ، ويدخل في ذلك يوم بدر .



تفسير سُورَةُ الشُّعَرَاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ طسٓمٓ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد مر في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾

﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي هذه آيات القرآن المبين ، أي البين الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل ، والغي والرشد . .

(٣) ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ أي مهمل نفسك مما تحرص وتحزن عليهم ﴿ ألا يكونوا مؤمنين ﴾ وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من يؤمن به من الكفار ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ .

(٤) ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾

﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية . . . ﴾ أي لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً ، ولكن لا نفعل ذلك ، لأنا لا نريد من أحد إلا الايمان الاختياري .

(٥) ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾

﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث . . ﴾ أي كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض

عنه أكثر الناس ، كما قال تعالى ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

(٦) ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم .. ﴾ أي فقد كذبوا بما جاءهم من الحق فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ .

(٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾

ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه وجلالة قدره وشأنه الذين اجترؤوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه ، وهو القاهر العظيم القادر الذي خلق الأرض ، وأنبت فيها من كل زوج كريم ، من زروع وثمار وحيوان ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

(٨) ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي دلالة على قدرة الخالق للأشياء الذي بسط الأرض ، ورفع بناء السماء ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، بل كذبوا به وبرسله وكتبه ، وخالفوا أمره ، وارتكبوا نهيه .

(٩) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ وإن ربك لهو العزيز ﴾ أي الذي عز كل شيء ، وقهره وغلبه ﴿ الرحيم ﴾ أي بخلقه ، فلا يعجل على من عصاه ، بل يؤجله ويُنظِره ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

(١٠) ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (١٩)

يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام حين ناداه من جانب الطور الأيمن ، وكلمه وناجاه ، وأرسله واصطفاه ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ، ولهذا قال ﴿ أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون الا يتقون ـ إلى قوله ـ ﴿أخاف أن

يقتلون ﴾ هذه أعذار سأل من الله ازاحتها عنه ، كما قال في سورة طه ﴿ رب اشرح لي صدري . ويسر لي امري . واحلل عقدة من لساني . يفقهوا قولي ـ واجعل لي وزيراً من أهلي . هارون اخي . اشدد به أزري . وأشركه في أمري . كي نسبحك كثيراً . ونذكرك كثيراً . إنك كنت بنا بصيراً . قال قد اوتيت سؤلك يا موسى ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ أي بسبب قتل القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر . ﴿ قال كلا ﴾ أي قال الله له : لا تخف من شيء من ذلك ، كقوله ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ . ﴿ فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ﴾ كقوله ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ أي إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي ﴿ فاتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين ﴾ كقوله ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ أي كل منا أرسل اليك ﴿ أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ أي أطلقهم من أسارك وقبضتك ، وقهرك وتعذيبك ، فإنهم عباد الله المؤمنون ، وحزبه المخلصون ، وهم معك في العذاب المهين ، فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون هنالك بالكلية ونظر إليه بعين الازدراء والغمص فقال ﴿ ألم نر بك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾ أي أما أنت الذي ربيناه فينا وفي بيتنا ، وعلى فراشنا ، وأنعمنا عليه مدة من السنين ، ثم بعد ذلك قابلت الاحسان بتلك الفعلة أن قتلت منا رجلاً ، وجحدت نعمتنا عليك ، ولهذا قال ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ أي الجاحدين .

(٢٠) ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

﴿ قال فعلتها إذاً ﴾ أي في تلك الحال ﴿ وأنا من الضالين ﴾ أي قبل أن يوحي إليّ ، وينعم الله علي بالرسالة والنبوة ، ﴿ وأنا من الضالين ﴾ أي الجاهلين .

(٢١) ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

﴿ ففرت منكم لما خفتكم ﴾ أي انفصل الحال الأول ، وجاء أمر آخر ، فقد أرسلنا الله اليك ، فإن أطعته سلمت ، وإن خالفته عطبت .

(٢٢) ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

أي وما أحسنت إلي وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماً تصرفهم في أعمالك ، ومشاق رعيتك ، أفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم ، أي ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم .

(٢٣) ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده في قوله ﴿ وما رب العالمين ﴾ وذلك أنه كان يقول لقوم ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ وكانوا يجحدون الصانع جل وعلا ، ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون ، فلما قال له موسى : إني رسول رب العالمين قال له فرعون : ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري .

(٢٤) ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾

﴿ قال رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي خالق جميع ذلك ومالكه ، والمتصرف فيه ، وإلهه ، لا شريك له ، هو الذي خلق الأشياء كلها ، العالم العلوي ، وما فيه من الكواكب الثوابت ، والسيارات النيرات ، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار ، وجبال وأشجار ، وحيوانات ونبات وثمار وما بين ذلك من الهواء والطير ، وما يحتوي عليه الجو ، الجميع عبيد له ، خاضعون ذليلون ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أي إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة .

(٢٥) ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾

فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلاً لهم على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله ﴿ ألا تستمعون ﴾ ؟ أي ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلهاً غيري ؟ .

(٢٦) ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

فقال لهم موسى ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أي خالقكم وخالق آبائكم الأولين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه .

(٢٧) ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾

أي ليس له عقل في دعواه أن ثم رباً غيري .

(٢٨) ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ قال ﴾ أي موسى لأولئك الذين أوعز اليهم فرعون ما أوعز من الشبهة فأجاب موسى بقوله ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ أي هو الذي جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب ، ثوابتها وسياراتها مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها ، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر ، وليجعل المشرق مغرباً ، والمغرب مشرقاً .

(٢٩) ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه فظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال فقال ﴿ لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ .

(٣٠) ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾

فعند ذلك ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ أو لو جئتك بشيء مبين ﴾ ؟ أي ببرهان قاطع واضح .

(٣١) ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (٣٢)

أي ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح ، والعظمة ، ذات قوائم وفم كبير ، وشكل هائل مزعج .

(٣٣) ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾

﴿ ونزع يده ﴾ أي من جيبه ﴿ فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ أي تتلألأ كقطعة من القمر ، فبادر فرعون بشقاوته إلى التكذيب والعناد .

(٣٤) ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾

أي فاضل بارع في السحر ، فروَّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر ، لا من قبيل المعجزة .

(٣٥) ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾

ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته فقال ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾ أي أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا ، فيكثر أعوانه وأنصاره

وأتباعه ، ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشيروا علي فيه ، ماذا أصنع به ؟

﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ ﴿٣٧﴾

﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين . يأتوك بكل سحار عليم ﴾ أي أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم ، يقابلونه ، ويأتون بنظير ما جاء به فتغلبه أنت ، وتكون له النصرة والتأييد ، فأجابهم إلى ذلك وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك ليجتمع الناس في صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة .

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ ﴿٣٩﴾

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى عليه السلام والقبط ، وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وهذا شأن الكفر والايمان ما تواجها وتقابلا الا غلبه الايمان ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾ ولهذا لما جاء السحرة وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر ، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم ، وأشدهم تخييلاً في ذلك ، وكان السحرة جمعاً كثيراً ، وحجاً غفيراً ، واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم وقال قائلهم .

﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ ﴿٤٠﴾

ولم يقولوا : نتبع الحق ، سواء كان من السحرة ، أو من موسى ، بل الرعية على دين ملكهم .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ ﴿٤٢﴾

﴿ فلما جاء السحرة ﴾ أي إلى مجلس فرعون ، وقد جمع خدمه وحشمه ، ووزراءه ورؤساء دولته ، وجنود مملكته ، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الاحسان اليهم ، والتقرب اليه إن غلبوا ، أي هذا الذي جمعتنا من أجله ، ﴿ قالوا أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين ﴾ أي وأخص مما تطلبون ، أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي .

(٤٣) ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (٤٤)

وهذا كما تقول الجهلة العوام إذا فعلوا شيئاً : هذا بثواب فلان .

(٤٥) ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ (٤٨)

﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ أي تخطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه ، فلم تدع منه شيئاً ، فكان هذا أمراً عظيماً جداً ، وبرهاناً قاطعاً للعذر ، وحجة دافعة ، وذلك أن الذين استنصر بهم ، وطلب منهم أن يغلبوا غُلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة ، وسجدوا لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق ، وبالمعجزة الباهرة ، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقحاً جريئاً ، عليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، فعدل إلى المكابرة والعناد ، ودعوى الباطل ، فشرع يتهددهم ويتوعدهم ، ويقول ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ .

(٤٩) ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

تهددهم فلم ينفع ذلك فيهم ، وتوعدهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ، وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر إلا أن يكون الله قد أيده به ، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه ، ولهذا قال لهم فرعون : ﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ ﴾ كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم ، ولا تفتاتوا علي في ذلك ، فإن أذنت لكم فعلتم ، وإن منعتكم امتنعتم ، فإني أنا الحاكم المطاع ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل . ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب .

(٥٠) ﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾

﴿ قالوا لا ضير ﴾ أي لا حرج ، ولا يضرنا ذلك . ولا نبالي به ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ أي المرجع إلى الله عز وجل ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا ، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء .

(٥١) ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ﴾ أي ما فارقنا من الذنوب ، وما أكرهتنا عليه من السحر . ﴿ أن كنا أول المؤمنين ﴾ أي بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان فقتلهم كلهم .

(٥٢) ﴿ * وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴾ (٥٣)

لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر ، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه ، وهم مع ذلك يكابرون ، ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال ، فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً من مصر ، وأن يمضي بهم حيث يؤمر ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل ، خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً ، فلما أصبح فرعون وجنوده وليس في ناديهم داع ولا مجيب غاظ ذلك فرعون ، واشتد غضبه على بني إسرائيل لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين ، أي من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب ونادى فيهم :

(٥٤) ﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾

﴿ إن هؤلاء ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ لشرذمة قليلون ﴾ أي لطائفة قليلة .

(٥٥) ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾

أي كل وقت يصل منهم إلينا ما يغيظنا .

(٥٦) ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴾

أي نحن كل وقت نحذر من غائلتهم .

(٥٧) ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ (٥٨)

أي فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم ، وتركوا تلك المنازل العالية ، والبساتين والأنهار والأموال ، والأرزاق والملك ، والجاه الوافر في الدنيا .

(٥٩) ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ كما قال تعالى ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ .

(٦٠) ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين أن فرعون خرج في محفل عظيم ، وجمع كبير ، هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه ، أولي الحل والعقد والدول من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ أي وصلوا إليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها .

(٦١) ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ أي رأى كل من الفريقين صاحبه ، فعند ذلك ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر ، فصار أمامهم البحر ، وقد أدركهم فرعون بجنوده ، فلهذا قالوا ﴿ إنا لمدركون ﴾ .

(٦٢) ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

﴿ قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ أي لا يصل إليكم شيء مما تحذرون ، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير ههنا بكم ، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد .

(٦٣) ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾

﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ﴾ فضربه بها ففيها سلطان الله الذي أعطاه ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ أي كالجبل الكبير . قال ابن عباس : صار البحر اثني عشر طريقاً ، لكل سبط طريق ، وزاد السدي : وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام الماء على حيلة كالحيطان ، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته ، فصار يبساً كوجه الأرض ، قال تعالى ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾ .

(٦٤) ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴾

﴿ وأزلفنا ثم الآخرين ﴾ أي قربنا هناك من البحر فرعون وجنوده ، وأدنيناهم إليه .

(٦٥) ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ (٦٦)

أي أنجينا موسى وبني إسرائيل ، ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده ، فلم يبق رجل منهم إلا هلك .

(٦٧) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٦٨)

﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة ، وحكمة بالغة ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

(٦٩) ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء ، أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته ، ليقتدوا به في الاخلاص والتوكل وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبري من الشرك وأهله ، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبلُ أي من صغره إلى كبره ، فإنه وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل .

(٧٠) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾

أي ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟

(٧١) ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾

أي مقيمين على عبادتها ودعائها .

(٧٢) ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٧٤)

يعني اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك ، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون ، فهم على آثارهم يهرعون ، فعند ذلك قال لهم إبراهيم :

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿٧٧﴾

أي إن كانت هذه الأصنام شيئاً ، ولها تأثير فلتخلص إليّ بالمساءة ، فإني عدو لها ، لا أبالي بها ، ولا أفكر فيها . وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ ، وقال هود عليه السلام ﴿ إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقال ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ﴾ .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ﴿٧٨﴾

يعني لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ أي هو الخالق الذي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه ، فكل يجري على ما قدر له ، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء .

﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ ﴿٧٩﴾

أي هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر منَ الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المزن ، وأنزل الماء ، وأحيا به الأرض ، وأخرج من كل الثمرات رزقاً للعباد ، وأنزل الماء عذباً زلالاً يسقيه مما خلق أنعاماً ، وأناسي كثيراً .

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ﴿٨٠﴾

أسند المرض إلى نفسه ، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً ، أي إذا وقعت في مرض فإنه لا بقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه .

﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ ﴿٨١﴾

أي هو الذي يحيي ويميت ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ، فإنه هو الذي يبدىء ويعيد .

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ ﴿٨٢﴾

أي لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ وهو الفعال لما يشاء .

(٨٣) ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه ربه حكماً ، قال ابن عباس : هو العلم ، وقيل : اللب ، وقيل : النبوة . ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ أي اجعلني من الصالحين في الدنيا والآخرة ، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار : « اللهم في الرفيق الأعلى » قالها ثلاثاً . وفي الحديث في الدعاء « اللهم أحينا مسلمين ، وأمتنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مبدلين » .

(٨٤) ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾

أي واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به ، ويقتدى بي في الخير ، كما قال تعالى ﴿وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين﴾ .

(٨٥) ﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾

أي أنعم علي في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي ، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم .

(٨٦) ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾

﴿ واغفر لأبي ﴾ وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ .

(٨٧) ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾

أي أجرني من الخزي يوم القيامة ، ويوم يبعث الخلائق : أولهم وآخرهم . وفي البخاري عن النبي ﷺ قال : يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه ، عليه الغبرة والفترة » وفي رواية أخرى « يلقى إبراهيم أباه ، فيقول : يا رب ، إنك وعدتني أن ﴿لا تخزني يوم يبعثون﴾ ، فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين » .

(٨٨) ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾

﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ أي لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿ ولا بنون ﴾ أي ولو افتدى بمن على الأرض جميعاً ، ولا ينفع يومئذٍ إلا الإيمان بالله ، وإخلاص الدين له ، والتبري من الشرك وأهله .

(٨٩) ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ أي سالم من الدنس والشرك . أو القلب السليم أن يشهد أن لا إله إلا الله .

(٩٠) ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ وأزلفت الجنة ﴾ أي قربت وأدنيت من أهلها مزخرفة مزينة لناظريها ، وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما في الدنيا وعملوا لها في الدنيا .

(٩١) ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾

﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾ أي أظهرت وكشفت عنها وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر .

(٩٢) ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ (٩٣)

﴿ وقيل ﴾ لأهلها تقريعاً وتوبيخاً ﴿ أين ما كنتم تعبدون . من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ أي ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئاً ، ولا تدفع عن أنفسها ، فإنكم وإياها اليوم حطب جهنم أنتم لها واردون .

(٩٤) ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾

﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون ﴾ فدهوروا وافيها ، والمراد أنه ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك .

(٩٥) ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾

﴿ وجنود إبليس أجمعون ﴾ أي ألقوا فيها عن آخرهم .

﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (٩٨)

أي يقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ، ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين﴾ أي نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين ، وعبدناكم مع رب العالمين .

(٩٩) ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾

أي ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون .

(١٠٠) ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾

﴿فما لنا من شافعين﴾ يعني من الملائكة .

(١٠١) ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾

﴿ولا صديق حميم﴾ أي قريب . قال قتادة : يعلمون واللّهِ أن الصديق إذا كان صالحاً نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع .

(١٠٢) ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون ، والله تعالى يعلم أنهم لو ردوا إلى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون . وقد أخبر تعالى عن تخاصم أهل النار فقال ﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ .

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤) كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٠٦)

هذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله نوح عليه السلام ، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد ما عبدت الأصنام والأنداد ، فبعثه الله ناهياً عن ذلك ومحذراً من وبيل عقابه ، فكذبه قومه فاستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى ، ونزل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل ، فلهذا

قال تعالى ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ﴾ أي ألا تخافون الله في عبادتكم غيره .

(١٠٧) ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أي إني رسول من الله إليكم أمين فيما بعثني الله به أبلغكم رسالات ربي ، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها .

(١٠٨) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (١١٠)

أي لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم ، بل ادخر ثواب ذلك عند الله ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ فقد وضح لكم ، وبان صدقي ونصحي ، وأمانتي فيما بعثني الله به وائتمنني عليه .

(١١١) ﴿ * قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١١٢)

يقولون : لا نؤمن لك ، ولا نتبعك ونتأسى في ذلك بهؤلاء الأرذلين الذين اتبعوك وصدقوك ، وهم أراذلنا ، ولهذا ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ أي وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي ، ولو كانوا على شيء كانوا عليه لا يلزمني التنقيب عنهم ، والبحث والفحص ، إنما علي أن أقبل منهم تصديقهم إياي وأكل سرائرهم إلى الله عز وجل .

(١١٣) ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٤)

﴿ وما أنا بطارد المؤمنين ﴾ كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ، ويتابعوه فأبى عليهم ذلك وقال ﴿ وما أنا بطارد المؤمنين ﴾ .

(١١٥) ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

أي إنما بعثت نذيراً ، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني ، وأنا منه ، سواء كان شريفاً ، أو وضيعاً ، أو جليلاً أو حقيراً .

(١١٦) ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهراً ، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ ، والامتناع الشديد ، وقالوا في الآخر ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ أي لئن لم تنته من دعوتك إيانا إلى دينك لنرجمنك ، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه .

(١١٧) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٨)

كما قال في الآية الأخرى ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ وقال هھنا :

(١١٩) ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ (١٢٠)

والمشحون هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين ، أي أنجينا نوحاً ومن اتبعه كلهم ، وأغرقنا من كفر به ، وخالف أمره كلهم أجمعين .

(١٢١) ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٢) كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ (١٢٩)

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام أنه دعا قومه عاداً ، وكان قومه يسكنون الأحقاف ، و هي جبال الرمل قريباً من حضرموت متاخمة لبلاد اليمن ، وكان زمانهم بعد قوم نوح كما قال تعالى ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة ﴾ وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد ، والطول المديد ، والأرزاق الدارة والأموال والجنات والأنهار والأبناء والزروع والثمار ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه ، فبعث الله هوداً إليهم : رجلاً منهم رسولاً وبشيراً نذيراً فدعاهم إلى الله وحده ، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته وبطشه ، فقال لهم ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ﴾ اختلف المفسرون في ﴿ الريع ﴾ بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة ، يبنون هناك بنياناً محكماً هائلاً باهراً ﴿ تعبثون ﴾ أي وإنما تفعلون ذلك عبثاً ، لا للاحتياج إليه ، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة ، ولهذا

أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك ، لأنه تضييع للزمان ، واتعاب للأبدان في غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة . ولهذا قال ﴿ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ والمصانع البروج المشيدة ، والبنيان المخلد ، أي لكي تقيموا فيها أبداً ، وذلك ليس بحاصل لكم ، بل زائل عنكم ، كما زال عمن كان قبلكم . روى ابن أبي حاتم أن أبا الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ، ونصب الشجر قام في مسجدهم فنادى : يا أهل دمشق فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ألا تستحيون ، ألا تستحيون ، تجمعون ما لا تأكلون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون ، إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أملهم غروراً ، وأصبح جمعهم بوراً ، وأصبحت مساكنهم قبوراً ، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً ، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين ؟

(١٣٠) ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾

﴿ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ أي يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت .

(١٣١) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٣٥)

﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ أي اعبدوا ربكم ، وأطيعوا رسولكم . ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال : ﴿ واتقوا الذي أمدكم بما تعملون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ أي إن كذبتم وخالفتم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب فما نفع فيهم .

(١٣٦) ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له بعد ما حذرهم وأنذرهم ، ورغبهم ورهبهم ، وبين لهم الحق ووضحه ﴿ قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴾ أي لا نرجع عما نحن فيه ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ﴾ . وهكذا الأمر فإن الله تعالى قال ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ وقال ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ ﴿١٣٨﴾

﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ يعنون ما هذا الذي جئتنا به الا أخلاق الأولين كما قال المشركون من قريش ﴿ وقالوا اساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ أي لا بعث ولا معاد .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ﴿١٤٠﴾

﴿ فكذبوه فأهلكناهم ﴾ أي استمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده فأهلكهم الله ، وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأن أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، أي ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً ، فكان سبب إهلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ـ كاملة ـ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿١٤٥﴾

وهذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله صالح عليه السلام أنه بعثه إلى قومه ثمود ، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة ، وكانوا بعد عاد ، وقبل الخليل عليه السلام فدعاهم نبيهم صالح إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه ، وأخبرهم أنه لا يبتغي بدعوتهم أجراً منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله عز وجل . ثم ذكرهم آلاء الله عليهم .

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ ﴿١٤٨﴾

يقول لهم واعظاً لهم ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم ، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة ، وجعلهم في أمن من المحذورات ، وأنبت لهم الجنات ، وفجر لهم العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات ، ولهذا قال ﴿ وزروع ونخل طلعها هضيم ﴾ عن ابن عباس : أينع وبلغ فهو هضيم ، أو اذا رطب واسترخى .

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ ﴿١٥٢﴾

﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً ﴾ فارهين حاذقين ، أو شرهين أشرين ، ولا منافاة بينهما فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكناها ، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ، ولهذا قال ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ أي أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتعبدوه وتوحدوه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ يعني رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق .

﴿١٥٣﴾ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن ثمود في جوابهم لنبيهم عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم عز وجل أنهم ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ يعنون من المسحورين ، أو من المخلوقين ، لأن لهم سحراً ، والسحر الرئة والأظهر أنهم يقولون له إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك .

﴿١٥٤﴾ ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ يعني فكيف أوحي اليك دوننا ؟ كما قالوا في الآية الأخرى ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر . سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ .

﴿١٥٥﴾ ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾

ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، وقد اجتمع ملؤهم ، وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء ـ وأشاروا إلى صخرة عندهم ـ من صفتها كذا وكذا ، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه فأعطوه ذلك فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا اليها عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها ، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ يعني ترد ماءكم يوماً ، ويوماً تردونه أنتم .

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٥٦)

﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء وتأكل الورق والمرعى ، وينتفعون بلبنها ، يحلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً ، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالئوا على قتلها وعقرها .

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١٥٩)

﴿ فعقروها فأصبحوا نادمين ﴾ .﴿ فأخذهم العذاب ﴾ ،وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً ، وجاءتهم صيحة عظيمة ، اقتلعت القلوب من محالها ، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون ، وأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿ إن في ذلك لآية . . . . ﴾

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١٦٤)

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط عليه السلام ، وهو لوط بن هاران ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان الله قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم عليهما السلام ، وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها التي أهلكها الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ، وهي مشهورة ببلاد الغور ، متاخمة لجبال البيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك ، فدعاهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله اليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله من إتيان الذكور دون الاناث .

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم

مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿١٧٥﴾

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش ، وغشيانهم الذكور ، وأرشدهم إلى اتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم ما كان إلا أن قالوا ﴿ لئن لم تنته يا لوط ﴾ أي عما جئتنا به ﴿ لتكونن من المخرجين ﴾ أي ننفيك من بين أظهرنا كما قال تعالى ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم تبرأ منهم وقال ﴿ إني لعملكم من القالين ﴾ أي المبغضين ، لا أحبه ولا أرضى به ، وإني بريء منكم ثم دعا الله عليهم فقال ﴿ رب نجني وأهلي مما يعملون ﴾ قال تعالى ﴿ فنجيناه وأهله أجمعين ﴾ أي كلهم ﴿ إلا عجوزاً في الغابرين ﴾ وهي امرأته وكانت عجوز سوء ، بقيت فهلكت مع من بقي من قومها ، وأنزل الله العذاب الذي عم جميعهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال تعالى ﴿ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين . إن في ذلك لآية . . ﴾ .

﴿١٧٦﴾ ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿١٨٠﴾

هؤلاء ـ يعني أصحاب الأيكة ـ هم أهل مدين على الصحيح ، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل ههنا : ـ أخوهم شعيب ـ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهي شجرة ، وقيل : شجر ملتف كالغيضة ، وكانوا يعبدونها ، فلهذا لما قال : ـ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ـ لم يقل : إذ قال لهم أخوهم شعيب ، وإنما قال ﴿ إذ قال لهم شعيب ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسباً ، ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين فزعم أن شعيباً عليه السلام بعثه الله إلى أمتين ومنهم من قال : إلى ثلاث أمم ، والصحيح أنهم أمة واحدة ، وصفوا في كل مقام بشيء ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء فدل ذلك على أنهما أمة واحدة . وما ورد أنهما أمتان غريب ، أو فيه ضعف .

﴿١٨١﴾ ﴿ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾

يأمرهم عليه السلام بإيفاء المكيال والميزان ، وينهاهم عن التطفيف فيهما فقال ﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ﴾ أي إذا دفعتم للناس فكملوا الكيل لهم ، ولا تبخسوا الكيل فتعطوه ناقصاً وتأخذوه إذا كان لكم تاماً وافياً ، ولكن خذوا كما تعطون ، وأعطوا كما تأخذون .

(١٨٢) ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾

﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ والقسطاس هو الميزان ، وقيل : هو القبان ، أو هو العدل .

(١٨٣) ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ أي لا تنقصوهم أموالهم ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ يعني قطع الطريق ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً ﴾ .

(١٨٤) ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين ﴾ يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل كما قال موسى عليه السلام : ﴿ ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين ﴾ .

(١٨٥) ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها تشابهت قلوبهم حيث قالوا ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾ يعنون من المسحورين .

(١٨٦) ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

أي تتعمد الكذب فيما تقوله ، لا أن الله أرسلك إلينا .

(١٨٧) ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء ﴾ جانباً من السماء ، أو قطعاً من السماء ، أو عذاباً من السماء ، وهذا شبيه بما قالت قريش ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ﴾ وبما

قالت أيضاً ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم ﴾ .

(١٨٨) ﴿ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ قال ربي أعلم بما تعملون ﴾ يقول : الله أعلم بكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به ، وهو غير ظالم لكم ، وهكذا وقع بهم كما سألوا جزاء وفاقاً .

(١٨٩) ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١٩١)

﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام ، لا يكنهم منه شيء ، ثم أقبلت عليهم سحابة أظلتهم فجعلوا ينطلقون اليها يستظلون بظلها من الحر ، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله عليهم منها شرراً من نار ، ولهباً ووهجاً عظيماً ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم ، ولهذا قال ﴿ إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ . ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

(١٩٢) ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿ وإنه ﴾ أي القرآن ﴿ لتنزيل رب العالمين ﴾ أنزله الله عليك ، وأوحاه اليك .

(١٩٣) ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾

وهو جبريل عليه السلام ، كقوله ﴿ فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ أي نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع في الملأ الأعلى .

(١٩٤) ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾

﴿ على قلبك ﴾ يا محمد سالماً من الدنس ، والزيادة والنقص ﴿ لتكون من المنذرين ﴾ أي لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه ، وتبشر به المؤمنين المتبعين له .

(١٩٥) ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾

﴿ بلسان عربي مبين ﴾ أي هذا القرآن الذي أنزلناه اليك أنزلناه باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل ليكون بيناً واضحاً ظاهراً قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة، دليلاً إلى المحجة.

(١٩٦) ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

يقول تعالى: وإن ذكر هذا القرآن، والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيباً في ملئه بالبشارة بأحمد ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ والزبر ههنا هي الكتب، وهي جمع زبور.

(١٩٧) ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

﴿ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ أي أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني اسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها، والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك من آمن منهم، كعبدالله بن سلام، وسلمان الفارسي.

(١٩٨) ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٩٩)

أي لو نزل الله هذا القرآن على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به، كما أخبر الله عنهم ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون. لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾.

(٢٠٠) ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد أي أدخلناه في قلوب المجرمين.

(٢٠١) ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾

﴿ لا يؤمنون به ﴾ أي بالحق ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ أي حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.

﴿٢٠٢﴾ ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ ﴿٢٠٣﴾

﴿ فيأتيهم بغتة ﴾ أي عذاب الله بغتة ﴿ وهم لا يشعرون . فيقولوا هل نحن منظرون ﴾ أي يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلاً ليعملوا بزعمهم في طاعة الله ، وكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندم ندماً شديداً .

﴿٢٠٤﴾ ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾

﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ هذا إنكار عليهم ، وتهديد لهم ، فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً : ائتنا بعذاب الله ، كما قال تعالى ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ .

﴿٢٠٥﴾ ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ ﴿٢٠٧﴾

أي لو أخرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر ، وحيناً من الزمان ، وإن طال ، ثم جاءهم أمر الله ، أيُّ شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم ؟ ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ .

﴿٢٠٨﴾ ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿٢٠٩﴾

﴿ وما أهلكنا من قرية ـ إلى قوله ـ وما كنا ظالمين ﴾ كقوله ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ .

﴿٢١٠﴾ ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ ﴿٢١٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، إنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ ثم ذكر تعالى أنه يمتنع عليهم ذلك لأنه ما ينبغي لهم أي ليس هو من بغيتهم ، ولا من طلبتهم ، لأن من سجاياهم الفساد ، واضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ونور وهدى وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ، ولهذا قال تعالى ﴿ وما ينبغي لهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما يستطيعون ﴾ أي ولو انبغى لهم لما استطاعوا

ذلك ، ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله ، لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسول الله ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لئلا يشتبه

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٢١٦﴾

يقول تعالى امرا بعبادته وحده لا شريك له ، ومخبرا أن من أشرك به عذبه . ثم قال تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين ، أي الأدنين إليه ، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانه بربه عز وجل ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين ، ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه ، ولهذا قال تعالى ﴿ فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ﴾ وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة ، بل هي فرد من أجزائها كما قال تعالى ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ وقال ﴿ لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً ﴾ وفي صحيح مسلم « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة : يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » وفي نزول هذه الآية أحاديث منها أنه أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ، ثم نادى « يا صباحاه » فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « يا بني عبدالمطلب ، يا بني فهر ، يا بني لؤي ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، صدقتموني ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ، وأنزل الله تبت يدا أبي لهب وتب » رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي والإمام أحمد . ومنها ما روته عائشة أنه لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال : « يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة عبدالمطلب ، يا بني عبدالمطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلوني من مالي ما شئتم » رواه الإمام أحمد وانفرد بإخراجه مسلم .

﴿٢١٧﴾ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ أي في جميع أمورك ، فإنه مؤيدك ، وحافظك ، وناصرك ، ومظفرك ، ومعلي كلمتك .

﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ ﴿٢١٩﴾

﴿ الذي يراك حين تقوم ﴾ أي هو معتن بك ، كما قال ﴿ فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ ﴿ حين تقوم ﴾ يعني إلى الصلاة ، أو من فراشك أو مجلسك . ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ أي يراك وحدك ويراك في الجمع ، أو تقلبه من صلب نبي إلى صلب نبي حتى أخرجه نبياً .

﴿٢٢٠﴾ ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم كما قال تعالى ﴿ وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ .

﴿٢٢١﴾ ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴾ ﴿٢٢٣﴾

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق ، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه أو أنه أتاه رئي من الجان فنزه الله سبحانه وتعالى جناب رسوله عن قولهم وافترائهم ، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم أمين عظيم ، وأنه ليس من قبل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم ، وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة . ولهذا قال ﴿ هل أنبئكم ﴾ أي أخبركم ﴿ على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك ﴾ أي كذوب ﴿ أثيم ﴾ هو الفاجر في أفعاله ﴿ يلقون السمع ﴾ أي يسترقون السمع من السماء ، فيسمعون الكلمة من علم الغيب فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيحدثون بها فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء . وفي البخاري : سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال : « إنهم ليسوا بشيء » قالوا : يا رسول الله فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقاً ، فقال النبي ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاج فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » .

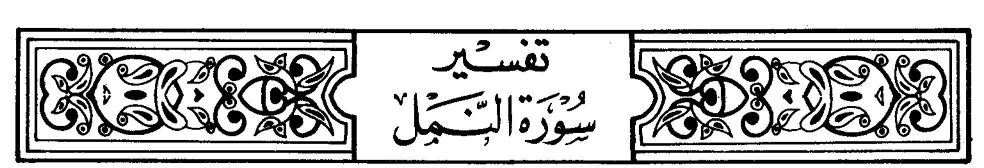
﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢٢٦)

﴿ يتبعهم الغاوون ﴾ يتبعهم ضلال الإنس والجن ﴿ يهيمون ﴾ في كل لغو يخوضون . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد ، فقال النبي ﷺ « خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان ، لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً » ﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ أكثر قولهم يكذبون فيه .

(٢٢٧) ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾

لما نزلت ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ جاء حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ ، وهم يبكون ، قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء فتلا النبي ﷺ ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال « أنتم » ﴿ وذكروا الله كثيراً ﴾ قال : « أنتم » ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال : « أنتم » ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ يردون على الكفار الذي كانوا يهجون به المؤمنين ﴿ وسيعلم الذين ظلموا ﴾ أي من الشعراء وغيرهم ، والآية عامة في كل ظالم .

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة . ﴿ تلك آيات ﴾ هذه آيات ﴿ القرآن وكتاب مبين ﴾ أي بين واضح .

(٢) ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٣)

﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه وعمل بما فيه ، وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وأيقن بالدار الآخرة ، والبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها ، والجنة والنار .

(٤) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾

﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي يكذبون بها ، ويستبعدون وقوعها ﴿ زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ﴾ أي حسنا لهم ما هم فيه ، ومددنا لهم في غيهم ، فهم يتيهون في ضلالهم ، وكان هذا جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة .

(٥) ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾

﴿ أولئك الذين لهم سوء العذاب ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿ وهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ أي ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر .

(٦) ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾

﴿ وإنك ﴾ يا محمد ﴿ لتلقى ﴾ أي لتأخذ ﴿ القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ أي من عند حكيم عليم ، أي حكيم في أمره ، ونهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها ، فخبره هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام كما قال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ .

(٧) ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام ، كيف اصطفاه وكلمه وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة ، والأدلة القاهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له ، فقال تعالى ﴿ إذ قال موسى لأهله ﴾ أي اذكر حين سار موسى بأهله فأضل الطريق ، وذلك في ليل وظلام فآنس من جانب الطور ناراً أي رأى ناراً تأجج وتضطرم فقال ﴿ لأهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر ﴾ أي عن الطريق ﴿ أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ أي تستدفئون به ، وكان كما قال ، فإنه رجع منها بخبر عظيم ، واقتبس منها نوراً عظيماً .

(٨) ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

﴿ فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ﴾ أي فلما أتاها ورأى منظراً هائلاً عظيماً حيث انتهى إليها ، والنار تضطرم في شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء ، قال ابن عباس وغيره : لم تكن ناراً ، وإنما كانت نوراً يتوهج ﴿ ومن حولها ﴾ أي من الملائكة ﴿ وسبحان الله رب العالمين ﴾ أي الذي يفعل ما يشاء ، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته ، وهو العلي العظيم ، المباين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات .

(٩) ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه العزيز الذي عز كل شيء وغلبه ، الحكيم في أقواله وأفعاله .

(١٠) ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾

ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار ، القادر على كل شيء ، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة في غاية الكبر ، وسرعة الحركة مع ذلك ، ولهذا قال ﴿ فلما رآها تهتز كأنها جان ﴾ والجان ضرب من الحيات ، أسرعه حركة ، وأكثره اضطراباً . فلما عاين موسى ذلك ﴿ ولى مدبراً ولم يعقب ﴾ أي لم يلتفت من شدة فرقه ﴿ يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ﴾ أي لا تخف مما ترى ، فإني أريد أن أصطفيك رسولاً ، وأجعلك نبياً وجيهاً .

(١١) ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء . . . ﴾ هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على عمل سيىء ثم أقلع عنه ، ورجع وتاب فإن الله يتوب عليه ، كما قال تعالى ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾

﴿١٢﴾ ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ هذه آية أخرى ، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار ، وصدق من جعل له معجزة ، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه ، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر ، لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف . وقوله ﴿ في تسع آيات ﴾ أي هاتان ثنتان من تسع آيات ، أؤيدك بهن وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ .

﴿١٣﴾ ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ﴾ أي بينة واضحة ظاهرة ﴿ قالوا هذا سحر مبين ﴾ وأرادوا معارضتهم بسحرهم فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين .

﴿١٤﴾ ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

﴿وجحدوا بها﴾ أي في ظاهر أمرهم ﴿واستيقنتها أنفسهم﴾ أي علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها، وعاندوها وكابروها ﴿ظلماً وعلواً﴾ أي ظلماً من أنفسهم ، سجية ملعونة ، وعلواً ، واستكباراً عن اتباع الحق ، ولهذا قال ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ أي أنظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة ، وفحوى الخطاب يقول : احذروا أيها المكذبون لمحمد الجاحدون لما جاء به من ربه أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى ، فإن محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى ، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله ، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به وأخذ المواثيق له . عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

﴿١٥﴾ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه : داود وابنه سليمان عليهما السلام من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة وما جمع لهما بين سعادة الدنيا

والآخرة ، والملك والتمكين التام في الدنيا ، والنبوة والرسالة في الدين ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً . . . ﴾ .

(١٦) ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾

﴿ وورث سليمان داود ﴾ أي في الملك والنبوة ، وليس المراد وراثة المال ، إذ لو كان ذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لداود مائة امرأة ، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة ، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » ﴿ وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير ﴾ أي أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم ، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً ، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به رسوله ﴿ وأوتينا من كل شيء ﴾ أي مما يحتاج إليه الملك ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ أي الظاهر البين لله علينا .

(١٧) ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾

أي وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، يعني ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس ، وكانوا هم الذين يلونه والجن ، وهم بعدهم في المنزلة ، والطير ، ومنزلتها فوق رأسه ، فإن كان حر أظلته منه بأجنحتها . وقوله ﴿فهم يوزعون﴾ أي يكف أولهم على آخرهم ، لئلا يتقدم أحد على منزلته التي هي مرتبة له . قال مجاهد : جعل على كل صنف وزعة يردون أولاها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير كما يفعل الملوك اليوم .

(١٨) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل ﴾ أي حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿ قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ أي خافت النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها ، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها .

(١٩) ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ﴾ أي ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي من تعليمي منطق الطير والحيوان ، وعلى والدي بالإسلام لك ، والإيمان بك ﴿ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ أي عملاً تحبه وترضاه ﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ أي إذا توفيتني فالحقني بالصالحين من عبادك ، والرفيق الأعلى من أوليائك . . والغرض أن سليمان عليه السلام فهم قولها ، وتبسم ضاحكاً من ذلك ، وهذا أمر عظيم جداً . وقد ثبت في الصحيح عند مسلم عن النبي ﷺ : « قرصت نبياً من الأنبياء نملة ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه ، أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح ؟ فهلا نملة واحدة ؟ » .

(٢٠) ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾

﴿ وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟ ﴾ أخطأه بصري من الطير أم غاب فلم يحضر ؟ وعن ابن عباس وغيره أن الهدهد كان يدل سليمان عليه السلام على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض ، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض ، فإذا دلهم عليه أمر سليمان عليه السلام الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره .

(٢١) ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً ﴾ يعني نتف ريشه ﴿ أو لأذبحنه ﴾ يعني قتله ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ بعذر واضح .

(٢٢) ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾

﴿ فمكث ﴾ أي الهدهد ﴿ غير بعيد ﴾ أي غاب زماناً يسيراً ، ثم جاء فقال لسليمان ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ أي بخبر صدق حق يقين ، وسبأ : هم حمير ، وهم ملوك اليمن .

(٢٣) ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ إني وجدت امرأة تملكهم ﴾ هي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ أي من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك الممَكَّن ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب ، وأنواع الجواهر واللآلىء .

(٢٤) ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾

﴿ فصدهم عن السبيل ﴾ أي عن طريق الحق ﴿ فهم لا يهتدون ﴾ .

(٢٥) ﴿ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾

﴿ ألا يسجدوا لله ﴾ أي فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله ، أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها ﴿ الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ﴾ يعلم كل خبيئة في السماء والأرض . وخبء السموات والأرض ما جعل فيهما من الأرزاق : المطر من السماء ، والنبات من الأرض . ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ أي يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال ، وهذا كقوله تعالى ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ .

(٢٦) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴾

﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ أي هو المدعو « الله » وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم الذي ليس في المخلوقات أعظم منه . ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير ، وعبادة الله وحده ، والسجود له نهى عن قتله كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصرد . وإسناده صحيح .

(٢٧) ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قيل سليمان للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم ﴿ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ أي أصدقت في إخبارك هذا ﴿ أم كنت من الكاذبين ﴾ في مقالتك لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك ؟

(٢٨) ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَ

ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولَّ عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها ، وأعطاه ذلك الهدهد فحمله ، قيل : في جناحيه كما هي عادة الطير ، وقيل : بمنقاره ، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها ، ثم تولى ناحية أدباً ورياسة ، فتحيرت مما رأت ، وهالها ذلك ، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته فإذا فيه :

﴿٣٠﴾ ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ ﴿٣١﴾

﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين ﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها . ثم قالت لهم : ﴿ يا أيها الملأ إني ألقي إليّ كتاب كريم ﴾ تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره ، كون طائر ذهب به فألقاه إليها ، ثم تولى عنها أدباً ، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ولا سبيل لهم إلى ذلك ، ثم قرأته عليهم فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام ، وأنه لا قبل لهم به ، وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة ، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها . ﴿ أن لا تعلوا علي ﴾ لا تمتنعوا ولا تتكبروا ﴿ وأتوني مسلمين ﴾ موحدين مخلصين طائعين .

﴿٣٢﴾ ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴾

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها ، وما قد نزل بها ، ولهذا قالت ﴿ يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ﴾ أي حتى تحضرون وتشيرون .

﴿٣٣﴾ ﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾

﴿ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ﴾ أي منوا إليها بعددهم وعددهم وقوتهم ، ثم فوضوا اليها بعد ذلك الأمر فقالوا ﴿ والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين ﴾ اي نحن ليس بنا عاقة ، ولا بنا بأس ، [illegible] أن تقصده ونحاربه فما لنا عاقة عنه ، وبعد هذا فالأمر

اليك ، مري فينا رأيك نمتثله ونطيعه ـ قال الحسن البصري رحمه الله فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها ، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم رأياً منهم ، وأعلم بأمر سليمان ، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه ، وما سخر له من الجن والانس والطير ، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعاً ، فقالت لهم : إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه فيقصدنا بجنوده ، ويهلكنا بمن معه ، ويخلص إلي وإليكم الهلاك ، والدمار دون غيرنا ، ولهذا :

(٣٤) ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾

﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ أي إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه أي خربوه ﴿ وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ أي وقصدوا من فيها من الولاة والجنود ، فأهانوهم غاية الهوان ، إما بالقتل أو الأسر وقوله ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ هذا من كلام الرب ، كما قال ابن عباس .

(٣٥) ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾

﴿ وإني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ أي سأبعث اليه بهدية تليق بمثله ، وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك ، فلعله يقبل منا ، ويكف عنا ، أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه في كل عام ، ونلتزم بذلك ، ويترك قتالنا ومحاربتنا . قال قتادة : ما كان أعقلها في إسلامها وشركها ، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس . وعن ابن عباس وغير واحد : قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

(٣٦) ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين من السلف وغيرهم أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلىء وغير ذلك ، والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب . والظاهر أن سليمان عليه السلام لم ينظر إلى ما جاؤ وا إليه بالكلية ، ولا اعتنى به ، بل أعرض عنه ، وقال منكراً عليهم ﴿ أتمدونن بمال ؟ ﴾ أي أتصانعونني بمال لأتركتكم على شرككم وملككم ﴿ فما آتاني الله خير مما آتاكم ﴾ أي الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه . ﴿ بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ أي أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف ، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف .

(٣٧) ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾

﴿ ارجع اليهم ﴾ أي بهديتهم ﴿ فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ﴾ أي لا طاقة لهم بقتالها ﴿ ولنخرجنهم منها أذلة ﴾ أي ولنخرجنهم من بلدتهم أذلة ﴿ وهم صاغرون ﴾ أي مهانون مدحورون . فلما رجعت اليها رسلها بهديتها ، وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة معظمة لسليمان ، ناوية متابعته في الإسلام ، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه ، ووفودهم إليه فرح بذلك وسره .

(٣٨) ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾

شخصت إلى سليمان حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والانس ممن تحت يده فقال ﴿ يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ﴾ وقد وصفوا عرشها أنه من ذهب ، وقوائمه من لؤلؤ وجوهر ، وكان مستراً بالديباج والحرير . وقد كره أن يأخذه بعد إسلامهم ، وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودماؤهم .

(٣٩) ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾

﴿ قال عفريت من الجن ﴾ مارد من الجن ﴿ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ قبل أن تقوم من مجلسك ، فقد كان يجلس للناس للقضاء ، والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس ﴿ وإني عليه لقوي أمين ﴾ أي قوي على حمله ، أمين على ما فيه من الجواهر .

(٤٠) ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾

﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب ﴾ قيل : هو آصف به برخياء كاتب سليمان ، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ﴾ أي ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه ، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك ، فلما عاين سليمان وملؤه ذلك ورآه مستقراً عنده ﴿ قال هذا من فضل ربي ﴾ أي هذا من نعم الله علي ﴿ليبلوني﴾ أي ليختبرني ﴿أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾ كقوله ﴿من

عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ وقوله ﴿ ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ أي هو غني عن العباد وعبادتهم ، أي كريم في نفسه وإن لم يعبده أحد ، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد ، وهذا كما قال موسى ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ وفي صحيح مسلم « يقول الله تعالى : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

(٤١) ﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾

لما جيء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها ، وثباتها عند رؤيته هل تقدم على أنه عرشها ، أو أنه ليس بعرشها فقال ﴿ نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ قال ابن عباس : نزع منه نصوصه ومرافقه ، وقال مجاهد أمر به فغير ما كان أحمر جعل أصفر ، وما كان أصفر جعل أحمر ، وما كان أخضر جعل أحمر ، غير كل شيء عن حاله .

(٤٢) ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾

﴿ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ﴾ أي عرض عليها عرشها وقد غير ونكر ، وزيد فيه ونقص منه فكان فيها ثبات وعقل ، ولها لب ودهاء وحزم ، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته ، وإن بدل ونكر وغير فقالت ﴿ كأنه هو ﴾ أي يشبهه ويقاربه ، وهذا غاية في الذكاء والحزم ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام .

(٤٣) ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾

﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله ﴾ وهذا من تمام كلام سليمان عليه السلام ، أي منعها من عبادة الله وحده ، ﴿ ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴾ وهي إنما أظهرت الاسلام بعد دخولها إلى الصرح .

(٤٤) ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ قيل لها ادخلي الصرح ﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصراً عظيماً من قوارير ، أي من زجاج ، وأجرى تحته الماء ، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه ﴿ فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ﴾ لا تشك أنه ماء تخوضه ﴿ قال إنه صرح ممرد من قوارير ﴾ فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله عز وجل وحده ، وعاتبها في عبادة الشمس من دون الله ﴿ قالت إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ فأسلمت وحسن إسلامها .

(٤٥) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام حين بعثه الله اليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ مؤمن وكافر .

(٤٦) ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

﴿ قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ﴾ أي لم تدعون بحضور العذاب ، ولا تطلبون من الله رحمته ، ولهذا قال ﴿ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾ .

(٤٧) ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾

﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك ﴾ أي ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً ، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال : هذا من قبل صالح وأصحابه ، كما قال تعالى إخباراً عن قوم فرعون ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ وقوله ﴿ قال طائركم عند الله ﴾ أي الله يجازيكم على ذلك ﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ تبتلون بالطاعة والمعصية ، والظاهر أن المراد بقوله ﴿ تفتنون ﴾ أي تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

(٤٨) ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح ، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة ، وهموا بقتل صالح أيضاً ، بأن يبيتوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلة ، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه : إنهم ما علموا بشيء من أمره ، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك ، فقال تعالى ﴿ وكان في المدينة ﴾ أي مدينة ثمود ﴿ تسعة رهط ﴾ أي تسعة نفر ﴿ يفسدون في الأرض ولا

يصلحون ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم . هؤلاءهم الذين عقروا الناقة ، أي الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم . قبحهم الله ولعنهم ، وقد فعل ذلك . وكان صفات هؤلاء الافساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها .

﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ (٤٩)

﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ﴾ أي تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام من لقيه ليلاً غيلة ، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم ، ﴿ ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله .. ﴾ عن ابن عباس قالوا حين عقروا الناقة لنبيتن صالحاً وأهله فنقتلهم ، ثم نقول لأولياء صالح : ما شهدنا من هذا شيئاً ، وما لنا به من علم ، فدمرهم الله أجمعين .

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ (٥٣)

﴿ فتلك بيوتهم خاوية ﴾ أي فارغة ليس فيها أحد ﴿ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ (٥٤)

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه أنذر قومه نقمة الله بهم في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم اليها أحد من بني آدم ، وهي إتيان الذكور دون الاناث ، وذلك فاحشة عظيمة ، استغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء فقال ﴿ أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴾ أي يرى بعضكم بعضاً ، وتأتون في ناديكم المنكر ؟ .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (٥٥)

﴿ أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ﴾ أي لا تعرفون شيئاً ، لا طبعاً ولا شرعاً ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾ .

﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (٥٦)

أي يتحرجون من فعل ما تفعلون ومن اقراركم على صنيعكم ، فأخرجوهم من بين

أظهركم ، فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم ، فعزموا على ذلك ، فدمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها .

(٥٧) ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ﴾ أي من الهالكين مع قومها ، لأنها كانت ردءاً لهم على دينهم ، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة ، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ، ليأتوا اليهم ، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله ﷺ ، لا كرامة لها .

(٥٨) ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾

﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ أي حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد . ولهذا قال ﴿ فساء مطر المنذرين ﴾ أي الذين قامت عليهم الحجة ، ووصل إليهم الانذار ، فخالفوا الرسول وكذبوه وهموا باخراجه من بينهم .

(٥٩) ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسول الله ﷺ أن يقول ﴿ الحمد لله ﴾ أي على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى ، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى ، والأسماء الحسنىٰ ، وأن يسلم على عباده الذين اصطفاهم واختارهم ، وهم رسله وأنبياؤه الكرام . عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام ، فالمراد بعباده الذين اصطفى هم الأنبياء ، وهو كقوله ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ وقيل : هم أصحاب محمد ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين ، ولا منافاة ، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى . ﴿ آلله خيرام ما يشركون ﴾ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى .

(٦٠) ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾

ثم شرع تعالى يبين أنه المفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره فقال تعالى ﴿ أمن خلق السموات ﴾ أي خلق تلك السموات في ارتفاعها وصفائها ، وما جعل فيها من الكواكب النيرة ، والنجوم الزاهرة ، والأفلاك الدائرة ، وخلق الأرض في استفالها وكثافتها ، وما

جعل فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار ، والفيافي والقفار ، والزروع والأشجار ، والثمار والبحار والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك ﴿ وأنزل لكم من السماء ماء ﴾ أي جعله رزقاً للعباد ﴿ فأنبتنا به حدائق ﴾ أي بساتين ﴿ ذات بهجة ﴾ أي منظر حسن وشكل بهي ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ أي لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها ، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك المتفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد كما يعترف به هؤلاء المشركون ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ ﴿ أءله مع الله ﴾ أي أءله مع الله يعبد ، أو يفعل هذا ، وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أنه الخالق الرازق ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ ؟ ﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ أي يجعلون لله عدلاً ونظيراً .

(٦١) ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ أمن جعل الأرض قراراً ﴾ أي قارة ساكنة ثابتة لا تحيد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم ، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً وبساطاً ثابتة ، لا تتزلزل ولا تتحرك ﴿ وجعل خلالها أنهاراً ﴾ أي جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة ، شقها في خلالها ، وصرفها فيما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك ، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض ، وسير لهم أرزاقهم بجسب ما يحتاجون إليه ﴿ وجعل لها رواسي ﴾ أي جبالاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تحيد بكم ﴿ وجعل بين البحرين حاجزاً ﴾ أي جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً أي مانعاً يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا ، فإن الحكمة الآلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه ، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس ، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالاً يسقي الحيوان والنبات والثمار منها . والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب ، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً لئلا يفسد الهواء بريحها كما قال تعالى ﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ أءله مع الله ﴾ ؟ أي فعل هذا ، أو يعبد ؟ ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي في عبادتهم غيره .

(٦٢) ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد ، المرجو عند النوازل كما قال تعالى ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ وهكذا قال هنا ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه ؟ ﴿ ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ كما قال تعالى ﴿ إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ ، وهكذا في هذه الآية ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ أي أمة بعد أمة ، وجيلاً بعد جيل ، وقوماً بعد قوم ، ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض ، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب ، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض ، وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ، ويتضرر بعضهم ببعض ، ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ، ثم يكثرهم غاية الكثرة ، ويذرأهم في الأرض ، ويجعلهم قروناً بعد قرون ، وأمماً بعد أمم حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية ، كما قدر ذلك تبارك وتعالى وكما أحصاهم وعدهم عداً ، ثم يقيم القيامة ، ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله . ﴿ أإله مع الله ؟ ﴾ أي يقدر على ذلك ، أو أإله مع الله بعد هذا ؟ وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له . ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ أي ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

(٦٣) ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ﴾ أي بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية كما قال تعالى ﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾ ﴿ ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ أي بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجدبين القنطين ﴿أإله مع الله تعالى الله عما يشركون﴾ .

(٦٤) ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

أي هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده كما قال ﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ ﴿ ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾ أي بما ينزل من مطر من السماء ، وينبت من بركات الأرض كما قال تعالى ﴿ والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع ﴾ فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركاً فيسلكه ينابيع في الأرض ، ثم يخرج به أنواع الزروع والثمار والأزاهير وغير ذلك من ألوان شتى ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ أإله مع الله ﴾ أي فعل هذا ، أإله مع الله يعبد ؟ ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في ذلك ، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ .

(٦٥) ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق : إنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله وقوله تعالى ﴿ إلا الله ﴾ استثناء منقطع ، أي لا يعلم أحد ذلك إلا الله عز وجل ، فإنه المنفرد بذلك وحده لا شريك له . ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ أي وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة كما قال تعالى ﴿ ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ .

(٦٦) ﴿ بَلِ ادَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾

﴿ بل ادارك علمهم في الآخرة ﴾ أي انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها ، أو تساوى علمهم في ذلك ، كما في الحديث « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » أي تساوى في العجز عن درك ذلك : علم المسؤول وعلم السائل ، أو غاب علمهم .

(٦٧) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً . ثم قال ﴿ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ﴾ أي ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا : ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أي

هذا الوعد بإعادة الأبدان أخذه قوم عمن قبلهم من كتب يتلقاه بعض عن بعض ، وليس له حقيقة .

﴿٦٨﴾ ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿٦٩﴾

﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء ﴿ سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ أي المكذبين بالرسل ، وبما جاؤوهم به من أمر المعاد وغيره ، كيف حلت بهم نقمة الله وعذابه ونكاله ، ونجى الله من بينهم رسله الكرام ، ومن اتبعهم من المؤمنين ، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته .

﴿٧٠﴾ ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه ﷺ ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي المكذبين بما جئت به ، ولا تأسف عليهم ، ﴿ ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ ﴿ ولا تكن في ضيق مما يمكرون ﴾ أي في كيدك ورد ما جئت به ، فإن الله مؤيدك وناصرك ، ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب .

﴿٧١﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة ، واستبعادهم وقوع ذلك ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

﴿٧٢﴾ ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾

قال تعالى مجيباً لهم ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون ﴾ أن يكون قرب ، أو أن يقرب لكم بعض الذي تستعجلون ، وهو كقوله ﴿ ويقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ وإنما دخلت اللام في قوله ﴿ ردف لكم ﴾ لأنه ضمن معنى عجل لكم .

﴿٧٣﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ وإن ربك لذو فضل على الناس ﴾ أي في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم .

(٧٤) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

﴿ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ أي يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ .

(٧٥) ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

ثم أخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه فقال تعالى ﴿ وما من غائبة ﴾ يعني وما من شيء ﴿ في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ﴾ وهذا كقوله ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ .

(٧٦) ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان أنه يقص على بني إسرائيل ، وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿ أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ كاختلافهم في عيسى ، وتباينهم فيه ، فاليهود افتروا والنصارى غلوا ، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل أنه عبد من عباد الله ، وأنبيائه ورسله الكرام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، كما قال تعالى ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ .

(٧٧) ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ أي هدى لقلوب المؤمنين به ، ورحمة لهم .

(٧٨) ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ إن ربك يقضي بينهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ بحكمه وهو العزيز ﴾ أي في انتقامه ﴿ العليم ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم .

(٧٩) ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾

﴿ فتوكل على الله ﴾ أي في جميع أمورك ، وبلغ رسالة ربك ﴿ إنك على الحق المبين ﴾

أي أنت على الحق المبين ، وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة ، و ﴿ حقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ﴾ .

(٨٠) ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾

ولهذا قال ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ أي لا تسمعهم شيئاً ينفعهم ، فكذلك هؤلاء ، على قلوبهم غشاوة ، وفي آذانهم وقر الكفر ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴾ .

(٨١) ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾

أي إنما يستجيب لك من هو سميع بصير السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة ، الخاضع لله ولما جاء عنه على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام .

(٨٢) ﴿ * وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس ، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم عليه السلام ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث أقبلوا » وهكذا رواه مسلم ، وأهل السنن . قال ابن جريج عن ابن الزبير : إنه وصف الدابة فقال : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً ، تخرج معها عصا موسى ، وخاتم سليمان ، فلا يبقى مؤمن إلا نكتت في وجهه بعصا موسى نكتة بيضاء ، فتغشو تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه ، ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان فتغشو تلك النكتة حتى يسود بها وجهه حتى أن الناس يتبايعون في الأسواق بكم ذا يا مؤمن ، بكم ذا يا كافر ؟ وحتى إن أهل البيت يجلسون على مائدتهم فيعرفون مؤمنهم من كافرهم ، ثم تقول

لهم الدابة : يا فلان أبشر أنت من أهل الجنة ، ويا فلان أنت من أهل النار .

(٨٣) ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله عز وجل ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا تقريعاً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتحقيراً فقال تعالى ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ﴾ أي من كل قوم وقرن فوجاً . ﴿ فهم يوزعون ﴾ يدفعون ، أو يرد أولهم على آخرهم ، أو يساقون .

(٨٤) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ حتى إذا جاؤ وا ﴾ ووقفوا بين يدي الله عز وجل في مقام المساءلة ﴿ قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أم ماذا كنتم تعملون ﴾ أي فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم ، فلما لم يكونوا من أهل السعادة ، وكانوا كما قال الله عنهم ﴿ فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب وتولى ﴾ فحينئذٍ قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به كما قال الله تعالى ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ .

(٨٥) ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾

﴿ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴾ أي بهتوا فلم يكن لهم جواب ، لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا على عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية .

(٨٦) ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته والانقياد لأوامره ، وتصديقه أنبيائه فيما جاؤ وا به من الحق الذي لا محيد عنه فقال ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه ﴾ أي في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه وتهدأ أنفاسهم ، ويستريحوا من نصب التعب في نهارهم ﴿ والنهار مبصراً ﴾ أي منيراً مشرقاً ، فبسبب ذلك يتصرفون في المعايش والمكاسب والأسفار والتجارات وغير ذلك من شؤ ونهم التي يحتاجون إليها ﴿ إن في ذلك لايات لقوم يؤمنون ﴾ .

(٨٧) ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور ، وهو كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه ، وفي حديث الصور أن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها ، وذلك في آخر عمر الدنيا حتى تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء فيفزع من في السموات ومن في الأرض ﴿ إلا من شاء الله ﴾ وهم الشهداء فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ أي صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره كما قال تعالى ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ﴾ وقال ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ .

(٨٨) ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ أي تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهي تمر مر السحاب ، أي تزول عن أماكنها كما قال تعالى ﴿ يوم تمور السماء موراً . وتسير الجبال سيراً ﴾ ﴿ صنع الله ﴾ أي يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿ الذي أتقن كل شيء ﴾ أي أتقن كل ما خلق وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿ إنه خبير بما تفعلون ﴾ أي هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر ، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء .

(٨٩) ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذٍ فقال ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ قال قتادة : بالاخلاص ، وقيل : هي « لا إله إلا الله » وقد بين تعالى في الموضع الآخر أن له عشر أمثالها ﴿ وهم من فزع يومئذٍ آمنون ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ .

(٩٠) ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ﴾ أي من لقي الله مسيئاً لا حسنة له ، أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه ، ولهذا قال ﴿ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ وقال كثير ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ يعني بالشرك .

(٩١) ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً رسوله وآمراً له أن يقول ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء ﴾ وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها ، كما قال تعالى ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ وقوله تعالى ﴿ الذي حرمها ﴾ أي الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدراً بتحريمه لها كما ثبت في الصحيحين قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ، ولا ينضر صيده ، ولا يلتقط القطعة ، إلا من عرفها ، ولا يختلي خلاها » ﴿ وله كل شيء ﴾ أي هو رب هذه البلدة ، ورب كل شيء ومليكه ، لا إله إلا هو . ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ أي من الموحدين المخلصين المنقادين لأمره ، المطيعين له .

(٩٢) ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾

﴿ وأن أتلوَ القرآن ﴾ أي على الناس ، أبلغهم إياه ، كقوله تعالى ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ . أي أنا مبلغ ومنذر ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ﴾ أي لي أسوة بالرسل ، الذين أنذروا قومهم ، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم ، وخلصوا من عهدتهم ، وحساب أممهم على الله تعالى ، كقوله تعالى ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وقال ﴿ إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴾ .

(٩٣) ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وقل الحمد لله ﴾ أي لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإنذار إليه ، ولهذا قال تعالى ﴿ سيريكم آياته فتعرفونها ﴾ كما قال تعالى ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ أي بل هو شهيد على كل شيء . روى ابن أبي حاتم عن رسول الله ﷺ قال : ﴿ يا أيها الناس لا يغترن أحدكم بالله ، فإن الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والخردلة والذرة » .



تفسير
سُورَةُ القَصَصِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ طسٓمٓ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾

﴿ تلك ﴾ أي هذه ﴿ آيات الكتاب المبين ﴾ أي الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور ، وعلم ما قد كان وما هو كائن .

(٣) ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق . . . ﴾ كما قال تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ أي نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد ، وكأنك حاضر .

(٤) ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ أي تكبر وتجبر وطغىٰ ﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾ أي أصنافاً قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته ﴿ يستضعف طائفة منهم ﴾ يعني بني إسرائيل ، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم . هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أخس الأعمال ، ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ، ويستحيي نساءهم إهانة لهم ، واحتقاراً وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه .

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ (٦)

﴿ ونريد أن نمن على . . . ﴾ وقد فعل تعالى ذلك بهم كما قال تعالى ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ وقال تعالى ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري ، ولا يغلب ، بل نفذ حكمه ، وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه ، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده ، وقتلت بسببه ألوفاً من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفي دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وأنت تربيه وتدلله وتتفداه ، وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه ، لتعلم أن رب السموات العلى هو القاهر الغالب العظيم العزيز الشديد المحال الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (٧)

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل خافت القبط أن يفني بني إسرائيل فيلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة ، فقالوا لفرعون : إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم ، وغلمانهم يقتلون ، ونساؤهم لا يمكن أن يقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال فيخلص إلينا ذلك ، فأمر بقتل الولدان عاماً ، وتركهم عاماً ، فولد هارون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان ، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان . وكان لفرعون ناس موكلون بذلك ، وقوابل يدرن على النساء ، فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها ، فإذا كان وقت ولادتها لا يقبلها إلا نساء القبط ، فإن ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن ، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا ، قبحهم الله . فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ، ولم تفطن لها الدايات ، ولكن لما وضعته ذكراً ضاقت به ذرعاً وخافت عليه خوفاً شديداً ، وأحبته حباً زائداً ، وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه ، فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً ، قال تعالى ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ فلما ضاقت به ذرعاً ألهمت في سرها ، وألقي في خلدها ، ونفث في روعها كما قال تعالى ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه . . . ﴾ وذلك أنه كانت في دارها على حافة النيل فاتخذت تابوتاً ومهدت فيه مهداً ، وجعلت ترضع ولدها ، فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه

ذهبت فوضعته في ذلك التابوت ، وأرسلته في البحر ، وذهلت أن تربطه فذهب مع الماء ، واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجواري فاحتملنه إلى امرأة فرعون ، ولا يدرين ما فيه ، فلما كشفت عنه إذ هو غلام من أحس الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه ، وذلك لسعادتها ، وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها .

(٨) ﴿ فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴾

ولهذا قال ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ واللام هذه ﴿ ليكون لهم ﴾ لام العاقبة ، لا لام التعليل ، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ .

(٩) ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك . . . ﴾ يعني أن فرعون لما رآه همَّ بقتله خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه ، وتذب دونه ، وتحببه إلى فرعون فقالت ﴿ قرة عين لي ولك ﴾ فقال فرعون : أما لك فنعم ، وأما لي ، فلا ، فكان كذلك ، وهداها الله بسببه ، وأهلكه الله على يديه . وقوله ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ وقد حصل لها ذلك ، وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه . وقوله ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ أي أرادت أن تتخذه ولداً وتتبناه ، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه . وقوله تعالى ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة ، والحجة القاطعة .

(١٠) ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغاً ، أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى . ﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ أي إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد ، وتخبر بحالها لولا أن الله ثبتها وصبرها . قال تعالى ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ﴾ .

﴿١١﴾ ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ ﴿١٢﴾

﴿ وقالت لأخته قصيه ﴾ أي أمرت ابنتها ، وكانت كبيرة تعي ما يقال لها ، فقالت لها ﴿ قصيه ﴾ أي اتبعي أثره وخذي خبره ، وتطلبي شأنه من نواحي البلد فخرجت لذلك ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ عن جانب ، أو عن جنب بعيد ، أو جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده ، وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون ، وأحبته امرأة الملك ، واستطلقته منه عرضوا عليه المراضع التي في دارهم ، فلم يقبل منها ثدياً ، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته فلما رأته بأيديهم عرفته ، ولم تظهر ولم يشعروا بها . قال الله تعالى ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ أي تحريماً قدرياً ، وذلك لكرامته عند الله ، وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه ، ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعه ، وهي آمنة بعدما كانت خائفة، فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه ﴿ قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا في أمرها ، وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في سرور الملك ، ورجاء منفعته فأرسلوها ، فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحاً شديداً وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلاً ، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة ، ولكن لكونه وافق ثديها .

﴿١٣﴾ ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ﴾ أي به ﴿ ولا تحزن ﴾ أي عليه ﴿ ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ أي فيما وعدها من رده إليها ، وجعله من المرسلين ، فحينئذٍ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعاً وشرعاً . وقوله ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة ، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس ، وعاقبته محمودة في نفس الأمر ، كما قال تعالى ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر

لكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ .

(١٤) ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى آتاه الله حكماً وعلماً يعني النبوة . ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ .

(١٥) ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾

ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدره له من النبوة والتكليم في قضية قتله ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين فقال تعالى ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾ عن ابن عباس : بين المغرب والعشاء ، وعنه أنه كان نصف النهار ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾ أي يتضاربان ويتنازعان ﴿ هذا من شيعته ﴾ أي إسرائيلي ﴿ وهذا من عدوه ﴾ أي قبطي ، فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام فوجد موسى فرصة وهي غفلة الناس فعمد إلى القبطي ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ أي طعنه بجميع كفه ، أو وكزه بعصا كانت معه فقضى عليه ، أي كان فيها حتفه فمات ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ﴾ .

(١٦) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ (١٧)

﴿ قال رب بما أنعمت علي ﴾ أي بما جعلت الجاه والعز والنعمة ﴿ فلن أكون ظهيراً ﴾ أي معيناً ﴿ للمجرمين ﴾ أي الكافرين بك ، المخالفين لأمرك .

(١٨) ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿ في المدينة خائفاً ﴾ أي من معرة ما فعل ﴿ يترقب ﴾ أي يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر ، فمر في بعض

الطريق ، فإذا ذلك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر ، فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر فقال له موسى ﴿ إنك لغوي مبين ﴾ أي ظاهر الغواية ، كثير الشر ، ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلك أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك فقال يدفع عن نفسه :

(١٩) ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾

﴿ يا موسى ﴾ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟، وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام ، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها في فمه ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده فعلم فرعون بذلك ، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى ، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك .

(٢٠) ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾

قال تعالى ﴿ وجاء رجل ﴾ وصفه بالرجولية لأنه خالف الطريق فسلك طريقاً أقرب من طريق الذي بعثوا وراءه ، فسبق إلى موسى فقال له يا موسى ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ﴾ أي يتشاورون فيك ﴿ ليقتلوك فاخرج ﴾ أي من البلد ﴿ إني لك من الناصحين ﴾ .

(٢١) ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره خرج من مصر وحده ، ولم يألف ذلك قبله ، بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة ﴿ فخرج منها خائفاً يترقب ﴾ أي يتلفت ﴿ قال رب نجني من القوم الظالمين ﴾ أي من فرعون وملئه . فذكروا أن الله سبحانه وتعالى بعث إليه ملكاً على فرس فأرشده إلى الطريق،والله أعلم .

(٢٢) ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ اي اخذ طريقاً سالكاً مهيعاً فرح بذلك ﴿ قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ أي الطريق الأقوم ، ففعل الله به ذلك ، وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة فجعله هادياً مهدياً .

(٢٣) ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾

﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ أي لما وصل إلى مدين ، وورد ماءها ، وكان لها بئر يرده رعاء الشاء ﴿ وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ أي جماعة يسقون ﴿ ووجد من دونهم امرأتين تذودان ﴾ أي تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا ، فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما ﴿ قال ما خطبكما ؟ ﴾ أي ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ ﴿ قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء ﴾ أي لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء ﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾ أي فهذا الحال الملجىء لنا إلى ما ترى .

(٢٤) ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾

قال الله تعالى ﴿ فسقى لهما ﴾ روى ابن أبي شيبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان قال : ما خطبكما ؟ فحدثتاه فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم . إسناده صحيح . وقوله ﴿ ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً ، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس في الظل ، وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة . وقوله ﴿ إلى الظل ﴾ أي جلس تحت شجرة .

(٢٥) ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعاً فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام ، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها ، قال الله تعالى ﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ﴾ أي مشي الحرائر ، كما روي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه قال : جاءت مستترة بكم درعها ، وعنه جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء ولاجة خراجة . هذا إسناد صحيح . السلفع من الرجال : الجور ، ومن النساء الجرية السليطة ، ومن النوق الشديدة

﴿ قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ وهذا تأدب في العبارة ، لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة ، بل قالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، يعني ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا ﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص ﴾ أي ذكر له ما كان من أمره ، وما جرى من التسبب الذي خرج من أجله من بلده ﴿ قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ يقول : طب نفساً ، وقر عيناً ، فقد خرجت من مملكتهم ، فلا حكم لهم في بلادنا ، ولهذا قال ﴿ نجوت من القوم الظالمين ﴾ .

﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿ قالت إحداهما يا أبت استأجره ﴾ أي قالت إحدى ابنتي هذا الرجل ، قيل : هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت لأبيها : ﴿ يا أبت استأجره ﴾ أي لرعيه هذه الغنم ، قال عمر وابن عباس وآخرون : لما قالت ﴿ إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ ، قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت له : إنه رفع الصخرة التي لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال لي : كوني من ورائي ، فإذا اختلفت على الطريق ، فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه . وعن عبدالله بن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس في عمر ، وصاحب يوسف حين قال : أكرمي مثواه ، وصاحبة موسى حين قالت ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ .

﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿ قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ﴾ أي طلب إليه هذا الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال بعتك أحد هدين العبدين بمائة ، فقال : اشتريت ، أنه يصح . والله أعلم . وقوله ﴿ على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك ﴾ أي على أن ترعى غنمي ثمان سنين ، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك ، وإلا ففي الثمان كفاية ﴿ وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ أي لا أشاقك ، ولا أؤذيك ، ولا أماريك . وقد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم في صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية ، وروى ابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه ، وطعمة بطنه »

(٢٨) ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

يقول : إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين ، فإن أتممت عشراً فمن عندي ، فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت ذمتي من العهد ، وخرجت من الشرط ، ولهذا قال ﴿ أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ ﴾ أي فلا حرج علي ، مع أن الكامل وإن كان مباحاً ، لكنه فاضل من جهة أخرى ، وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما ، روى البخاري عن سعيد بن جبير قال : سألني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت على ابن عباس رضي الله عنهما فسألته فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل ، وقد روي مرفوعاً عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « سألت جبريل : أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أتمهما وأكملهما » .

(٢٩) ﴿ * فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾

قضى موسى عليه السلام أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما ، وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة حيث قال تعالى ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ أي الأكمل منهما . والله أعلم ﴿ وسار بأهله ﴾ قالوا : كان موسى قد اشتاق إلى بلده وأهله فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه ، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة ، فنزل منزلاً ، فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئاً فتعجب من ذلك ، فبينما هو كذلك ﴿ آنس من جانب الطور ناراً ﴾ أي رأى ناراً تضيء على بعد ﴿ فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً ﴾ أي حتى أذهب إليها ﴿ لعلي آتيكم منها بخبر ﴾ وذلك لأنه قد أضل الطريق ﴿ أو جذوة من النار ﴾ أي قطعة منها ﴿ لعلكم تصطلون ﴾ أي تستدفئون بها من البرد .

(٣٠) ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن ﴾ أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب كما قال تعالى ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى

الأمر ﴾ فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة والجبل الغربي عن يمينه ، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لحف جبل مما يلي الوادي فوقف باهتاً في أمرها فناداه ربه ﴿ من شاطىء الـواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ﴾ عن عبدالله قال : رأيت الشجرة التي نودي منها موسى عليه السلام سحرة خضراء ترف . وقوله تعالى ﴿ أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ أي الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه .

(٣١) ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾

﴿ وأن ألق عصاك ﴾ أي التي في يدك ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ أي تضطرب ﴿ كأنها جان ولى مدبراً ﴾ أي في حركتها السريعة مع عظم خلقتها وقوائمها واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها وأضراسها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها ، تنحدر في فيها تتقعقع كأنها حادرة في واد ، فعند ذلك ﴿ ولى مدبراً ولم يعقب ﴾ أي ولم يكن يلتفت ، لأن طبع البشرية ينفر من ذلك ، فلما قال الله له ﴿ يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ رجع فوقف في مقامه الأول .

(٣٢) ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ أي إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق ، ولهذا قال ﴿ من غير سوء ﴾ أي من غير برص . وقوله تعالى ﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ من الفزع ، أو مما حصل لك من خوفك من الحية ، والظاهر أن المراد أعم من هذا ، وهو أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب ، وهو يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف ، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجده ، أو يخف إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة . وقد كان موسى يقول إذا رأى فرعون : اللهم إني أدرأ بك في نحره وأعوذ بك من شره، فنزع الله ما كان في قلب موسى عليه السلام من الرعب وجعله في

قلب فرعون . وقوله ﴿ فذانك برهانان من ربك ﴾ يعني إلقاء العصا وجعلها حية ، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار ، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ، ولهذا قال تعالى ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ أي وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع . ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ أي خارجين عن طاعة الله ، مخالفين لأمره ودينه .

(٣٣) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾

لما أمره تعالى بالذهاب إلى فرعون الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه ، وخوفاً من سطوته ﴿ قال رب إني قتلت منهم نفساً ﴾ يعني ذلك القبطي ﴿ فأخاف أن يقتلون ﴾ أي إذا رأوني .

(٣٤) ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾

﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لثغة بسبب ما كان تناول من الجمرة حين خير بينها وبين التمرة أو الدرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه فحصل فيه شدة في التعبير ، ولهذا قال ﴿ واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي . واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري ﴾ ﴿ ردءاً ﴾ أي وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمري ﴿ يصدقني ﴾ فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد ، ولهذا قال ﴿ إني أخاف أن يكذبون ﴾ .

(٣٥) ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾

﴿ قال سنشد عضدك بأخيك ﴾ أي سنقوي أمرك ، ونعز جانبك بأخيك الذي سألت له أن يكون نبياً معك كما قال ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ وقوله ﴿ ونجعل لكما سلطاناً ﴾ أي حجة قاهرة ﴿ فلا يصلون إليكما ﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلي أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله ﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ كما قال تعالى ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ .

(٣٦) ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه ، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة ، والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عز وجل من توحيده ، واتباع أوامره ، فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه ، وأيقنوا أنه من عند الله عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة ، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق ، فقالوا ﴿ ما هذا إلا سحر مفترى ﴾ أي مفتعل مصنوع ، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما صعد معهم ذلك . وقوله ﴿ وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ يعنون عبادة الله وحده لا شريك له ، يقولون : ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين ، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى .

(٣٧) ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

﴿ وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ﴾ يعني مني ومنكم ، وسيفصل بيني وبينكم ، ولهذا قال ﴿ ومن تكون له عاقبة الدار ﴾ أي من النصرة والظفر والتأييد ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي المشركون بالله عز وجل .

(٣٨) ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعواه الآلهية لنفسه القبيحة ، لعنه الله كما قال تعالى ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالآلهية ، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم ، وسخافة أذهانهم ، ولهذا قال : ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ وقال تعالى ﴿ فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ يعني أنه جمع قومه ، ونادى فيهم بصوته العالي مصرحاً لهم بذلك فأجابوه سامعين مطيعين ، ولهذا انتقم الله منه فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة . وقوله ﴿ فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى ﴾ يعني أمر وزيره هامان ، ومدير رعيته ، ومشير دولته أن يوقد له على الطين ، يعني يتخذ له آجراً

لبناء الصرح ، وهو القصر المنيف الرفيع العالي وقد بنى فرعون هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه ، وأراد أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه في أن الله أرسله ، لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا ، فإنه قال ﴿ وما رب العالمين ﴾ وقال ﴿ لئن اتخذت إلٰهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ وقال ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ .

(٣٩) ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾

﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ﴾ أي طغوا وتجبروا وأكثروا في الأرض الفساد ﴿ وظنوا أنهم الينا لا يرجعون ﴾ واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا :

(٤٠) ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ﴾ أي أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة ، فلم يبق منهم أحد ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ .

(٤١) ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴾

﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ أي لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع . ﴿ ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ أي فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة ، كما قال تعالى ﴿ أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ .

(٤٢) ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾

﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ﴾ أي وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم كذلك ﴿ ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾ .

(٤٣) ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم ، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم ، من إنزال التوراة عليه بعدما أهلك فرعون وملأه . وقوله تعالى ﴿ من بعدما أهلكنا القرون الأولى ﴾ يعني أنه بعد انزال التوراة لم يعذب أمة بعامة ، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين ، روى ابن جرير عن أبي سعيد الخدري قال : ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية التي مسخت قردة بعد موسى ثم قرأ ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى ﴾ وقوله ﴿ بصائر للناس وهدى ورحمة ﴾ أي من العمى والغي ، وهدى إلى الحق ورحمة ، أي إرشاداً إلى العمل الصالح ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ به ويهتدون بسببه .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (٤٤)

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهدٌ وراءٍ لما تقدم ، وهو رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب شيئاً من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك ، كما أنه لما أخبره عن مريم ، وما كان من أمرها قال ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ أي وما كنت حاضراً لذلك ، ولكن الله أوحاه اليك ، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه ، وما كان من انجاء الله له ، واغراق قومه قال تعالى ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ وقال بعد قصة يوسف ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ وقال ههنا بعدما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ يعني ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطىء الوادي ﴿ وما كنت من الشاهدين ﴾ لذلك .

﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (٤٥)

ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى اليك ذلك ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها ونسوا حجج الله عليهم ، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين . وقوله تعالى ﴿ وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ﴾ أي وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم

آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب ، وما قال لقومه وما ردوا عليه ﴿ ولكنا كنا مرسلين ﴾ أي ولكن نحن أوحينا إليك ذلك ، وأرسلناك إلى الناس رسولاً .

(٤٦) ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ أي أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت . أو إذ نادينا موسى ، وهذا ـ والله علم ـ أشبه بقوله تعالى ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ ، ثم أخبر ههنا بصيغة أخرى أخص من ذلك ، وهو النداء كما قال تعالى ﴿ وإذ نادى ربك موسى ﴾ وقال ﴿ إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى ﴾ وقال ﴿ وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ أي ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك ، ولكن الله تعالى أوحاه اليك ، وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد بارسالك اليهم ﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ أي لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل .

(٤٧) ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولاً ﴾ أي وأرسلناك اليهم رسولاً لتقيم عليهم الحجة ، ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب الله بكفرهم فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير .

(٤٨) ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والالحاد ﴿ لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ يعنون ـ والله أعلم ـ من الآيات الكثيرة ، مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتنقيص الزروع والثمار مما يضيق على أعداء الله ، وكفلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن

والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة التي أجراها الله تعالى على يد موسى عليه السلام حجة وبرهاناً له على فرعون وملئه وبني اسرائيل ، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه ، بل كفروا بموسى وأخيه هارون ، ولهذا قال ههنا ﴿ أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ﴾ أي أولم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿ قالوا سحران تظاهرا ﴾ أي تعاونا ﴿ وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ أي بكل منهما كافرون .

﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ ﴿٤٩﴾

وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن كقوله تعالى ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ﴾ إلى أن قال ﴿ وهذا كتاب انزلناه مبارك ﴾ وقد علم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزله على محمدﷺ ، وهو القرآن ، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران عليه السلام . والانجيل إنما أنزل متمماً للتوراة ، محلاً لبعض ما حرم علي بني اسرائيل ، ولهذا قال ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ أي فيما تدافعون به الحق ، وتعارضون به من الباطل .

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ﴿٥٠﴾

قال تعالى ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ أي فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ، ولم يتبعوا الحق ﴿ فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ﴾ أي بلا دليل ولا حجة ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ أي بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٥١﴾

﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ فصلنا لهم القول ، أي أخبرهم كيف صنع بمن مضى ، وكيف هو صانع ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أو ﴿ وصلنا لهم ﴾ يعني قريشاً ، وهذا هو الظاهر .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٥٢﴾

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب، أنهم يؤمنون بالقرآن كما قال تعالى

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ﴾ .

(٥٣) ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾

﴿ إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ أي من قبل هذا القرآن كنا مسلمين ، أي موحدين مخلصين لله مستجيبين له .

(٥٤) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ، ثم الثاني ، ولهذا قال ﴿ بما صبروا ﴾ أي على اتباع الحق ، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس ، وقد ورد في الصحيح « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها » وقوله ﴿ ويدرؤون بالحسنة السيئة ﴾ أي لا يقابلون السيء بمثله ، ولكن يعفون ويصفحون ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي ومن الذي رزقهم الله من الحلال ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لأهليهم وأقاربهم ، والزكاة المفروضة المستحبة من التطوعات وصدقات النفل والقربات .

(٥٥) ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ أي لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم ، بل كما قال تعالى ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ ﴿ وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ أي إذا سفه عليهم سفيه وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ، ولا يصدر عنهم الا كلام طيب ، ولهذا قال ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ أي لا نريد طريق الجاهلين ، ولا نحبها .

(٥٦) ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : إنك يا محمد ﴿ لا تهدي من أحببت ﴾ أي ليس اليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدي من يشاء ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدافعة ، كما

قال تعالى ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ، وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ ، وقد كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً ، فلما حضرته الوفاة ، وحان أجله دعاه رسول الله ﷺ إلى الايمان والدخول في الاسلام فسبق القدر فيه ، واختطف من يده ، فاستمر على ما كان عليه من الكفر ، ولله الحكمة التامة .
لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل ، وعبدالله بن أبي أمية ، فقال رسول الله ﷺ « يا عم قل « لا إله إلا الله » كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبدالله بن أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول « لا إله إلا الله » فقال رسول الله ﷺ « والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فأنزل الله تعالى ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ وأنزل في أبي طالب ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ أخرجاه من حديث الزهري .

(٥٧) ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ ﴿ إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى ، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا ، قال الله تعالى مجيباً لهم : ﴿ أولم نمكن لهم حرماً آمناً ﴾ يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل ، لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين ، وحرم معظم آمن منذ وضع ، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمناً لهم ، وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟ وقوله تعالى ﴿ يجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾ أي من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره ، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿ رزقاً من لدنا ﴾ أي من عندنا ﴿ ولكن اكثرهم لا يعلمون ﴾ .

(٥٨) ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾

يقول تعالى معرضاً بأهل مكة في قوله تعالى ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾ أي طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق ﴿ فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ﴾ أي دثرت ديارهم فلا ترى الا مساكنهم . وقوله ﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾ أي رجعت خراباً ، ليس فيها أحد .

(٥٩) ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن عدله ، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها ﴾ وهي مكة ﴿ رسولاً يتلو عليهم آياتنا ﴾ فيه دلالة على أن النبي الأمي ، وهو محمد ﷺ ، المبعوث من أم القرى ، رسولاً إلى جميع القرى من عرب وأعجام . ﴿ في أمها ﴾ أي في أصلها وعظيمتها ، كأمهات الرساتيق والأقاليم .

(٦٠) ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة ، والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم كما قال تعالى ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ وقال تعالى ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ وقوله تعالى ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة ؟ .

(٦١) ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾

﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه . . . ﴾ يقول : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذي هو صائر إليه لا محالة كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده ، فهو ممتع في الحياة الدنيا أياماً قلائل ﴿ ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ من المعذبين ، ثم قد قيل : إنها نزلت في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل ، وقيل : في حمزة وعلي وأبي جهل ، والظاهر أنها عامة .

(٦٢) ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول ﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ يعني أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد ، هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد كما قال تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ .

﴿٦٣﴾ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾

﴿ قال الذين حق عليهم القول ﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿ ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ، ثم تبرؤوا من عبادتهم .

﴿٦٤﴾ ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾

﴿ وقيل ادعوا شركاءكم ﴾ أي ليخلصوكم مما أنتم فيه ، كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ﴿ فدعوهم فلم يتسجيبوا لهم ورأوا العذاب ﴾ أي ويتقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة . وقوله ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ أي فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا .

﴿٦٥﴾ ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات ، ماذا كان جوابكم للمرسلين اليكم ، وكيف كان حالكم معهم ، وهذا كما يسأل العبد في قبره : من ربك ومن نبيك وما دينك ؟ فأما المؤمن فيشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأما الكافر فيقول : هاه ، هاه ، لا أدري ، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ، لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً .

﴿٦٦﴾ ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾

ولهذا قال ﴿ فعميت عليهم الأنباء يومئذٍ فهم لا يتساءلون ﴾ أي فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب .

(٦٧) ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾

﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ أي في الدنيا ﴿ فعسى أن يكون من المفلحين ﴾ أي يوم القيامة ، و« عسى » من الله موجبة فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة .

(٦٨) ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب ، قال تعالى ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ أي ما يشاء ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالأمور كلها : خيرها وشرها بيده ، ومرجعها إليه . وقوله ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ نفي على أصح القولين ، كقوله تعالى ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ وقد اختار ابن جرير أن ﴿ ما ﴾ ههنا بمعنى الذي ، تقديره ويختار الذي لهم فيه الخيرة ، وقد احتج بهذا طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح ، والصحيح أنها نافية ﴿ سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ أي من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً .

(٦٩) ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ أي يعلم ما تكن الضمائر ، وما تنطوي عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ .

(٧٠) ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ وهو الله لا إله إلا هو ﴾ أي هو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه ﴿ له الحمد في الأولى والآخرة ﴾ أي في جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته ﴿ وله الحكم ﴾ أي الذي لا معقب له ، لقهره وغلبته ، وحكمته ورحمته ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي جميعكم يوم القيامة ، فيجزي كل عامل بعمله من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال .

(٧١) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما ، وبين أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ، ولسئمته النفوس ، وانحصرت منه ، ولهذا قال تعالى ﴿ من إلّه غير الله يأتيكم بضياء ﴾ أي تبصرون به ، وتستأنسون بسببه . ﴿ أفلا تسمعون ؟ ﴾ .

(٧٢) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سرمداً، أي دائماً مستمراً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ، ولتعبت الأبدان ، وكلت من كثرة الحركة ، والأشغال ، ولهذا قال ﴿ من إلّه غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ﴾ أي تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿ أفلا تبصرون ؟ ﴾ .

(٧٣) ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ ومن رحمته ﴾ أي بكم ﴿ جعل لكم الليل والنهار ﴾ أي خلق هذا وهذا ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ أي في الليل ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أي في النهار بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال ، وهذا من باب اللف والنشر. وقوله ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل كما قال تعالى ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ .

(٧٤) ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

وهذا أيضاً نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلّهاً آخر ، يناديهم الرب تعالى على رؤوس الأشهاد فيقول ﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ أي في دار الدنيا .

(٧٥) ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ ونزعنا من كل أمة شهيداً ﴾ يعني رسولاً ﴿ فقلنا هاتوا برهانكم ﴾ أي على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ﴿ فعلموا أن الحق لله ﴾ أي لا إلّه غيره فلم ينطقوا ولم يجدوا

جواباً ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم .

(٧٦) ﴿ * إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾

كان قارون ابن عم موسى ، وقد نافق كما نافق السامري فأهلكه البغي لكثرة ماله ﴿ وآتيناه من الكنوز ﴾ أي الأموال ﴿ ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ﴾ أي ليثقل حملها على كثير من الناس لكثرتها ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ أي وعظه فيما هو فيه صالح قومه ، فقالوا على سبيل النصح والارشاد : لا تفرح بما أنت فيه ، يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ يعني المرحين ، أو الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم .

(٧٧) ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ﴾ أي استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل ، والنعمة الطائلة في طاعة ربك ، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أي مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، ولزورك عليك حقاً ، فآت كل ذي حق حقه ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ أي أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿ ولا تبغ الفساد في الأرض ﴾ أي لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض ، وتسيء إلى خلق الله ﴿ إن الله لا يحب المفسدين ﴾ .

(٧٨) ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندي ﴾ أي أنا لا أفتقر إلى ما تقولون ، فإن الله إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه ، ولمحبته لي ، فتقديره إنما أعطيته لعلم الله فيَّ أني أهل له ، وهذا كقوله ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ﴾ أي

على علم من الله بي ﴿ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ﴾ أي قد كان من هو أكثر منه مالاً ، وما كان ذلك عن محبة منا له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ، ولهذا قال ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ أي لكثرة ذنوبهم .

﴿٧٩﴾ ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة ، وتجمل باهر من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ، ويميل إلى زخارفها وزينتها تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطى ﴿ قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ أي ذو حظ وافر من الدنيا .

﴿٨٠﴾ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾

﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ أي جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترونه كما ورد في الحديث الصحيح « يقول الله تعالى «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » واقرؤ وا إن شئتم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ وقوله ﴿ ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ أي ولا يلقى الجنة إلا الصابرون ، وكأن ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم ، أو ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا ، الراغبون في الدار الآخرة ، وكأن ذلك مقطوع من كلام أولئك ، فهو من كلام الله عز وجل وإخباره .

﴿٨١﴾ ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه ، وبغيه عليهم عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض ، كما ثبت في الصحيح عند البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة » ﴿ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ أي ما أغنى عنه ماله ولا جمعه

ولا خدمه ولا حشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله ، ولا كان هو منتصراً لنفسه ، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره .

﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨٢)

﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس ﴾ أي الذين لما رأوه في زينته ﴿ قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ﴾ فلما خسف به أصبحوا يقولون : ﴿ ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ﴾ أي ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه ، فإن الله يعطي ويمنع ، ويضيق ويوسع ، ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة ، وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود « إن الله قد قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم أرزاقكم ، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب » ﴿ لولا أن من الله علينا لخسف بنا ﴾ أي لولا لطف الله بنا ، وإحسانه إلينا لخسف بنا ، كما خسف به ، لأنا وددنا أن نكون مثله ﴿ ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ يعنون أنه كان كافراً ، ولا يفلح الكافرون عند الله ، لا في الدنيا ولا في الآخرة . ﴿ ويكأن ﴾ ألم تر أن ، قال ابن جرير إنه أقوى الأقوال .

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٨٣)

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علواً في الأرض ، أي ترفعاً على خلق الله ، وتجبراً بهم ، ولا فساداً فيهم . وعن علي : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل في قوله تعالى ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره ، فإن ذلك مذموم كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إنه أوحي إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد » وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إني أحب أن يكون ردائي حسناً ، ونعلي حسنة ، أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : لا ، إن الله جميل يحب الجمال » .

(٨٤) ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

﴿ من جاء بالحسنة ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فله خير منها ﴾ أي ثواب الله خير من حسنة العبد ، فكيف والله يضاعف أضعافاً كثيرة ؟ وهذا مقام الفضل . ﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ وهذا مقام الفضل والعدل .

(٨٥) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه ببلاغ الرسالة ، وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد ، وهو يوم القيامة ، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ، ولهذا قال تعالى ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ أي إن الذي افترض عليك أداءه إلى الناس ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ أي إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك كما قال تعالى ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ أو لرادك إلى الجنة ، ثم سائلك عن القرآن ، أو لرادك إلى الموت ، أو إلى مكة كما أخرجك منها . ﴿ قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين ﴾ أي قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم ، قل ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة .

(٨٦) ﴿ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾

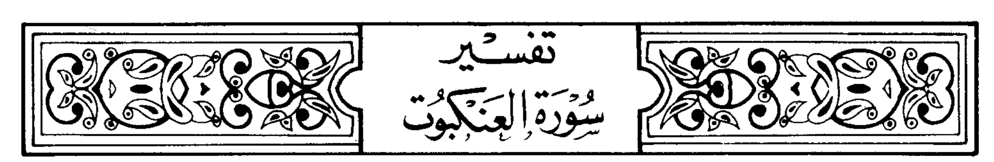
﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ﴾ أي وما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ أي إنما أنزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك ، فإذا منحك هذه النعمة العظيمة ﴿ فلا تكونن ظهيراً ﴾ أي معيناً ﴿ للكافرين ﴾ ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم .

(٨٧) ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

﴿ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ﴾ أي لا تتأثر لمخالفتهم لك ، وصدهم الناس عن طريقك ، لا تلوي على ذلك ولا تباله ، فإن الله معلٍ كلمتك ، ومؤيد دينك ، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان ، ولهذا قال ﴿ وادع إلى ربك ﴾ أي إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ .

(٨٨) ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ ولا تدع مع الله إلَهاً آخر لا إلَه إلا هو ﴾ أي لا تليق العبادة إلا له ، ولا تنبغي الإلَهية إلا لعظمته . ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم ، الذي يموِّت الخلائق ولا يموت ، كما قال تعالى ﴿ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ فعبر بالوجه عن الذات ، وهكذا ههنا ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ أي إلا إياه ﴿ له الحكم ﴾ أي الملك والتصرف ، ولا معقب لحكمه ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .



تفسير سورة العنكبوت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓمٓ ﴾

تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾

﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ استفهام إنكار ، ومعناه أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان ، كما جاء في الصحيح « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء » وهذه الآية كقوله ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ .

(٣) ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه ، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ؟ وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة .

(٤) ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

أي لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم ، ولهذا قال ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ﴾ أي يفوتونا ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي بئس ما يظنون .

(٥) ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

﴿ من كان يرجو لقاء الله ﴾ أي في الدار الآخرة وعمل الصالحات ، ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل ، فإن الله سيحقق له رجاءه ، ويوفيه عمله كاملاً موفراً ، فإن ذلك كائن لا محالة ، لأنه سميع الدعاء ، بصير بكل الكائنات ، ولهذا قال ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم ﴾ .

(٦) ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾ كقوله تعالى ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ أي من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه ، فإن الله تعالى غني عن أفعال العباد ، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئاً ، ولهذا قال ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين ﴾ .

(٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٧) وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (٩)

يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده ، فإن

الوالدين هما سبب وجود الإنسان ، ولهما عليه غاية الإحسان ، فالوالد بالإنفاق ، والوالدة بالإشفاق ﴿ وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ أي وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك وإياهما ، فلا تطعهما في ذلك ، فإن مرجعكم إليّ يوم القيامة فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك ، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك ، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا ، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب ، أي حباً دينياً .

ولهذا قال ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ﴾ روى الترمذي عن سعد قال : نزلت فيّ أربع آيات فذكر قصته وقال : قالت أم سعد ، أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر ، قال فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها فنزلت ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما . . . ﴾ وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي .

(١٠) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم فارتدوا عن الإسلام ، ولهذا قال تعالى ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله كقوله تعالى ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ﴾ ثم قال عز وجل ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ﴾ أي ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد ، وفتح ومغانم ليقولن هؤلاء لكم إنا كنا معكم ، أي إخوانكم في الدين ، كما قال تعالى ﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾ وقال تعالى مخبراً عنهم ههنا ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ﴾ ثم قال تعالى ﴿ أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ﴾ أي أوليس الله بأعلم بما في قلوبهم ، وما تكنه ضمائرهم وإن أظهروا لكم الموافقة ؟

(١١) ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾

﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ أي وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء ، لتمييز هؤلاء من هؤلاء ، من يطيع الله في الضراء والسراء ، ومن إنما يطيعه في حفظ نفسه كما قال تعالى ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ .

(١٢) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا ، واتبعوا سبيلنا ﴿ ولنحمل خطاياكم ﴾ أي وآثامكم إن كانت لكم آثام في ذلك علينا وفي رقابنا ، كما يقول القائل : افعل هذا وخطيئتك في رقبتي ، قال تعالى تكذيباً لهم ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾ أي فيما قالوه إنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم ، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد .

(١٣) ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم ، وأوزاراً أخر بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً ، وفي الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من اجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً » وفي الصحيح « ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل » ﴿ وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ أي يكذبون ويختلقون من البهتان .

(١٤) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في

قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، ومع هذا ما زادهم ذلك الا فراراً عن الحق ، وإعراضاً عنه ، وتكذيباً له ، وما آمن معه منهم إلا قليل ، ولهذا قال ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ أي بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والانذار ، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ، فإن الله يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وبيده الأمر ، وإليه ترجع الأمور ، ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية) واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ويذل عدوك ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين .

(١٥) ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾

﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ أي الذين آمنوا بنوح عليه السلام ﴿ وجعلناها آية للعالمين ﴾ أي وجعلنا تلك السفينة باقية ، إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الاسلام على جبل الجودي ، أو نوعها ، جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق ، كيف أنجاهم من الطوفان . قال ابن جرير : لو قيل : إن الضمير في قوله ﴿ وجعلناها ﴾ عائد إلى العقوبة لكان وجهاً .

(١٦) ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والاخلاص له في التقوى ، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، وتوحيده في الشكر ، فإنه المشكور على النعم ، لا مسدي لها غيره فقال لقومه : ﴿ اعبدوا الله واتقوه ﴾ أي أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة .

(١٧) ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتموها آلهة ، وإنما هي مخلوقة مثلكم ، وعن ابن عباس ﴿ وتخلقون إفكاً ﴾ أي تنحتونها أصناماً ، وهي لا تملك لكم رزقاً ﴿ فابتغوا ﴾ أي فاطلبوا ﴿ عند الله الرزق ﴾ أي

لا عند غيره ، فإن غيره لا يملك شيئاً ﴿ واعبدوه واشكروا له ﴾ أي كلوا من رزقه واعبدوه وحده ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ﴿ إليه ترجعون ﴾ أي يوم القيامة ، فيجازي كل عامل بعمله .

(١٨) ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ﴾ أي فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ يعني إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمر الله تعالى به من الرسالة ، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء .

(١٩) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين ، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته ، فإنه سهل عليه ، يسير لديه ، ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء : السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وبراري وقفار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها ، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار ، الذي يقول للشيء : كن فيكون ، ولهذا قال ﴿ أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ﴾ كقوله تعالى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ .

(٢٠) ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ .

(٢١) ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾

﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ﴾ أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ،

ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فله الخلق والأمر ، مهما فعل فعدل ، لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة ، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن « إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم » ولهذا قال ﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ﴾ أي ترجعون يوم القيامة .

(٢٢) ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴾ أي لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، فكل شيء خائف منه فقير إليه ، وهو الغني عما سواه ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ .

(٢٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ والذين كفروا بآيات الله ولقائه ﴾ أي جحدوا وكفروا بالمعاد ﴿ أولئك يئسوا من رحمتي ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿ وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ أي موجع شديد في الدنيا والآخرة .

(٢٤) ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ودفعهم الحق بالباطل أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة ابراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ﴿ إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه ﴾ وذلك لأنهم قام عليهم البرهان ، وتوجهت عليهم الحجة فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم . ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ أي سلمه منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

(٢٥) ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾

يقول لقومه مقرعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان : لتحصل لكم المودة في الدنيا فقط ﴿ ثم يوم القيامة ﴾ يعني هذا الحال فتبقى هذه الصداقة والمودة

بغضاً وشنآناً ﴿ يكفر بعضكم ببعض ﴾ أي تتجاحدون ما كان بينكم ، ﴿ ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ أي يلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون الأتباع ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ وقال تعالى ﴿ الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ ﴿ ومأواكم النار ﴾ أي ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله ، وهذا حال الكافرين ، وأما المؤمنون فبخلاف ذلك .

(٢٦) ﴿ * فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم إنه آمن له لوط وكان ابن اخي إبراهيم ، ولم يؤمن بإبراهيم من قومه سواه وسوى سارة امرأة إبراهيم الخليل وقد اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء اظهار الدين والتمكن من ذلك ، ولهذا قال ﴿ إنه هو العزيز الحكيم ﴾ أي لله العزة ولرسوله وللمؤمنين به ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية .

(٢٧) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾

﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب ﴾ أي إنه لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي منه ، وولد له ولد صالح نبي أيضاً في حياة جده . ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً ، وجعله للناس إماماً أن جعل في ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالته فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إبراهيم حتى كان آخرهم عيسى بن مريم ، فقام في ملئهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي خاتم الرسل على الاطلاق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ولم يوجد نبي من سلالة اسماعيل سواه ، عليه أفضل الصلاة والسلام . ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ أي جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني ، والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، وكل أحد يحبه ويتولاه .

(٢٨) ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم ، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم ، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ، ويكذبون رسوله ، ويخالفون ويقطعون السبيل ، أي يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم .

﴿٢٩﴾ ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ أي يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها ، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك ، فمن قائل كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملأ ، ومن قائل كانوا يتضارطون ويتضاحكون ، ومن قائل كانوا يناطحون بين الكباش ، ويناقرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شراً من ذلك . روى الامام أحمد عن أم هانيء قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال « يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه » ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم . ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أئتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ، ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال :

﴿٣٠﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ ﴿٣١﴾

لما استنصر لوط عليه السلام بالله عز وجل عليهم بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على ابراهيم عليه السلام في هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغي للضيف ، فلما رأى إبراهيم أنه لا همة لهم إلى الطعام نكرهم وأوجس منهم خيفة ، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة ، وكانت حاضرة فتعجبت من ذلك ، فلما جاءت إبراهيم بالبشرى وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع لعلهم يُنظَرون ، لعل الله أن يهديهم .

﴿٣٢﴾ ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

ولما ﴿ قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴾ ﴿ قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها

لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أي من الهالكين ، لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ، ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شبان حسان .

(٣٣) ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

فلما رآهم كذلك ﴿ سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ﴾ أي اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه ، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم ، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة ﴿ وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ﴾ .

(٣٤) ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد .

(٣٥) ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

ولهذا قال ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة ﴾ أي واضحة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ كما قال تعالى ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾ .

(٣٦) ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ (٣٧)

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام أنه أنذر قومه أهل مدين فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة ، فقال ﴿ يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ﴾ واخشوا اليوم الآخر ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد ، وهو السعي فيها ، والبغي على أهلها ، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله فأهلكهم الله برجفة عظيمة ، زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة أخرجت القلوب من

حناجرها ، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها ، إنه كان عذاب يوم عظيم . ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ ميتين .

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴾ ﴿٣٩﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم ، وتنوع في عذابهم ، وأخذهم بالانتقام منهم ، فعاد قوم هود كانوا يسكنون الأحقاف ، وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى ، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً ، وتمر عليها كثيراً ، وقارون صاحب الأموال الجزيلة ، ومفاتيح الكنوز الثقيلة ، وفرعون ملك مصر في زمان موسى ، ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله تعالى وبرسوله ﷺ .

﴿٤٠﴾ ﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾

﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ أي كانت عقوبته بما يناسبه ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ وهم عاد ، وذلك أنهم قالوا : ﴿ من أشد منا قوة ﴾ ؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد ، عاتية شديدة الهبوب جداً ، تحمل عليهم حصباء الأرض ، فتلقيها عليهم ، وتقتلعهم من الأرض ، فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه ، فيبقي بدناً بلا رأس ، كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿ ومنهم من أخذته الصيحة ﴾ وهم ثمود ، قامت عليهم الحجة ، وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوا سواء بسواء ، ومع هذا ما آمنوا ، بل استمروا على طغيانهم وكفرهم ، وتهددوا نبيَّ الله صالحاً ، ومن آمن معه ، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم ، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات ﴿ ومنهم من خسفنا به الأرض ﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا وعصى الرب الأعلى ، ومشى في الأرض مرحاً ، وفرح ومرح ، وتاه بنفسه ، واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال في مشيته فخسف الله به وبداره الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿ ومنهم من أغرقنا ﴾ وهو

فرعون ، ووزيره هامان ، وجنودهما عن آخرهم ، أغرقوا في صبيحة واحدة ، فلم ينج منهم مخبر ﴿ وما كان الله ليظلمهم ﴾ أي فيما فعل بهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم .

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٤٢)

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ، يرجون نصرهم ورزقهم ، ويتمسكون بهم في الشدائد ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه ، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجدي عنه شيئاً ، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء ، وهذا بخلاف المؤمن قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع ، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها ، ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به : إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ، ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم .

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (٤٣)

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ أي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم ، المتضلعون منه ، روى الإمام أحمد رحمه الله عن عمروابن العاص رضي الله عنه قال : عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل . وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص حيث يقول الله تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وعن عمرو بن مرة قال : ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني لأنني سمعت الله تعالى يقول ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٤)

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه خلق السموات والأرض بالحق ، يعني لا على وجه العبث واللعب ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ وقوله ﴿ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ أي لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلٓهية .

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٤٥)

ثم قال تعالى آمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن ، وهو قراءته وإبلاغه للناس ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ يعني أن الصلاة تشتمل على ترك الفواحش والمنكرات ، أي مواظبتها تحمل على ترك ذلك ، وقد جاء في الحديث مرفوعاً « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً » وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى ، وهو المطلوب الأكبر ، ولهذا قال : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ أي أعظم من الأول ﴿ والله يعلم ما تصنعون ﴾ أي يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم . قال أبو العالية : إن الصلاة فيها ثلاث خصال ، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليس بصلاة : الإخلاص والخشية وذكر الله ، فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر الله تعالى يأمره وينهاه .

﴿ ۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤٦)

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام ، أو الجزية ، أو السيف ، وقال آخرون : بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه كما قال تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون ﴿ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ وقوله ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ أي حادوا عن وجه الحق ، وعموا عن واضح المحجة ، وعاندوا وكابروا ، فحينئذٍ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ، ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ﴾ يعني إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا نقدم على تكذيبه ، لأنه قد يكون حقاً ، ولا تصديقه ، فلعله أن يكون باطلاً ، ولكن نؤمن به إيماناً مجملاً معلقاً على شرط ، وهو أن يكون منزلاً ، لا مبدلاً ولا مؤوَّلاً. وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ونحن له مسلمون » .

(٤٧) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب ﴿ فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ﴾ أي الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء كعبدالله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما ﴿ ومن هؤلاء من يؤمن به ﴾ يعني العرب من قريش وغيرهم ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ أي ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل ، وهيهات .

(٤٨) ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾

﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً ، ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة كما قال تعالى ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ .

(٤٩) ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ أي هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق أمراً ونهياً وخبراً يحفظه العلماء ، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً كما قال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

(٥٠) ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات يعنون ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله ﷺ ، كما أتى صالح بناقته ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ إنما الآيات عند الله ﴾ أي إنما أمر ذلك إلى الله ، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم ، لأن هذا سهل عليه يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان ، فلا يجيبكم إلى ذلك ، كما قال تعالى ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ وقوله ﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ إنما بعثت نذيراً لكم بيِّن النذارة ، فعلي أن أبلغكم رسالة الله تعالى .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥١)

ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم ، وسخافة عقلهم ، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الذي هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ أي أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب ، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه ، وبالحق الواضح البين الجلي ، كما قال تعالى ﴿ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ وقال تعالى ﴿وقالو لولا أنزل عليه آية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » . ﴿ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ أي إن في هذا القرآن ﴿ لرحمة ﴾ أي بياناً للحق ، وإزاحة للباطل ، وذكرى بما فيه حلول النقمات ، ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين لقوم يؤمنون .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (٥٢)

ثم قال تعالى ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ﴾ أي هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني ، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني ، كما قال تعالى ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ﴾ أي لا تخفى عليه خافية ﴿ والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾ أي يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ، ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق ، واتباعهم الباطل كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم ، وآمنوا بالطاغوت ، والأوثان بلا دليل فسيجزيهم على ذلك ، إنه حكيم عليم .

(٥٣) ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم ، وبأس الله أن يحل بهم ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾ أي لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه ﴿ وليأتينهم بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ .

(٥٤) ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

﴿ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أي يستعجلونك العذاب وهو واقع بهم لا محالة .

(٥٥) ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ كقوله تعالى ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غـواش ﴾ فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ في العذاب الحسي .

(٥٦) ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ﴾ .

(٥٧) ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ أي أينما كنتم يدرككم الموت فكونوا في طاعة الله ، وحيث أمركم الله ، فهو خير لكم ، فإن الموت لا بد منه ، ولا محيد عنه ثم إلى الله المرجع والمآب ، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء ، ووفاه أتم الثواب .

(٥٨) ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي ننسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها من ماء

وخمر وعسل ولبن يصرفونها ويجرونها حيث شاؤ وا ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً ﴿ نعم أجر العاملين ﴾ نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين .

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿ الذين صبروا ﴾ أي على دينهم ، وهاجروا إلى الله ، ونابذوا الأعداء ، وفارقوا الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده ، وتصديق موعوده ، روى ابن أبي حاتم أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ حدثه أن في الجنة غرفاً ، يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنهامن ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وأطاب الكلام ، وتابع الصلاة والصيام ، وقام بالليل والناس نيام » ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ﴿٦٠﴾

ثم أخبرهم الله تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة ، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا ، وأين كانوا ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب ، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار ، ولهذا قال ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها ﴾ أي لا تطيق جمعه وتحصيله ، ولا تدخر شيئاً لغد ﴿ الله يرزقها وإياكم ﴾ أي الله يقيض لها رزقها على ضعفها ، وييسره عليها ، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض ، والطير في الهواء ، والحيتان في الماء ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لي : « يا ابن عمر مالك لا تأكل ؟ » قال : قلت : لا أشتهيه يا رسول الله قال : « لكني أشتهيه ، وهذا صبح رابعة لم أذق طعاماً ، ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر ، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم بضعف اليقين ؟ » قال : فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل لم يأمرني بكنز الدنيا ، ولا باتباع الشهوات ، فمن كنز دنياه يريدها حياة باقية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهماً ولا أخبأ رزقاً لغد » هذا حديث غريب . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ « سافروا تربحوا ، وصوموا

تصحوا ، واغزوا تغنموا » ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى مقرراً أنه لا إله إلا هو ، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر ، وتسخير الليل والنهار ، وأنه الخالق الرازق لعباده ، ومقدر آجالهم ، واختلافها واختلاف أرزاقهم فتفاوت بينهم ، فمنهم الغني والفقير ، وهو العليم بما يصلح كلاً منهم ، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها ، فإذا كان الأمر كذلك ، فلم يعبد غيره ؟ ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته ، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلٓهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية ، وقد كان المشركون يعترفون بذلك ، كما كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك .

﴿٦٤﴾ ﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو ولعب ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ أي الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال له ، ولا انقضاء ، بل هي مستمرة أبد الآباد ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي لآثروا ما يبقى على ما يفنى .

﴿٦٥﴾ ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له ، فهلا يكون هذا منهم دائماً ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ .

(٦٦) ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا ﴾ هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة ، لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ، وتقييضه إياهم لذلك فهي لام التعليل .

(٦٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على قريش فيما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم . والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ، ويقتل بعضهم بعضاً ﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ أي أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا غيره من الأصنام والأنداد .

(٦٨) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه ﴾ أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله ، فقال : إن الله أوحى إليه ، ولم يوح إليه بشيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه ، فالأول مفتر ، والثاني مكذب ، ولهذا قال تعالى ﴿ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ .

(٦٩) ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾ يعني الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿ لنهدينهم سبلنا ﴾ أي لنبصرنهم سبلنا ، أي طرقنا في الدنيا والآخرة ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ .
قال عيسى ابن مريم : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك .



تفسير سورة الروم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ (٣)

نزلت هذه الآيات من أول سورة الروم حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم ، فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدة طويلة ثم عادت الدولة لهرقل . كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب ، فذكر ذلك لأبي بكر ، فذكره لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنهم سيغلبون » فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : « ألا جعلتها إلى دون - أراه قال العشر - قال سعيد بن جبير : البضع ما دون العشر ، ثم ظهرت الروم بعدُ ، قال : فذلك قوله ﴿ الم . غلبت الروم - إلى قوله - وهو العزيز الحكيم ﴾ » رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي . وفي رواية « ألا احتطت يا أبا بكر ، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع » . وتقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة . والروم من سلالة العيص بن إسحق عليه السلام .

(٤) ﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ أي من قبل ذلك ، ومن بعده ﴿ ويومئذٍ يفرح المؤمنون ﴾ .

(٥) ﴿ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ بنصر الله ﴾ أي للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس ، وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كثيرة من العلماء . ﴿ وهو العزيز ﴾ أي في انتصاره وانتقامه من أعدائه ﴿ الرحيم ﴾ بعباده المؤمنين .

(٦) ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ﴾ أي هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أنا سننصر الروم على فارس وعد من الله حق ، وخبر صدق ، لا يخلف ، ولا بد من كونه ووقوعه ، لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق ، ويجعل لها العاقبة .
﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها ، وهم غافلون في أمور الدين ، وما ينفعهم في الدار الآخرة ، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة .

(٧) ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾

يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا ، وهم في أمر الدين جهال .

(٨) ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى منبهاً على التفكر في مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ، ولا رب سواه ، فقال ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ﴾ يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي وما بينهما من المخلوقات المتنوعة الأجناس المختلفة فيعلموا أنها ما خلقت سدى ، ولا باطلاً ، بل بالحق ، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة ، ولهذا قال ﴿ وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ .

(٩) ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاؤوا به عنه بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات من إهلاك من كفر بهم ، ونجاة من صدقهم فقال ﴿ أولم يسيروا في الأرض ﴾ أي بإفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين ، ولهذا قال ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة ﴾ أي كانت الأمم الماضية ، والقرون السالفة أشد منكم قوة أيها المبعوث إليهم محمد ﷺ ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، وما أوتيتم معشار ما

أوتوا ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه ، وعمروا فيها أعماراً طوالاً فعمروها أكثر منكم ، واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، ولا حالت أموالهم ، وأولادهم بينهم وبين بأس الله ، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة ، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي ، وإنما أتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله ، واستهزؤوا بها ، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة ، وتكذيبهم المتقدم . ولهذا قال :

(١٠) ﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

أي كانت السوأى عاقبتهم لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون .

(١١) ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أي كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ أي يوم القيامة ، فيجازى كل بعمله . ثم قال :

(١٢) ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

﴿ يبلس المجرمون ﴾ ييأس المجرمون .

(١٣) ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾

﴿ ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء ﴾ أي ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ﴿ وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ ، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم .

(١٤) ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾

﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ قال قتادة : هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها ، يعني إذا رفع هذا إلى عليين ، وخفض هذا إلى أسفل سافلين فذالك آخر العهد بينهما ، ولهذا قال :

(١٥) ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾

﴿يحُبرون﴾ أي ينعمون ، وقيل : يعني سماع الغناء ، والحبرة أعم .

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ﴿١٧﴾

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة ، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه عند المساء ، وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح ، وهو إسفار النهار بضيائه .

﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ ﴿١٨﴾

ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح ، وهو التحميد فقال تعالى ﴿ وله الحمد في السموات والأرض ﴾ أي هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض ، ثم قال تعالى ﴿ وعشياً وحين تظهرون ﴾ فالعشاء هو شدة الظلام . والاظهار قوة الضياء ، فسبحان خالق هذا وهذا . فالق الاصباح وجاعل الليل سكناً ، كما قال تعالى ﴿ والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها ﴾ وقال تعالى ﴿ والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ﴾ وقال تعالى ﴿ والضحى والليل إذا سجى ﴾ .

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ ﴿١٩﴾

﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة . وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط ، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ، ليدل خلقه على كمال قدرته ، فمن إخراج النبات من الحب ، والحب من النبات ، والبيض من الدجاج ، والدجاج من البيض ، والانسان من النطفة ، والنطفة من الانسان ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن . وقوله ﴿ ويحي الأرض بعد موتها ﴾ كقوله ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾ ولهذا قال ﴿ وكذلك تخرجون ﴾ .

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب ﴿ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ فأصلكم من تراب ، ثم من ماء مهين ، ثم تصور فكان علقة ثم مضغة ، ثم صار عظاماً شكله على شكل الانسان ، ثم كسا الله تلك العظام لحماً ، ثم نفخ فيه الروح ، فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن

والحصون ، ويسافر في أقطار الأقاليم ويركب متن البحور ، ويدور أقطار الأرض ، ويكتسب ويجمع الأموال ، وله فكرة وغور ودهاء وفكرو رأي وعلم واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه ، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعايش والمكاسب وفاوت بينهم في العلوم والفكر والحسن والقبيح والغنى والفقر والسعادة والشقاوة . روى الامام أحمد ، قال رسول الله ﷺ « إن الله خص آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود ، وبين ذلك ، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك »ورواه أبو داود والترمذي . وقال الترمذي حديث حسن صحيح .

(٢١) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ أي خلق لكم من جنسكم إناثاً تكون لكم أزواجاً ﴿ لتسكنوا اليها ﴾ كما قال تعالى﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن اليها ﴾ يعني بذلك حواء ، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر ، ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكوراً ، وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم : إما من جان ، أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن ﴿ مودة ﴾ وهي المحبة ﴿ ورحمة ﴾ وهي الرأفة ، فإن الرجل يمسك المرأة ، إما لمحبة لها ، أو لرحمةَ بها بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه في الانفاق ، أو للألفة بينهما ، وغير ذلك ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

(٢٢) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾

﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ أي خلق السموات في ارتفاعها واتساعها وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض في انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار ، وحيوان وأشجار ﴿ واختلاف ألسنتكم ﴾ يعني اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء تتر ، وهؤلاء كرج ،

وهؤلاء روم ، وهؤلاء فرنج ، وهؤلاء بربر ، وهؤلاء تكرور ، وهؤلاء حبشة ، وهؤلاء هنود ، وهؤلاء عجم ، وهؤلاء صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء أكراد إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى من اختلاف لغات بني آدم ، واختلاف ألوانهم ، وهي حلاهم . فجميع أهل الأرض ، بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان ، وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمعة أو الهيئة أو الكلام ظاهراً كان أو خفياً ﴿ إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ .

(٢٣) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ﴾ أي ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم في الليل والنهار ، ففيه تحصل الراحة ، وسكون الحركة ، وذهاب الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار ، وهذا ضد النوم ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ أي يعون . روى الطبراني عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أصابني أرق من الليل ، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : قل : « اللهم غارت النجوم ، وهدأت العيون ، وأنت حي قيوم ، يا حي يا قيوم ، أنم عيني ، وأهدىء ليلي » فقلتها فذهب عني .

(٢٤) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿ يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ أي تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة ، وتارة ترجون وميضة ، وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه ، ولهذا قال ﴿ وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ﴾ أي بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ، ولهذا قال ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

(٢٥) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾

﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ كقوله ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض

إلا بإذنه ﴾ أي قائمة ثابتة ، بأمره لها ، وتسخيره إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ، ودعائه إياهم ، ولهذا قال ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ .

(٢٦) ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾

﴿ وله من في السموات والأرض ﴾ أي ملكه وعبيده ﴿ كل له قانتون ﴾ أي خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً . وعن أبي سعيد مرفوعاً « كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » .

(٢٧) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ يعني أيسر عليه . وفي البخاري ، قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى : كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ، ولم يكن له ذلك ، فاما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليه من اعادته ، وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » ﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض ﴾ كقوله ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ قال قتادة : مثله : أنه لا إله إلا هو ولا رب سواه . ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع ، بل قد غلب كل شيء ، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه ، ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله شرعاً وقدراً .

(٢٨) ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به العابدين معه غيره الجاعلين له شركاء ، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ، ملك له ، كما كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك ، فقال تعالى ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ﴾ أي تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ﴿ هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ﴾ أي أيرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله ، فهو وهو فيه على السواء ﴿ تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ﴾ أي تخافون أن يقاسموكم الأموال . والمعنى أن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون لله أنداداً من خلقه ؟ وهذا كقوله

﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ أي من البنات حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات الله ، وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم .

(٢٩) ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾

﴿ بل اتبع الذين ظلموا ﴾ أي المشركون ﴿ أهواءهم ﴾ أي في عبادتهم الأهواء بغير علم ﴿ فمن يهدي من أضل الله ﴾ أي فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ أي ليس لهم من قدرة الله منقذ ، ولا مجير ، ولا محيد لهم عنه ، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

(٣٠) ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية : ملة إبراهيم الذي هداك الله لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته ، وتوحيده ، وأنه لا إله غيره ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ وفي الحديث « إني خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم » ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ أي ساوى الله بين خلقه في الفطرة على الجبلة المستقيمة ، لا يولد أحد الا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك . أو لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها فيكون خبراً بمعنى الطلب . وفي الحديث « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصِّرانه أويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » ثم يقول ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ .

(٣١) ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

﴿ منيبين إليه ﴾ أي راجعين إليه . ﴿ واتقوه ﴾ أي خافوه وراقبوه ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ وهي الطاعة العظيمة ﴿ ولا تكونوا من المشركين ﴾ ، أي بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة ، لا يريدون بها سواه .

(٣٢) ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾

﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم ، أي بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة ، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء ، وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل ، كلها ضلالة إلا واحدة ، وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه . روى الحاكم في مستدركه أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم فقال « من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي » .

(٣٣) ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له ، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره .

(٣٤) ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ هي لام العاقبة عند بعضهم ، ولام التعليل عند آخرين ، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك . ثم توعدهم بقوله ﴿ فسوف يعلمون ﴾ قال بعضهم : والله لو توعدني حارس درب لخفت منه ، فكيف ، والمتوعد هنا هو الذي يقول للشيء : كن فيكون .

(٣٥) ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾

ثم قال تعالى منكراً على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾ أي حجة ﴿ فهو يتكلم ﴾ أي ينطق ﴿ بما كانوا به يشركون ﴾ وهذا استفهام انكاري ، أي لم يكن لهم شيء من ذلك .

(٣٦) ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾

هذا انكار على الانسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه ، فإن الانسان إذا أصابته نعمة بطر وقال ﴿ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور﴾ .

(٣٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

(٣٨) ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً باعطاء ﴿ ذي القربى حقه ﴾ أي من البر والصلة ﴿ والمسكين ﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق عليه ، أو له شيء لا يقوم بكفايته ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة ، وما يحتاج إليه في سفره ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله ﴾ أي النظر إليه يوم القيامة ، وهو الغاية القصوى ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

(٣٩) ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾

﴿ وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ﴾ أي من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم فهذا لا ثواب له عند الله ، وهذا الصنيع مباح ، وإن كان لا ثواب له فيه إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قاله الضحاك ، واستدل بقوله تعالى ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ أي لا تعط العطاء تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا رباءان ، فربا لا يصح ، يعني ربا البيع ، وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وما آتيتم من ربا ليربو . . . ﴾ وإنما الثواب عند الله في الزكاة ، ولهذا قال ﴿ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون ﴾ أي الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء ، كما جاء في الصحيح « وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمٰن بيمينه فيربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه ، أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحد » .

(٤٠) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ﴾ أي هو الخالق الرازق ، يخرج الانسان من بطن أمه عرياناً ، لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ويرزقه ، الرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب . روى الامام أحمد عن حبة وسواء ابني خالد ، قالا : دخلنا على النبي ﷺ ، وهو يصلح شيئاً فأعناه فقال : « لا تيأسا من الرزق ما تهز هزت رؤ وسكما ، فإن الانسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يرزقه الله عز وجل » . وقوله ﴿ ثم يميتكم ﴾ أي بعد هذه الحياة . ﴿ ثم يحييكم ﴾ أي يوم القيامة . وقوله ﴿ هل من شركائكم ﴾ أي الذين تعبدونهم من دون الله ﴿ من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ ؟ أي لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك ، بل الله سبحانه هو المستقل بالخلق والرزق والاحياء والاماتة ، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ، ولهذا قال بعد هذا كله ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه وتعاظم عزَّ وجلَّ عن أن يكون له شريك ، أو نظير ، أو مساوٍ ، أو ولد ، أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد .

(٤١) ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

المراد بالبر هنا الفيافي ، وبالبحر الأمصار والقرى . وقيل : بل المراد بالبر هو البر المعروف ، وبالبحر هو البحر المعروف . ﴿ ظهر الفساد ﴾ يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن البحر يعني دوابه . والقول الأول أظهر ، وعليه الأكثرون ، ويؤ يده ما قاله ابن اسحق في السيرة : إن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة ، وكتب إليه بجره ، يعني ببلده . والمعنى بأن النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي . ﴿ ليذيقهم بعض الذي عملوا ﴾ أي ليبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختباراً منه لهم ، ومجازاة على صنيعهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي عن المعاصي ، كما قال تعالى ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ .

(٤٢) ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلُ ﴾ أي من قبلكم ﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾ أي فانظر ما حل بهم من تكذيب الرسل ، وكفر النعم .

(٤٣) ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴾ أي يوم القيامة إذا أراد كونه فلا راد له ﴿ يومئذٍ يصدعون ﴾ أي يتفرقون ففريق في الجنة ، وفريق في السعير ، ولهذا قال تعالى :

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿ من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون . ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ﴾ أي يجازيهم مجازاة الفضل ؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما يشاء الله ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجور .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٤٦﴾

يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها ، ولهذا قال ﴿ وليذيقكم من رحمته ﴾ أي المطر الذي ينزله فيجيء به العباد والبلاد ﴿ ولتجري الفلك بأمره ﴾ أي في البحر ، وإنما سيرها بالريح . ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أي في التجارات والمعايش والسير من إقليم إلى إقليم ، وقطر إلى قطر ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعدُّ ولا تحصى .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾

هذه تسلية من الله تعالى لعبده. ورسوله محمد ﷺ بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس ، فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ما جاؤوا أممهم به من الدلائل الواضحات ، ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ أي هو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكرماً وتفضلاً ، كقوله تعالى

﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ روى ابن أبي حاتم عن رسول الله ﷺ « ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » ثم تلا هذه الآية ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ .

(٤٨) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء فقال تعالى ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ﴾ إما من البحر كما ذكره غير واحد ، أو مما يشاء الله عز وجل ﴿ فيبسطه في السماء كيف يشاء ﴾ أي يمده فيكثره وينميه ، ويجعل من القليل كثيراً ، ينشىء سحابة ترى في رأى العين مثل الترس ، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالاً مملوءة ، كما قال تعالى ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلناه به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ وقوله تعالى ﴿ فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ فترى المطر وهو القطر يخرج من بين ذلك السحاب ﴿ فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ أي لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ، ووصوله إليهم .

(٤٩) ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾

﴿ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾ معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قانطين من نزول المطر إليهم قبل ذلك ، فلما جاءهم على فاقة فوقع منهم موقعاً عظيماً .

(٥٠) ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله ﴾ يعني المطر ﴿ كيف يحيي الأرض بعد موتها ﴾ ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها فقال تعالى ﴿ إن ذلك لمحيي الموتى ﴾ أي إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ﴿ إنه على كل شيء قدير ﴾ .

(٥١) ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴾

﴿ ولئن أرسلنا ريحاً ﴾ يابسة على الزرع الذي زرعوه ، ونبت وشب ، واستوى على سوقه ، ﴿ فرأوه مصفراً ﴾ أي قد اصفر ، وشرع في الفساد ﴿ لظلوا من بعده ﴾ أي بعد هذا الحال ﴿ يكفرون ﴾ أي يجحدون ما تقدم إليهم من النعم .

(٥٢) ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾

يقول تعالى : كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها ، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون ، وهم مع ذلك مدبرون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق ، وردهم عن الضلالة ، بل ذلك إلى الله ، فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال تعالى :

(٥٣) ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾

﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ أي خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه ، وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين ، كما قال تعالى ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾ وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ على توهيم عبدالله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر بعد ثلاثة أيام ومعاتبته إياهم ، وتقريعه لهم حتى قال له عمر : يا رسول الله ، ما تخاطب من قوم قد جيفوا ؟ فقال : « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » وتأولته عائشة على أنه قال : « إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » والصحيح عند العلماء رواية عبدالله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة .

(٥٤) ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾

ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال ، فأصله من تراب ، ثم من

نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم يصير عظاماً ، ثم تكسى العظام لحماً ، وينفخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى ، ثم يشب قليلاً قليلاً ، حتى يكون صغيراً ، ثم حدثاً ، ثم مراهقاً ، ثم شاباً ، وهو القوة بعد الضعف ، ثم يشرع في النقص فيكتهل ، ثم يشيخ ، ثم يهرم وهو الضعف بعد القوة ، فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللحة ، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ، ولهذا قال تعالى ﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء ﴾ أي يفعل ما يشاء ، ويتصرف في عبيده بما يريد ﴿ وهو العليم القدير ﴾ .

(٥٥) ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴾

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً ، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا ، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذروا إليهم ، قال تعالى ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ .

(٥٦) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴾ أي فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا ، فيقولون لهم حين يحلفون : ما لبثوا غير ساعة ﴿ لقد لبثتم في كتاب الله ﴾ أي كتاب الأعمال ﴿ إلى يوم البعث ﴾ أي يوم خلقتم إلى أن بعثتم ﴿ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾.

(٥٧) ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

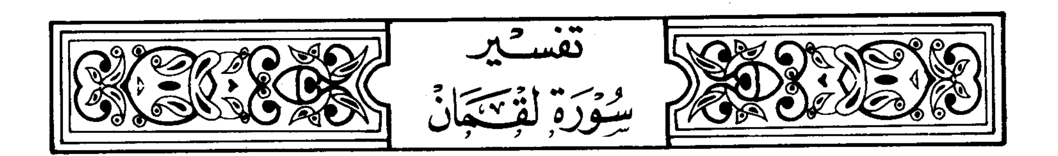
﴿ فيومئذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ أي اعتذارهم عما فعلوا ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أي ولا هم يرجعون إلى الدنيا كما قال تعالى ﴿ وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ .

(٥٨) ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾

﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي قد بينا لهم الحق ، ووضحناه لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ليستبينوا الحق ويتبعوه ﴿ ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ أي لو رأوا أي آية كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره لا يؤمنون بها ، ويعتقدون أنها سحر وباطل ، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه ، كما قال تعالى ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ ولذلك قال ههنا :

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿ فاصبر إن وعد الله حق ﴾ أي اصبر على مخالفتهم وعنادهم ، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم ، وجعله العاقبة لك ، ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ أي بل اثبت على ما بعثك الله به ، فإنه الحق الذي لا مرية فيه ، ولا تبدل عنه ، وليس فيما سواه هدى يتبع ، بل الحق كله منحصر فيه .



تفسير سُورَةِ لُقْمَانَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿٥﴾

تقدم في أول سورة البقرة الكلام على حروف الهجاء في أوائل السور .

هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها وما يتبعها من نوافل راتبة ، وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، ووصلوا أرحامهم وقراباتهم ، وأيقنوا بالجزاء في

الدار الآخرة فرغبوا في ثواب ذلك ، لم يراءوا به ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكوراً ، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله فيهم ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ أي على بصيرة وبينة ، ومنهج واضح جلي ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

(٦) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب الله ، وينتفعون بسماعه ، كما قال تعالى ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب ، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ قال : هو الغناء ، والله الذي لا إله إلا هو ، يرددها ثلاث مرات . أو لهو الحديث هو الشرك ، أو هو كل كلام يصد عن آيات الله ، واتباع سبيله ، واختاره ابن جرير . وقوله ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ أي إنما يصنع ذلك للتخالف للإسلام وأهله ﴿ ويتخذها هزواً ﴾ ويتخذ سبيل الله هزواً يستهزىء بها ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي كما استهانوا بآيات الله وسبيله أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر .

(٧) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً ﴾ أي هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولى عنها وأعرض وأدبر وتصامم ، وما به من صمم كأنه ما سمعها ، لأنه يتأذى بسماعها إذ لا انتفاع له بها ، ولا أرب له فيها ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ أي يوم القيامة يؤلمه ، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته .

(٨) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ (٨) خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٩)

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء في الدار الآخرة الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ،

وعملوا الأعمال الصالحة التابعة لشريعة الله ﴿ لهم جنات النعيم ﴾ أي يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب والنساء والنضرة والسماع الذي لم يخطر ببال أحد ، وهم في ذلك مقيمون دائماً ، لا يظعنون ولا يبغون عنها حولاً . ﴿ وعد الله حقاً ﴾ أي هذا كائن لا محالة لأنه من وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد ، لأنه الكريم المنان الفعال لما يشاء ، القادر على كل شيء ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي قهر كل شيء ، ودان له كل شيء ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ وقوله ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ .

(١٠) ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾

بين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما فقال تعالى ﴿ خلق السموات بغير عمد ﴾ أي ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية ، وقيل : لها عمد لا ترونها ﴿ وألقى في الأرض رواسي ﴾ يعني الجبال أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء ، ولهذا قال ﴿ أن تميد بكم ﴾ أي لئلا تميد بكم ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ أي وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها . ولما قرر سبحانه أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله ﴿ وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ أي من كل زوج من النبات كريم ، أي حسن المنظر .

(١١) ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ هذا خلق الله ﴾ أي هذا الذي ذكره تعالى من خلق السموات والأرض وما بينهما صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره وحده لا شريك له في ذلك ، ولهذا قال تعالى ﴿ فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ أي مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ﴿ بل الظالمون ﴾ يعني المشركين بالله ، العابدين معه غيره ﴿ في ضلال ﴾ أي جهل وعمى ﴿ مبين ﴾ أي واضح ظاهر لا خفاء به .

(١٢) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾

اختلف المفسرون في لقمان : هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة ؟ على قولين ، الأكثرون على الثاني ، وعن ابن عباس : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً ، وقيل : كان قصيراً أفطس الأنف من النبوة ، وقيل : كان من سواد مصر ، ذا مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة ﴿ الحكمة ﴾ الفقه والفهم والعلم والتعبير ﴿ أن اشكر لله ﴾ أي أمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما آتاه ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه ﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى ﴿ ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ﴾ وقوله ﴿ ومن كفر فإن الله غني حميد ﴾ أي غني عن العباد لا يتضرر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً ، فإنه الغني عما سواه ، فلا إلّه إلا الله ولا نعبد إلا إياه .

(١٣) ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده ، وقد ذكره الله بأحسن الذكر ، وأنه آتاه الحكمة ، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه ، وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ، ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيئاً ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ أي هو أعظم الظلم .

(١٤) ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾

﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن ﴿ وهناً على وهن ﴾ مشقة وهن الولد ، أو جهداً على جهد ﴿ وفصاله في عامين ﴾ أي تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير ﴾ أي فإني سأجازيك على ذلك أوفر الجزاء .

(١٥) ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ أي إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً ، أي محسناً إليهما ﴿ واتبع سبيل من أناب إليّ ﴾ يعني المؤمنين ﴿ ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ روى الطبراني أن سعد بن أبي وقاص قال : أنزلت في هذه الآية ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي . . . ﴾ قال : كنت رجلاً براً بأمي ، فلما أسلمت ، قالت : يا سعد ، ما هذا الذي أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا ، أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي ، فيقال : يا قاتل أمه ، فقلت : لا تفعلي يا أمه ، فإني لا أدع ديني هذا الشيء ، فمكثت يوماً وليلة لم تأكل ، فأصبحت قد جهدت فمكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ، فأصبحت قد جهدت فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأت ذلك قلت : يا أمه ، تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا الشيء ، فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي . فأكلت .

(١٦) ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله سبحانه عن لقمان الحكيم ليمتثلها الناس ويقتدوا بها فقال ﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ﴾ أي إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل ﴿ يأت بها الله ﴾ أي أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ، وجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كما قال تعالى ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء ، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات والأرض فإن الله يأتي بها ، لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولهذا قال ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ أي لطيف العلم ، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت ﴿ خبير ﴾ بدبيب النمل في الليل البهيم .

(١٧) ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾

﴿ يا بني أقم الصلاة ﴾ أي بحدودها وفروضها وأوقاتها ﴿ وأمر بالمعروف وانه عن

المنكر ﴾ أي بحسب طاقتك وجهدك . ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى فأمر بالصبر . ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ أي إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور .

(١٨) ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ يقول : لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم ، واستكباراً عليهم ، ولكن ألن جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء في الحديث « ولو أن تلقى أخاك ، ووجهك إليه منبسط ، وإياك وإسبال الازار ، فإنها من المخيلة ، والمخيلة لا يحبها الله » .

(١٩) ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾

﴿ واقصد في مشيك ﴾ أي امش مقتصداً شيئاً ليس بالبطيء المتثبط ، ولا بالسريع المفرط ، بل عدلاً وسطاً بين بين ﴿ واغضض من صوتك ﴾ أي لا تبالغ في الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ، ولهذا قال ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ إن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أي غاية من يرفع صوته أن يشبه بالحمير في علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغيض إلى الله . وهذا التشبيه يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم لأن رسول الله ﷺ قال : « ليس لنا مثل السوء ، العائد في هبته كالكلب يقيء ، ثم يعود في قيئه » روى النسائي عن النبي ﷺ قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأت شيطاناً » وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه .

(٢٠) ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾

يقول تعالى منبهاً خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار ، وثلج وبرد ، وجعله إياها سقفاً محفوظاً ، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار ، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل ، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل في الله ،

أي في توحيده وإرساله الرسل ، ومجادلته في ذلك بغير علم ، ولا مستند من حجة صحيحة ، ولا كتاب مأثور صحيح ، ولهذا قال تعالى ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ أي مبين مضيء .

(٢١) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي لهؤلاء المجادلين في توحيد الله ﴿ اتبعوا ما أنزل الله ﴾ أي على رسوله من الشرائع المطهرة ﴿ قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أي لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال الله تعالى ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ أي فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم أنهم كانوا على ضلالة ، وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ، ولهذا قال تعالى ﴿ أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ .

(٢٢) ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله ، أي أخلص له العمل ، وانقاد لأمره ، واتبع شرعه ، ولهذا قال ﴿ وهو محسن ﴾ أي في عمله باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أي فقد أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يعذبه ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ .

(٢٣) ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره ﴾ أي لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله ، وبما جئت به ، فإن قدر الله نافذ فيهم ، وإلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا ، أي فيجزيهم عليه ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ فلا تخفى عليه خافية .

(٢٤) ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ نمتعهم قليلاً ﴾ أي في الدنيا ﴿ ثم نضطرهم ﴾ أي نلجئهم ﴿ إلى عذاب غليظ ﴾ أي فظيع صعب مشق على النفوس كما قال تعالى ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ .

(٢٥) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به أنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله ﴾ أي إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

(٢٦) ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

﴿ لله ما في السموات والأرض ﴾ أي هو خلقه وملكه ﴿ إن الله هو الغني الحميد ﴾ أي الغني عما سواه ، وكل شيء فقير إليه الحميد في جميع ما خلق ، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود في الأمور كلها .

(٢٧) ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلا ، وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع للبشر على كنهها وإحصائها ، كما قال سيد البشر ، وخاتم الرسل « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فقال تعالى ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً ، وجعل البحر مداداً ، وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونفد ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مداداً، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر . ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ أي عزيز قد عز كل شيء وقهره وعليه فلا مانع لما أراد ، ولا مخالف ولا معقب لحكمه ، حكيم في خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شؤونه .

(٢٨) ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ أي ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة ، الجميع هين عليه ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً

أن يقول له كن فيكون ﴾ ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ أي كما هو سميع لأقوالهم ، بصير بأفعالهم ، كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة ، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة ، ولهذا قال تعالى ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . . . ﴾ .

(٢٩) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

يخبر تعالى أنه ﴿ يولج الليل في النهار ﴾ يعني يأخذ منه في النهار ، فيطول ذاك ، ويقصر هذا ، وهذا يكون زمن الصيف ، يطول النهار إلى الغاية ، ثم يشرع في النقص ، فيطول الليل ويقصر النهار ، وهذا يكون في الشتاء ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى ﴾ قيل : إلى غاية محدودة ، وقيل : إلى يوم القيامة ، وكلا المعنيين صحيح . ﴿ وأن الله بما تعملون خبير ﴾ كقوله ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ﴾ ومعنى هذا أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء .

(٣٠) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل ﴾ أي إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، أي الموجود الحق الإله الحق ، وأن كل ما سواه باطل ، فإنه الغني عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، لأن كل ما في السموات والأرض ، الجميع خلقه وعبيده ، لا يقدر أحد منهم تحريك ذرة إلا بإذنه ، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك . ولهذا قال تعالى ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾ أي العلي الذي لا أعلى منه ، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء ، فكل خاضع حقير بالنسبة إليه .

(٣١) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره ، أي بلطفه وتسخيره ، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت ، ولهذا قال ﴿ ليريكم من

آياته ﴾ أي من قدرته ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ أي صبار في الضراء ، شكور في الرخاء .

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ (٣٢)

﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل ﴾ أي كالجبال والغمام ﴿دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ ﴿ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ﴾ قال مجاهد : أي كافر ، كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ فالختار هو الغدار ، وهو الذي كلما عاهد نقض عهده ، والختر أتم الغدر وأبلغه ﴿ كفور ﴾ أي جحود للنعم لا يشكرها ، بل يتناساها ولا يذكرها .

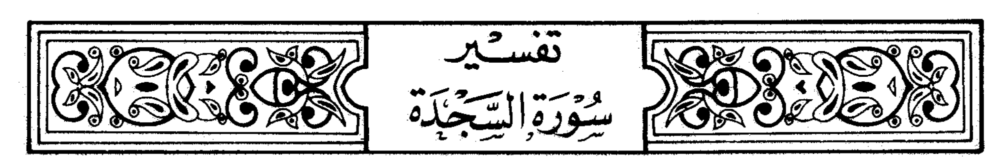
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ (٣٣)

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد ، وآمراً لهم بتقواه والخوف منه والخشية من يوم القيامة حيث ﴿ لا يجزي والد عن ولده ﴾ أي لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه ، وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه . ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ أي لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ يعني الشيطان ، فإنه يغر ابن آدم ويعده ويمنيه ، وليس من ذلك شيء ، بل كان كما قال تعالى ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ .

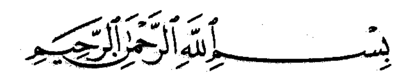
﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٣٤)

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله بعلمها ، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ، ولا ملك مقرب ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ، ومن يشاء الله من خلقه ، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه الله سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى ، أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك ومن

شاء الله من خلقه ، وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخراها ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان ، لا علم لأحد بذلك ، وهذه شبيهة بقوله تعالى ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب ، روى الإمام أحمد عن أبي بريدة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ » هذا حديث صحيح الإسناد . عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : من حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ، ثم قرأت ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وينزل الغيث ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلاً أو نهاراً ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام : أذكر أم أنثى ، أحمر أو أسود ، وما هو ؟ ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ أخيراً أم شراً ، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت ؟ لعلك الميت غداً ، لعلك المصاب غداً ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ أي ليس أحد من الناس يعرف أين مضجعه من الأرض : أفي بحر أم بر ، أو سهل أو جبل ؟ وقد جاء في الحديث « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة » .



روى البخاري في كتاب الجمعة عن أبي هريرة قال : كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿ الم تنزيل ﴾ السجدة ، و﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ ورواه مسلم أيضاً . وروى الإمام أحمد عن جابر قال : كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿ الم تنزيل ﴾ السجدة ، وتبارك الذي بيده الملك . تفرد به أحمد .



(١) ﴿ الٓمٓ ﴾

تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿ من رب العالمين ﴾ .

(٣) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ بل يقولون افتراه ، أي اختلقه من تلقاء نفسه ﴿ بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾ أي يتبعون الحق .

(٤) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه خالق للأشياء ، فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش . ﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ أي بل هو المالك لأزمة الأمور ، الخالق لكل شيء ، المدبر لكل شيء ، القادر على كل شيء فلا ولي لخلقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ يعني أيها العابدون غيره ، المتوكلون على من عداه ، تعالى وتقدس ، وتنزه أن يكون له نظير ، أو شريك ، أو وزير ، أو نديد ، أو عديل ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

(٥) ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾ أي يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابقة ، كما قال تعالى ﴿ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا . ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ .

(٦) ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة ﴾ أي المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده ،

يرفع إليه جليلها وحقيرها ، وصغيرها وكبيرها ، هو العزيز الذي قد عزّ كل شيء ، فقهره وغلبه ، ودانت له العباد والرقاب ، الرحيم بعباده المؤمنين ، فهو عزيز في رحمته ، رحيم في عزته ، وهذا هو الكمال ، العزة مع الرحمة ، والرحمة مع العزة ، فهو رحيم بلا ذل .

(٧) ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها . ثم لما ذكر تعالى خلق السموات والأرض شرع في ذكر خلق الإنسان فقال تعالى ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ يعني خلق أبا البشر آدم من طين .

(٨) ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾

﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ أي يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل ، وترائب المرأة .

(٩) ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ ثم سواه ﴾ يعني ادم لما خلقه من تراب خلقه سوياً مستقيماً ﴿ ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ يعني العقول ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي بهذه القوى التي رزقكموها الله عز وجل ، فالسعيد من استعملها في طاعة ربه عز وجل .

(١٠) ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا ﴿ أئذا ضللنا في الأرض ﴾ أي تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ﴿ أئنا لفي خلق جديد ﴾ أي أئنا لنعود بعد تلك الحال ؟ يستبعدون ذلك ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرهم العاجزة ، لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم ، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون ، ولهذا قال ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ .

(١١) ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ﴾ الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة ، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل ، وهو المشهور ، قاله قتادة وغير واحد ، وله أعوان ، وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من

سائر الجسد ، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت . ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أي يوم معادكم ، وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

(١٢) ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة وقالهم حين عاينوا البعث ، وقاموا بين يدي الله عز وجل حقيرين ذليلين ناكسي رؤ وسهم ، أي من الحياء والخجل يقولون ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾ أي نحن الآن نسمع قولك ، ونطيع أمرك كما قال تعالى ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ وهكذا هؤلاء يقولون ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا ﴾ أي إلى دار الدنيا ﴿ نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ أي قد أيقنا ، وتحققنا فيها أن وعدك حق ، ولقاءك حق ، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون بآيات الله ، ويخالفون رسله كما قال تعالى ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ .

(١٣) ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

وقال ههنا ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ كما قال تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ ﴿ ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين ﴾ أي من الصنفين ، فدارهم النار لا محيد لهم عنها ، ولا محيص لهم منها . نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك .

(١٤) ﴿ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ أي يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ : ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له ، إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿ إنا نسيناكم ﴾ أي سنعاملكم معاملة الناسي ، لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ، ولا يضل عنه شيء ، بل من باب المقابلة ، كما قال تعالى ﴿ فاليوم ننساكم كما

نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ وقوله تعالى ﴿ وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ أي بسبب كفركم وتكذيبكم .

(١٥) ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴾

يقول تعالى ﴿ إنما يؤمن بآياتنا ﴾ أي إنما يصدق بها ﴿ الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً ﴾ أي استمعوا لها ، وأطاعوها قولاً وفعلاً ﴿ وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ﴾ أي عن اتباعها والانقياد لها ، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة ، قال تعالى ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ .

(١٦) ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ يعني بذلك قيام الليل ، وترك النوم ، والاضطجاع على الفرش الوطيئة ﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ أي خوفاً من وبال عقابه ، وطمعاً في جزيل ثوابه ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية .

(١٧) ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ أي فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم ، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد . لما أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقاً ، فإن الجزاء من جنس العمل .

(١٨) ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴾

﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها ، ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ أي عند الله يوم القيامة .

(١٩) ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

وهي الصالحات ﴿ فلهم جنات المأوى ﴾ أي التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿ نزلاً ﴾ أي ضيافة وكرامة ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ .

(٢٠) ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾

﴿ وأما الذين فسقوا ﴾ أي خرجوا عن الطاعة فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدي لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم ، والملائكة تقمعهم . ﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً .

(٢١) ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه ، أو العذاب الأدنى السنون المجدبة ، أو هو القتل والسبي يوم بدر .

(٢٢) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ أي لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها . ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ أي سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

(٢٣) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه آتاه الكتاب ، وهو التوراة ، وقوله تعالى ﴿ فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ قال قتادة : يعني به ليلة الاسراء ، روى ابن أبي حاتم قال : قال رسول الله : « أريت ليلة اسريَ بي موسى بن عمران رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوأة ، ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس ، ورأيت مالكاً خازن النار والدجال » في آيات أراهنَّ الله إياه . ﴿ وجعلناه هدى لبني اسرائيل ﴾ عن ابن عباس ، جعل موسى هدى لبني اسرائيل . أو وجعلنا الكتاب الذي آتيناه إياه هدى لبني إسرائيل .

(٢٤) ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾

﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ أي لما كانوا صابرين على أوامر الله ، وترك زواجره ، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن

المنكر ، ثم لما بدلوا وحرفوا وأولوا سلبوا ذلك المقام ، وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، فلا عمل صالحاً ، ولا اعتقاداً صحيحاً ، ولهذا قال ﴿ ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب ﴾ أي لما صبروا عن الدنيا . ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا .

(٢٥) ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

﴿ فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي من الاعتقادات والأعمال .

(٢٦) ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾

يقول تعالى : أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ، ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ ولهذا قال ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ أي وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين ، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها ذهبوا منها ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ كما قال تعالى ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أي إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم لآيات وعبراً ومواعظ ، ودلائل متناظرة ﴿ أفلا يسمعون ﴾ أي أخبار من تقدم كيف كان أمرهم .

(٢٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾

﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ﴾ يبين تعالى لطفه بخلقه ، وإحسانه اليهم في إرساله الماء ، إما من السماء أو من السيح ، وهو ما تحمله الأنهار ، ويتحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته ، ولهذا قال ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ وهي التي لا نبات فيها ، كما قال تعالى ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾ أي يبساً لا تنبت شيئاً .

(٢٨) ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار ووقوع بأس الله بهم ، وحلول غضبه ونقمته عليهم استبعاداً وتكذيباً وعناداً ﴿ ويقولون متى هذا الفتح ﴾ أي متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتاً تدال علينا ، وينتقم لك منا ، فمتى يكون هذا ؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين .

﴿٢٩﴾ ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

قال تعالى ﴿ قل يوم الفتح ﴾ أي إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا والأخرى ﴿ لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴾ كما قال تعالى ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة ، وأفحش ، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء ، وقد كانوا قريباً من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل اسلامهم لقوله تعالى ﴿ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴾ وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل ، كقوله ﴿ فافتح بيني وبينهم فتحاً ﴾ .

﴿٣٠﴾ ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾

﴿ فأعرض عنهم وانتظر إنهم ينتظرون ﴾ أي أعرض عن هؤلاء المشركين ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، كقوله ﴿ اتبع ما أوحي اليك من ربك لا إله إلا هو ﴾ ﴿ وانتظر ﴾ فإن الله سينجز لك ما وعدك وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد . وقوله ﴿ إنهم منتظرون﴾ أي أنت منتظروهم منتظرون ، ويتربصون بكم الدوائر ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم ، وعلى أداء رسالة الله في نصرتك وتأييدك وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك ، وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم وحلول عذابه بهم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .



تفسير سُورَةُ الأحْزَابِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى ، وقد قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله . ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ أي لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ أي فهو أحق أن تتبع أوامره ، وتطيعه ، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم في أقواله وأفعاله .

(٢) ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

ولهذا قال ﴿ واتبع ما يوحى إليك من ربك ﴾ أي من قرآن وسنة ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ أي فلا تخفى عليه خافية .

(٣) ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

﴿ وتوكل على الله ﴾ أي في جميع أمورك وأحوالك ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ أي وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأناب اليه .

(٤) ﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوي أمراً معروفاً حسياً ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله : أنت علي كظهر امي ، أماً له ، كذلك لا يصير الدعي ولداً للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له ، فقال ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ﴾ كقوله عز وجل ﴿ ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما جعل

أدعياءكم أبناءكم ﴾ هذا هو المقصود بالنفي ، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى النبي ﷺ ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة ، فكان يقال له : زيد بن محمد ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الالحاق وهذه النسبة بقوله ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ كما قال تعالى ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ وقال ههنا ﴿ ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾ يعني تبنيكم لهم قول ، لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان . ﴿ والله يقول الحق ﴾ أي العدل ﴿ وهو يهدي السبيل ﴾ أي الصراط المستقيم . وقد ذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش ، كان يقال له : ذو القلبين ، وأنه كان يزعم أن له قلبين كل منهما بعقل وافر ، فأنزل الله هذه الآية رداً عليه .

(٥) ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴾

﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الاسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأدعياء ، فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط والبر . ﴿ فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ﴾ أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم ، أي عوضاً عما فاتهم من النسب ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾ أي إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد ، واستفراغ الوسع ، فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ، ورفع إثمه ، كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ وثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : قد فعلت » . وفي الحديث « إن الله رفع عن أمتي الخطأ والنسيان والأمر الذي يكرهون عليه » . ﴿ ولكن ما تعمدت قلوبكم ﴾ أي وإنما الاثم على من تعمد الباطل .

(٦) ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴾

قد علم الله شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم كان مقدماً على اختيارهم لأنفسهم ، كما قال تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ وفي الصحيح « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وما له وولده والناس أجمعين » وفي الصحيح أيضاً أن عمر قال : يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال ﷺ : « لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال : يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي ، فقال ﷺ : « الآن يا عمر » ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ أي في الحرمة والاحترام والتوقير والاكرام والاعظام ، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالاجماع ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ أي في حكم الله ﴿ من المؤمنين والمهاجرين ﴾ أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار ، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم فقد كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ . ﴿ إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً ﴾ أي ذهب الميراث ، وبقي النصر والبر والصلة والاحسان والوصية ﴿ كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴾ أي هذا الحكم ، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدل ولا يغير .

(٧) ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة ، وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهود والميثاق في اقامة دين الله تعالى وابلاغ رسالته والتعاون والتناصر والاتفاق . ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة ، وهم أولوا العزم ، وهو باب عطف الخاص على العام ، وقد صرح بذكرهم في هذه الآية ، وفي قوله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ « كنت أول النبيين في الخلق ، وآخرهم في البعث ، فبدأ بي قبلهم » .

(٨) ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ المبلغين المؤدين عن الرسل ﴿ وأعد للكافرين ﴾ أي

من أممهم ﴿ عذاباً أليماً ﴾ أي موجعاً ، فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ، ونصحوا الأمم ، وأفصحوا لهم عن الحق المبين الواضح الجلي الذي لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء ، وإن كذبهم من الجهلة المعاندين والمارقين والقاسطين فما جاءت به الرسل هو الحق ، ومن خالفهم فهو على الضلال .

(٩) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم ، وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم ، وتحزبوا ، وذلك في عام الخندق ، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور . ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً ﴾ قال مجاهد : هي الصبا ، ويؤيده الحديث « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » ﴿ وجنوداً لم تروها ﴾ هم الملائكة زلزلتهم ، وألقت في قلوبهم الرعب والخوف ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بني فلان إلي فيجتمعون إليه ، فيقول : النجاء النجاء ، لما ألقى الله عز وجل في قلوبهم من الرعب .

(١٠) ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾

﴿ إذ جاؤكم من فوقكم ﴾ أي الأحزاب ﴿ ومن أسفل منكم ﴾ هم بنو قريظة ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾ أي من شدة الخوف والفزع ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين ، وأن الله سيفعل ذلك ، أو ظن المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون . فكانت الظنون مختلفة .

(١١) ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالاً شديداً فحينئذٍ ظهر النفاق ، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم .

(١٢) ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾

أما المنافق فنجم نفاقه ، والذي في قلبه شبهة أو حسكة ضعف حاله ، فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه لضعف ايمانه ، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال .

(١٣) ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾

وقوم آخرون قالوا كما قال الله تبارك وتعالى ﴿ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب ﴾ يعني المدينة ﴿ لا مقام لكم ﴾ أي ههنا ، يعنون عند النبي ﷺ في مقام المرابطة ﴿ فارجعوا ﴾ أي إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿ ويستأذن فريق منهم النبي ﴾ هم بنو حارثة ، قالوا : بيوتنا نخاف عليها السراق ، أو القائل لذلك هو أوس بن قيظي ، يعني اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة ، أي ليس دونها ما يحجبها من العدو ، فهم يخشون عليها منهم قال تعالى ﴿ وما هي بعورة ﴾ أي ليست كما يزعمون ﴿ إن يريدون إلا فراراً ﴾ أي هرباً من الزحف .

(١٤) ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يقولون إن بيوتنا عورة ﴾ أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها ، ثم سئلوا الفتنة ، وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعاً ، وهم لا يحافظون على الايمان ، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع ، وهذا ذم لهم في غاية الذم .

(١٥) ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾

ثم قال تعالى يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل من هذا الخوف من ذلك أن لا يولوا الأدبار ، ولا يفروا من الزحف ﴿ وكان عهد الله مسؤولاً ﴾ أي وإن الله سيسألهم عن ذلك العهد لا بد من ذلك .

(١٦) ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ، ولا يطول أعمارهم ، بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة ولهذا قال تعالى ﴿ وإذاً لا تمتعون إلا قليلاً ﴾ أي بعد هربكم

وفراركم . ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴾ .

(١٧) ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

ثم قال تعالى ﴿ قل من ذا الذي يعصمكم من الله ﴾ أي يمنعكم منه ﴿ إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ أي ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث .

(١٨) ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب ، والقائلين لاخوانهم أي أصحابهم وعشرائهم وخلطائهم ﴿ هلم الينا ﴾ أي إلى ما نحن فيه من الاقامة في الظلال والثمار ، ﴿ و ﴾ هم مع ذلك ﴿ لا يأتون البأس إلا قليلاً ﴾ .

(١٩) ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

﴿ أشحة عليكم ﴾ أي بخلاء بالمودة والشفقة عليكم ، أو أشحاء في الغنائم ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ﴾ أي من شدة خوفه وجزعه ، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ﴾ أي فإذا كان الأمن تكلموا كلاماً بليغاً عالياً فصيحاً ، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة ، وهم يكذبون في ذلك . أو ﴿ سلقوكم ﴾ استقبلوكم ، قال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم ، وأسوؤه مقاسمة ، أعطونا أعطونا ، قد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذ له للحق ، وهم مع ذلك أشحة على الخير ، أي ليس فيهم خير ، قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير . ﴿ أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ .

(٢٠) ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور والخوف ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ﴾ بل هم قريب منهم وإن لهم عودة إليهم ﴿ وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ﴾ أي ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة ، بل في البادية يسألون عن أخباركم ، وما كان من أمركم مع عدوكم ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً ﴾ أي ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلاً لكثرة جبنهم ، وذلتهم ، وضعف يقينهم ، والله سبحانه وتعالى العالم بهم .

(٢١) ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسِّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله ، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ، ومرابطته ومجاهدته ، وانتظاره الفرج من ربه عز وجل ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ، ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ أي هلا اقتديتم به ، وتأسيتم بشمائله ﷺ ، ولهذا قال تعالى ﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ .

(٢٢) ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم ، وجعله العاقبة حاصلة لهم في الدنيا والآخرة ، فقال تعالى ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ﴾ يعنون قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب ، ولهذا قال تعالى ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم ، كما قال جمهور الأئمة : إنه يزيد وينقص . ﴿ وما زادهم ﴾ أي ذلك الحال والضيق والشدة ﴿ إلا إيماناً ﴾ بالله ﴿ وتسليماً ﴾ أي انقياداً لأوامره ، وطاعة لرسوله ﷺ .

(٢٣) ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ

وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾

لما ذكر عز وجل عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق فقال ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ﴾ أجله ، أو عهده ﴿ ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ أي وما غيروا عهد الله ولا نقضوه ولا بدلوه أو ﴿ فمنهم من قضى نحبه ﴾ يعني موته على الصدق والوفاء ، ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يبدل تبديلاً .

(٢٤) ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

﴿ ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ﴾ أي إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم ، حتى يعملوا ما يعلمه منهم ، كما قال تعالى ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ فهذا علم بالشيء بعد كونه ، وإن كان العلم السابق حاصلاً به قبل وجوده ، ولهذا قال تعالى ﴿ ليجزي الله الصادقين بصدقهم ﴾ أي بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه ، وقيامهم به ، ومحافظتهم عليه ﴿ ويعذب المنافقين ﴾ وهم الناقضون لعهد الله ، المخالفون لأوامره ، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا ، إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان . ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هي الغالبة لغضبه قال ﴿ إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ .

(٢٥) ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلٓهية ، ولولا أن الله جعل رسوله رحمة للعالمين لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم التي أرسلها على عاد ، ولكن قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ فسلط عليهم هواءً فرق شملهم ، كما كان سبب اجتماعهم من الهوى ، وهم أخلاط من قبائل شتى ، أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق

جماعتهم وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنقهم لم ينالوا خيراً ، لا في الدنيا مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم ، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مباراة الرسول ﷺ بالعداوة ، وهمهم بقتله ، واستئصال جيشه ، ومن هم بشيء وصدق بفعله فهو في الحقيقة كفاعله . وقوله تعالى ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ أي لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده ، وأعز جنده . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب . اللهم اهزمهم وزلزلهم » وفي قوله تعالى ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ، وهكذا وقع بعدها ، لم يغزهم المشركون ، بل غزاهم المسلمون في بلادهم ، وفي الحديث « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزوهم » ﴿ وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ أي بحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا خيراً ، وأعز الله الإسلام وأهله ، وصدق وعده ، ونصر رسوله وعبده ، فله الحمد والمنة .

(٢٦) ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾

﴿ وأنزل الذين ظاهروهم ﴾ أي عاونوا الأحزاب ، وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿ من أهل الكتاب ﴾ يعني بني قريظة من اليهود ﴿ من صياصيهم ﴾ يعني حصونهم ﴿ الرعب ﴾ الخوف ﴿ فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الصغار والنساء .

(٢٧) ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾

﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴾ أي جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿ وأرضاً لم تطأوها ﴾ قيل : خيبر ، وقيل : مكة ، أو هما

(٢٨) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢٩)

في البخاري أن عائشة جاءها رسول الله حين أمره الله أن يخبر أزواجه قالت : فبدأ بي

فقال ﴿ إني ذاكر لك أمراً ، فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك » وقد علم أن أبويّ لم يكونا يأمراني بفراقه ، قالت : ثم قال : « إن الله تعالى قال : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك ﴾ إلى تمام الآيتين ، فقلت له : ففي أي هذا أستأمر أبويّ ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة » .

﴿ فتعالين أمتعكن وأسرحكن . . . ﴾ أي أعطيكن حقوقكن ، وأطلق سراحكن .

(٣٠) ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

﴿ بفاحشة مبينة ﴾ هي النشوز وسوء الخلق ، وعلى كل تقدير هو شرط ، والشرط لا يقتضي الوقوع ، كقوله ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ ﴿ يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ في الدنيا والآخرة . ﴿ يسيراً ﴾ أي سهلاً هيناً .

(٣١) ﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾

﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله ﴾ أي تطع الله ورسوله وتستجب ﴿ نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً ﴾ أي في الجنة ، في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش .

(٣٢) ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك ، فقال تعالى مخاطباً لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن ، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ، ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة ﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ، ولهذا قال تعالى ﴿ فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾ أي دغل ﴿ وقلن قولاً معروفاً ﴾ قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير ، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، أي لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها .

(٣٣) ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

﴿ وقرن في بيوتكن ﴾ أي الزمن بيوتكن ، فلا تخرجن لغير حاجة ، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه كما قال رسول الله ﷺ « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ، وليخرجن وهن تفلات » وفي رواية « وبيوتهن خير لهن » روى البزار وأبو داود عن النبي ﷺ قال : « صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها ، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها » وهذا إسناد جيد . وقوله تعالى ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال فذلك تبرج الجاهلية . وقال قتادة : إذا خرجتن من بيوتكن وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهى الله تعالى عن ذلك . وقال مقاتل بن حيان : والتبرج أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك منها ، وذلك التبرج . ﴿ وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ﴾ نهاهن أولاً عن الشر ، ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهي الإحسان إلى المخلوقين . ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا لأنهن سبب نزول هذه الآية . روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : « الصلاة يا أهل البيت ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

(٣٤) ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾

﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ أي واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة ، فاشكرن الله تعالى على ذلك واحمدنه ﴿ إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾ أي ذا لطف بكن إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة ، وهي السنة ، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً .

(٣٥) ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

روى الإمام أحمد عن أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول : قلت للنبي ﷺ : ما لنا لا نذكر في

القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر قالت : وأنا أسرح شعري ، ثم خرجت إلى حجرتي حجرة بيتي فجعلت سمعي عند الجريد ، فإذا هو يقول عند المنبر : « يا أيها الناس ، إن الله تعالى يقول ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ » إلى آخر الآية . وذكر الإسلام والإيمان دليل على أن الإيمان غير الإسلام ﴿ والقانتين والقانتات ﴾ القنوت هو الطاعة في سكون ﴿ والصادقين والصادقات ﴾ هذا في الأقوال ، فإن الصدق خصلة محمودة ، وهو علامة على الإيمان ، كما أن الكذب أمارة على النفاق ، ومن صدق نجا ﴿ والصابرين والصابرات ﴾ هذه سجية الاثبات ، وهي الصبر على المصائب ، والعلم بأن المقدر كائن لا محالة . ﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾ الخشوع السكون والطمأنينة ، والتؤدة والوقار والتواضع ، والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته كما في الحديث « أعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ﴿ والمتصدقين والمتصدقات ﴾ الصدقة هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، يعطون من فضول الأموال طاعة لله وإحساناً إلى خلقه ، وفي الحديث « والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار » ﴿ والصائمين والصائمات ﴾ وفي الحديث : « والصوم زكاة البدن » أي يزكيه ويطهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً ﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ أي عن المحارم والمآثم ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ﴾ روى ابن أبي حاتم عن النبي ﷺ « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » وقد رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه ﴿ أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم ، أي الله قد هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم ، وأجراً عظيماً ، وهو الجنة .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (٣٦)

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ﴾ انطلق رسول الله ﷺ ليخطب لفتاه زيد بن حارثة ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها ، فقالت : لست بناكحته ، فقال رسول الله ﷺ : « بلى فانكحيه » قالت : يا رسول الله أؤامر في نفسي ؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية ، قالت : قد رضيته يا رسول الله منكحاً ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم » قالت : إذاً لا أعصي رسول الله ﷺ ، قد أنكحته نفسي . ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله . . . ﴾ فهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس

لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد ههنا ، ولا رأي ولا قول . وفي الحديث « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

٣٧ ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ﷺ أنه قال لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وهو الذي أنعم الله عليه بالإسلام ، ومتابعة الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ وأنعمت عليه ﴾ أي بالعتق من الرق ، وكان سيداً كبير الشأن ، جليل القدر ، حبيباً إلى النبي ﷺ ، يقال له : الحِب ، ويقال لابنه أسامة : الحِب بن الحِب . قالت عائشة : ما بعثه رسول الله في سرية إلا أمره عليهم ، ولو عاش بعده لاستخلفه . وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش فمكثت عنده قريباً من سنة ، ثم وقع بينهما فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « أمسك عليك زوجك واتق الله » قال تعالى ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ فقد أعلم الله نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » فقال : قد أخبرتك أني مزوجكها ، وتخفي في نفسك ما الله مبديه . ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ﴾ الوطر هو الحاجة والارب ، أي لما فرغ منها وفارقها زوجناكها ، بمعنى أن الله أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر ﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ﴾ أي إنما أبحنا لك تزويجها لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة ، فكان يقال له : زيد بن محمد . ﴿ وكان أمر الله مفعولاً ﴾ أي وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه ، وهو كائن لا محالة ، كانت زينب رضي الله عنها في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ .

٣٨ ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾

﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ﴾ أي فيما أحل له ، وأمره به من تزويج زينب رضي الله عنها التي طلقها دعيه زيد بن حارثة رضي الله عنه . وقوله تعالى ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج ﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾ وكان أمره الذي يقدره كائناً لا محالة ، وواقعاً لا محيد عنه ، ولا معدل ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

(٣٩) ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾

يمدح تبارك وتعالى ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ﴾ أي إلى خلقه ، ويؤدونها بأمانة ﴿ ويخشونه ﴾ أي يخافونه ولا يخافون أحداً سواه ، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ أي وكفى بالله ناصراً ومعيناً . وسيد الناس في هذا المقام ، بل وفي كل مقام محمد رسول الله ﷺ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشرق والمغرب ، إلى جميع أنواع بني آدم ، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع ، فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة ، وأما هو ﷺ فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم ، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله في ليله ونهاره وحضره وسفره ، وسره وعلانيته ، فرضي الله عنهم وأرضاهم ، ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فبنورهم يقتدي المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون ، فنسأل الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ « لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ، ثم لا يقوله ، فيقول الله : ما يمنعك أن تقول منه ؟ فيقول : رب خشيت الناس ، فيقول : فأنا أحق أن يخشى » رواه ابن ماجه .

(٤٠) ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ نهى أن يقال بعد هذا : زيد بن محمد ، أي لم يكن أباه ، وإن يكن قد تبناه ، فإنه ﷺ لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم . ﴿ ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ كقوله ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ فهذه الآية نص من الله أنه

لا نبي بعده ، وإن كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأحرى ، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس ، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ ، روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال : « مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها ، وترك موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ، ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ؟ فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة » ورواه الترمذي وقال : حسن صحيح .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى : المنعم عليهم بأنواع النعم ، وصنوف المنن ، لما لهم في ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « ذكر الله عز وجل . ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ عند الصباح والمساء » .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ ﴿٤٣﴾

﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ﴾ هذا تهييج إلى الذكر ، أي أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم ، كقوله ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ ، وفي الحديث « يقول الله تعالى : « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه » والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة ، أو هي الرحمة منه تعالى ، ومن الملائكة الدعاء للناس والاستغفار ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ أي بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿ شاهداً ﴾ أي لله بالوحدانية ﴿ ومبشراً ﴾ أي بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب ﴿ ونذيراً ﴾

أي للكافرين من وبيل العقاب .

(٤٦) ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾

﴿ وداعياً إلى الله بإذنه ﴾ أي داعياً للخلق إلى عبادة الله عن أمره لك بذلك ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ أي وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها ، لا يجحدها إلا معاند .

(٤٧) ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٤٨)

﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ أي لا تطعهم وتسمع منهم في الذي يقولونه ﴿ ودع أذاهم ﴾ أي اصفح وتجاوز عنهم ، وكل أمرهم إلى الله تعالى ، فإنه فيه كفاية لهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ .

(٤٩) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾

هذه الآية فيها أحكام كثيرة ، منها اطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها ، وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها . وقوله تعالى ﴿ المؤمنات ﴾ خرج مخرج الغالب ، إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق وقد استدل الكثير بقوله ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ﴾ على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح ، وهذا مذهب الشافعي وأحمد ، وذهب مالك وأبو حنيفة إلى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال : إن تزوجت فلانة فهي طالق ، فعندهما متى تزوجها طلقت منه . وإذا قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق ، فعند أبي حنيفة تطلق كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام ، وعند مالك لا تطلق ، لأنه لم يعينها . وحجة الشافعي وأحمد والجمهور هذه الآية ، وقوله ﷺ « لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك » وقوله « لا طلاق قبل نكاح » وقوله عز وجل ﴿ فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾ هذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت ، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها فإنها تعتد منه أربعة أشهر

وعشراً ، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً . وقوله ﴿ فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً ﴾ المتعة هنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى ، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها ، قال تعالى ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ﴾ وقال ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾ وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها ، فكأنها كرهت ذلك فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين . قال علي بن أبي طلحة : إن كان سمى لها صداقاً فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمى لها صداقاً أمتعها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل .

(٥٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

يقول تعالى مخاطباً نبيه ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن ، وهن الأجور ههنا . ﴿ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ﴾ أي وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم ، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما ، وملك ريحانة بنت شمعون ، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم ، وكانتا من السراري رضي الله عنهما ﴿ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ﴾ هذا عدل وسط بين الافراط والتفريط ، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان بينها وبين الرجل سبعة أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه ، وبنت أخته وقوله ﴿ اللاتي هاجرن معك ﴾ إلى المدينة ، أو أسلمن . وقوله ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ أي ويحل لك أيها النبي المرأة المؤمنة إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . روى الإمام أحمد أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله ، هل لك فيّ حاجة ؟ فقالت ابنته : ما كان أقل حياءها ، فقال : « هي خير منك ، رغبت في النبي فعرضت عليه نفسها » انفرد بإخراجه

البخاري . واللاتي وهبن أنفسهن للنبي كثير منهن خولة بنت حكيم وكانت امرأة صالحة . وعن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله امرأة وهبت نفسها له ، أي أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له ، وإن كان ذلك مباحاً له ، ومخصوصاً به لأنه مردود إلى مشيئته ﴿ إن أراد النبي أن يستنكحها ﴾ أي إن اختار ذلك . ﴿ خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ أي لا تحل الموهوبة لغيرك . ولو أن امرأة وهبت نفسها إلى رجل فإنه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها . والموت والدخول سواء في تقرير مهر المثل . وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ فأما هو ﷺ فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء ، ولو دخل بها لأن له أن يتزوجها بغير صداق ولا ولي ولا شهود وكما في قصة زينب رضي الله عنها . ﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم ﴾ أي من حصرهم في أربع نسوة حرائر ما شاؤوا من الاماء ، واشتراط الولي والمهر والشهود ، وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه ﴿ لكيلا يكون عليك حرج ﴾ .

(٥١) ﴿ * تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾

روى الإمام أحمد أن عائشة رضي الله عنها كانت تغير من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ ، قالت : ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ﴾ فقالت : إني أرى ربك يسارع لك في هواك . ورواه البخاري، فدل هذا على أن المراد بقوله ﴿ ترجي ﴾ أي تؤخر ﴿ من تشاء منهن ﴾ أي من الواهبات ﴿ وتؤوي إليك من تشاء ﴾ أي من شئت قبلتها ، ومن شئت رددتها ، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك إن شئت عدت فيها فأويتها ، ولهذا قال : ﴿ ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ قال عامر الشعبي : في قوله تعالى ﴿ ترجي من تشاء منهن . . . ﴾ : كن نساء وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فدخل ببعضهن ، وأرجأ بعضهن لم ينكحن بعده ، منهن أم شريك . قلت : وقوله هذا مخالف لقول ابن عباس المتقدم قريباً من أن النبي ﷺ لم يدخل بواحدة من اللاتي وهبن أنفسهن . وقال آخرون : بل المراد بقوله ﴿ ترجي من تشاء منهن . . . ﴾ أي من أزواجك ، فلا حرج عليك أن تترك القسم لهن فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت ، وتجامع من شئت ، وتترك من شئت ، ومع ذلك كان النبي ﷺ يقسم لهن ، ولهذا ذهب

طائفة من الفقهاء الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه ﷺ ، واحتجوا بهذه الآية . واختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات ، وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن إن شاء قسم ، وإن شاء لم يقسم . وهذا الذي اختاره جيد قوي ، وفيه جمع بين الأحاديث ، ولهذا قال تعالى ﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ أي إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت ؟ ثم مع هذا إن تقسم لهن اختياراً منك ، لا أنه على سبيل الوجوب فرحن بذلك واستبشرن به ، وحملن جميلك في ذلك ، واعترفن بمنتك عليهن في قسمتك لهن ، وتسويتك بينهن ، وإنصافك لهن ، وعدلك فيهن . وقوله ﴿ والله يعلم ما في قلوبكم ﴾ أي من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه ، فقد كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول « اللهم هذا فعلي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » رواه الإمام وأهل السنن الأربعة ﴿ وكان الله عليماً ﴾ أي بضمائر السرائر ﴿ حليماً ﴾ أي يحلم ويغفر .

(٥٢) ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء ، إلا ذات المحرم ، فجعلت هذه الآية ﴿ترجي من تشاء منهن﴾ ناسخة للتي بعدها في التلاوة . ﴿ ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ﴾ فنهاه عن الزيادة عليهن إن طلق واحدة منهن، واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه . عن أبي هريرة : كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل بادلني امرأتك ، وأبادلك امرأتي ، أي تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي فأنزل الله ﴿ ولا أن تبدل بهن من أزواج . . . ﴾ قال : فدخل عيينة بن حصن على النبي ﷺ ، وعنده عائشة ، فدخل بغير إذن فقال له رسول الله : « فأين الاستئذان ؟ » فقال : يا رسول الله ما استأذنت على رجل من مضر منذ أدركت ، ثم قال : من هذه الحميراء إلى جنبك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هذه عائشة أم المؤمنين » فقال : أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق ؟ قال : « يا عيينة إن الله قد حرم ذلك » فلما أن خرج قالت عائشة : من هذا ؟ قال : « هذا أحمق مطاع ، وإنه على ما ترين لسيد قومه » .

(٥٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ

وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾

هذه آية الحجاب ، وفيها أحكام وآداب شرعية ، ﴿ لا تدخلوا بيوت النبي ﴾ حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله بغير إذن كما كانوا قبل ذلك يصنعون ﴿ إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾ غير متحينين نضجه ، واستواءه ﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ﴾ وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرساً كان أو غيره » ﴿ ولا مستأنسين لحديث ﴾ أي كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ونسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ ، كما قال تعالى ﴿ إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم ﴾ ولهذا قال ﴿ والله لا يستحيي من الحق ﴾ ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه . ثم قال ﴿ وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ﴾ أي وكما نهيتكم عن الدخول عليهم كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية ، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب ﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ أي هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب . وقوله ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً ﴾ نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده ، قال رجل لسفيان : أهي عائشة ؟ قال : قد ذكروا ذلك . واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته ، هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين .

(٥٤) ﴿ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

أي مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم فإن الله يعلمه ، فإنه لا تخفى عليه خافية ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ .

(٥٥) ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم ، كما استثناهم في سورة النور ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن . . . ﴾ وقد سأل بعض السلف : لم لم يذكر العم والخال في هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبي بأنهما لم يذكرا لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما. ولكن كرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها . وقوله ﴿ ولا نسائهن ﴾ يعني بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات . وقوله تعالى ﴿ وما ملكت أيمانهن ﴾ يعني به أرقاءهن من الذكور والاناث ﴿ واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيداً ﴾ أي واخشينه في الخلوة والعلانية ، فإنه شهيد على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، فراقبن الرقيب .

(٥٦) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾

صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء ، أو : صلاة الرب الرحمة ، وصلاة الملائكة الاستغفار . عن عطاء بن رباح قال : صلاته تبارك وتعالى سبوح قدوس ، سبقت رحمتي غضبي . والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلي عليه ، ثم أمر تعالى العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً . روى الإمام أحمد ، قلنا يا رسول الله : قد علمنا كيف السلام عليك ، فكيف الصلاة ؟ قال : « قولوا اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » . وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم . قال النووي : إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، ولا يقتصر على أحدهما ، وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة .

(٥٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

يقول الله تعالى متهدداً ومتوعداً من آذاه بمخالفته أوامره وارتكاب زواجره ، وإصراره على ذلك ، وإيذاء رسوله بعيب أو بنقص ـ عياذاً بالله من ذلك ـ نزلت هذه الآية في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزوجه صفية بنت حيي ، والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ، ومن آذاه فقد آذى الله ، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله .

(٥٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ﴾ أي ينسبون إليهم ما هم برآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه . ﴿ فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ وهذا هو البهت الكبير أن يحكي أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقص لهم ، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ، ثم الذين يعيبوا الصحابة بما قد برأهم الله منه وينتقصونهم بما قد برأهم الله منه ، فإن الله قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم .

(٥٩) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات وخاصة أزواجه وبناته لشرفهن ـ بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ، ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية ، وسمات الإماء ، والجلباب هو الرداء فوق الخمار ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ عن ابن عباس أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾ أي إذا فعلن ذلك عرفن حرائر ، لسن بإماء ولا عواهر .

(٦٠) ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين ، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿ والذين في قلوبهم مرض ﴾ قال عكرمة وغيره : وهم الزناة ههنا ﴿ والمرجفون في المدينة ﴾ يعني الذين يقولون : جاء الأعداء ، وجاءت الحروب ، وهو كذب وافتراء ، لئن لم ينتهوا عن ذلك ﴿ لنغرينك بهم ﴾ أي لنسلطنك عليهم ﴿ ثم لا يجاورونك فيها ﴾ أي في المدينة ﴿ إلا قليلاً ﴾ .

(٦١) ﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾

﴿ ملعونين ﴾ حال منهم في مدة إقامتهم في المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ﴿ أينما ثقفوا ﴾ أي وجدوا ﴿ أخذوا ﴾ لذلتهم وقلتهم ﴿ وقتلوا تقتيلاً ﴾ .

(٦٢) ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ أي هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ، ولم يرجعوا عما هم فيه أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي وسنة الله في ذلك ، لا تبدل ولا تغير .

(٦٣) ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾

يقول تعالى مخبراً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه أنه لا علم له بالساعة ، وإن سأل الناس عن ذلك ، وأرشده أن يرد علمها إلى الله عز وجل ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ كما قال تعالى ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ .

(٦٤) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾

﴿ إن الله لعن الكافرين ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿ وأعد لهم سعيراً ﴾ أي في الدار الآخرة .

(٦٥) ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين مستمرين ، فلا خروج لهم منها ، ولا زوال لهم عنها ﴿ لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ أي وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه .

(٦٦) ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾

﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ أي يسحبون في النار على وجوههم ، وتلوى وجوههم على جهنم يتمنون أنه لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول ، كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله ﴿ ويـــوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ﴾ وقال ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ .

(٦٧) ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾

﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ قال طاووس : سادتنا يعني الأشراف ، وكبراءنا يعني العلماء ، أي اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة وخالفنا الرسل ، واعتقدنا أن عندهم شيئاً ، وأنهم على شيء ، فإذا هم ليسوا على شيء .

(٦٨) ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾

﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ أي بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿ والعنهم لعناً كبيراً ﴾ .

(٦٩) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾

روى البخاري عن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً ، لا يرى من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يتستر هذا الستر إلا من عيب في جلده ، إما برص ، وإما أدرة ، وإما آفة ، وإن الله أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى عليه السلام فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه على حجر ، ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر ، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله عز وجل ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه : ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ، فذلك قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين . . . ﴾ وهذا الحديث من إفراد البخاري دون مسلم . ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ أي له وجاهة وجاه عند ربه عز وجل . قال الحسن البصري : كان مستجاب الدعوة . وقال غيره من السلف : لم يسأل شيئاً إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء عز وجل .

(٧٠) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وأن يقولوا ﴿ قولاً سديداً ﴾ أي مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه .

(٧١) ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

بأن يصلح لهم أعمالهم ، أي يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية ، وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ وذلك أن يجار من نار الجحيم ، ويصير إلى النعيم المقيم .

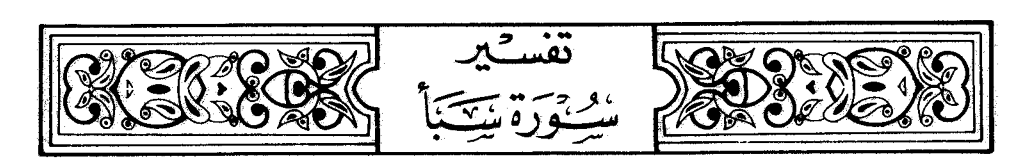
(٧٢) ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا

ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

عن ابن عباس الأمانة هي الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب ، وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله تعالى ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا ، حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة طعمة » .

(٧٣) ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات ﴾ أي إنما حمل بني آدم الأمانة ، وهي التكاليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ، ويبطنون الكفر متابعة لأهله ﴿ والمشركين والمشركات ﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسله ﴿ ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .



تفسير سُورَةُ سَبَأ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أنه له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة ، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم في جميع ذلك ، كما قال تعالى ﴿ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ ولهذا قال الله تعالى ههنا ﴿ الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي الجميع ملكه وعبيده ، وتحت تصرفه ، وتحت تصرفه ، وقهره كما قال

تعالى ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ ثم قال تعالى ﴿ وله الحمد في الآخرة ﴾ فهو المعبود أبداً ، المحمود على طول المدى . ﴿ وهو الحكيم ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿ الخبير ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شيء .

(٢) ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾

﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ﴾ أي يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض ، والحب المبذور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك : عدده وكيفيته وصفاته ﴿ وما ينزل من السماء ﴾ أي من قطر ورزق ، وما يعرج فيها ، أي من الأعمال الصالحة وغير ذلك ﴿ وهو الرحيم الغفور ﴾ أي الرحيم بعباده ، فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة ، الغفور عن ذنوب التائبين إليه ، المتوكلين عليه .

(٣) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن في سورة يونس عليه السلام ﴿ ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ والثانية هذه ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ﴾ والثالثة في سورة التغابن ، وهي قوله تعالى ﴿ زعم الذين كفروا ألن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ، ثم لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ وقوله ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ لا يعزب عنه : لا يغيب عنه ، أي الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء .

(٤) ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

ثم بين حكمته في إعادة الأبدان ، وقيام الساعة بقوله ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ .

(٥) ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾

﴿ والذين سعوا في آياتنا معاجزين ﴾ أي سعوا في الصد عن سبيل الله تعالى ، وتكذيب

رسله ﴿ أولئك لهم عذاب من رجز أليم ﴾ أي لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين . كما قال تعالى ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ وقال تعالى ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ .

(٦) ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾

﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها ، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ، ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد عِلموه من كتب الله تعالى في الدنيا رأوه حينئذٍ عين اليقين ، ويقولون يومئذٍ أيضاً ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ وقوله ﴿ ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾ العزيز هو المنيع الجناب الذي لا يغالب ، ولا يمانع ، بل قد قهر كل شيء وغلبه ، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، وهو المحمود في ذلك كله جل وعلا .

(٧) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة واستهزاءهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق ﴾ أي تفرقت أجسادكم في الأرض ، وذهبت فيها كل مذهب ، وتمزقت كل ممزق ﴿ إنكم ﴾ أي بعد هذا الحال ﴿ لفي خلق جديد ﴾ أي تعودون أحياء ، ترزقون بعد ذلك . وهو في هذا الاخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله تعالى أنه قد أوحي إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد ، لكن لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون ، ولهذا قال :

(٨) ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾

﴿ أفترى على الله كذباً أم به جنة ﴾ قال الله عز وجل رداً عليهم ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ، ولا كما ذهبوا إليه ، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿ في

العذاب ﴾ أي الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى ﴿ والضلال البعيد ﴾ من الحق في الدنيا .

(٩) ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾

ثم قال تعالى منبهاً لهم على قدرته في خلق السموات والأرض ، فقال تعالى ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ أي حيثما توجهوا وذهبوا ، فالسماء مطلة عليهم ، والأرض تحتهم ﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ﴾ أي لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا . ثم قال ﴿ إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ تائب ، أو المقبل إلى الله تعالى ، أي إن في النظر إلى خلق السموات والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجاع إلى الله على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ، ووقوع المعاد لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها ، وهذه الأرضين في انخفاضها ، وأطوالها وأعراضها ، أنه القادر على إعادة الأجسام ، ونشر الرميم من العظام .

(١٠) ﴿ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوي العدد والعُدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل فوقف واستمع لقراءته ثم قال : « لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود » وقال أبو عثمان النهدي : ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا وتر أحسن من صوت أبي موسى الأشعري . ﴿ أوبي ﴾ سبحي ﴿ وألنا له الحديد ﴾ كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط .

(١١) ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

ولهذا قال تعالى ﴿ أن اعمل سابغات ﴾ وهي الدروع ، وهو أول من عملها من الخلق ،

وإنما كانت قبل ذلك صفائح ﴿ وقدر في السَّرد﴾ هذا إرشاد لنبيه داود عليه السلام في تعليمه صنعة الدروع ، قال مجاهد في قوله ﴿ وقدر في السَّرد﴾ لا تدق المسمار فيعلق في الحلقة ، ولا تغلظه ، فيقصمها ، واجعله بقدر ﴿ واعملوا صالحاً ﴾ أي في الذي أعطاكم الله من النعم ﴿ إني بما تعملون بصير ﴾ أي مراقب لكم ، بصير بأعمالكم ، وأقوالكم ، لا يخفى علي من ذلك شيء .

(١٢) ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود وعطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له تحمل بساطه له غدوها شهر ورواحها شهر ﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾ النحاس ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ أي وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن من ربه أي بقدره وتسخيره لهم بمشيئته على ما يشاء من البنايات وغير ذلك ﴿ ومن يزغ منهم عن أمرنا ﴾ أي ومن يعدل منهم ويخرج عن الطاعة ﴿ نذقه من عذاب السعير ﴾ وهو الحريق .

(١٣) ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾

﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ﴾ أما المحاريب فهي البناء الحسن ، وهو أشرف شيء في المسكن وصدره ، وقال الضحاك : هي المساجد . وأما التماثيل فهي الصور ، وكانت من نحاس ، أو من طين ، وزجاج ﴿ وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ الجواب جمع جابية ، وهي الحوض الذي يجيء فيه الماء . والقدور الراسيات ، أي الثوابت في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها ﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾ أي وقلنا لهم اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا . قال أبو عبدالرحمٰن السلمي : الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير تعمله لله عز وجل شكر ، وأفضل الشكر الحمد . وقد كان آل داود عليهم السلام قائمين بشكر الله قولاً وعملاً . عن ثابت البناني قال : كان داود عليه أفضل السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة ، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي ، فغمرتهم هذه الآية ﴿ اعملوا آل داود . . . ﴾ وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال : « إن أحب

الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى » وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قالت أم سليمان بن داود عليهم السلام لسليمان ، يا بني لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة » . قال فضيل في قوله تعالى ﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾ قال داود : يا رب ، كيف أشكرك والشكر نعمة منك ؟ قال : « الآن شكرتني علمت أن النعمة مني » وقوله تعالى ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ إخبار عن الواقع .

(١٤) ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام ، وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكأ على عصاه ، وهي منسأته مدة طويلة نحواً من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض ، وهي الأرضة ضعفت وسقط إلى الأرض وعُلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ، وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ، ويوهمون الناس ذلك .

(١٥) ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم ، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر . ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ﴾ ثم فسرها بقوله عز وجل ﴿ جنتان عن يمين وشمال ﴾ أي من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾ أي غفور لكم إن استمررتم على التوحيد .

(١٦) ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن

سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ ﴿١٧﴾

﴿ فأعرضوا ﴾ أي عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله ، كما قال الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾ ﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ المراد بالعرم المياه ، وقيل : الوادي ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط ﴾ هو الأراك ﴿ وأثل ﴾ هو الطرفاء ، أو هو شجر يشبه الطرفاء ، وقيل : هو السمر . وقوله ﴿ وشيء من سدر قليل ﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر قال ﴿ وشيء من سدر قليل ﴾ فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة ، والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل ، وذلك بسبب كفرهم ، وشركهم بالله ، وتكذيبهم الحق ، وعدولهم عنه إلى الباطل ، ولهذا قال ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ﴾ أي عاقبناهم بكفرهم .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ ﴿١٨﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهني الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثماراً ، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها ﴾ قيل : هي قرى صنعاء ، أو هي قرى الشام ، أي أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة ﴿ قرى ظاهرة ﴾ أي بينة واضحة يعرفها المسافرون ، يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى ولهذا قال تعالى ﴿ وقدرنا فيها السير ﴾ أي جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿ سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين ﴾ أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً .

﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ﴿١٩﴾

﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ﴾ وذلك أنهم بطروا النعمة ، وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل ، والسير في الحرور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها مع أنهم كانوا في عيش رغيد في من وسلوى ، وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة . ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ أي جعلناهم حديثا للناس ، وسمراً يتحدثون به من خبرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والالفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد ههنا وههنا ، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : تفرقوا أيدي سبا ، وأيادي سبا ، وتفرقوا شذر مذر . ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ أي إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب وتبديل النعمة ، وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب ، شكور على النعم .

(٢٠) ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباع الهوى والشيطان أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع ابليس والهوى وخالف الرشاد والهدى فقال ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ﴾ قال ابن عباس هذه الآية كقوله ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ وكقوله ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ .

(٢١) ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾

﴿ وما كان له عليهم من سلطان ﴾ أي من حجة . قال الحسن البصري : والله ما ضربهم بعصا ، ولا أكرههم على شيء ، وما كان إلا غروراً وأماني دعاهم إليها فأجابوه ﴿ إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك ﴾ أي إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء فيحسن عبادة الله عز وجل في الدنيا ممن هو منها في شك . ﴿ وربك على كل شيء حفيظ ﴾ أي ومع حفظه ضل من ضل من اتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

(٢٢) ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾

﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ من الآلهة التي عبدتموها من دونه ﴿ وما لهم فيهما من شرك ﴾ أي لا يملكون شيئاً استقلالاً ، ولا على سبيل الشركة ﴿ وما له منهم من ظهير ﴾ أي وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه .

(٢٣) ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾

﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ أي لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترىء أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق ﴾ وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة ، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي وقيل ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ أي زال الفزع عنها ، أو خلى عن قلوبهم ﴿ قالوا الحق ﴾ أي أخبروا بما قالوا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿ وهو العلي الكبير ﴾ .

(٢٤) ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

يقول تعالى مقرراً تفرده بالخلق والرزق وانفراده بالإلهية أيضاً ، فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض أي بما ينزل من المطر ، وينبت من الزرع إلا الله فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره . وقوله تعالى ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ هذا من باب اللف والنشر ، أي واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق ، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ، ونحن على الهدى ، أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد ، فدل على ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى .

(٢٥) ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون ﴾ معناه التبري منهم ، أي لستم منا ، ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده ، وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن برآء منكم ، وأنتم برآء منا .

(٣٦) ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾

﴿ قل يجمع بيننا ربنا ﴾ أي يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد ﴿ ثم يفتح بيننا بالحق ﴾ أي يحكم بيننا بالعدل ، فيجزي كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وستعلمون يومئذٍ لمن العزة والنصرة ، والسعادة الأبدية . ﴿ وهو الفتاح العليم ﴾ أي الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور .

(٣٧) ﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ قل أروني الذين ألحقتم به شركاء ﴾ أي أروني هذه الآلهة التي جعلتموها أنداداً ، وصيرتموها له عدلاً ﴿ كلا ﴾ أي ليس له نظير ولا نديد ولا شريك ولا عديل ، ولهذا قال ﴿ بل هو الله ﴾ أي الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿ العزيز ﴾ أي ذو العزة الذي قد قهر بها كل شيء ، وغلبت كل شيء ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، تبارك وتعالى وتقدس عما يقولون علواً كبيراً .

(٣٨) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ تسليماً ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ أي إلا إلى جميع الخلائق من المكلفين ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ أي تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ كقوله عز وجل ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

(٣٩) ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ وهذا إخبار من الله عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد ﴾ .

(٣٠) ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾

﴿ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ أي لكم ميعاد مؤجل معدود محرر ، لا يزاد ولا ينقص ، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم كما قال تعالى ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾ وقال عز وجل ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ .

(٣١) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم ، وبما أخبر به من أمر المعاد ، ولهذا قال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعداً ومخبراً عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم ﴿ يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا ﴾ وهم الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ منهم ، وهم قادتهم وسادتهم ﴿ لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ أي لولا أنتم تصدونا لكنا اتبعنا الرسل ، وآمنا بما جاؤونا به .

(٣٢) ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾

فقال لهم القادة والسادة ، وهم الذين استكبروا ﴿ أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ﴾ أي أنحن فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل ، لشهوتكم واختياركم لذلك ، ولهذا قالوا ﴿ بل كنتم مجرمين ﴾ .

(٣٣) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار ﴾ أي بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً وتغرونا وتمنونا وتخبرونا أنا على هدى ، وأنا على شيء ، فإذا جميع ذلك باطل وكذب مبين ﴿ إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ﴾ أي نظراء وآلهة معه ، وتقيموا لنا شبهاً وأشياء من المحال تضلونا بها ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ أي الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه ﴿ وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿ هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ أي

إنما نجزيكم بأعمالكم ، كل بحسبه ، للقادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .

(٣٤) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ ، وآمراً له بالتأسي بمن قبله من الرسل ، ومخبره بأنه بعث نبياً في قرية إلا كذبه مترفوها ، واتبعه ضعفاؤهم ، كما قال نوح عليه الصلاة والسلام ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ وقال جل وعلا ههنا ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير ﴾ أي نبي أو رسول ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ وهم أولوا النعمة والحشمة والثروة والرياسة . قال قتادة : هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر ﴿ إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ أي لا نؤمن به ولا نتبعه .

(٣٥) ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٦)

﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ أي افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم ، واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ، ثم يعذبهم في الآخرة ، وهيهات لهم ذلك ، قال الله تعالى ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ .

ولهذا قال عز وجل ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ، ويغني من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة ، والحجة القاطعة الدامغة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

(٣٧) ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾

﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ﴾ أي ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم . روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله لا ينظر إلى

صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ورواه مسلم وابن ماجه . ﴿ إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾ أي إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ أي تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿ وهم في الغرفات آمنون ﴾ أي في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ، ومن كل شر يحذر منه . روى ابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ قال: « إن في الجنة لغرفاً ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها » فقال أعرابي : لمن هي ؟ قال ﷺ : « لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » .

﴿٣٨﴾ ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾

﴿ والذين يسعون في آياتنا معاجزين ﴾ أي يسعون في الصد عن سبيل الله ، واتباع رسله ، والتصديق بآياته ﴿ فأولئك في العذاب محضرون ﴾ أي جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم .

﴿٣٩﴾ ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ أي بحسب ما له في ذلك من الحكمة ، يبسط على هذا من المال كثيراً ، ويضيق على هذا ، ويقتر على هذا رزقه جداً ، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ، كما قال ﴿ أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ أي كما هم متفانون في الدنيا ، هذا فقير مدقع ، وهذا غني موسع عليه فكذلك هم في الآخرة ، هذا في الغرفات في أعلى الدرجات ، وهذا في الغمرات في أسفل الدركات . وأطيب الناس في الدنيا كما قال ﷺ : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه » رواه مسلم ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ أي مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به ، وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب ، كما ثبت في الحديث « يقول الله تعالى : أَنفق أُنفق عليك » . وفي الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما : اللهم أعط ممسكاً تلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقاً خلفاً . وقال رسول الله ﷺ : « أنفق بلا لا ، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً » .

(٤٠) ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صدرهم ليقربوهم إلى الله زلفى فيقول الملائكة ﴿ أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ أي أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟

(٤١) ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾

﴿ قالوا سبحانك ﴾ أي تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إلّه ﴿ أنت ولينا من دونهم ﴾ أي نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ يعنون الشياطين ، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم ﴿ أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ .

(٤٢) ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾

﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً ﴾ أي لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم ، فاليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً ﴿ ونقول للذين ظلموا ﴾ وهم المشركون ﴿ ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً .

(٤٣) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة ، والأليم من العذاب ، لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات ويسمعونها غضة طرية من لسان رسول الله ﷺ ﴿ قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول ، باطل . عليهم وعلى آبائهم لعائن الله تعالى ﴿ وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ﴾ يعنون القرآن ﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ .

(٤٤) ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾

﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ ، وقد كانوا يودون ذلك ، ويقولون : لو جاءنا نذير ، أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا ، فلما منَّ الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه .

(٤٥) ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ أي من الأمم ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ أي من القوة في الدنيا كما قال تعالى ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ﴾ أي فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي ؟

(٤٦) ﴿ * قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾

يقول تبارك وتعالى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون ﴿ إنما أعظكم بواحدة ﴾ أي إنما آمركم بواحدة ، وهي ﴿ أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾ أي أن تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضاً : هل بمحمد من جنون ، فينصح بعضكم بعضاً ﴿ ثم تتفكروا ﴾ أي ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ، ويتفكر في ذلك . وقوله تعالى ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ في البخاري أن النبي ﷺ صعد الصفا ذات يوم فقال : « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : مالك ؟ فقال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم ، أما كنتم تصدقوني » قالوا : بلى ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب . . . ﴾ .

(٤٧) ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشركين ﴿ ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾ أي لا أريد منكم جعلاً ولا عطاء على أداء رسالة الله عز وجل إليكم ، ونصحي إياكم ، وأمركم

بعبادة الله ﴿ إن أجري إلا على الله ﴾ أي إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله ﴿ وهو على كل شيء شهيد ﴾ أي لما لم يجمع الأمور بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم وما أنتم عليه .

(٤٨) ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾

﴿ قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب ﴾ كقوله تعالى ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ أي يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض ، وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض .

(٤٩) ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾

﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ أي جاء الحق من الله والشرع العظيم ، وذهب الباطل وزهق واضمحل ، كقوله تعالى ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعن الصنم منها بسبة قوسه ويقرأ ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ رواه البخاري ومسلم .

(٥٠) ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾

﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فيما يوحي إليّ ربي ﴾ أي الخير كله من عند الله ، وفيما أنزل الله عز وجل من الوحي والحق المبين ، فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه ﴿ إنه سميع قريب ﴾ أي سميع لأقوال عباده قريب ، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه . وفي الصحيحين « إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً قريباً مجيباً » .

(٥١) ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾

يقول تعالى : ولو ترى يا محمد إذ فزع هؤلاء المكذبون يوم القيامة فلا فوت ، أي فلا مفر لهم ولا وزير لهم ولا ملجأ ﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ أي لم يمكنوا أن يمعنوا في الهرب ، بل أخذوا من أول وهلة .

(٥٢) ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾

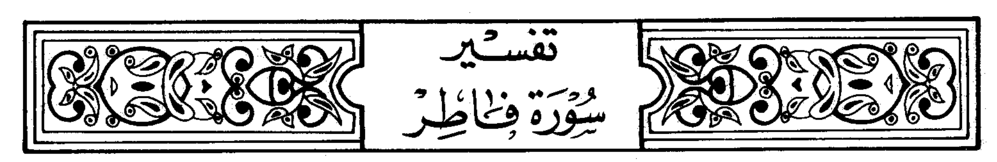
﴿ وقالوا آمنا به ﴾ أي يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله كما قال تعالى ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ أي وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم ، وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهي دار الجزاء ، لا دار الابتلاء ، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان ، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد .

(٥٣) ﴿ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾

﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ أي كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة ، وقد كفروا بالحق في الدنيا ، وكذبوا الرسل ﴿ ويقذفون بالغيب ﴾ بالظن ، كما قال تعالى ﴿ رجماً بالغيب ﴾ فتارة يقولون : شاعر ، وتارة يقولون : كاهن ، وتارة يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : مجنون إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون بالبعث والنشور والمعاد .

(٥٤) ﴿ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ﴾

﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل ﴿ كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ أي كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل ، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ ﴿ إنهم كانوا في شك مريب ﴾ أي كانوا في الدنيا في شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ

﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

عن ابن عباس قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما لصاحبه : أنا فطرتها ، أي بدأتها ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أي بديع السموات والأرض ، وقال الضحاك : كل شيء في القرآن ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ فهو خالق السموات والأرض . وقوله تعالى ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ أي بينه وبين أنبيائه ﴿ أولي أجنحة ﴾ أي يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أي منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الاسراء وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ، ولهذا قال جل وعلا ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء ، وقيل : يزيد في حسن الصوت ، وقرىء في الشاذ ﴿ يزيد في الحلق ﴾ بالحاء المهملة .

(٢) ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

يخبر تعالى أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، وقد روى الإمام أحمد أن المغيرة بن شعبة سمع رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصلاة : « لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » . وسمعته ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات . وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ .

(٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرد بالعبادة ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ، ولهذا قال تعالى ﴿ لا إلٰه إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ أي فكيف تؤفكون ؟ بعد هذا

البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان . والله أعلم .

(٤) ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وإن يكذبوك ﴾ أي هؤلاء المشركون بالله ، ويخالفوك يا محمد فيما جئتهم به من التوحيد فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة فإنهم كذلك جاؤ وا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي وسيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء .

(٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾

﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق ﴾ أي المعاد كائن لا محالة ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ أي العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه ، وأتباع رسله من الخير العظيم ، فلا تتلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ وهو الشيطان ، أي لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته ، فإنه غرار كذاب أفاك .

(٦) ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ أي هو مبارز لكم بالعداوة ، فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ أي إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدو المبين ، نسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان ، وأن يرزقنا اتباع كتابه ، والاقتفاء بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالاجابة جدير .

(٧) ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد ، لأنهم أطاعوا الشيطان ، وعصوا الرحمٰن ، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿ وعملوا الصالحات لهم مغفرة ﴾ أي لما كان منهم من ذنب ﴿ وأجر كبير ﴾ على ما عملوه من خير .

(٨) ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ

نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ يعني كالكفار والفجار يعملون أعمالاً سيئة ، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، أي أفمن كان هكذا قد أضله الله ، ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ﴿ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ أي بقدره كان ذلك ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ أي لا تأسف على ذلك ، فإن الله حكيم في قدره ، إنما يضل ويهدي من يهدي لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام ، ولهذا قال تعالى ﴿ إن الله عليم بما يصنعون ﴾ .

(٩) ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾

كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ﴿ اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً ، وينبت الأجساد من قبورها كما تنبت الحبة في الأرض ، ولهـذا جاء في الصحيح « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب ، منه خلق ، ومنه يركب » ولهذا قال تعالى ﴿ كذلك النشور ﴾ وفي حديث أبي رزين قال : قلت : يا رسول الله ، كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال ﷺ : « يا أبا رزين ، أما مررت بوادي قومك ممحلاً ، ثم مررت به يهتز خضراً ؟ » قلت : بلى ، قال ﷺ : « فكذلك يحيي الله الموتى » .

(١٠) ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾

﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ أي من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله ، فإنه يحصل له مقصوده ، لأنه تعالى مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعاً ، كما قال تعالى ﴿ أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ وقوله ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ يعني الذكر والتلاوة والدعاء ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلم الطيب ﴿ والذين يمكرون السيئات ﴾ هم المراؤون بأعمالهم ، يعني يمكرون بالناس ، يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى ، وهم بغضاء إلى

الله عز وجل يراؤ ون بأعمالهم ﴿ ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾ والصحيح أنها عامة والمشركون داخلون بطريق الأولى ، ولهذا قال تعالى ﴿ لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾ أي يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهى ، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر . فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على الغبي ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم ، بل ينكشف لهم عن قريب . وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية .

(١١) ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ﴾ أي ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ ثم جعلكم أزواجاً ﴾ أي ذكراً وأنثى لطفاً منه ورحمة لكم ، أزواجاً من جنسكم لتسكنوا إليها ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ أي هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء ، بل ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ وقوله عز وجل ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ أي ما يعطي بعض النطف من العمر الطويل يعلمه ، وهو عنده في الكتاب الأول ﴿ وما ينقص من عمره ﴾ الضمير عائد على الجنس لا على العين لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره ، وإنما عاد الضمير على الجنس ، قال ابن جرير : وهذا كقولهم : عندي ثوب ، ونصفه ، أي ونصف ثوب آخر . وعن ابن عباس : يقول : ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر ، وقد قضيت ذلك له ، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه ، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ أي سهل عليه ، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل للجميع ، لا يخفى عليه شيء منها .

(١٢) ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة خلق البحرين العذب الزلال ، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار ، والعمران والبراري والقفار ، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ أي ، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحة زعافاً مرة . ثم قال تعالى ﴿ ومن كل تأكلون لحماً طرياً ﴾ يعني السمك ﴿ وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ كما قال عز وجل ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ وترى الفلك فيه مواخر ﴾ أي تمخره وتشقه بحيزومها وهو مقدمها المسنم الذي يشبه جؤجؤ الطير ، وهو صدره ، وقوله عز وجل ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ أي بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر تتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ولا يمتنع عليكم شيء منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، الجميع من فضله ورحمته .

(١٣) ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة ، وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه ، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان ، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول هذا ويقصر هذا ، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ أي والنجوم السيارات والثوابت الناقبات بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسيرون بمقدار وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديراً من عزيز عليم ﴿ كل يجري لأجل مسمى ﴾ أي إلى يوم القيامة ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ أي الذي فعل هذا هو الرب العظيم الذي لا إله غيره ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ أي من الأصنام والأنداد التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين ﴿ ما يملكون من قطمير ﴾ القطمير : هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة ، أي لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذا القطمير .

(١٤) ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾

﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ﴾ يعني الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع

دعاءكم ، لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿ ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ أي لا يقدرون على شيء مما تطلبون منها ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ أي يتبرؤ ون منكم ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ أي ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها . قال قتادة : يعني نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

(١٥) ﴿ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

يخبر تعالى بغنائه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات إليه ، وتذللها بين يديه ، فقال تعالى ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ﴾ أي هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات ، وهو تعالى الغني عنهم بالذات ، ولهذا قال عز وجل ﴿ والله هو الغني الحميد ﴾ أي هو المتفرد بالغنى وحده لا شريك له ، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ، ويقدره ويشرعه .

(١٦) ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (١٧)

﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ أي لو شاء لأذهبكم أيها الناس ، وأتى بقوم غيركم ، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ، ولهذا قال ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ .

(١٨) ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها ﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿ لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ أي وإن كان قريباً إليها حتى ولو كان أباها أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ﴾ أي إنما يتعظ بما جئت به أولوا البصائر والنهى ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ﴾ أي ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزي كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

(١٩) ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ (١٩) وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ (٢٠) وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ (٢١)

يقول تعالى : كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير ، لا يستويان ، بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات . وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين ، وهم الأحياء ، وللكافرين ، وهم الأموات ، كقوله تعالى ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ فالمؤمن بصير سميع في نور عيش على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون . والكافر أعمى أصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها ، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ، ﴿ وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ﴾ .

(٢٢) ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ (٢٣)

﴿ إن الله يسمع من يشاء ﴾ أي يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ أي كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم ، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة ، لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم . ﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ أي إنما عليك البلاغ والإنذار ، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء .

(٢٤) ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ أي بشيراً للمؤمنين ، ونذيراً للكافرين ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ أي وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر ، وأزاح عنهم العلل ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ .

(٢٥) ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾

﴿ وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ وهي المعجزات

الباهرات ، والأدلة القاطعات . ﴿ وبالزبر ﴾ وهي الكتب ﴿ وبالكتاب المنير ﴾ أي الواضح البين .

(٣٦) ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

﴿ ثم أخذت الذين كفروا ﴾ أي ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاؤ وهم به فأخذتهم بالعقاب والنكال ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً .

(٣٧) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾

يقول تعالى منبهاً على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد ، وهو الماء الذي ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ﴾ أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر ، وفي بعضها طرائق ، وهي الجدد ، جمع جدة مختلفة الألوان أيضاً ، ومنها غرابيب سود . الغرابيب الجبال الطوال السود ، والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا : أسود غربيب .

(٣٨) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

﴿ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ﴾ أي كذلك الحيوانات من الأناس والدواب ، وهو كل ما دب على القوائم ، والأنعام من باب عطف الخاص على العام ، كذلك هي مختلفة أيضاً ، فالناس منهم بربر وحبوش ، وطماطم في غاية السواد ، وصقالبة وروم في غاية البياض . والعرب بين ذلك : والهنود دون ذلك ، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد ، بل النوع الواحد ، ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير الموصوف بصفات الكمال

المنعوت بالأسماء الحسنى أتم كلما كانت المعرفة به أتم وكلما كان العلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر .

(٢٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ، ويؤمنون به ، ويعملون بما فيه من إقام الصلاة والانفاق مما رزقهم الله تعالى في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً سراً وعلانية ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ أي يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله .

(٣٠) ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ أي ليوفيهم ثواب ما عملوه ، ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿ إنه غفور ﴾ أي لذنوبهم ﴿ شكور ﴾ للقليل من أعمالهم .

(٣١) ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾

يقول تعالى ﴿ والذي أوحينا إليك ﴾ يا محمد من الكتاب ، وهو القرآن ﴿ هو الحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي من الكتب المتقدمة يصدقها ، كما شهدت له هي بالتنويه ، وأنه منزل من رب العالمين ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ أي هو خبير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه ، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات ، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(٣٢) ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع فقال تعالى ﴿ فمنهم

ظالم لنفسه ﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ﴿ ومنهم مقتصد ﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات ﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات . وعن ابن عباس : قال هم أمة محمد ﷺ ، ورَّثهم الله كل كتاب أنزله ، فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

(٣٣) ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ، مأواهم جنات عدن ، أي جنات الاقامة ، يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله عز وجل ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا ، فأباحه الله لهم في الآخرة ، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » ، وقال : « هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة » .

(٣٤) ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ وهو الخوف من المحذور ، أزاحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة . روى الطبراني عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس على أهل لا إلّه إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور ، وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون : ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾ .

(٣٥) ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾

﴿ الذي أحلنا دار المقامة من فضله ﴾ يقولون : الذي أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام من فضله ومنّه ورحمته لم تكن أعمالنا تساوي ذلك ، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل » ﴿ لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها

لغوب ﴾ أي لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء . والنصب واللغوب كل منهما يستعمل في التعب ، وكأن المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم . والله أعلم .

(٣٦) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء شرع في بيان ما للأشقياء فقال ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ كما قال تعالى ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « أما أهل النار فلا يموتون فيها ولا يحييون » فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ، قال تعالى ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ كما قال عز وجل ﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون . لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ﴾ ثم قال تعالى ﴿ كذلك نجزي كل كفور ﴾ أي هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب بالحق .

(٣٧) ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾

﴿وهم يصطرخون فيها﴾ أي ينادون فيها يجأرون إلى الله عز وجل بأصواتهم ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ﴾ أي يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول ، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ، فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم ، ولذا قال ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾ أي أوما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم ﴿ وجاءكم النذير ﴾ الشيب ، والصحيح أنه رسول الله ﷺ ﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ أي فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

(٣٨) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر ، وما تنطوي عليه الضمائر ، وسيجازي كل عامل بعمله .

(٣٩) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾

﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ أي يخلف قوم لآخرين قبلهم ، وجيل لجيل قبلهم ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ﴾ أي كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين ، فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة ، وزاد أجره وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين .

(٤٠) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين ﴿ أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ﴾ أي ليس لهم شيء من ذلك . ما يملكون من قطمير. وقوله ﴿ أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر ؟ ليس الأمر كذلك ﴿ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾ أي بل إنما اتبعوا ذلك في أهوائهم وآرائهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم ، وهي غرور وباطل وزور .

(٤١) ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره ، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ أي أن تضطربا عن أماكنهما كما قال عز وجل ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ ﴿ ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ أي لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حليم غفور أن يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ، ويستر آخرين ويغفر ، ولهذا قال تعالى ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ .

(٤٢) ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم ﴿ لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ أي من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل ، كقوله تعالى ﴿ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ﴾ وكقوله ﴿ وإن كانوا ليقولون ، لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين ﴾ قال تعالى ﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ﴿ ما زادهم إلا نفوراً ﴾ أي ما ازدادوا إلا كفراً إلى كفرهم .

(٤٣) ﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

ثم بين بقوله ﴿ إستكباراً في الأرض ﴾ أي استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿ ومكر السيء ﴾ أي ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم . كقوله تعالى ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ وقوله تعالى ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ، ومخالفتهم أمره ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي لا تغير ولا تبدل ، بل هي جارية كذلك في كل مكذب ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ أي ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ﴾ ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد .

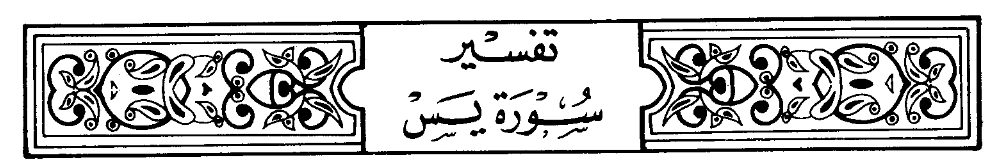
(٤٤) ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فخلت منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة وكثرة العَدد والعُدد ، وكثرة الأموال والأولاد ، فما أغنى ذلك شيئاً ، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء

أمر ربك ، لأنه تعالى لا يعجزه شيء إذا أراد كونه في السموات والأرض ﴿ إنه كان عليماً قديراً ﴾ أي عليم بجميع الكائنات ، قدير على مجموعها .

(٤٥) ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾

﴿ ولو يؤآخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ أي لو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل السموات والأرض ، وما يملكونه من دواب وأرزاق ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ أي ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذٍ ويوفي كل عامل بعمله فيجازي بالثواب أهل الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية ، ولهذا قال ﴿ فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ .



تفسير سورة يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

روى الترمذي قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شيء قلباً ، وقلب القرآن « يس » ومن قرأ « يس » كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » . ثم قال : هذا حديث غريب .

(١) ﴿ يس ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٧)

﴿ والقرآن الحكيم ﴾ أي المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ إنك ﴾ أي يا محمد ﴿ لمن المرسلين . على صراط مستقيم ﴾ أي على منهج ودين قويم ، وشرع مستقيم ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ أي هذا الصراط والمنهج والدين الذي

جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين ، كما قال تعالى ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله ﴾ ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ يعني بهم العرب ، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله ، وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم ، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم ، والله يقول ﴿ يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ لقد حق القول على أكثرهم ﴾ لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ بالله ولا يصدقون به .

(٨) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾

يقول تعالى : إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جعل في عنقه غل فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه فارتفع رأسه فصار مقمحاً ، ولهذا قال تعالى ﴿ فهم مقمحون ﴾ والمقمح هو الرافع رأسه .

(٩) ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ﴾ عن الحق ﴿ ومن خلفهم سداً ﴾ عن الحق فهم يترددون في الضلالات ﴿ فأغشيناهم ﴾ أي أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿ فهم لا يبصرون ﴾ أي لا ينتفعون بخير ، ولا يهتدون إليه . جعل الله تعالى السد بينهم وبين الإسلام والإيمان فهم لا يخلصون إليه ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

(١٠) ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ أي قد ختم الله عليهم بالضلالة ، فما يفيد فيهم الانذار ، ولا يتأثرون به .

(١١) ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾

﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر ﴾ أي إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر ، وهو القرآن العظيم ﴿ وخشي الرحمٰن بالغيب ﴾ أي حيث لا يراه أحد إلا الله تبارك وتعالى ، يعلم أن الله مطلع عليه ، وعالم بما يفعل ﴿ فبشره بمغفرة ﴾ أي لذنوبه ﴿ وأجر كريم ﴾ أي كثير واسع حسن جميل كما قال تبارك وتعالى ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ .

(١٢) ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ إنا نحن نحيي الموتى ﴾ أي يوم القيامة . وفيه إشارة إلى أن الله يحيي قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ﴿ ونكتب ما قدموا ﴾ أي من الأعمال ، وفي قوله تعالى ﴿ وآثارهم ﴾ قولان ، أحدهما نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التي أثروها من بعدهم فنجزيهم على ذلك أيضاً ، إن خير فخير ، وإن شراً فشر ، كقوله ﷺ : « من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » رواه مسلم . والثاني أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية . روى الإمام أحمد عن جابر قال : خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم : « إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد » قالوا : نعم يا رسول الله ، قد أردنا ذلك ، فقال ﷺ : « يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم » . وهذا رواه مسلم . ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ أي وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور ، مضبوط في لوح محفوظ ، والإمام المبين ههنا هو أم الكتاب .

(١٣) ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾

يقول تعالى : واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك ﴿ مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾ .

(١٤) ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾

﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ﴾ أي بادروهما بالتكذيب ﴿فعززنا بثالث﴾ أي قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث . قيل : كان اسم الرسولين الأولين : شمعون ويوحنا والثالث بولص والقرية أنطاكية ﴿ فقالوا ﴾ أي لأهل تلك القرية ﴿ إنا إليكم مرسلون ﴾ أي من ربكم الذي خلقكم ، يأمركم بعبادته وحده لا شريك له . وزعم قتادة بن دعامة أنهم كانوا رسل المسيح عليه السلام إلى أهل أنطاكية .

(١٥) ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾

﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ أي فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ، فلم لا يوحي إلينا

مثلكم ؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة وهذه كقوله ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾ وقوله ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ وههنا قالوا ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمٰن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ﴾ .

(١٦) ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾

﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ أي أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين : الله يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار .

(١٧) ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ يقولون : إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة وإن لم تجيبوا فستعلمون غب ذلك .

(١٨) ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

فعند ذلك قال لهم أهل القرية ﴿ إنا تطيرنا بكم ﴾ أي لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ﴾ بالحجارة ﴿ وليمسنكم منا عذاب أليم ﴾ أي عقوبة شديدة .

(١٩) ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

فقالت لهم رسلهم ﴿ طائركم معكم ﴾ أي مردود عليكم ﴿ أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾ أي من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا ، بل أنتم قوم مسرفون .

(٢٠) ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

﴿ وجاء رجل ﴾ هو حبيب النجار ﴿ قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم .

(٢١) ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجراً ﴾ أي على إبلاغ الرسالة ﴿ وهم مهتدون ﴾ أي فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له .

(٢٢) ﴿ وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾

﴿ ومالي لا أعبد الذي فطرني ﴾ أي وما منعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

(٢٣) ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾

﴿ أأتخذ من دونه آلهة ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ﴾ أي هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئاً ، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء ﴿ فلا كاشف له إلا هو ﴾ وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ، ولا ينقذونني مما أنا فيه .

(٢٤) ﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾

﴿ إني إذاً لفي ضلال مبين ﴾ أي إن اتخذتها آلهة من دون الله .

(٢٥) ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾

﴿ إني آمنت بربكم ﴾ الذي كفرتم به ﴿ فاسمعون ﴾ أي فاسمعوا قولي ، ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله ﴿ إني آمنت بربكم ﴾ أي الذي أرسلكم ﴿ فاسمعون ﴾ أي فاشهدوا لي بذلك عنده .

(٢٦) ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ (٢٧)

قال ابن إسحق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود رضي الله عنه أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصه من دبره ، وقال الله له : ﴿ ادخل الجنة ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها ، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها ، فلما رأى الثواب ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون ﴾ قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً ، لا تلقاه غاشاً ، لما عاين من كرامة الله ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون . بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله .

(٢٨) ﴿ * وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضباً منه تبارك وتعالى عليهم لأنهم كذبوا رسله ، وقتلوا وليه ، ويذكر عز وجل أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة ، بل الأمر كان أيسر من ذلك .

(٢٩) ﴿ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴾

﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ فأهلك الله تعالى ذلك الملك وأهل أنطاكية فبادوا عن وجه الأرض فلم يبق منهم باقية .

(٣٠) ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾

﴿ يا حسرة على العباد ﴾ أي يا ويل العباد ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ أي يكذبون ويجحدون ما أرسل به من الحق .

(٣١) ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾

﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ أي ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم من قولهم ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ﴾ وهم القائلون بالدور من الدهرية ، وهم الذين يعتقدون جهلاً منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها ، فرد الله عليهم باطلهم فقال تبارك وتعالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾

(٣٢) ﴿ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴾

﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ أي وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها .

(٣٣) ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴾

﴿ وآية لهم ﴾ أي دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة ، وإحيائه الموتى ﴿ الأرض

الميتة ﴾ أي إذا كانت ميتة هامدة لا شيء فيها من النباتات ، فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ولهذا قال تعالى ﴿ أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾ أي جعلناه رزقاً لهم ولأنعامهم .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾

﴿ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ﴾ أي جعلنا فيها أنهاراً سارحة في أمكنة يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره ، لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها . وقوله تعالى ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ أي وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم ولا بحولهم وقوتهم ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أي فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى . واختار ابن جرير ، بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالاً أن ﴿ ما ﴾ في قوله تعالى ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ بمعنى الذي ، تقديره : ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أي غرسوه ونصبوه .

﴿٣٦﴾ ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ﴾ أي من زروع وثمار ونبات ﴿ ومن أنفسهم ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ أي من مخلوقات شتى لا يعرفونها ، كما قال جلت عظمته ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ .

﴿٣٧﴾ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى : ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة خلق الليل والنهار : هذا بظلامه ، وهذا بضيائه ، وجعلهما يتعاقبان ، يجيء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجيء هذا ، كما قال تبارك وتعالى ﴿ يغشي الليل والنهار يطلبه حثيثاً ﴾ ولهذا قال عز وجل ههنا ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ أي نصرمه منه فيذهب فيقبل الليل ، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ فإذا هم مظلمون ﴾ كما جاء في الحديث « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم .

(٣٨) ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾

﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ في معنى قوله ﴿ لمستقر لها ﴾ أي المكاني تحت العرش كما في الحديث « مستقرها تحت العرش ، أو مستقرها الزماني : منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة ، يبطل سيرها ، وتسكن حركتها ، وتكور ، وينتهي هذا العالم إلى غايته ، وهذا هو مستقرها الزماني » . ﴿ذلك تقدير العزيز ﴾ الذي لا يخالف ولا يمانع ﴿ العليم ﴾ بجميع الحركات والسكنات .

(٣٩) ﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴾

﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ أي جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضي الشهور ، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ أي العذق اليابس .

(٤٠) ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾

﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ قال مجاهد : لكل منهما حد لا يعدوه ، ولا يقصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ يقول : لا ينبغي إذا كان ليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار ، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل . قال مجاهد : ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ يطلبان حثيثين ، يسلخ أحدهما من الآخر . والمعنى في هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ، لأنهما مسخران دائبين ، يتطالبان طلباً حثيثاً . ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ يعني الليل والنهار والشمس والقمر كلهم يسبحون ، أي يدورون في فلك السماء .

(٤١) ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴾

﴿ أنا حملنا ذريتهم ﴾ أي آباءهم ﴿ في الفلك المشحون ﴾ أي في السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات التي أمر الله تبارك وتعالى نوحاً أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين .

(٤٢) ﴿ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴾

﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ يعني بذلك الإبل ، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها ، أو هي السفن ، جعلت من بعد سفينة نوح على مثل سفينة نوح .

(٤٣) ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾

﴿ وإن نشأ نغرقهم ﴾ يعني الذين في السفن ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ فلا مغيث لهم مما هم فيه ﴿ ولا هم ينقذون ﴾ أي مما أصابهم .

(٤٤) ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾

﴿ إلا رحمة منا ﴾ وهذا استثناء منقطع ، تقديره ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر ، ونسلمكم إلى أجل مسمى ، ولهذا قال تعالى ﴿ ومتاعاً إلى حين ﴾ أي إلى وقت معلوم عند الله عز وجل .

(٤٥) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها ، وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم ﴾ من الذنوب ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أي لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه ، وتقدير الكلام أنهم لا يجيبون إلى ذلك ، بل يعرضون عنه ، واكتفى عن ذلك بقوله تعالى :

(٤٦) ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم ﴾ أي على التوحيد وصدق الرسل ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾ أي لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها .

(٤٧) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ﴾ أي وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿ قال الذين كفروا للذين آمنوا ﴾ أي عن الذين آمنوا من الفقراء ، أي قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمروهم به ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ أي هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم ، لو شاء الله لأغناهم ، ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم ﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ أي في أمركم لنا بذلك .

(٤٨) ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ .

(٤٩) ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾

قال الله عز وجل ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة ، وهذه والله أعلم نفخة الفزع ، ينفخ في الصور نفخة الفزع ، والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، فبينما هم كذلك إذا أمر الله عز وجل إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتاً ورفع ليتا ، وهي صفحة العنق يتسمع الصوت من قبل السماء ، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم .

(٥٠) ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾

ولهذا قال تعالى ﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ أي على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ﴿ ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ ثم يكون بعد هذا نفخة الصعق التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .

(٥١) ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾

هذه هي النفخة الثالثة ، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور ، ولهذا قال تعالى ﴿ فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ والنسلان هو المشي السريع ، كما قال تعالى ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ .

(٥٢) ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾

﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ ؟ يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذبوا به في محشرهم ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد ، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ﴿ هذا ما وعد الرحمٰن وصدق المرسلون ﴾ قال الحسن : إنما يجيبهم بذلك الملائكة ، ولا منافاة إذ الجمع ممكن . والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٥٤﴾

﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ كقوله عز وجل ﴿ فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾ وقال جلت عظمته ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ﴾ أي من عملها ﴿ ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ .

﴿٥٥﴾ ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فنزلوا في روضات الجنات أنهم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم ﴿ في شغل فاكهون ﴾ أي في نعيم معجبون ، أي به ، أو شغلهم افتضاض الأبكار ، أو شغلوا بسماع الأوتار .

﴿٥٦﴾ ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾

﴿ هم وأزواجهم ﴾ أي وحلائلهم ﴿ في ظلال ﴾ أي في ظلال الأشجار ﴿ على الأرائك متكئون ﴾ الأرائك هي السرر تحت الحجال .

﴿٥٧﴾ ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾

﴿ لهم فيها فاكهة ﴾ أي من جميع أنواعها ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ أي مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ . روى ابن أبي حاتم ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل مشمر إلى الجنة ؟ فإن الجنة لا خطر لها ، هي ورب الكعبة نور كلها يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سلامة ، وفاكهة خضرة ، وخير ونعمة في محلة عالية بهية » قالوا : نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال ﷺ : « قولوا : إن شاء الله » فقال القوم : إن شاء الله . وكذا رواه ابن ماجة في كتاب الزهد من سننه .

﴿٥٨﴾ ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾

﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ قال ابن عباس : فإن الله نفسه سلم على أهل الجنة ، وهذا الذي قاله ابن عباس كقوله تعالى ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ .

(٥٩) ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا بمعنى يتميزون عن المؤمنين في موقفهم كقوله تعالى ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم ﴾ وقال تعالى ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذٍ يتفرقون ﴾ ﴿ يومئذٍ يصدعون ﴾ .

(٦٠) ﴿ * أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾

﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ هذا تقريع من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا الشيطان ، وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمٰن ، وهو الذي خلقهم ورزقهم ، ولهذا قال :

(٦١) ﴿ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾

﴿ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ أي قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتي ، وهذا هو الصراط المستقيم فسلكتم غير ذلك ، واتبعتم الشيطان فيما أمركم به ، ولهذا قال عز وجل :

(٦٢) ﴿ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴾

﴿ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً ﴾ خلقاً كثيراً ﴿ أفلم تكونوا تعقلون ﴾ أي أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له ، وعدو لكم إلى اتباع الشيطان .

(٦٣) ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة ، وقد برزت الجحيم لهم تقريعاً وتوبيخاً ﴿ هذه جهنم التي كنتم توعدون ﴾ أي هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم .

(٦٤) ﴿ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾

﴿ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ كما قال تعالى ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً هذه النار التي كنتم فيها تكذبون ﴾ .

(٦٥) ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حيث ينكرون ما اجترحوه في الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم بما عملت .

(٦٦) ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾

﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ﴾ أي لو نشاء لأضللناهم عن الهدى فكيف يهتدون ؟

(٦٧) ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ﴾ أهلكناهم ، أو لغيرنا خلقهم ، أو لجعلنا هم حجارة ﴿ فما استطاعوا مضياً ﴾ أي إلى الأمام ﴿ ولا يرجعون ﴾ إلى الوراء ، بل يلزمون حالاً واحداً ، لا يتقدمون ولا يتأخرون .

(٦٨) ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رده إلى الضعف بعد القوة ، والعجز بعد النشاط ﴿ أفلا يعقلون ﴾ أي يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ، ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة ، ثم إلى الشيخوخة ، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها ، ولا انتقال منها ، ولا محيد عنها ، وهي الدار الآخرة .

(٦٩) ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ يقول عز وجل مخبراً عن نبيه ﷺ أنه ما علمه الشعر ﴿ وما ينبغي له ﴾ أي ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته ، ولهـذا ورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم ، بل إن أنشده زحفه ، أو لم يتمه . ولهذا قال ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ يعني محمداً ﷺ ، ما علمه الله الشعر ﴿ وما ينبغي له ﴾ أي وما يصلح له ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ أي ما هذا الذي علمناه ﴿ إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ أي مبين واضح جلي لمن تأمله وتدبره . ولهذا قال :

(٧٠) ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

﴿ لينذر من كان حياً ﴾ أي لينذر هذا القرآن المبين كل حي على وجه الأرض ، كقوله

﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب، مستنير البصيرة، وقال الضحاك : عاقلاً ﴿ ويحق القول على الكافرين ﴾ أي هو رحمة للمؤمنين ، وحجة على الكافرين .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ ﴿٧٢﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿ فهم لها مالكون ﴾ قال قتادة : مطيقون ، أي جعلهم يقهرونها ، وهي ذليلة لهم ، لا تمنع منهم ، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ، ولو شاء لأقامه ، وساقه وذاك ذليل منقاد معه ، وكذا لو كان القطار مائة بعير ، أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير . وقوله ﴿ فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ أي منها يركبون في الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار ﴿ ومنها يأكلون ﴾ إذا شاءوا انحروا واجتزوا .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٧٣﴾

﴿ ولهم فيها منافع ﴾ أي ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴿ ومشارب ﴾ أي من ألبانها وأوبالها لمن يتداوى ونحو ذلك ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أي أفلا يوحدون خالق ذلك ، ومسخره ولا يشركون به غيره ؟

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى .

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ ﴿٧٥﴾

﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ أي لا تقدر الآلهة على نصر عابديها ، بل هي أضعف من ذلك ، وأقل وأذل وأدحر ، بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ يعني عند الحساب ، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها ليكون ذلك أبلغ في حزنهم وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم .

(٧٦) ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ أي تكذيبهم لك ، وكفرهم بالله ﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أي نحن نعلم جميع ما هم فيه ، وسنجزيهم وصفهم ، ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ولا صغيراً ، ولا كبيراً ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً .

(٧٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾

جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ ، وفي يده عظم رميم ، وهو يفته ، ويذروه في الهواء ، وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال ﷺ : « نعم ، يميتك الله تعالى ، ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار » ونزلت هذه الآيات من آخر « يس » ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ﴾ إلى آخرهن ﴿ الإنسان ﴾ للجنس ، يعم كل منكر للبعث ﴿ أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ أي أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة ، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين .

(٧٨) ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾

﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض للأجساد والعظام الرميمة ، ونسي نفسه ، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده ، ولهذا قال عز وجل :

(٧٩) ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ أي يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت ، وأين تفرقت وتمزقت ؟

(٨٠) ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾

﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ أي الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر وينع ، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد ، لا يمنعه شيء . وقيل المراد

بذلك : شجر المرخ والعفار ينبت في أرض الحجاز ، فيأتي من أراد قدح نار ، وليس معه زناد فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء .

﴿٨١﴾ ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

يقول تعالى مخبراً منبهاً على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار وما بين ذلك ، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة كقوله تعالى ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقال عز وجل ههنا ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ ﴾ أي مثل البشر فيعيدهم كما بدأهم ﴿ بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .

﴿٨٢﴾ ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى يقول : يا عبادي كلكم مذنب إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إني جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون » .

﴿٨٣﴾ ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ أي تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر ، وإليه ترجع العباد يوم المعاد ، فيجازي كل عامل بعمله ، وهو العادل المتفضل .

* * *



تفسير سورة الصافات



عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ، ويؤمنا بالصافات ، تفرد به النسائي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ (٥)

روى مسلم عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « فضلنا على الناس بثلاث ، جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً ، وجعل لنا ترابها طهوراً إذا لم نجد الماء » وروى مسلم أيضاً وأبو داود والنسائي عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم ؟ » قلنا : وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال ﷺ : « يتمون الصفوف المتقدمة ، ويتراصون في الصف » ﴿ فالزاجرات زجراً ﴾ أنها تزجر السحاب ، أو ما زجر الله عنه في القرآن ﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ فالملقيات ذكراً . عذراً أو نذراً ﴾ ﴿ إن إلهكم لواحد رب السموات والأرض ﴾ هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو ، رب السموات والأرض ﴿ وما بينهما ﴾ أي من المخلوقات ﴿ ورب المشارق ﴾ أي هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق ، وتغرب من المغرب ، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه . وقال ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ يعني في الشتاء والصيف للشمس والقمر . يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب ، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوءها جرم السماء الشفاف ، فتضيء لأهل الأرض .

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى

ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ ﴿١٠﴾

فقوله جل وعلا ههنا ﴿ وحفظاً ﴾ تقديره وحفظناها حفظاً ﴿ من كل شيطان مارد ﴾ يعني المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه ، ولهذا قال تعالى ﴿ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ﴾ أي لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى ، وهي السموات ومن فيها من الملائكة إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شرعه وقدره ، ولهذا قال تعالى ﴿ ويقذفون ﴾ أي يرمون ﴿ من كل جانب ﴾ أي من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿ دحوراً ﴾ أي رجماً يدحرون به ويزجرون ويمنعون من الوصول إلى ذلك ﴿ ولهم عذاب واصب ﴾ أي في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر وقوله تبارك وتعالى ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ أي إلا من اختطف من الشياطين الخطفة ، وهي الكلمة يسمعها من السماء فيلقيها إلى الذي تحته ، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه ، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن ﴿ فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ أي مستنير .

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ ﴿١١﴾

يقول تعالى : فسل هؤلاء المنكرين للبعث : أيما أشد خلقاً هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والمخلوقات العظيمة ؟ ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقوله ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض .

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ ﴿١٩﴾

﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ أي بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث ، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى من الأمر العجيب ، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها ، وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك ﴿ وإذا رأوا آية ﴾ أي دلالة واضحة على ذلك ﴿ يستسخرون ﴾ يستهزؤ ون ﴿ وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أي أن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . أو

آباؤنا الأولون ﴾ يستبعدون ذلك ويكفرون به ﴿ قل نعم وأنتم داخرون ﴾ أي قل لهم يا محمد نعم ، تبعثون يوم القيامة بعدما تصيرون تراباً وعظاماً ، وأنتم داخرون ، أي حقيرون تحت القدرة العظيمة كما قال تعالى ﴿ وكل آتوه داخرين ﴾ ثم قال جلت عظمته ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ﴾ أي فإنما هو أمر واحد من الله عز وجل يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض فإذا هم قيام بين يديه ، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة .

﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة ، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا ، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كل الندم حيث لا ينفعهم الندم ﴿ وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين ﴾ فتقول لهم الملائكة والمؤمنون ﴿ هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ﴾ وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ، ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم ، ولهذا قال الله تعالى ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ وأشباههم وأمثالهم ، فيجيء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر ، ﴿ وما كانوا يعبدون من دون الله ﴾ أي من الأصنام والأنداد وتحشر معهم في أماكنهم وقوله تعالى ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ أي أرشدوهم إلى طريق جهنم . وقوله تعالى ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ أي قفوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا . روى ابن أبي حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما داع دعا إلى شيء كان موقوفاً معه إلى يوم القيامة ، لا يغادره ولا يفارقه ، وإن دعا رجل رجلاً » ثم قرأ ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ ورواه الترمذي . ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿ ما لكم لا تناصرون ﴾ أي كما زعمتم أنكم جميع منتصر ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ أي منقادون لأمر الله ، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾

قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٩)

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة كما يتخاصمون في دركات النار ﴿ فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾ وهكذا قال لهم ههنا ﴿ إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ عن ابن عباس يقولون : كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا ، لأنا كنا أذلاء ، وكنتم أعزاء ، أو كنتم تأتوننا من قبل الحق ، وتزينون لنا الباطل ، وتصدوننا عن الحق ، وتأتوننا من حيث نأمنكم . وقوله تعالى ﴿ بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ تقول القادة من الجن والإنس للأتباع : ما الأمر كما تزعمون ، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان ، قابلة للكفر والعصيان .

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣٧)

﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ أي من حجة على صحة ما دعوناكم إليه ﴿ بل كنتم قوماً طاغين ﴾ أي بل كان فيكم طغيان ، ومجاوزة للحق ، فلهذا استجبتم لنا ، وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء ، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به فخالفتموهم ﴿ فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون . فأغويناكم إنا كنا غاوين ﴾ يقول الكبراء للمستضعفين : حقت علينا كلمة الله أنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة ﴿ فأغويناكم ﴾ أي دعوناكم إلى الضلالة ﴿ إنا كنا غاوين ﴾ أي فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا . قال الله تبارك وتعالى ﴿ فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون ﴾ أي الجميع في النار كل بحسبه ﴿ إنا كذلك نفعل بالمجرمين . إنهم كانوا ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ أي يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون ﴿ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ أي أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون ، يعنون رسول الله ﷺ . قال الله تعالى تكذيباً لهم ورداً عليهم ﴿ بل جاء بالحق ﴾ يعني رسول الله ﷺ ، جاء بالحق في جميع شرعة الله تعالى له من الأخبار والطلب ﴿ وصدق المرسلين ﴾ أي صدقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة

والمناهج السديدة ، وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره كما أخبروا ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ .

﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ (٤٧)

يقول تعالى مخاطباً للناس : ﴿ إنكم لذائقوا العذاب الأليم . وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ أي استثنى من ذلك عباده المخلصين كما قال تعالى ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ولهذا قال جل جلاله ههنا ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أي ليسوا يذوقون العذاب الأليم ، ولا يناقشون في الحساب ، بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات ، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلى ما يشاء الله من التضعيف . وقوله جل وعلا ﴿ أولئك لهم رزق معلوم ﴾ يعني الجنة ، ثم فسره بقوله ﴿ فواكه ﴾ أي متنوعة ﴿ وهم مكرمون ﴾ أي يخدمون ويرفهون وينعمون ﴿ في جنات النعيم . على سرر متقابلين ﴾ أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض . وقوله تعالى ﴿ يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾ كما قال تعالى ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ نزه الله سبحانه وتعالى خمر الجنة عن الآفات التي في خمر الدنيا من صداع الرأس ووجع البطن ، وهو الغول ، وذهابها بالعقل جملة فقال تعالى ههنا ﴿ يطاف عليهم بكأس من معين ﴾ أي بخمر من أنهار جارية ، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها . وقوله ﴿ لذة للشاربين ﴾ أي طعمها طيب كلونها ، وطيب الطعم دليل على طيب الريح بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك ﴿ لا فيها غول ﴾ يعني لا يؤثر فيهم غولاً ، وهو وجع البطن . ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ لا تذهب عقولهم . عن ابن عباس : في الخمر أربع خصال : السكر والصداع ، والقيء ، والبول ، فذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال .

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ (٤٩)

﴿ وعندهم قاصرات الطرف عين ﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن . وقوله تبارك

وتعالى ﴿ عين ﴾ أي حسان الأعين ، وقيل : ضخام الأعين ، وهو يرجع إلى الأول ، وهي النجلاء العيناء ، فوصف عيونهن بالحسن والعفة كقول « زليخا » في يوسف ﴿ فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أي هو مع هذا الجمال عفيف تقي نقي ، وهكذا الحور العين ﴿ خيرات حسان ﴾ ولهذا قال عز وجل ﴿ وعندهم قاصرات الطرف عين ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان ، أو كأنهن اللؤلؤ المكنون ، أي هو محصون لم تمسه الأيدي . روى ابن أبي حاتم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا حزنوا ، وأنا شفيعهم إذا حبسوا ، لواء الحمد يومئذٍ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على الله عز وجل ولا فخر ، يطوف عليَّ ألف خادم كأنهم البيض المكنون ، أو اللؤلؤ المكنون » .

﴿٥٠﴾ ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ ﴿٦١﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، أي عن أحوالهم ، وكيف كانوا في الدنيا ، وماذا كانوا يعانون فيها ، وذلك من حديثهم على شرابهم واجتماعهم في تنادمهم ومعاشرتهم في مجالسهم ، وهم جلوس على السرر ، والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خير عظيم من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ قال قائل منهم إني كان لي قرين ﴾ يعني شيطاناً ، أو هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا . ولهذا ﴿ قال قائل منهم إني كان لي قرين . يقول أئنك لمن المصدقين ﴾ أي أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء ، يعني يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد والكفر والعناد ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون ﴾ لمحاسبون ، أو لمجزيون بأعمالنا ؟ قال الله تعالى ﴿ قل هل أنتم مطلعون ﴾ أي مشرفون ، يقوله المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة ﴿ فاطلع فرآه في سواءالجحيم ﴾ في وسط الجحيم . ﴿ قال تالله

إن كدت لتردين ﴾ يقول المؤمن مخاطباً الكافر : والله إن كدت لتهلكني لو أطعتك ﴿ ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ﴾ أي ولولا فضل الله علي لكنت مثلك في سواء الجحيم حيث أنت ، محضر معك في العذاب ، ولكنه تفضل علي ورحمني ، وهداني للإيمان ، وأرشدني إلى توحيده ﴿ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾ هذا من كلام المؤمن مغتبطاً نفسه بما أعطاه الله تعالى من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة ، بلا موت فيها ولا عذاب ، ولهذا قال جل جلاله ﴿ إن هذا لهو الفوز العظيم ﴾ وقوله ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ قال قتادة : هذا من كلام أهل الجنة ، وقال ابن جرير : من كلام الله تعالى ، ومعناه : لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا ليصيروا إليه في الآخرة . وما ذكروه هنا من قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل تدخل في عموم هذه الآية الكريمة .

(٦٢) ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ ﴿٦٤﴾

يقول الله تبارك وتعالى : أهذا الذي ذكره من نعيم الجنة ، وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء ﴿ أم شجرة الزقوم ﴾ أي التي في جهنم ، قال بعضهم : إنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم ، أو هو جنس شجر يقال له : الزقوم ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ قال قتادة : ذكرت شجرة الزقوم فافتتن بها أهل الضلالة ، وقالوا : صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر ، فأنزل الله ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ غذيت من النار ، ومنها خلقت . قال أبو جهل لعنه الله : إنما الزقوم الثمر والزبد ، أتزقمه .

(٦٥) ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ ﴿٧٠﴾

﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ هذا تبشيع لها وتكريه لذكرها ، فإنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر وقوله تعالى ﴿ فإنهم لآكلون منها فمالئون منها

البطون ﴾ ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها ، ولا أقبح من منظرها مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح ، والطبع ، فإنهم ليضطروا إلى الأكل منها ، لأنهم لا يجدون إلا إياها ، وما هو في معناها ، كما قال تعالى ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع . لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال : « اتقوا الله حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟ » ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه . وقوله تعالى ﴿ ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ﴾ يعني شرب الحميم على الزقوم ، أو مزجاً من حميم . ﴿ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ أي ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج وجحيم تتوقد ، وسعير تتوهج ، فتارة في هذا وتارة في هذا كما قال تعالى ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ وقوله تعالى ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ﴾ أي إنما جازيناهم بذلك ، لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان . ولهذا قال ﴿ فهم على آثارهم يهرعون ﴾ قال مجاهد : شبيهة بالهرولة ، وقال سعيد بن جبير : يسفهون .

﴿٧١﴾ ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ﴿٧٤﴾

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى ، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ينذرون بأس الله ، ويحذرونهم سطوته ونقمته ممن كفر به وعبد غيره ، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم ، فأهلك المكذبين ودمرهم ، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم ، ولهذا قال ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين إلا عباد الله المخلصين ﴾ .

﴿٧٥﴾ ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ ﴿٨٢﴾

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة شرع يبين ذلك مفصلاً ، فذكر نوحاً عليه الصلاة والسلام وما لقي من قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل

مع طول المدة ، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلما طال عليه ذلك ، واشتد عليهم تكذيبهم ، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة ، فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ، فغضب الله تعالى لغضبه عليهم ، ولهذا قال الله عز وجل ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ﴾ أي له ﴿ ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ وهو التكذيب والأذى ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ أي يذكر بخير ، قال مجاهد : يعني لسان صدق للأنبياء كلهم ، أو أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين وقوله تعالى : ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل ، والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى نجعل له لسان صدق يذكر بعده بحسب مرتبته في ذلك ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ أي المصدقين الموحدين الموقنين ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ أي أهلكناهم فلم تبق منهم عين تطرف ، ولا ذكر ولا عين ولا أثر ، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة .

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿٨٧﴾

﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ يقول : من أهل دينه ، أو على منهاجه وسنته ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ يعني شهادة أن لا إله إلا الله وسئل محمد بن سيرين : ما القلب السليم ؟ قال : يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، أو سليم من الشرك ، أو لا يكون لعاناً . ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ﴾ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ولهذا قال عز وجل ﴿ أئفكاً آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين ﴾ يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لا قيتموه وقد عبدتم معه غيره ؟

﴿٨٨﴾ ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ ﴿٩٨﴾

إنما قال ابراهيم عليه السلام لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها ، فقال لهم كلاماً هو حق

في نفس الأمر ، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدون ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ قال قتادة : والعرب تقول عن تفكر : نظر في النجوم ، يعني قتادة: أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهيهم به فقال ﴿ إني سقيم ﴾ أي ضعيف . وفي الحديث « لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله ، قوله ﴿ إني سقيم ﴾ وقوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله في سارة هي أختي » مخرج في الصحاح والسنن ، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله ، حاشا وكلا ، ولما ، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً ، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني كما جاء في الحديث «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب» ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعة واختفاء ﴿ فقال ألا تأكلون ﴾ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً لتبرك لهم فيه ، فلما نظر إبراهيم إلى ما بين أيديهم من الطعام قال ﴿ ألا تأكلون . ما لكم لا تنطقون ﴾ وقوله ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ مال عليهم ضرباً باليمين ، ولهذا تركهم جذاذاً الا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون . ﴿ فأقبلوا اليه يزفون ﴾ أي يسرعون . فلما جاؤ وا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبهم فقال ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ أي أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ مصدرية أي خلقكم وعملكم ، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي ، تقديره والله خلقكم والذي تعملونه ، والأول أظهر ، وفي الحديث مرفوعاً « إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته » فلما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر فقالوا ﴿ ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم ﴾ ونجاه الله من النار ، وأظهره عليهم ، وأعلى حجته ونصرها ولهذا قال تعالى ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ .

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ ﴿١٠١﴾

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام : إنه بعدما نصره الله على قومه ، وأيس من إيمانهم بعدما شاهدوا من الآيات العظيمة هاجر من بين أظهرهم وقال ﴿ إني ذاهب إلى ربي سيهدين . رب هب لي من الصالحين ﴾ يعني أولاداً مطيعين ، يكونون عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم ، قال الله تعالى ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ وهذا الغلام هو اسماعيل عليه السلام ، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام وهو اكبر من اسحق باتفاق المسلمين . وذهب جماعة إلى أن الذبيح اسحاق ، وما أظن ذلك تلقى

إلا عن أخبار أهل الكتاب من غير حجة ، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم ، وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك ﴿ وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين ﴾ .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (١٠٢)

﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ أي كبر وترعرع ، وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه ﴿ قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي ، ثم تلا هذه الآية ﴿قال يا بني إني أرى في المنام . . . ﴾ ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل ، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد . ولهذا قال تعالى ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً ﴾ .

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٢) وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ (١١٣)

﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ أي فلما تشهدا وذكر الله تعالى إبراهيم على الذبح والولد شهادة الموت . وقيل : استسلما وانقادا إبراهيم امتثل أمر الله تعالى ، وإسماعيل طاعة لله ولأبيه ﴿ وتله للجبين ﴾ أكبه على وجهه . روى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال : لما أمر إبراهيم بالمناسك عرض له الشيطان عند السعي ، فسابقه فسبقه إبراهيم ، ثم ذهب جبريل إلى حجرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الحجرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ثم تله للجبين ، وعلى اسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض ، فقال له : يا أبت ، إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره فاخلعه حتى تكفنني فيه فعالجه ليخلعه فنودي من خلفه ﴿ أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ وقوله ﴿ إنا كذلك

نجزي المحسنين ﴾ أي هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً ، وقد استدل بهذه الآية على صحة النسخ ، فقد شرع الله لإبراهيم ذبح ولده ثم نسخه عنه ، وصرفه إلى الغداء ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ أي الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى ، منقاداً لطاعته . ولهذا قال تعالى ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ وقوله ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ عن ابن عباس كان أفتى الذي جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه فأمره بمائة من الابل ، ثم قال بعد ذلك : لو كنت آفتينه بكبش لأجزاه أن يذبح كبشاً ، فإن الله تعالى قال ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ وقوله ﴿ وبشرناه باسحٰق نبياً من الصالحين ﴾ لما تقدمت البشارة بالذبح ، وهو اسماعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحق ﴿ نبياً ﴾ حال مقدرة أي منه نبي صالح . ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحٰق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ .

(١١٤) ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ (١١٦) وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١١٨)

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه ، وما كان يعتمد في حقهم من الاساءة العظيمة من قتل الأبناء ، واستحياء النساء ، واستعمالهم في أخس الأشياء ، ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم ، وأقر أعينهم منهم فغلبوهم ، وأخذوا أرضهم وأموالهم ، وما كانوا جمعوه طول حياتهم . ثم أنزل الله عز وجل على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين ، وهو التوراة ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين . وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ أي في الأقوال والأفعال .

(١١٩) ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١١٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٢٢)

﴿ وتركنا عليهما في الآخرين ﴾ أي أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جميلاً ، وثناء حسناً ، ثم فسره بقوله ﴿ سلام على موسى وهارون . إنا كذلك نجزي المحسنين . إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ .

(١٢٣) ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ

ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٣٢﴾

عن ابن مسعود قال : إلياس هو إدريس . وقال وهب بن منبه : هو الياس بن نسى ، بعثه الله في بني اسرائيل بعد حزقيل عليهما السلام ، وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له : بعل ، فدعاهم إلى الله تعالى ، ونهاهم عن عبادة ما سواه ، وكان قد آمن به ملكهم ، ثم ارتد واستمروا على ضلالتهم ، ولم يؤمن به منهم أحد ، فدعا الله عليهم فحبس عنهم القطر ثلاث سنين ، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم ، ووعدوه الايمان به إن هم أصابهم المطر ، فدعا الله تعالى لهم فجاءهم الغيث فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر ، فسأل الله أن يقبضه إليه ، ﴿ إذ قال لقومه ألا تتقون ﴾ أي ألا تخافون الله عز وجل في عبادتكم غيره ﴿ أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين ﴾ بعلاً يعني رباً ، أو كانوا يعبدون امرأة اسمها بعل ، أو بعل اسم صنم كان يعبده أهل مدينة ، يقال لها : بعلبك غربي دمشق . وقوله تعالى ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ أي أتعبدون صنماً ؟ ﴿ وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أي هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له . قال الله تعالى ﴿ فكذبوه فإنهم لمحضرون ﴾ أي للعذاب يوم الحساب ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أي الموحدين منهم ، وهذا استثناء منقطع من مثبت . وقوله تعالى ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ أي ثناء جميلاً ﴿ سلام على إلياسين ﴾ كما يقال في إسماعيل : إسماعين ، وهي لغة بني أسد . ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ .

﴿١٣٣﴾ ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿١٣٨﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه بعثه إلى قومه فكذبوه فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها ، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات ، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح ، وجعلها بسبيل مقيم ، يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً ، ولهذا قال تعالى ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾ أي أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله

عليهم ، ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ .

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ * فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » ونسبه إلى أمه ، وفي رواية إلى أبيه ﴿ إذ أبق إلى الفلك المشحون ﴾ هو الموقر المملوء بالأمتعة ﴿ فساهم ﴾ أي قارع ﴿ فكان من المدحضين ﴾ أي المغلوبين . وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب ، وأشرفوا على الغرق فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى في البحر لتخف بهم السفينة ، فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه السلام ثلاث مرات ، وهم يضنون به أن يلقى من بينهم ، فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه ، وهم يأبون عليه ذلك ، وأمر الله حوتاً أن يشق البحار وأن يلتقم يونس عليه السلام ، فلا يهشم له لحماً ، ولا يكسر له عظماً ، فجاء ذلك الحوت ، وألقى يونس عليه السلام نفسه فالتقمه الحوت ، ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ قال تعالى ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ ﴿ فنبذناه ﴾ أي ألقيناه ﴿ بالعراء ﴾ في الأرض التي ليس فيها نبات ولا بناء ﴿ وهو سقيم ﴾ أي ضعيف البدن ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ من القرع . وذكر بعضهم في القرع فوائد : منها سرعة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ، ونعومته ، وأنه لا يقربها الذباب وجودة تغذية ثمره ، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضاً ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء ، ويتتبعه من حواشي الصحفة . وقوله تعالى ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ قيل : إنما كانت رسالة يونس بعدما نبذه الحوت ، وقيل : أرسل اليهم قبل أن يلتقمه الحوت ، ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً أمر بالعود اليهم بعد خروجه من الحوت ، فصدقوه كلهم وآمنوا به ، وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون . وقوله ﴿ أو يزيدون ﴾ أي بل يزيدون ، وكانوا مائة وثلاثين ألفاً ، وقيل : أكثر . ﴿ فآمنوا ﴾ أي فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل اليهم يونس عليه

السلام جميعهم ﴿ فمتعناهم إلى حين ﴾ أي إلى وقت آجالهم ، كقوله جلت عظمته ﴿ فلولا كانت قرية آمن فنفعها إيمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ .

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿١٥٦﴾

يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين في جعلهم لله تعالى البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ، أي من الذكور ، أي يودون لأنفسهم الجيد ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ أي يسوؤه ذلك . ولا يختار لنفسه إلا البنين . يقول عز وجل : فكيف نسبوا إلى الله تعالى القَسْم الذي لا يختارونه لأنفسهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ فاستفتهم ﴾ أي سلهم على سبيل الانكار عليهم ﴿ ألربك البنات ولهم البنون ﴾ كقوله عز وجل ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ وقوله تبارك وتعالى ﴿ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ﴾ أي كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم كقوله جل وعلا ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمٰن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ أي يسألون عن ذلك يوم القيامة . وقوله جلت عظمته ﴿ ألا إنهم من إفكهم ﴾ أي من كذبهم ﴿ ليقولون . ولد الله ﴾ أي صدر منه الولد ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ فذكر الله عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب ، فجعلوهم بنات الله ، وجعلوا ذلك الولد أنثى ، ثم عبدوهم من دون الله . تعالى الله وتقدس ، وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم . ثم قال تعالى منكراً عليهم ﴿ أصطفى البنات على البنين ﴾ أي أيُّ شيء يحمله على أن يختار البنات دون البنين ؟ ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ أي أما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ﴿ أفلا تذكرون . أم لكم سلطان مبين ﴾ أي حجة على ما تقولونه .

﴿ فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ﴿١٦٠﴾

﴿ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴾ أي هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب

منزل من السماء عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل ، بل لا يجوزه العقل بالكلية . وقوله تعالى ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ قال المشركون : الملائكة بنات الله ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : فمن أمهاتهن ؟ قالوا : بنات سروات الجن . ﴿ ولقد علمت الجنة ﴾ أي الذين نسبوا اليهم ذلك ﴿ إنهم لمحضرون ﴾ أي إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب لكذبهم في ذلك وافترائهم ، وقولهم الباطل بلا علم ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد ، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً . وقوله تعالى ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ استثناء منقطع ، وهو من مثبت ، إلا أن يكون الضمير في قوله تعالى ﴿ عما يصفون ﴾ عائد إلى الناس جميعهم ، ثم استثنى منهم المخلصين ، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي مرسل .

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿١٧٠﴾

يقول تعالى مخاطباً للمشركين ﴿ فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين . إلا من هو صال الجحيم ﴾ أي إنما ينقاد لمقالتكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أضل منكم ممن ذرىء للنار ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴾ فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة . ثم قال تبارك وتعالى منزهاً للملائكة مما نسبوا إليه من الكفر بهم ، والكذب عليهم أنهم بنات الله ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ أي له موضع مخصوص في السموات ، ومقامات العبادات لا يتجاوزه ولا يتعداه . روى ابن عساكر أن رسول الله ﷺ قال يوماً لجلسائه : « أطت السماء ، وحق لها أن تئط ، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد » ثم قرأ ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم . وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون ﴾ وفي الحديث « ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم » رواه مسروق عن عائشة في هذه الآية ، أو معناه تقدم الرجال وتؤخر النساء في صلاة الرجال والنساء جميعاً . ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ أي نقف

صفوفاً في الطاعة ﴿ وإنا لنحن المسبحون ﴾ نصطف فنسبح الرب ونمجده ، ونقدسه ونتزهه عن النقائص ، فنحن عبيد له ، فقراء إليه ، خاضعون لديه ﴿ وإن كانوا ليقولون . لو أن عندنا ذكراً من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين ﴾ أي قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله ، وما كان من أمر القرون الأولى ، ويأتيهم بكتاب الله ، ولهذا قال الله ﴿ فكفروا به فسوف يعلمون ﴾ وعيد أكيد ، وتهديد شديد على كفرهم بربهم عز وجل ، وتكذيبهم رسوله ﷺ .

﴿١٧١﴾ ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿١٧٥﴾

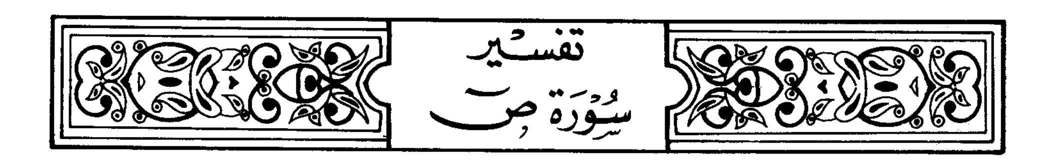
يقول تبارك وتعالى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ أي تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ ﴿ إنهم لهم المنصورون ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ أي تكون لهم العاقبة والنصرة والظفر ﴿ وأبصرهم فسوف يبصرون ﴾ أي انظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك ، ولهذا قال تعالى على وجه التهديد ﴿ فسوف يبصرون ﴾ .

﴿١٧٦﴾ ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿١٧٩﴾

﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ أي هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك ، فإن الله يغضب عليهم بذلك ، ويعجل لهم العقوبة ، ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة . قال تبارك وتعالى ﴿ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ﴾ أي فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم بإهلاكهم ودمارهم . وثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : صبح رسول الله ﷺ خيبر ، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش ، رجعوا وهم يقولون : محمد والله محمد والخميس ، فقال النبي ﷺ : « الله أكبر . خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » وقوله تعالى ﴿ وتولَّ عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١٨٢)

ينزه تبارك وتعالى نفسه الكريمة ويقدسها ويبرئها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون ، وتنزه وتقدس عن قولهم علواً كبيراً . ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ سبحان ربك رب العزة ﴾ أي العزة التي لا ترام ﴿ عما يصفون ﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفترين ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ أي سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيقته ﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ أي له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال . روى الطبراني عن رسول الله ﷺ أنه قال « من قال دبر كل صلاة ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين ﴾ ثلاث مرات فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر » . وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .



تفسير سورة ص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ (١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ (٢)

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله ﴿ والقرآن ذي الذكر ﴾ أي والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ، ونفع لهم في المعاش والمعاد ﴿ ذي الذكر ﴾ كقوله تعالى ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ أي تذكيركم أو ﴿ ذي الذكر ﴾ ذي الشرف ، أي ذي الشأن والمكانة ، ولا منافاة بين القولين ، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والاعذار والانذار . واختلفوا في جواب القسم فقال بعضهم : هو قوله تعالى ﴿ إن كل الا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ وقيل : قوله تعالى ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ وهذا الثاني فيه بعد كبير . ﴿ في عزة ﴾ أي استكبار عنه وحمية ﴿ وشقاق ﴾ أي ومخالفة له ومعاندة ومفارقة .

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ (٣)

﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ أي من أمة مكذبة ﴿فنادوا﴾ أي حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى وليس ذلك بمجد عنهم شيئاً ﴿ ولات حين مناص ﴾ ليس بحين نداء ، ولا نزو ولا فرار .

(٤) ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيراً ونذيراً ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ أي بشر مثلهم ﴿ وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾ .

(٥) ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾

﴿ أجعل الآلهة آلهاً واحداً ﴾ أي أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى ، وتعجبوا من ترك الشرك بالله ، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان ، وأشربته قلوبهم ، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم ، وإفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ .

(٦) ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾

﴿ وانطلق الملأ منهم ﴾ وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم ﴿ أن امشوا ﴾ أي استمروا على دينكم ﴿ واصبروا على آلهتكم ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد . وقوله تعالى ﴿ إن هذا لشيء يراد ﴾ قال ابن جرير : إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء ، وأن يكون له منكم أتباع ولسنا نجيبه إليه .

(٧) ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴾

﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ﴾ أي ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ التوحيد ﴿ في الملة الآخرة ﴾ يعني النصرانية قالوا : لو كان هذا القرآن حقاً لأخبرتنا به النصارى ﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾ أي تخرص .

(٨) ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾

﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ يعني أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم ، ولهذا لما قالوا : هذا الذي دل على جهلهم وقلة فعلهم في استبعادهم إنزال

القرآن على الرسول من بينهم قال الله تعالى ﴿ بل لما يذوقوا عذاب ﴾ أي إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك ، عذاب الله تعالى ونقمته ، سيعلمون غب ما قالوا ، وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً .

(٩) ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾

ثم قال تعالى مبيناً أنه المتصرف في ملكه الفعال لما يشاء الذي يعطي ما يشاء من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ﴾ أي العزيز الذي لا يرام جنابه ، الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد .

(١٠) ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾

﴿ أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب ﴾ أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب .

(١١) ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾

﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ أي هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين .

(١٢) ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية ، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل ، وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(١٣) ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾

وقوله تعالى ﴿ أولئك الأحزاب ﴾ أي كانوا أكثر منكم ، وأشد قوة ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، فما دافع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ، ولهذا قال عز وجل :

(١٤) ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾

﴿ إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل ، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر .

(١٥) ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾

﴿ وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ﴾ أي ليس لها مثنوية ، أي ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها أي فقد اقتربت ودنت وأزفت ، وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطولها فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله عز وجل .

(١٦) ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب ، فإن القط هو الكتاب ، وقيل : هو الحظ والنصيب ، قال ابن جرير : سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير والشر في الدنيا ، وهذا الذي قاله جيد .

(١٧) ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد قال الله تعالى لرسوله ﷺ : آمراً له بالصبر على أذاهم ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ وقوله ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾ يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام أنه كان ذا أيد ، والأيد القوة في العلم والعمل ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ قال قتادة : أعطى داود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة ، وفقهاً في الإسلام ، وقد ذكر أنه كان يقوم ثلث الليل ، ويصوم نصف الدهر ، وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود ، كان ينام في نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى ، وإنه كان أواباً » وهو الرجاع إلى الله عز وجل في جميع أموره وشؤونه .

(١٨) ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾

﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق ﴾ أي إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار ، كما قال تعالى ﴿ يا جبال أوبي معه والطير ﴾ وكذلك كانت الجبال تسبح بتسبيحه ، وترجع بترجيعه ، إذا مر به الطير وهو سابح فسمعه ، وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب ، بل يقف في الهواء ، ويسبح معه ، وتجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعاً له .

(١٩) ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

﴿ والطير محشورة ﴾ أي محبوسة في الهواء ﴿ كل له أواب ﴾ أي مطيع .

(٢٠) ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾

﴿ وشددنا ملكه ﴾ أي وجعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك ﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ يعني الفهم والعقل والفطنة أو الحكمة النبوة ﴿ وفصل الخطاب ﴾ الشهود والإيمان ، أو إصابة القضاء وفهم ذلك ، أو « أما بعد » .

(٢١) ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ (٢٢)

قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ﴿ ففزع منهم ﴾ لأنه كان في محرابه ، وكان أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم ، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب ، أي احتاطا به يسألانه عن شأنهما .

(٢٣) ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾

﴿ وعزني في الخطاب ﴾ أي غلبني يقال : عز يعز إذا قهر وغلب .

(٢٤) ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾

﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ أي اختبرناه ﴿ وخر راكعاً ﴾ أي ساجداً ﴿ وأناب ﴾ .

(٢٥) ﴿ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾

﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ أي ما كان منه مما يقال فيه : حسنات الأبرار سيئات المقربين . والجديد من مذهب الشافعي أن سجدة « ص » ليست من عزائم السجود ، بل هي سجدة شكر ، والدليل ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال : السجدة في « ص » ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها . ورواه البخاري وأبو داود

والترمذي والنسائي . وروى النسائي أن النبي ﷺ قال : « سجدها داود توبة ، وسجدها شكراً » وقوله تعالى ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله بها ، وحسن مرجع ، وهو الدرجات العالية في الجنة ، لتوبته وعدله التام في ملكه ، كما جاء في الصحيح « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا » وروى الإمام أحمد رحمه الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة ، وأقربهم منه مجلساً إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة ، وأشدهم عذاباً إمام جائر » .

(٢٦) ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله ، وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد ، والعذاب الشديد . قال الوليد بن عبدالملك لأبي زرعة : أيحاسب الخليفة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل في أمان الله ، قال : يا أمير المؤمنين ، أنت أكرم على الله أم داود عليه الصلاة والسلام ؟ إن الله جمع له النبوة والخلافة ، ثم توعده في كتابه فقال : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . . . ﴾ وقوله ﴿ بما نسوا يوم الحساب ﴾ أي بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب .

(٢٧) ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه ، ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيع ، ويعذب الكافر ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا ﴾ أي الذين لا يرون بعثاً ولا معاداً ، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿ فويل للذين كفروا من النار ﴾ أي ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم .

(٢٨) ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾

ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمنين والكافرين فقال ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ أي لا نفعل ذلك ، ولا يستوون عند الله ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ، ويعاقب فيها هذا الفاجر . وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء ، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك ، وترى المطيع المظلوم يموت بكمده ، فلا بد من حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا ، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة . ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة ، والمآخذ العقلية الصريحة قال تعالى :

(٢٩) ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾

أي ذوو العقول ، وهي الألباب ، جمع لب وهو العقل . قال الحسن البصري : والله ما تدبره بحفظ حروفه ، وإضاعة حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : قرأت القرآن كله ، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل . رواه ابن أبي حاتم .

(٣٠) ﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان ، أي نبياً كما قال عز وجل ﴿ وورث سليمان داود ﴾ أي في النبوة ، وإلا فقد كان له بنون غيره ، فإنه كان عنده مائة امرأة حرائر . وقوله تعالى ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والانابة إلى الله عز وجل .

(٣١) ﴿ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴾

﴿ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ﴾ أي إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات ، وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة . والجياد : السراع .

(٣٢) ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾

ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر . والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً ، بل نسياناً ، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن

صلاة العصر حتى صلاها بعد المغرب ، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه . ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال ، والخيل تراد للقتال .

(٣٣) ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾

﴿ ردوها عليّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ ثم أمر بها فعقرت . قال السدي : ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف . وعن ابن عباس جعل يمسح أعراف الخيل ، وعراقيبها حبالها . وهذا القول اختاره ابن جرير ، قال : لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة ، ويهلك مالاً من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ، ولا ذنب لها . وهذا الذي رجح ابن جرير فيه نظر ، لأنه يكون في شرعهم جواز مثل هذا ، ولاسيما إذا كان غضباً لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ، ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوضه الله عز وجل ما هو خير منها ، وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوها شهر ورواحها شهر ، فهذا أسرع وخير من الخيل .

(٣٤) ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾

﴿ ولقد فتنا سليمان ﴾ أي اختبرناه بأن سلبناه الملك ﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ يعني شيطاناً جلس على كرسيه أربعين يوماً ﴿ ثم أناب ﴾ أي رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته .

(٣٥) ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾

﴿ قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴾ أي لا يصلح أن يسلبنيه بعدي كما كان من قضية الجسد الذي ألقي على كرسيه ، لا أنه يحجر على من بعده من الناس ، والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله . وهذا هو ظاهر من السياق من الآية ، روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن عفريتاً من الجن تغلب عليّ البارحة ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله تبارك وتعالى منه ، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ وكذا رواه مسلم والنسائي .

(٣٦) ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾

﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ حيث أراد من البلاد .

(٣٧) ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾

﴿ والشياطين كل بناء وغواص ﴾ أي منهم ما هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللآلىء والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها .

(٣٨) ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾

﴿ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ أي موثوقون في الأغلال والأكيال ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء في صنيعه واعتدى .

(٣٩) ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

﴿ هذا عطاؤ نا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملك التام ، والسلطان الكامل كما سألتنا فأعط من شئت ، واحرم من شئت ، لا حساب عليك ، أي مهما فعلت فهو جائز لك ، احكم بما شئت فهو صواب .

(٤٠) ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾

﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ أي في الدار الآخرة .

(٤١) ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾

﴿ بنصب وعذاب ﴾ قيل : بنصب في بدني ، وعذاب في مالي وولدي ، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين .

(٤٢) ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾

وأمره أن يقوم من مقامه ، وأن يركض الأرض برجله ففعل ، فأنبع الله تعالى عيناً وأمره أن يغتسل منها ، فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى ، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر فأنبع له عيناً أخرى ، وأمره أن يشرب منها فأذهبت جميع ما كان في بطنه من السوء ، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً ، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ وقد كان عليه السلام أصيب في جسده حتى لم يبق فيه مغرز إبرة سليماً سوى قلبه ، ولم يبق له شيء من الدنيا يستعين به على مرضه ، غير أن زوجته حفظت وده لايمانها بالله ورسوله ، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدم نحواً من ثماني عشرة

سنة ، وكان يخرج إلى حاجته ، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فاستبطأته فالتفتت تنظر فأقبل عليها ـ قد أذهب الله ما به من البلاء ، وهو على أحسن ما كان ـ فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك ، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ، فوالله القدير على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً ، قال : فإني أنا هو . روى الامام أحمد قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو في ثوبه ، فناداه ربه عز وجل ، يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال عليه الصلاة والسلام بلى يا رب ، ولكن لا غنى لي عن بركتك » انفرد باخراجه البخاري . ولهذا قال تعالى :

﴿٤٣﴾ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم ﴾ قال الحسن وقتادة : أحياهم الله تعالى بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم . وقوله عز وجل ﴿ رحمة منا ﴾ أي به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته ﴿ وذكرى لأولي الألباب ﴾ أي لذوي العقول ، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة .

﴿٤٤﴾ ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

﴿ وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ﴾ وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته ، ووجد عليها في أمر فعلته ، قيل : باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه فلامها على ذلك وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة ، وقيل : لغير ذلك من الأسباب ، فلما شفاه الله عز وجل وعافاه ما كان جزاؤ ها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والاحسان أن تقابل بالضرب فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضغثاً ، وهو المشراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة ، وقد برت يمينه وخرج من حنثه ، ووفى بنذره ، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب اليه . ولهذا قال تعالى ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ أثنى الله عليه ومدحه بأنه رجاع منيب .

﴿٤٥﴾ ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾

يخبر تعالى عن فضائل عباده المرسلين ، وأنبيائه العابدين ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ﴾ يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع ، والقوة في العبادة ، والبصيرة النافذة ﴿ أولي الأيدي ﴾ أولي القوة ﴿ والأبصار ﴾ الفقه في الدين .

(٤٦) ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾

﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ أي جعلناهم يعملون للآخرة ، نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها ، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها .

(٤٧) ﴿ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾

﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ أي لمن المختارين المجتبين الأخيار ، فهم أخيار مختارون .

(٤٨) ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ (٤٨) هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ (٤٩)

﴿ واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار هذا ذكر ﴾ أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر ، أو هو القرآن العظيم . يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة لحسن مآب ، وهو المرجع والمنقلب . ثم فسره بقوله تعالى .

(٥٠) ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾

﴿ جنات عدن ﴾ أي جنات إقامة ﴿ مفتحة لهم الأبواب ﴾ أي مفتحة لهم أبوابها ، أي إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها .

(٥١) ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴾

﴿ متكئين فيها ﴾ قيل : متربعين على سرر تحت الحجال ﴿ يدعون فيها بفاكهة كثيرة ﴾ أي مهما طلبوا وجدوا وأحضروا كما أرادوا ﴿ وشراب ﴾ أي من أي أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدم.

(٥٢) ﴿ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴾

﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ أي عن غير أزواجهن ، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿ أتراب ﴾ أي متساويات في السن والعمر .

(٥٣) ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾

﴿ هذا ما توعدون ليوم الحساب ﴾ أي هذا الذي ذكرناه من صفة الجنة هي التي وعدها لعباده المتقين التي يصيرون اليها بعد بعثهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار .

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ (٥٤)

ثم أخبر تعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا زوال ولا انقضاء ولا انتهاء فقال تعالى ﴿ إن هذا لرزقنا ما له من نفاد ﴾ كقوله تعالى ﴿ ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق ﴾ وكقوله ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ وكقوله ﴿ لهم أجر غيرَ ممنون ﴾ أي غير مقطوع وكقوله ﴿ اكلها دائم وظلها ﴾ .

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ (٥٨) هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ (٥٩) قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ (٦١) وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ (٦٤)

لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم فقال عز وجل : ﴿ هذا وإن للطاغين ﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل ، المخالفون لرسل الله ﷺ ﴿ لشر مآب ﴾ أي لسوء منقلب ومرجع . ثم فسره بقوله جل وعلا ﴿ جهنم يصلونها ﴾ أي يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿ فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾ أما الحميم فهو الحائر الذي قد انتهى حره ، وأما الغساق فهو ضده ، وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم ، ولهذا قال عز وجل ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ أي وأشياء من هذا القبيل : الشيء وضده يعاقبون بها ، أو ألوان من العذاب كالزمهرير والسموم وشرب الحميم وأكل الزقوم والصعود والهوى إلى غير ذلك من الأشياء المتضادة ﴿هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض ﴿ مقتحم ﴾ أي داخل معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ﴾ أي لأنهم من أهل جهنم فيقول لهم الداخلون : ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا﴾ أي أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿فبئس القرار﴾ أي فبئس المنزل والمستقر والمصير . ﴿ قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار ﴾ كما قال تعالى ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً في النار . قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ أي لكل منكم عذابه بحسبه . ﴿ وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار . أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ هذا إخبار عن

الكفار في النار أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على ضلالة ، وهم المؤمنون في زعمهم ﴿ أتخذناهم سخرياً ﴾ أي في دار الدنيا ﴿ أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ يسلُّون أنفسهم بالمحال ، يقولون : أو لعلهم معنا في جهنم ، ولكن لم يقع بصرنا عليهم ، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لحقٌ لا مرية فيه ولا شك .

﴿٦٥﴾ ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله ﴿ إنما أنا منذر ﴾ لست كما تزعمون ، ﴿ وما من إلّه إلا الله الواحد القهار ﴾ أي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه .

﴿٦٦﴾ ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾

﴿ رب السموات والأرض ﴾ أي هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه ﴿ العزيز الغفار ﴾ أي غفار مع عظمته وعزته .

﴿٦٧﴾ ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ ﴿٦٨﴾

﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ أي خبر عظيم ، وشأن بليغ ، وهو إرسال الله تعالى إيايَ إليكم أو هو القرآن . ﴿ أنتم عنه معرضون ﴾ أي غافلون .

﴿٦٩﴾ ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿٧٠﴾

﴿ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون﴾ أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى ؟ يعني في شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه في تفضيله عليه . روى الامام أحمد عن معاذ رضي الله عنه قال : احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرن الشمس ، فخرج ﷺ فثوب بالصلاة فصلى وتجوز في صلاته ، فلما سلم قال ﷺ : « كما أنتم » ثم أقبل الينا فقال : « إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي حتى استيقظت ، فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة ، فقال يا محمد : أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري - أعادها ثلاثاً - فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري ، فتجلى لي كل شيء وعرفت ، فقال : يا محمد ، فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في

الكفارات ، قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجماعات ، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات ، قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام ، قال : سل ، قلت : اللهم ، إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون ، وأسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب عمل يقربني إلى حبك - وقال رسول الله ﷺ : إنها حق ، فادرسوها وتعلموها » هذا حديث المنام المشهور ، ومن جعله يقظة فقد غلط ، وهو في السنن من طرق . وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور في القرآن ، فإن هذا قد فسر ، وأما الاختصام الذي في القرآن فقد فسر بعد هذا ، وهو قوله تعالى : ﴿ إذ قال ربك ... ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ ﴿٨١﴾

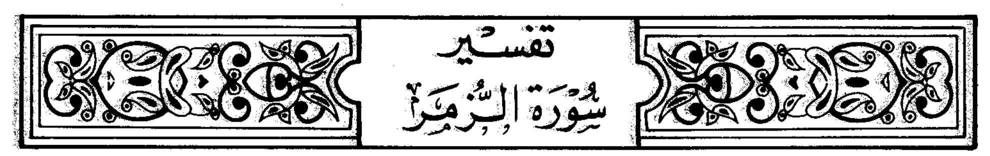
أعلم الله الملائكة قبل خلق آدم بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إعظاماً وإكراماً واحتراماً وامتثالاً لأمر الله عز وجل ، فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنساً ، كان من الجن فخانه طبعه وجبلته احوج ما كان إليه ، فاستنكف عن السجود لآدم ، وخاصم ربه عز وجل فيه ، وادعى أنه خير من آدم ، فإنه مخلوق من نار ، وآدم خلق من طين ، والنار خير من الطين في زعمه ، وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله تعالى وكفر بذلك فأبعده الله عز وجل وأرغم أنفه ، وطرده عن باب رحمته ، ومحل أنسه ، وحضرة قدسه ، وسماه إبليس إعلاماً له بأنه قد أبلس من الرحمة ، وأنزل من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض فسأل الله النظرة إلى يوم البعث فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه ، فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى وقال :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٥)

﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى ، وهي قوله تعالى ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴾ وقوله تبارك وتعالى ﴿ قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ أي أنا الحق ، والحق أقول .

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (٨٨)

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين : ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجراً تعطونيه من عرض الحياة الدنيا ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ أي وما أريد على ما أرسلني الله تعالى به ، ولا أبتغي زيادة عليه ، بل ما أمرت به أديته ، لا أزيد عليه ولا أنقص منه ، وإنما أبتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة ، وعن ابن مسعود قال : يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم ، فليقل : الله اعلم ، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم ، فإنه عز وجل قال لنبيكم ﷺ ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ يعني القرآن ، فإنه ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن . ﴿ للعالمين ﴾ الإنس والجن . وقوله ﴿ ولتعلمن نبأه ﴾ أي خبره وصدقه ﴿ بعد حين ﴾ أي عن قريب ، وقيل : يوم القيامة .



تفسير سُورَةِ الزُّمَرِ

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم ، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (١)

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب ، وهو القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى ، فهو الحق

الذي لا مرية فيه ، ولا شك ، ﴿ العزيز ﴾ أي المنيع الجناب ﴿ الحكيم ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

(٢) ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أي فاعبد الله وحده لا شريك له ، وادع الخلق إلى ذلك ، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده ، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد ، ولهذا قال :

(٣) ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾

﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له ، أو الدين الخالص : شهادة أن لا إله إلا الله . ثم أخبر عز وجل عن عبادة الأصنام من المشركين أنهم يقولون ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفىٰ ﴾ أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم ، وما ينوب بهم من أمور الدنيا ، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به .

(٤) ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ أي لكان الأمر على خلاف ما يزعمون ، وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه ، بل هو محال ، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه كما قال عز وجل ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾ ﴿ قل إن كان للرحمٰن ولد فأنا أول العابدين ﴾ كل هذا من باب الشرط ، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم . ﴿ سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ أي تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد ، فإنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي كل شيء عبد لديه ، فقير إليه ، وهو الغني عما سواه الذي قد قهر الأشياء فدانت له ، وذلت وخضعت . تبارك وتعالى عما يقول الظالمون الجاحدون علواً كبيراً .

(٥) ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ

ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴾

يختبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض وما بين ذلك من الأشياء ، وبأنه مالك الملك ، المتصرف فيه ، يقلب ليله ونهاره ﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ أي سخرهما يجريان متعاقبين لا يفتران كل منهما يطلب الآخر حثيثاً ، كقوله تبارك وتعالى ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ وقوله عز وجل ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ أي إلى مدة معلومة عند الله تعالى ، ثم ينقضي يوم القيامة ﴿ ألا هو العزيز الغفار ﴾ أي مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ، ثم تاب وأناب إليه .

(٦) ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾

﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ أي خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة ، وهو آدم عليه السلام ﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾ وهي حواء عليها السلام ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ أي وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج ، وهي المذكورة في سورة الأنعام وثمانية أزواج من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين . وقوله عز وجل ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم ﴾ أي قدركم في بطون أمهاتكم ﴿ خلقاً من بعد خلق ﴾ يكون أحدكم أولاً نطفة ، ثم يكون علقة ، ثم يكون مضغة ، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصباً وعروقاً وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ يعني في ظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد وظلمة البطن . وقوله جل جلاله ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ أي هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿ فأنى تصرفون ﴾ أي فكيف تعبدون معه غيره ؟ أين يذهب بعقولكم ؟

(٧) ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن نفسه تبارك وتعالى أنه الغني عما سواه من المخلوقات كما قال موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ وفي صحيح مسلم « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » وقوله تعالى ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ أي لا يحبه ولا يأمر به ﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ أي يحبه لكم ويزدكم من فضله ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لا تحمل نفس عن نفس شيئاً ، بل كل مطالب بأمر نفسه ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي فلا تخفى عليه خافية .

(٨) ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾

﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ﴾ أي عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له ﴿ ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل ﴾ أي في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع ﴿ وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ﴾ أي في حال العافية يشرك بالله ، ويجعل له أنداداً ﴿ قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ﴾ أي قل لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه ﴿ تمتع بكفرك قليلاً ﴾ وهو تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، كقوله تعالى ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ .

(٩) ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

يقول عز وجل : أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً ؟ لا يستوون عند الله ، كما قال تعالى ﴿ ليسوا سواء ﴾ ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ﴾ أي في حال سجوده وفي حال قيامه ، والقنوت هو الخشوع في الصلاة والطاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ ﴿ آناء الليل ﴾ جوف الليل . ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ أي في حال عبادته خائف راج ، ولا بد في العبادة من هذا وهذا ، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب ، فإذا كان الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه . روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت ، فقال له : « كيف

تجدك ؟ » فقال : أرجو وأخاف ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان في قلبِ عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذي يرجو وأمنه الذي يخافه » ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه . ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ أي هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ أي إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب ، وهو العقل .

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١٠)

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿ قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم . ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان . وعن عطاء في قوله تبارك وتعالى ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ قال : إذا دعيتم إلى معصية فاهربوا ثم قرأ ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ وقوله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ يعني في الجنة .

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ (١١)

﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له .

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١٢)

﴿ وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ قال السدي : يعني من أمته ﷺ .

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٣)

يقول تعالى : قل يا محمد ، وأنت رسول الله ﴿ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ وهو يوم القيامة ، وهذا شرط ، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى .

﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى (١٤) فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (١٥)

﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾ وهذا أيضاً تهديد وتبر منهم ﴿ قل إن الخاسرين ﴾ أي إنما الخاسرون كل الخسران ﴿ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ أي تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً ، وسواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا إلى النار ، أو أن الجميع أسكنوا النار ، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور . ﴿ ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ أي هذا هو الخسران المبين الظاهر الواضح .

(١٦) ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾

ثم وصف حالهم في النار فقال ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النارومن تحتهم ظلل ﴾ كما قال عز وجل ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين ﴾ . وقال تعالى ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ وقوله جلاله ﴿ ذلك يخوف الله به عباده ﴾ أي إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده لينزجروا عن المحارم والمآثم . وقوله تعالى ﴿ يا عباد فاتقون ﴾ أي اخشوا بأسي وسطوتي وعذابي ونقمتي .

(١٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾

﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ﴾ قيل : نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبي ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي ، والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأناب إلى عبادة الرحمٰن ، فهؤلاء هم الذين ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ . ثم قال تعالى ﴿ فبشر عباد ﴾ .

(١٨) ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ أي يفهمون ويعملون بما فيه كقوله تعالى ﴿ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ ﴿ أولئك الذين هداهم الله ﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة ﴿ وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ أي ذوو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة .

(١٩) ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾

يقول تعالى : أفمن كتب الله أنه شقي تقدر أن تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك ؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله ، لأنه من يضلل الله فلا هادي له ، ومن يهده فلا مضل له . ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار ﴾ .

(٢٠) ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾

ثم أخبر عز وجل عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة ، وهي القصور الشاهقة ﴿ من فوقها غرف مبنية ﴾ طباق فوق طباق ، مبنيات محكمات ، مزخرفات عاليات . روى الامام أحمد رحمه الله عن رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لغرفاً يرى بطونها من ظهورها ، وظهورها من بطونها » فقال أعرابي : لمن هي يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وصلى بالليل والناس نيام » ورواه الترمذي وروى الامام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل الغرف كما تراءون الكوكب الدري الغارب في الأفق الطالع في تفاضل أهل الدرجات ، فقالوا : يا رسول الله : أولئك النبيون ؟ فقال ﷺ : « بلى ، والذي نفسي بيده ، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل » ورواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

(٢١) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢٢)

يخبر تعالى عن أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال عز وجل ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ فإذا أنزل الماء من السماء كمن في الأرض ، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء ، وينبعه عيوناً ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة اليه ، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ (ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ﴾ أي ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه ، أي أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه ﴿ ثم يهيج ﴾ أي بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفراً قد خالطه اليبس ﴿ ثم يجعله حطاماً ﴾ أي ثم يعود يابساً يتحطم ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾ أي الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء ثم تعود عجوزاً شوهاء ، والشاب يعود شيخاً هرماً كبيراً ضعيفاً وبعد ذلك يموت ، فالسعيد من كان حاله بعد . إلى خير . وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء ، وينبت به زروعاً وثماراً ، ثم يكون بعد ذلك حطاماً كما قال تعالى ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه

الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ أي فلا تلين عند ذكره ، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ﴿ أولئك في ضلال مبين ﴾ .

﴿٢٣﴾ ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾

هذا مدح من الله عز وجل لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم قال الله تعالى هو ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ . الآية تشبه الآية ، والحرف يشبه الحرف ، أو ﴿ مثاني ﴾ هو ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى ، أو تكون في السورة آية ، وفي السورة الأخرى آية تشبهها ، أو القرآن يشبه بعضه بعضاً ويرد بعضه على بعض ، أو إن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهذان من المتشابه ، وتارة تكون بذكر الشيء وضده ، كذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ، ثم صفة النار ، وما اشبه هذا ، فهذا من المثاني كقوله ﴿ إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم ﴾ ، وأما اذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً فهو المتشابه . وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله تعالى ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ﴾ ذاك معنى آخر . وقوله تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . . ﴾ أي هذه هي صفات الأبرار ، عند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد ، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ لما يرجون ويأملون من رحمته ولطفه ، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار ﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ﴾ أي هذه صفة من هداه الله ، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ .

﴿٢٤﴾ ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ﴾ ويقرّع ، فيقال له ولأمثاله من الظالمين ﴿ ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ كمن يأتي آمناً يوم القيامة كما قال تعالى ﴿ أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم ﴾ وقوله ﴿ أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ .

﴿٢٥﴾ ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ يعني القرون الماضية

المكذبة للرسل أهلكهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق .

(٢٦) ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ﴾ أي بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفي المؤمنين منهم ، فليحذر المخاطبون من ذلك ، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل ، وخاتم الأنبياء ﷺ . والذي أعده الله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا ، ولهذا قال جل جلاله ﴿ ولعذاب الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون ﴾ .

(٢٧) ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي بينا فيه بضرب الأمثال ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تبارك وتعالى ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ﴾ وقال ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون ﴾ .

(٢٨) ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

﴿ قرآناً عربياً غير ذي عوج ﴾ أي هو قرآن بلسان عربي مبين ، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس ، بل هو بيان ووضوح وبرهان ، وإنما جعله الله كذلك ، وأنزله بذلك ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي يحذرون ما فيه من الوعيد ، ويعملون بما فيه من الوعد .

(٢٩) ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ﴾ أي يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم ﴿ ورجلاً سلماً ﴾ أي مسالماً ﴿ لرجل ﴾ أي خالصاً لا يملكه أحد غيره ﴿ هل يستويان مثلاً ؟ ﴾ أي لا يستوي هذا وهذا ، كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله ، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد الا الله وحده لا شريك له فأين هذا من هذا ؟ ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً قال ﴿ الحمد لله ﴾ أي على إقامة الحجة عليهم ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي فلهذا يشركون بالله .

(٣٠) ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (٣١)

﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه

عند موت الرسول ﷺ حتى تحقق الناس موته مع قوله عز وجل ﴿ وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾ ومعنى هذه الآية أنكم ستنقلون من هذه الدار لا محالة ، وستجتمعون عند الله في الدار الآخرة ، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل فيفصل بينكم ، ويفتح بالحق ، وهو الفتاح العليم ، فينجي المخلصين الموحدين ، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين . ثم إن هذه الآية ، وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين ، وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا ، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة. عن ابن الزبير قال: لما نزلت ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزبير: يا رسول الله: أتكرر علينا الخصومة؟ ﷺ: «نعم» قال رضي الله عنه: إن الأمر إذاً لشديد . رواه ابن أبي حاتم والامام احمد ، وعنده زيادة : ولما نزلت ﴿ ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم ﴾ قال الزبير : أي رسول الله ، أي نعيم تسأل عنه ؟ وإنما نعيمنا الأسودان : الثمر والماء ، قال ﷺ : « أما إن ذلك سيكون » .

(٣٢) ﴿ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾

يقول عز وجل مخاطباً للمشركين الذين افتروا على الله ، وجعلوا معه آلهة أخرى ، وادعوا أن الملائكة بنات الله ، وجعلوا لله ولداً ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، ومع هذا كذبوا بالحق اذ جاءهم على ألسنة الرسل ، ولهذا قال تعالى ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه ﴾ أي لا أحد أظلم من هذا ، لأنه جمع بين طرق الباطل ، كذب على الله ، وكذب رسول الله وقال الباطل ، ورد الحق ، ولهذا قال تعالى ﴿ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ وهم الجاحدون المكذبون .

(٣٣) ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾

﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾ الذي جاء بالصدق هو رسول الله ، ﴿ وصدق به ﴾ هم المؤمنون المسلمون ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ اتقوا الشرك .

(٣٤) ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ لهم ما يشاؤ ون عند ربهم ﴾ يعني في الجنة ، مهما طلبوا وجدوا ﴿ ذلك جزاء المحسنين ﴾ .

(٣٥) ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ كما قال جل جلاله ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴾ .

(٣٦) ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾

﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ يعني أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه . روى ابن أبي حاتم عن رسول الله ﷺ « قد أفلح من هدى إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافاً ، وقنع به » ورواه الترمذي والنسائي ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ يخوف المشركون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دون الله جهلاً منهم وضلالاً . قال عز وجل ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ .

(٣٧) ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾

﴿ ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام ﴾ ؟ أي منيع الجناب ، لا يضام من استند إلى جنابه ، ولجأ إلى بابه ، فإنه العزيز الذي لا أعز منه ، ولا أشد انتقاماً منه ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ .

(٣٨) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ يعني المشركين ، كانوا يعترفون بأن الله عز وجل هو الخالق للأشياء كلها ، ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ﴾ أي لا تستطيع شيئاً من الأمر . روى ابن أبي حاتم مرفوعاً « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ،

جفت الصحف ، ورفعت الأقلام ، واعمل لله بالشكر في اليقين ، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » ﴿ قل حسبي الله ﴾ أي الله كافيّ ﴿ عليه يتوكل المتوكلون ﴾ روى ابن أبي حاتم عن النبي ﷺ : « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله عز وجل أوثق منه بما في يديه ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عز وجل » .

(٣٩) ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ أي على طريقتكم ، وهذا تهديد ووعيد ﴿ إني عامل ﴾ أي على طريقتي ومنهجي ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي ستعلمون غب ذلك ووباله .

(٤٠) ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي في الدنيا ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ أي دائم مستمر لا محيد له عنه ، وذلك يوم القيامة . أعاذنا الله منها .

(٤١) ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ للناس بالحق ﴾ أي لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به ﴿ فمن اهتدى فلنفسه ﴾ أي فإنما يعود نفع ذلك الى نفسه ﴿ ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي بموكل أن تهتدوا .

(٤٢) ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء ، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يفيضونها من الأبدان والوفاة الصغرى عند المنام ، كما قال تبارك وتعالى ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى اجل مسمى ثم اليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر

فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ فذكر الوفاتين : الصغرى ثم الكبرى ، وفي هذه الآية ذكر الكبرى والصغرى ، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى ﴾ فيه دلالة على انها تجتمع في الملأ الأعلى ، كما ورد وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ « إذا أوى أحدكم الى فراشه فلينفض بداخله إزاره ، فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم ليقل : باسمك ربي وضعت جنبي ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » ﴿ فيمسك التي قضى عليها الموت ﴾ التي قد ماتت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى . ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله ، وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به ، ولا سمع تسمع به ، ولا بصر تبصر به ، بل هي حجارات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير ، ثم قال : قل : أي يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى : أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له ،فمرجعها كلها اليه ﴿ من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه ﴾ ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ أي هو المتصرف في جميع ذلك ﴿ ثم اليه ترجعون ﴾ أي يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ، ويجزي كلاً بعمله .

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

﴿ وإذا ذكر الله وحده ﴾ أي إذا قيل : لا آله الا الله وحده ﴿ اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي انقبضت ونفرت ، أو كفرت واستكبرت كما قال تعالى ﴿ إنهم كانوا اذا قيل لهم : لا إلّه إلا الله يستكبرون ﴾ أي عن المتابعة والانقياد لها ، فقلوبهم لا تقبل الخير ، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر ﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ أي يفرحون ويسرون .

(٤٦) ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى بعد ما ذكر المشركين ما ذكر من المذمة لهم في حبهم الشرك ونفرتهم عن التوحيد ﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ﴾ أي أدع الله وحده لا شريك له الذي خلق السموات والأرض وفطرها أي جعلها على غير مثال سبق ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي السر العلانية ﴿ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي في دنياهم، أي ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم.

(٤٧) ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾

﴿ ولو أن للذين ظلموا ﴾ وهم المشركون ﴿ وما في الأرض جميعاً ومثله معه ﴾ أي ولو أن ما في الأرض وضعفه معه ﴿ لافتدوا به من سوء العذاب ﴾ أي الذي أوجبة الله تعالى لهم يوم القيامة ، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ أي وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم .

(٤٨) ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

﴿ وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴾ أي وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا .

(٤٩) ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع الى الله عز وجل ، وينيب اليه ، ويدعوه ، وإذا خوله نعمة بغى وطغى وقال ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ أي لما يعلم الله تعالى من استحقاقي له ، ولولا أني عند الله خصيص لما خولني ، قال قتادة ، ﴿ على علم عندي ﴾ على خبر عندي . قال الله عز وجل ﴿ بل هي فتنة ﴾ أي ليس الأمر كما زعم ، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي ؟ مع

علمنا المتقدم بذلك فهي فتنة أي اختبار ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ فلهذا يقولون ما يقولون ، ويدعون ما يدعون .

(٥٠) ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

﴿قد قالها الذين من قبلهم﴾ أي قد قال هذه المقالة، وزعم هذا الزعم، وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم. ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أي فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعهم وما كانوا يكسبون .

(٥١) ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

﴿ فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ أي من المخاطبين ﴿ سيصيبهم سيئات ما كسبوا ﴾ أي كما أصاب أولئك ﴿ وما هم بمعجزين ﴾ .

(٥٢) ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي يوسعه على قوم ، ويضيقه على آخرين ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ أي لعبراً وحججاً .

(٥٣) ﴿ * قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم الى التوبة والانابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ، ورجع عنها ، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر ، ولا يصح حمل هذا على غير توبة لأن الإله لا يغفر لمن لم يتب منه ،روى البخاري أن ناساً من اهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذي تقول وتدعوا اليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا وكفارة فنزل ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخـر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ﴾ ونزل ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . . . ﴾ ورواه مسلم وأبو داوود النسائي .

(٥٤) ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

﴿ وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له . . . ﴾ أي ارجعوا الى الله واستسلموا له ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة .

(٥٥) ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾

﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ أي من حيث لا تعلمون ولا تشعرون .

(٥٦) ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾

﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ﴾ أي يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة ، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل . وقوله تبارك وتعالى ﴿ وإن كنت لمن الساخرين ﴾ أي انما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزىء ، غير موقن مصدق .

(٥٧) ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٨)

﴿ أو أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴾ . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ﴾ أي تود لو أعيدت الى الدنيا لتحسن العمل .

(٥٩) ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

أي قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا ، وقامت حججي عليك فكذبت واستكبرت عن اتباعها ، وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها .

(٦٠) ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه ، وتبيض وجوه ، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف ، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، قال تعالى ههنا ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله ﴾ أي في دعواهم شريكاً وولداً ﴿ وجوههم مسودة ﴾ أي بكذبهم وافترائهم . وقوله تعالى ﴿ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ أي أليست جهنم كافية سجناً وموئلاً لهم ، فيها الخزي والحق والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق .

(٦١) ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

﴿ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم ﴾ أي بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿ لا يمسهم السوء ﴾ أي يوم القيامة . ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ أي ولا يحزنهم الفزع الأكبر ، بل هم امنو له من كل فزع ، مزحزحون عن كل شر ، نائلون كل خير .

(٦٢) ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها ، وربها ومليكها ، والمتصرف فيها ، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته .

(٦٣) ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ المقاليد هي المفاتيح . أو خزائن السموات والأرض ، والمعنى أن أزمة الأمور بيده وتبارك وتعالى ، له الملك والحمد ، وهو على كل شيء قدير ﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ أي بحججه وبراهينه ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ .

(٦٤) ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (٦٥)

﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون . . . ﴾ عن ابن عباس أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ الى عبادة آلهتهم ، ويعبدوا معه آلهة فنزلت . وهذه كقوله تعالى ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ .

(٦٦) ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

﴿ بل الله فاعبدوكن من الشاكرين ﴾ أي أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدقك .

(٦٧) ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ أي ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذي لا أعظم منه ، القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قدره وقدرته . روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال : جاء حبر من الأحبار الى

رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد ، إن الله عز وجل يجعل السموات على اصبع ، والأرض على اصبع ، والشجر على اصبع ، والماء والثرى على اصبع ، وسائر الخلق على اصبع ، فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه . . . ﴾ ورواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي .

(٦٨) ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الآيات العظيمة ، والزلازل الهائلة ﴿ ونفخ في الصور . . . ﴾ هذه النفخة هي الثانية ، وهي نفخة الصعق ، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض الا من شاء الله ، كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور ، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً ، وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء ويقول ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ ثلاث مرات ، ثم يجيب نفسه فيقول ﴿ لله الواحد القهار ﴾ أنا الذي كنت وحدي ، وقد قهرت كل شيء ، وحكمت بالفناء على كل شيء ، ثم يحي أول من يحي إسرافيل ، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى ، وهي النفخة الثالثة : نفخة البعث ، قال الله عز وجل ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ أي أحياء بعد ما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياء ينظرون الى أهوال يوم القيامة ، كما قال تعالى ﴿ فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾ .

(٦٩) ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ أي أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء ﴿ ووضع الكتاب ﴾ كتاب الأعمال ﴿ وجيء بالنبيين ﴾ يشهدون على الأمم بأنهم يلقوهم رسالات اليهم ﴿ والشهداء ﴾ أي الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾ أي بالعدل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ .

(٧٠) ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

﴿ ووفيت كل نفس ما عملت ﴾ أي من خير وشر ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾ .

(٧١) ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن الأشقياء الكفار كيف يساقون للنار،وإنما يساقون سوقاً عنيفاً بزجر وتهديد ووعيد كما قال عز وجل ﴿ يوم يدعون الى نار جهنم دعا﴾ أي يدفعون اليها دفعاً ، وهذا وهم عطاش ظماء ﴿ حتى إذا جاؤ وها فتحت أبوابها ﴾ أي بمجرد وصولهم اليها فتحت لهم أبوابها سريعاً لتعجل لهم العقوبة ،ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ ؟ أي من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ﴿ يتلون عليكم آيات ربكم ﴾ أي يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة دعواكم اليه ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ أي ويحذرونكم من شر هذا اليوم ، فيقول الكفار لهم ﴿ بلى ﴾ أي قد جاؤ ونا وأنذرونا ، وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ أي ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق الى الباطل .

(٧٢) ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

﴿ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ أي كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ولهذا لم يسند هذا القول الى قائل معين ، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما يحكم العدل الخبير عليهم به ولهذا قال جل وعلا ﴿ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها لا خروج لكم منها ، ولا زوال لكم عنها ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ أي فبئس المقيل لكم بسبب تكبركم في الدنيا ، وإبائكم عن اتباع الحق ، فهو الذي صيركم الى ما أنتم فيه فبئس الحال ، وبئس المآل .

(٧٣) ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفداً الى الجنة زمراً ، أي جماعة بعد جماعة : المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، كل زمرة يناسب بعضها بعضاً . ﴿ حتى اذا جاؤوها ﴾ أي وصلوا الى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط ، على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتضى لهم مظالم كانت بينهم في الجنة، حتى اذا هذبوا ونقوا اذن لهم في دخول الجنة ﴿ حتى اذا جاؤوها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ لم يذكر الجواب ههنا ، وتقديره حتى اذا جاؤوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً ، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب والتأنيب ، فتقديره اذا كان هذا سعدوا وطابوا وسرو او فرحوا ، واذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل . ومن زعم أن الواو في قوله ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ واو الثمانية ، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية فقد أبعد النجعة ، وأغرق في النزع ، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة كقوله ﷺ « ان في الجنة ثمانية أبواب ، باب فيها يسمى باب الريان لا يدخله الا الصائمون » رواه البخاري وسلم .

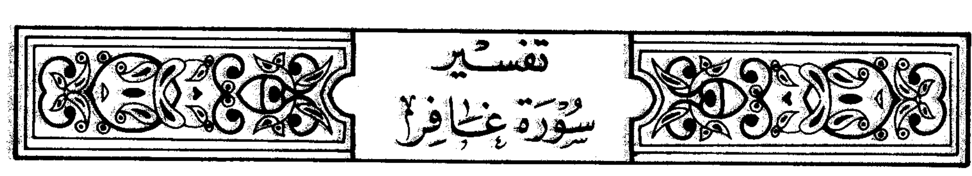
(٧٤) ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾

﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ أي يقول المؤمنون اذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر ، والعطاء العظيم ، والنعيم المقيم ، والملك الكبير ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ أي الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام ﴿وأورثنا الأرض ﴾ أي أرض الجنة ﴿ نتبوأ منها حيث نشاء ﴾ أي أين شئنا حللنافنعم أجر العاملين فنعم الأجر أجرنا على عملنا وفي الصحيحين « أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ الؤلؤ وإذا اترابها المسك ».

(٧٥) ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار ، وأنه نزل كلاً في المحل الذي يليق به ، ويصلح له ، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد يسجون بحمد ربهم ، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائض والجور ، وقد فصل القضية ، وقضى الأمر ، وحكم بالعدل ، ولهذا قال عز وجل ﴿ وقضي بينهم ﴾ أي بين الخلائق ﴿ بالحق ﴾ ثم قال ﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ أي نطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد في حكمة وعد له ، ولهذا لم يسند القول الى القائل ، بل أطلقه ، فدل على أن جميع المخلوقات تمهدت له بالحمد . قال قتادة : افتتح الخلق بالحمد في قوله ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ﴾ واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى ﴿ وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ .

* * *



تفسير سورة غافر

كره بعض السلف أن يقال : الحواميم ، وإنما يقال : « آل حم . قال عبدالله ابن مسعود » : « آل حم » ديباج القرآن . وعن ابن عباس إن لكل شيء لباباً ، ولباب القرآن « آل حم » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ حمٓ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ أي تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن من الله ذي العزة والعلم ، فلا يرام جنابه ، ولا يخفى عليه الذروان تكاثف حجابه .

(٣) ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ أي يغفر ما سلف من الذنب ، ويقبل التوبة في المستقبل

عمن تاب اليه ، وخضع لربه ﴿ شديد العقاب ﴾ أي عن ثمر وطغى وآثر الحياة الدنيا ، وعتا عن أوامر الله تعالى وبغى . ﴿ ذي الطول ﴾ ذي السعة والغنى ، أو ذي الخير الكثير ، أو ذي المن ، والمعنى أن المتفضل على عباده ، المتطول عليهم بما هم فيه من المعنى والانعام التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها ﴿ وان تعدوا انعمة الله لا تحصوها ﴾ ﴿ لا آله إلا هو ﴾ أي لا نظير له في جميع صفاته ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه ﴿ اليه المصير ﴾ أي المرجع والمآب فيجازي كل عامل بعمله ﴿ وهو سريع الحساب ﴾ .

(٤) ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾

يقول تعالى : ما يدفع الحق ، ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿ إلا الذين كفروا ﴾ أي الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه ﴿ فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ أي في أموالها ونعيمها وزهوتها .

(٥) ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه بأن له أسوة بمن سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم قد كذبهم أممهم وخالفوهم ، وما آمن بهم الا القليل فقال ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ﴿ والأحزاب من بعدهم ﴾ أي من كل أمة ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ﴾ أي حرصوا على قتله بكل ممكن ومنهم من قتل رسوله ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ أي ما حلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي . روى الطبراني عن النبي ﷺ « من أعان باطلاً حرض به حقاً فقد برئت منه ذمة الله تعالى وذمة رسول الله ﷺ » وقوله جل جلاله ﴿ فأخذتهم ﴾ أي أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الأثام والذنوب العظام ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ أي فكيف بلغك عذابي لهم ، ونكالي بهم ؟ قد كان شديداً موجباً مؤلماً .

(٦) ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾

﴿ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ أي كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريقة الأولى والأحرى ، لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك .

﴿٧﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة ومن حوله من الملائكة المقربين بأنهم يسجون بحمد ربهم، أي يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح ﴿ ويؤمنون به ﴾ أي خاشعون له ، أذلاء بين يديه ، ﴿ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ أي من أهل الأرض ممن آمن بالغيب ، فقيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب ، ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام كانوا يؤمنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب ، كما ثبت في صحيح مسلم « اذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ، ذلك بمثله » . . وحملة العرش اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية كما قال تعالى ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية ﴾ ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ أي رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم . ﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾ أي فاصفح عن المسيئين اذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه ، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ أي وزحزحهم عن عذاب الجحيم ، وهو العذاب الموجع الأليم .

﴿٨﴾ ﴿ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أي اجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة كما قال تعالى ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ أي ساوينا بين الكل في المنزلة لتقر أعينهم ، وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني ، بل رفعنا ناقص العمل فساويناه بكثير العمل تفضلاً منا ومنة ﴿ إنك أنت العزيز ﴾ الذي لا يمانع ولا يغالب ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ﴿ الحكيم ﴾ في أقوالك وأفعالك من شرعك وقدرك .

﴿٩﴾ ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

﴿ وقهم السيئات ﴾ أي فعلها ، أو وبالها ممن وقعت منه ﴿ ومن تق السيئات يومئذٍ ﴾ أي

يوم القيامة ﴿ فقد رحمته ﴾ أي لطفت به وغيبته من العقوبة ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

(١٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظون ، وذلك عندما باشروا من عذاب الله تعالى ما قبل لأحد به ، فمقتوا عند ذلك أنفسهم ، وأبغضوها غاية البغض بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم النار فأخبرتهم الملائكة عند ذلك اخباراً عالياً ، نادوهم نداء بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة .

(١١) ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾

﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين واحييتنا اثنتين ﴾ كقوله تعالى ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون) ، وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية . ﴿ فهل الى خروج من سبيل ﴾ أي فهل أنت مجيبنا الى أن تعيدنا الى الدار الدنيا ، فإنك قادر على ذلك ، لنعمل غير الذي كنا نعمل ، فإن عدنا الى ما كنا فيه فإنا ظالمون ، فأجيبوا أن لا سبيل الى عودكم ومرجعكم الى الدار الدنيا . ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ، ولا تقتضيه ، بل تمجه وتنفيه ، .

(١٢) ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾

ولهذا قال ﴿ ذلكم بأنه اذا دعي الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا ﴾ أي أنتم هكذا تكونون ، وإن رددتم الى الدار الدنيا كما قال عز وجل ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ وقوله تعالى ﴿ فالحكم لله العلي الكبير ﴾ أي هو الحاكم في خلقه العادل الذي يجور ، فيهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء لا آله الا هو .

(١٣) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾

﴿ هو الذي يريكم آياته ﴾ أي يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿ وينزل لكم من السماء رزقاً ﴾ وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختلاف

ألوانه وطعومه ، وروائحه وأشكاله وألوانه ، وهو ماء واحد ، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء ﴿ وما يتذكر ﴾ أي يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ، ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿ الا من ينيب ﴾ أي من هو بصير منيب الى الله تبارك وتعالى .

(١٤) ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾

﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ أي فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء ، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات « لا إله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة الا بالله ، لا إله الا الله ، ولا نعبد الا اياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن لا إله الا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » . وروى ابن ابي حاتم عن النبي ﷺ قال : « ادعوا الله تبارك وتعالى ، وأنتم موقنون بالاجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه » .

(١٥) ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها . وقوله تعالى ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ كقوله جلت عظمته ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله الا أنا فاتقون ﴾ وقوله ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾ عن ابن عباس : يوم التلاق اسم من أسماء يوم القيامة ، حذر الله منه عباده .

(١٦) ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ أي ظاهرون بادون ، كلهم لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم ، أي الجميع في علمه على السواء ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ في حديث الصور أنه عز وجل إذا قبض أرواح جميع خلقه فلم يبق سواه وحده لا شريك له حينئذ يقول : لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات ، ثم يجيب نفسه قائلاً ﴿ لله الواحد القهار ﴾ أي الذي وحده قد قهر كل شيء وغلبه .

(١٧) ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر ، بل

يجزي بالحسنة عشر أمثالها ، وبالسيئة واحدة ، ولهذا قال ﴿لا ظلم اليوم﴾ كما ثبت في صحيح مسلم « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » وقوله ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة .

(١٨) ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾

يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة ، سميت بذلك لاقترابها ﴿ أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ وقوله ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾ أي وقفت القلوب في الحناجر من الخوف ، فلا تخرج ولا تعود الى أماكنها . ﴿ كاظمين ﴾ ساكنين ، لا يتكلم احد الا باذنه ، او باكين ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك من قريب منهم ينفعهم ، ولا شفيع فيهم ، بل تقطعت بهم الأسباب من كل خير .

(١٩) ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾

﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمر به ، وبهم المرأة الحسناء ، فإذا غفلوا ألحظ اليها ، فإذا فطنوا غض بصره عنها ، فإذا غفلو ألحظ ، فإذا فطنوا غض ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ودَّ لو اطَّلع على فرجها .

(٢٠) ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

﴿ والله يقضي بالحق ﴾ أي يحكم بالعدل ، وهو قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة ، وبالسيئة السيئة . ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أي من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿ لا يقضون بشيء ﴾ أي لا يملكون شيئاً ، ولا يحكمون بشيء ﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ أي سميع لأقوال خلقه ، بصير بهم ، فيهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .

(٢١) ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾

﴿ أو لم يسيروا ﴾ هؤلاء المكذبون برسالتك بالحمد ﴿ في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ﴾ أي من الأمم المكذبة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما حل

بهم من العذاب والنكال مع أنهم أشد من هؤلاء قوة ﴿ وآثاراً في الأرض ﴾ أي أثروا في الأرض من البنايات والمعالم والديارات ما لا يقدر هؤلاء عليه . وقال تعالى ﴿ وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ﴾ أي مع هذه القوة العظيمة ، والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم ، وهي كفرهم برسلهم ﴿ وما كان لهم من الله من واق ﴾ أي وما وقع عنهم عذاب الله أحد ، ولا رده عنهم راد ، ولا وقاهم واق . ثم ذكر علة أخذه إياهم ، وذنوبهم التي ارتكبوها واجترحوها فقال تعالى

(٢٢) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

﴿ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالدلائل الواضحات ، والبراهين القاطعات ﴿ فكفروا ﴾ أي مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ﴿ فأخذهم الله ﴾ أي أهلكهم ودمر عليهم ، وللكافرين أمثالها ﴿ إنه قوي شديد العقاب ﴾ أي ذو قوة عظيمة وبطش شديد ﴿ وهو شديد العقاب ﴾ أي عقابه شديد أليم وجيع . أعاذنا الله تبارك وتعالى منه .

(٢٣) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾

يقول تعالى مسلياً نبيه محمداً ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة ، كما لموسى بن عمران عليه السلام ، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات ، والدلائل الواضحات ، ولهذا قال تعالى ﴿ بآياتنا وسلطان مبين ﴾ والسلطان هو الحجة والبرهان .

(٢٤) ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾

﴿ الى فرعون ﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية ﴿ وهامان ﴾ وهو وزير في مملكته ﴿وقارون ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة ﴿فقالوا ساحر كذاب ﴾ أي كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً مموهاً كذاباً في أن الله أرسله .

(٢٥) ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾

﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا ﴾ أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله عز وجل أرسله اليهم ﴿ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل

ذكور بني إسرائيل ، اما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم ، أو لمجموع الأمرين ، وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية ، ولاهانة هذا الشعب ، ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام ﴿ وما كيد الكافرين الا في ضلال ﴾ أي وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني اسرائيل لئلا ينصروا عليهم الا ذاهل وهالك في ضلال .

(٢٦) ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾

﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه ﴾ وهذا عزم من فرعون لعنه الله تعالى على قتل موسى عليه السلام أي قال لقومه: دعوني حتى أقتل لكم هذا ﴿وليدع ربه﴾ أي لا أبالي منه ، وهذا في غاية الجحد والعناد ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ يعني موسى ، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ، ويغير رسومهم وعاداتهم ، وهذا كما يقال : صار فرعون مذكراً ، يعني واعظاً يشفق على الناس من موسى عليه الصلاة والسلام .

(٢٧) ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾

﴿ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ أي لما بلغه قول فرعون ﴿ ذروني أقتل موسى . . ﴾ قال موسى عليه السلام ، استجرت بالله ، وعذت به من شره وشر امثاله ، ولهذا قال ﴿ إني عذت بربي وربكم ﴾ أيها المخاطبون ﴿ من كل متكبر ﴾ أي عن الحق مجرم ﴿لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ كان اذا خاف قوماً قال : « اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم ، وندرأ بك في نحورهم » .

(٢٨) ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون ، ولو كان اسرائيلياً لأوشك ان يعاجل بالعقوبة ، لأنه منهم وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط ، فلم يظهر

الا هذا اليوم حين قال فرعون ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل « وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » كما ثبت بذلك الحديث ، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون ، وهي قوله ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ ؟ ﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ أي كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول ﴿ ربي الله ﴾ وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق . ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال ﴿ وان يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ يعني إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه ، فإن يك كاذباً فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة ، وان يك صادقاً ، وقد آذيتموه يصيبكم بعض الذي يعدكم ، فإن يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة ، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً ، فينبغي على هذا أن لا تتعرضوا له ، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه ﴿ ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ أي لو كان هذا الذي يزعم ان الله تعالى أرسله اليكم كاذباً كما تزعمون لكان أمره بيناً يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله ، فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب ، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً ، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده الى ما ترون من انتظام أمره وفعله .

(٢٩) ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾

ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم ، وحلول نقمة الله بهم ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ﴾ أي قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة ، والجاه العريض ، فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى ، وتصديق رسوله ﷺ ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ ؟ أي لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ، ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء ﴿ قال فرعون ﴾ لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون ﴿ ما أريكم الا ما أرى ﴾ أي ما أقول لكم وأشير عليكم الا ما أراه لنفسي ، وقد كذب فرعون ، فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة ﴿ وما أهديكم الا سبيل الرشاد ﴾ أي وما أدعوكم الا الى سبيل الحق ، وقد كذب أيضاً في ذلك .

(٣٠) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾

هذا أخبار من الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة فقال ﴿ يا قوم اني أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب ﴾ أي الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود الذين من بعدهم من الأمم المكذبة ، كيف حل بهم بأس الله ، وما رده عنهم راد ، ولا صده عنهم صاد ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ أي إنما أهلكهم الله بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره فأنفذ فيهم قدره .

﴿٣٢﴾ ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾

﴿ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ يعني يوم القيامة ، وسمي بذلك .

﴿٣٣﴾ ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

﴿يوم تولون مدبرين ﴾ أي ذاهبين هاربين ﴿ ما لكم من الله من عاصم ﴾ أي لا مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ أي من أضله الله فلا هادي له غيره .

﴿٣٤﴾ ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾

﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ يعني أهل مصر ، قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى عليه الصلاة والسلام ، وهو يوسف عليه الصلاة والسلام ، كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولاً يدعو الى الله أمته بالقسط ، فما أطاعوه تلك الطاعة الا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي ، ولهذا قال تعالى ﴿ فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ أي يئستم فقلتم طامعين ﴿ لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ ، وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ أي كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لاسرافه في أفعاله وارتياب قلبه .

﴿٣٥﴾ ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ

يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾

﴿ الذين يجادلون في الله بغير سلطان أتاهم ﴾ أي الذين يدفعون الحق بالباطل ، ويحاولون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى ، فإن الله عز وجل يمقت ذلك أشد المقت ، ولهذا قال ﴿ كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ﴾ أي والمؤمنون أيضاً من تكون هذه وصفته ، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه ، فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ، ولا ينكر متكبراً ، ولهذا قال تعالى ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر ﴾ أي على اتباع الحق ﴿ جبار ﴾ .

(٣٦) ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وعتوه وتمرده وافترائه في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحاً ، وهو القصر العالي المنيف الشاهق ، وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي ، كما قال تعالى ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً ﴾ وقوله ﴿ لعلي أبلغ الاسباب ﴾

(٣٧) ﴿ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾

﴿ أسباب السموات ﴾ أبواب السموات ، أو طرق السموات ﴿ فأطلع الى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ﴾ وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى عليه الصلاة والسلام في أن الله أرسله اليه . قال تعالى ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل ﴾ أي بصنعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئاً يتوصل به الى تكذيب موسى عليه الصلاة والسلام ولهذا قال ﴿ وما كيد فرعون الا في تباب ﴾ الا في خسار .

(٣٨) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾

يقول المؤمن لقومه من تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيـا ونسي الجبار الأعلى فقال لهم ﴿ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ أي لا كما كذب فرعون في قوله ﴿ وما أهديكم الا سبيل الرشاد ﴾ ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى ، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام فقال :

(٣٩) ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾

﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ أي قليلة زائلة فانية ، عن قريب تذهب وتضمحل ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ أي الدار التي لا زوال لها ، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها الى غيرها ، بل إما نعيم وإما جحيم . ولهذا قال جلت عظمته :

(٤٠) ﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾

﴿ من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ﴾ أي واحدة مثلها ﴿ ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ أي لا تقدر بجزاء ، بل يثيبه الله عز وجل ثواباً كثيراً لا انقضاء له ولا نفاد .

(٤١) ﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾

يقول لهم المؤمن : ما بالي أدعوكم الى النجاة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وتصديق رسولــه الذي بعثه ﴿ وتدعونني الى النار ﴾

(٤٢) ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾

﴿ تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ﴾ أي على جهل بلاد ليل ﴿ وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار ﴾ أي هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب اليه .

(٤٣) ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾

﴿ لا جرم أن ما تدعونني اليه ﴾ يقول : حقاً ، أو لا كذب ، يقول : إن الذي تدعونني اليه من الأصنام والأنداد ﴿ ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ الوثن ليس له شيء ، فلا ينفع ولا يضر في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ وأن مردنا الى الله ﴾ أي في الدار الآخرة ، فيجازي كلاً بعمله ، ولهذا قال ﴿ وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ أي خالدين فيها بإسرافهم ، وهو شركهم بالله عز وجل .

(٤٤) ﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾

﴿ فستذكرون ما أقول لكم ﴾ أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ، ونهيتكم عنه ،

ونصحتكم ، ووضحت لكم وتندمون حيث لا ينفعكم الندم ﴿ وأفوض أمري الى الله ﴾ أي وأتوكل على الله وأستعينه ، وأقاطعكم وأباعدكم ﴿ ان الله بصير بالعباد ﴾ أي هو بصير بهم . تعالى وتقدس ، فيهدي من يستحق الهداية ، ويضل من يستحق الاضلال ، وله الحجة البالغة ، والحكمة التامة والعذر النافذ .

(٤٥) ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ (٤٥) ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ (٤٦)

﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله مع موسى عليه السلام . وأما في الآخرة فالجنة . ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ وهو الغرق في اليم ، ثم النقلة منه الى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساء الى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار . ولهذا قال ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ أي أشده ألماً ، وأعظمه نكالاً . وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب بالبرزخ في القبور ، وهي قوله تعالى ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ صباحاً ومساء ما بقيت الدنيا ، يقال لهم : يا آل فرعون هذه منازلكم توبيخاً ونقمة وصغاراً لهم . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ « إن أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة . وان كان من أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل اليه يوم القيامة » أخرجاه في الصحيحين .

(٤٧) ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم ، وفرعون وقومه من جملتهم ، فيقول الضعفاء ، وهم الأتباع للذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء ﴿ إنا كنا لكم تبعاً ﴾ أي أطعناكم فيما دعوتمونا اليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿ فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ أي قسطاً تتحملونه عنا .

(٤٨) ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾

﴿ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ﴾ أي لا نتحمل عنكم شيئاً ، كفى بنا ما عندنا وما حملنا

من العذاب والنكال ﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾ أي مقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا .

(٤٩) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾

﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ لماعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب منهم ، ولا يستمع لدعائهم سألوا الخزنة ، وهم كالسجانين لأهل النار أن يدعوا الله تعالى في أن يخفف عن الكافرين ، ولو يوماً واحداً من العذاب ، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم .

(٥٠) ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾

﴿ أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾ أي أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل ؟ ﴿ قالوا بلى قالوا فادعوا ﴾ أي أنتم لأنفسكم ، فنحن لا ندعوا لكم ، ولا نسمع منكم ، ولا نود خلاصكم ، ونحن منكم براء ، ثم نخبركم أنه دعوتم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ، ولا يخفف عنكم ، ولهذا قالوا ﴿ وما دعاء الكافرين الا في ضلال ﴾ .

(٥١) ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ أورد ابن جرير رحمه الله هنا سؤالاً فقال : قد علم ان بعض الأنبياء قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا ، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم ، وإما الى السماء كعيسى فأين النصره في الدنيا ؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين : أحدهما أن يكون الخبر خرج عاماً والمراد به البعض ، قال : وهذا سائغ في اللغة ، والثاني ان يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم ، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم ، أو بعد موتهم كما فعل بقتلة زكريا ويحيى وشعيا ، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم . ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ أي يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل .

(٥٢) ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾

﴿ يوم لا ينفع الظالمين ﴾ وهم المشركون ﴿معذرتهم ﴾ أي لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿ ولهم اللعنة﴾ أي الإبعاد والطرد من الرحمة ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ وهي النار ، وبئس

المنزل والمقيل . أو ولهم سوء العاقبة .

(٥٣) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾

﴿ ولقد آتينا موسى الهدى ﴾ وهو ما بعثه الله عز وجل به من الهدى والنور ﴿ وأورثنابني اسرائيل الكتاب ﴾ أي جعلنا لهم العاقبة وأورثناهم بلاد فرعون ، وأمواله وحواصله وأرضه بما صبروا على طاعة الله تبارك وتعالى ، واتباع رسول موسى ﷺ وفي الكتاب بالذي أورثوه وهو التوراة .

(٥٤) ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

﴿ هدى وذكرى لأولي الألباب ﴾ وهي العقول الصحيحة السليمة .

(٥٥) ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾

﴿ فاصبر ﴾ أي بالحمد ﴿ إن وعد الله حق ﴾ أي وعدناك أنا سنعلي كلمتك ، ونجعل العاقبة لك ، ولمن اتبعك ، والله لا يخلف الميعاد ، وهو الذي أخبرناك به حق الأمر فيه ولا شك ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ هذا تهييج للأمة على الاستغفار ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشي ﴾ أي في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿ والإبكار ﴾ وهي أوائل النهار وأواخر الليل .

(٥٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ أي يدفعون الحق بالباطل ، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ﴿ إن في صدورهم إلا كبرما هم ببالغيه ﴾ أي ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به ، وليس ما يرومونه من إخماد الحق ، وإعلاء الباطل بحاصل لهم ، بل الحق هو المرفوع ، وقولهم وقصدهم هو الموضوع ﴿ فاستعذ بالله ﴾ أي من حال مثل هؤلاء ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان .

(٥٧) ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى منبهاً على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة ، وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض ، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة ، فمن قدر على ذلك

فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى ، ولهذا قال ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض وينكرون المعاد استبعاداً وكفراً وعناداً ، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا .

(٥٨) ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون ﴾ أي كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً ، والبصير الذي يرى ما انتهى اليه بصره ، بل بينهما فرق عظيم ، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار ، والكفرة الفجار ﴿ قليلاً ما تتذكرون ﴾ أي ما أقل ما يتذكر كثير من الناس .

(٥٩) ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ إن الساعة لآتية ﴾ أي لكائنة واقعة ﴿ لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ أي لا يصدقون بها بل يكذبون بوجودها .

(٦٠) ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾

هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة كما كان سفيان الثوري يقول : يا من أحب عباده إليه من سأله فأكثر سؤاله ، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله ، وليس احد كذلك غير الرب . ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ عن دعائي وتوحيدي ﴿ سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين حقيرين . روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس ، يعلوهم كل شيء من الصغار ، حتى يدخلوا سجناً في جهنم ، يقال له : « بولس » تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار » .

(٦١) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم في المعايش بالنهار ، وجعل النهار مبصراً أي مضيئاً ليتصرفوا بالأسفار ، وقطع الأقطار ، والتمكن من الصناعات ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ولكن اكثر الناس

لا يشكرون ﴾ أي لا يقومون بشكر نعم الله عليهم .

(٦٢) ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

﴿ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو ﴾ أي الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد خالق الأشياء ، الذي لا إله غيره ولا رب سواه ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي كيف تعبدون غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئاً ، بل هي مخلوقة منحوتة .

(٦٣) ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

﴿ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ أي كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الجهل والهوى ، وجحدوا حجج الله وآياته .

(٦٤) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ الذي جعل لكم الأرض قراراً ﴾ أي جعلها لكم مستقراً بساطاً مهاداً تعيشون عليها ، وتتصرفون فيها ، وتمشون في مناكبها . وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم أكمل الصور في أحسن تقويم ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أي من المآكل والمشارب في الدنيا ، فذكر أن خلق الدار والسكان والأرزاق فهو الخالق الرازق ﴿ ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ أي فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم .

(٦٥) ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ هو الحي لا إله الا هو ﴾ أي هو الحي أزلاً وأبداً ، لم يزل ولا يزال ، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴿ لا إله الا هو ﴾ أي لا نظير له ولا عديل له ﴿ فادعوه مخلصين له الدين ﴾ أي موحدين له ، مقرين بأنه لا إله إلا هو. ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال ابن جرير ، كان جماعة من أهل العلم يأمرون : من قال « لا إله الا الله » أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين عملاً بهذه الآية ، ثم روي عن ابن عباس قال : من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين . وذلك قوله تعالى ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ .

(٦٦) ﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يقول تعالى : قـل يا محمد لهؤلاء المشركين ، إن الله عز وجل ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنـداد والأوثـان ﴿ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات . . . ﴾ .

(٦٧) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

وقد بين تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله جلت عظمته ﴿ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة . . . ﴾ أي هو الذي يقلبكم في الأطوار كلها وحده لا شريك له ، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله ﴿ ومنكم من يتوفى من قبل ﴾ أي من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم ، بل تسقطه أمه سقطاً ، ومنهم من يتوفى صغيراً وشاباً وكهلاً قبل الشيخوخة . ﴿ ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون ﴾ تتذكرون البعث .

(٦٨) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

﴿ هو الذي يحي ويميت ﴾ أي هو المتفرد بذلك ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿ فإذا قـضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أي لا يخالف ولا يمانع ، بل ما شاء كان لا محالة .

(٦٩) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾

يقول تعالى : ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ، ويجادلون في الحق بالباطل كيف تصرف عقولهم عن الهدى الى الضلال .

(٧٠) ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ أي من الهدى والبيان ﴿ فسوف يعلمون ﴾ هذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد من الرب جل جلاله لهؤلاء كما قال تعالى ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

(٧١) ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ (٧٢)

﴿ إذ الأغـلال في أعناقـهم والسلاسل ﴾ أي متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية ، يسحبون على وجوههم ، تارة الى الحميم ، وتار الى الجحيم ، ولهذا قال تعالى ﴿ يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ كما قال تبارك وتعالى ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ .

(٧٣) ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٧٤)

﴿ ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون من دون الله ؟ ﴾ أي قيل لهم أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله ، هل ينصرونكم اليوم ؟ ﴿ قالوا ضلوا عنا ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعونا ﴿ بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً ﴾ أي جحدوا عبادتهم ،﴿كذلك يضل الله الكافرين ﴾ .

(٧٥) ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾

أي تقول لهم الملائكة : هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق ، ومرحكم وأشركم وبطركم .

(٧٦) ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

﴿ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ أي فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه .

(٧٧) ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ، ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ﴾ فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك ، وجعل العاقبة لك ، ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ فإن ما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ أي في الدنيا ، وكذلك وقع فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم أبيدوا في يوم بدر ، ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ . وقوله عز وجل ﴿ أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴾ أي فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة .

(٧٨) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ

أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾

ثم قال تعالى مسلياً له ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ﴾ أي منهم من أوحينا اليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ، ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف فأضعاف ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله ﴾ أي ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له في ذلك فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به ﴿ فإذا جاء أمرالله ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿ قضي بالحق ﴾ فينجي المؤمنين ، ويهلك الكاذبين ، ولهذا قال عز وجل ﴿ وخسر هنالك المبطلون ﴾ .

(٧٩) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ (٨٠)

يقول تعالى ممتناً على عباده بما خلق لهم الأنعام ، وهي الإبل والبقر والغنم ، فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال الى البلاد النائبة ، والأقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ، ويشرب لبنها ، وتحرث عليها الأرض . والغنم تؤكل ويشرب لنها ، والجميع تجز أصوافها وأشفارها وأدبارها فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة . ولهذا قال تعالى ﴿ لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم . . . ﴾ .

(٨١) ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾

﴿ ويريكم آياته ﴾ أي حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم ﴿ فأي آيات الله تنكرون ﴾ أي لا تقدرون على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا .

(٨٢) ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر ، وماذا حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم ، وما أثروه في الأرض ، وجمعوه من الأموال ، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله ، وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات ، والحجج القاطعات ، والبراهين الدافعات ، لم يلتفتوا اليهم ، ولا أقبلوا عليهم ، واستغنوا بما

عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل .

(٨٣) ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ بجهالتهم فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به (وحاق بهم ﴾ أي أحاط بهم ﴿ ما كانوا به يستهزؤ ون ﴾ أي يكذبون ويستبعدون وقوعه .

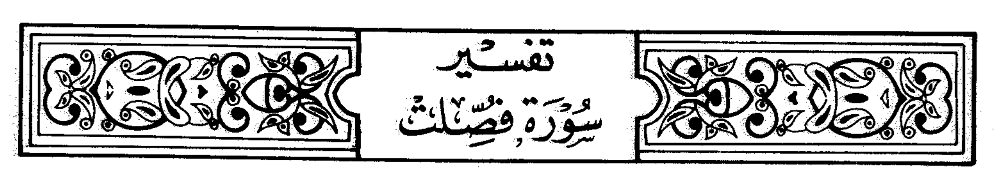
(٨٤) ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾

﴿ فلما رأوا بأسنا ﴾ أي عاينوا وقوع العذاب ﴿ قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ أي وحدوا الله عز وجل وكفروا بالطاغوت ، ولكن حيث لا تقال العثرات ، ولا تنفع المعذرة ، كما قال فرعون ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ قال تعالى ﴿ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ أي فلم يقبل الله منه .

(٨٥) ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾

﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده ﴾ أي هذا حكم الله في جميع من تاب عندمعاينة العذاب أنه لا يقبل ، ولهذا جاء في الحديث « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » أي فإذا غرغر ، وبلغت الروح الحنجرة ، وعاين الملك فلا توبة حينئذٍ . ولهذا قال تعالى (وخسر هنالك الكافرون ﴾ .

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ حم ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ تنزيل من الرحمٰن الرحيم ﴾ القرآن منزل من الرحمٰن الرحيم كقوله ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ . وقوله ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ .

(٣) ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ كتاب فصلت آياته ﴾ أي بينت معانيه وأحكمت آياته ﴿قرآناً عربياً ﴾ أي في حال كونه قرآناً عربياً بيناً واضحاً ، فمعانيه مفصلة ، وألفاظه واضحة غير مشكلة كقوله ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ أي هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ وقوله تعالى ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون .

(٤) ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ أي تارة يبشر المؤمنين ، وتارة ينذر الكافرين ﴿ فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ أي أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئاً مع بيانه ووضوحه .

(٥) ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾

﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة ﴾ أي في غلف مغطاة ﴿ مما تدعونـا اليه وفي آذاننا وقر ﴾ أي صمم عما جئتنا به ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ فلا يصل الينا شيء مما تقول ﴿ فاعمل إننا عاملون ﴾ أي اعمل أنت على طريقتك ، ونحن على طريقتنا لا نتابعك .

(٦) ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾

يقول تعالى ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين ﴿ إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إلّه واحد ﴾ لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين ، إنما الله إلّه واحد ﴿ فاستقيموا اليه ﴾ أي أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على السنة الرسل ﴿ واستغفروه ﴾ أي لسالف الذنوب ﴿ وويل للمشركين ﴾ أي دمار لهم وهلاك عليهم .

(٧) ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾

﴿ الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، وهذا كقوله تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾ وكقوله تعالى ﴿ قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى ﴾ وقوله تعالى ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى ﴾ والمراد بالزكاة ههنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة ، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك ، وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام ، وتكون سبباً لزيادته ، وبركته ، وكثرة نفعه ، وتوفيقاً إلى استعماله في الطاعات أو معناها لا يؤدون الزكاة ، وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين ، واختاره ابن جرير ، وفيه نظر ، لأن ايجاب الزكاة انما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد ، وهذه الآية مكية ، اللهم إلا أن يقال : لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة كان مأموراً به في ابتداء البعثة ، كقوله تعالى ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما يبين أمرها بالمدينة .

(٨) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ غير مقطوع ولا مجبوب ، كقوله تعالى ﴿ ماكثين فيه أبداً ﴾ وكقوله تعالى ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ .

(٩) ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ (١٠)

هذه إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره ، وهو الخالق لكل شيء ، القاهر لكل شيء ، المقتدر على كل شيء فقال ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ﴾ أي نظراء وأمثالاً تعبدونها معه ﴿ ذلك رب العالمين ﴾ أي الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم . وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى ﴿ خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴾ ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء فذكر أنه خلق الأرض أولاً ، لأنها كالأساس والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده السقف ﴿ في يومين ﴾ يعني يوم الأحد ويوم الاثنين ﴿ وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ﴾ أي جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس وقدر فيها أقواتها ، وهو ما يحتاج إليه أهلها من الأرزاق والأماكن التي تغرس ، يعني يوم الثلاثاء والأربعاء ، فهما مع اليومين السابقين أربعة ، ولهذا قال ﴿ في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه .

(١١) ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾

﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها ﴾ أي استجيبا لأمري ، وانفعلا لفعلي طائعتين ، أو مكرهتين (قالتا أتينا طائعين ﴾ أي بل نستجيب لك مطيعين بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعاً مطيعين لك .

(١٢) ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾

﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ﴾ أي ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين آخرين ، وهما الخميس والجمعة ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ أي ورتب مقرراً في كل سماء ما تحتاج اليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ﴿ وحفظاً ﴾ أي حرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ أي العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره ، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم .

(١٣) ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ (١٤)

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق : إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ أي ومن شاكلهما ممن فعل فعلهما ﴿ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ أي في القرى المجاورة لبلادهم بعث الله اليهم الرسل ، يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له ، ومبشرين ومنذرين ، أو ما أحل الله بأعدائه من النقم ، وما ألبس أولياءه من النعم ، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا ، بل كذبوا وجحدوا ﴿ قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴾ أي لو أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده ﴿ فإنا بما أرسلتم به ﴾ أي أيها البشر ﴿ كافرون ﴾ أي لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا .

(١٥) ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض ﴾ أي بغوا وعتوا وعصوا ﴿ وقالوا من أشد منا قوة ؟ ﴾ أي منوا بشدة تركيبهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ ﴾ أي أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة ، فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها ، وأن بطشه شديد .

(١٦) ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾

﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ وهي شديدة الهبوب ، وقيل : الباردة ﴿ في أيام نحسات ﴾ أي متتابعات ﴿ لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى ﴾ أشد خزياً لهم ﴿ وهم لا ينصرون ﴾ أي في الأخرى ، كما لم ينصروا في الدنيا ، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ، ويدرأ عنهم النكال .

(١٧) ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ بينا لهم ، أو دعوناهم ﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ أي بصرناهم وبينا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه السلام فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله التي جعلها آية على صدق نبيهم ﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ﴾ أي بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذاباً ونكالاً ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ أي من التكذيب والجحود .

(١٨) ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

﴿ ونجينا الذين آمنوا ﴾ أي من بين أظهرهم لم يمسسهم سوء ، ولا نالهم من ذلك ضرر ، بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم بتقواهم لله عز وجل .

(١٩) ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾

﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴾ أي اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون

إلى النار ، يوزعون ، أي تجمع الزبانية أولهم على آخرهم .

(٢٠) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ حتى إذا ما جاؤ وها ﴾ أي وقفوا عليها ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ أي بأعمالهم مما قدموه ، وأخروه ، لا يكتم منه حرف .

(٢١) ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾ أي لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم ، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء ﴿ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة ﴾ أي فهو لا يخالف ، ولا يمانع ، واليه ترجعون . روى البزار قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم فقال ﷺ : « ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت ؟ » قالوا : يا رسول الله ، من أي شيء ضحكت؟ قال ﷺ : « عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : أي ربي ، أليس وعدتني أن لا تظلمني ؟ قال : بلى ، فيقول : فإني لا أقبل علي شاهداً إلا من نفسي ، فيقول تبارك وتعالى : أوليس كفى بي شهيداً ، وبالملائكة الكرام الكاتبين - قال - فيردد هذا الكلام مراراً - قال - فيختم علي فيه ، وتتكلم أركانه بما كان يعمل ، فيقول بعداً ، لكنَّ وسحقاً ، عنكن كنت أجادل . ورواه ابن أبي حاتم ، وقد أخرجه مسلم والنسائي .

(٢٢) ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾ أي تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم : ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم تفعلونه ، بل كنتم تجاهرون بالكفر والمعاصي ، ولا تبالون منه في زعمكم ، لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ .

(٢٣) ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾ أي هذا الظن الفاسد ، وهو اعتقادكم أن الله

تعالى لا يعلم كثيراً مما تعملون ، هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم ﴿ فأصبحتم من الخاسرين ﴾ أي في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم .

(٢٤) ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾

﴿ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ﴾ أي سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا ، هم في النار ، لا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها ﴿ وإن يستعتبوا﴾ وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذاراً ﴿ فما هم من المعتبين ﴾ فما لهم أعذار ، ولا تقال لهم عثرات .

(٢٥) ﴿ * وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين ، وأن ذلك بمشيئته ، وكونه وقدرته ، وهو الحكيم في أفعاله بما قيض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن ﴿ فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي حسنوا لهم أعمالهم في الماضي ، وبالنسبة إلى المستقبل ، فلم يروا أنفسهم الا محسنين . ﴿ وحق عليهم القول ﴾ أي كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ أي استووا هم وإياهم في الخسار والدمار .

(٢٦) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾

﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ أي تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن ، ولا ينقادوا لأوامره ﴿ والغوا فيه ﴾ أي إذا تلي لا تسمعوا له ، والغوا فيه ، يعني بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ . أو ﴿ والغوا فيه ﴾ عيبوه ، أو اجحدوا به ، وأنكروه وعادوه ﴿ لعلكم تغلبون ﴾ هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن ، وقد أمر الله بخلاف ذلك فقال ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾ .

(٢٧) ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (٢٨)

ثم قال عز وجل منتصراً للقرآن ، ومنتقماً ممن عاداه من أهل الكفران ﴿ فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ﴾ أي في مقابلة ما عملوه عند سماع القرآن ﴿ ولنجزينهم أسوأ الذي

كانوا يعملون ﴾ أي بشر أعمالهم ، وسيء أفعالهم . ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ .

(٢٩) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾

﴿ وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا ﴾ إبليس ، وابن آدم الذي قتل أخاه ، فابليس يدعو به كل صاحب شرك ، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة . وفي الحديث « ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل » . ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ أي أسفل منا في العذاب ، ليكونا أشد عذاباً منا ، ولهذا قال ﴿ ليكونا من الأسفلين ﴾ أي في الدرك الأسفل من النار .

(٣٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ أي أخلصوا العمل لله ، وعملوا بطاعة الله على ما شرع الله لهم . روى الامام أحمد أن رجلاً قال : يا رسول الله ، مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال ﷺ « قل آمنت بالله ثم استقم » قلت : فما أتقي ؟ فأومأ إلى لسانه . ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ يعني عند الموت قائلين ﴿ ألَّا تخـافوا ﴾ أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال ، أو دين ، فإنا نخلفكم فيه ﴿ وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر ، وحصول الخير . وهذا كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه قال : « إن الملائكة تقول لروح المؤمن : أخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب ، كنت تعمرينه ، اخرجي إلى رَوْح وريحان ، ورب غير غضبان .

(٣١) ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾

﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار : نحن كنا أولياءكم ، أي قرناءكم في الحياة الدنيا ، نسددكم ونوفقكم ، ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم في الآخرة ، نؤنس منكم الوحشة في القبور ، وعند النفخة في الصور ، ونؤمنكم يوم البعث والنشور ، ونجاوزبكم الصراط المستقيم ،

ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾ أي في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس ، وتقربه العيون ﴿ ولكم فيها ما تدعون ﴾ أي مهما طلبتم وجدتم ، وحضر بين أيديكم كما اخترتم .

(٣٢) ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾

﴿ نزلاً من غفور رحيم ﴾ أي ضيافة وعطاء وإنعاماً من غفور لذنوبكم ، رحيم بكم رؤوف حيث غفر وستر ورحم ولطف .

(٣٣) ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ أي دعا عباد الله إليه ﴿ وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ أي وهو في نفسه مهتد بما يقوله ، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه ، وينهون عن المنكر ويأتونه ، بل يأتمر بالخير ويترك الشر ، ويدعو الخلق إلى الخالق ، تبارك وتعالى ، وهذه عامة في كل من دعا إلى خير ، وهو في نفسه مهتد ، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك . وقيل : المراد بها المؤذنون الصلحاء ، كما ثبت في صحيح مسلم : « المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة » وفي السنن مرفوعاً « الإمام ضامن ، والمؤذن مؤتمن ، فأرشد الله الأئمة ، وغفر للمؤذنين » .

(٣٤) ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾

﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ أي فرق عظيم بين هذه وهذه ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ أي من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه ، كما قال عمر رضي الله عنه : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ وهو الصديق ، أي إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه ولي لك حميم ، أي قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك .

(٣٥) ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴾ أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على

ذلك ، فإنه يشق على النفوس ﴿ وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ أي ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة .

(٣٦) ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ﴾ أي إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه ، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك ، فإذا استعذت بالله ، والتجأت إليه كفه عنك ورد كيده .

(٣٧) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾

يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته العظيمة ، وأنه لا نظير له ، وأنه على ما يشاء قادر ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ أي أنه خلق الليل بظلامه ، والنهار بضيائه ، وهما متعاقبان لا يفتران ، ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ أي ولا تشركوا به ، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ، فإنه لا يغفر أن يشرك به .

(٣٨) ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾

﴿ فإن استكبروا ﴾ أي عن إفراد العبادة له ، وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره ﴿ فالذين عند ربك ﴾ يعني الملائكة ﴿ يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ كقوله عز وجل ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ وفي الحديث « لا تسبوا الليل ولا النهار ولا الشمس ولا القمر ولا الرياح ، فإنها ترسل رحمة لقوم، وعذاباً لقوم » .

(٣٩) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِيٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ الْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ ومن آياته ﴾ أي على قدرته على إعادة الموتى ﴿ أنك ترى الأرض خاشعة ﴾ أي هامدة لا نبات فيها ، بل هي ميتة ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ أي أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار ﴿ إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ .

(٤٠) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ

﴿ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

﴿إن الذين يلحدون في اياتنا﴾ الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه ، أو هو الكفر والعناد ﴿لا يخفون علينا﴾ فيه تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، أي إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته ، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال . ولهذا قال ﴿أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾ أي أيستوي هذا وهذا ؟ لا يستويان . ثم قال عز وجل تهديداً للكفرة :وقوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾ وعيد ، أي خيراً أو شراً ، إنه عالم بكم ، وبصير بأعمالكم ، ولهذا قال ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ .

(٤١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾

﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ هو القرآن ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ أي منيع الجناب ، لا يرام أن يأتي أحد بمثله .

(٤٢) ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾

﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ أي ليس للبطلان إليه سبيل ، لأنه منزل من رب العالمين ، ولهذا قال ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله ، حميد بمعنى محمود ، أي في جميع ما يأمر به وينهى عنه ، الجميع محمودة عواقبه وغاياته .

(٤٣) ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾

﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ أي ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك ، فكما كذبت كذبوا ، وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر أنت على أذى قومك لك ﴿إن ربك لذو مغفرة﴾ أي لمن تاب إليه ﴿وذو عقاب أليم﴾ أي لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه ومخالفته .

(٤٤) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وأحكامه في لفظه ومعناه ، ومع هذا لم يؤمن به المشركون نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت كما قال عز وجل ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾ وكذلك لو أنزلنا القرآن بلغة العجم لقالوا على

وجه التعنت والعناد ﴿ لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي ﴾ أي لقالوا : هلا نزل مفصلاً بلغة العرب ، ولأنكروا ذلك فقالوا : أعجمي وعربي ، أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه ؟ ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ أي قل يا محمد : هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه ، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب ﴿ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ﴾ أي لا يفهمون ما فيه ﴿ وهو عليهم عمى ﴾ أي لا يهتدون إلى ما فيه من البيان كما قال سبحانه وتعالى ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول .

(٤٥) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾ أي كذِّب وأوذي ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى ﴾ بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ﴿ لقضي بينهم ﴾ أي لعجل العذاب ، ﴿ بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴾ ﴿ وإنهم لفي شك منه مريب ﴾ أي وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا ، بل كانوا شاكين فيما قالوه غير محققين لشيء كانوا فيه .

(٤٦) ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك على نفسه ﴿ ومن أساء فعليها ﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ أي لا يعاقب أحداً إلا بذنبه ، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه .

(٤٧) ﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾

﴿ إليه يرد علم الساعة ﴾ أي لا يعلم ذلك أحد سواه ، كما قال محمد ﷺ ، وهو سيد البشر لجبريل عليه السلام ، وهو من سادات الملائكة حين سأله عن الساعة ، فقال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » ﴿ وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ أي الجميع بعلمه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وقد قال سبحانه ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ ﴿ ويوم يناديهم أين

شركائي ﴾ أي يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق : أين شركائي الذين عبدتموهم معي ﴿ قالوا آذناك ﴾ أي أعلمناك ﴿ ما منا من شهيد ﴾ أي ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكاً .

(٤٨) ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾

﴿ وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم ﴿ وظنوا ما لهم من محيص ﴾ أي وظن المشركون يوم القيامة ، وهذا بمعنى اليقين ﴿ ما لهم من محيص ﴾ أي لا محيد عن عذاب الله كقوله ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ .

(٤٩) ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾

يقول تعالى : لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير ، وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك ، وإن مسه الشر ، وهو البلاء أو الفقر ﴿ فيؤوس قنوط ﴾ أي يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير .

(٥٠) ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي ﴾ أي إذا أصابه خير ورزق بعدما كان في شدة ليقولن هذا لي ، إني كنت أستحقه عند ربي ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي يكفر بقيام الساعة ، أي لأجل أنه خول نعمة يبطر ويفخر ويكفر ، كما قال تعالى ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى ﴾ ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ أي ولئن كان ثم معاد فليحسنن إلي ربي كما أحسن إلي في هذه الدار ، يتمنى على الله عز وجل مع إساءته العمل وعدم اليقين . قال تعالى ﴿ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال .

(٥١) ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ﴾ أي أعرض عن الطاعة ، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عز وجل ﴿ وإذا مسه الشر ﴾ أي الشدة ﴿ فذو دعاء عريض ﴾ أي يطيل المسألة في الشيء الواحد ، فالكلام العريض ما طال لفظه ، وقل معناه ، والوجيز عكسه ، وهو ما قل ودل .

(٥٢) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾

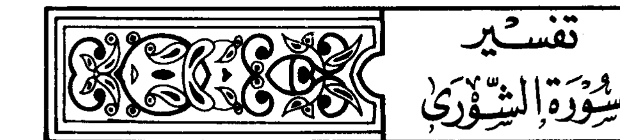
يقول تعالى ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن ﴿ أرأيتم إن كان ﴾ هذا القرآن ﴿ من عند الله ثم كفرتم به ﴾ أي كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال عز وجل ﴿ من أضل ممن هو في شقاق بعيد ﴾ ؟ أي في كفر وعناد ومشاقة للحق ، ومسلك بعيد من الهدى .

(٥٣) ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية ﴿ في الآفاق ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان ، ودلائل في أنفسهم ، قالوا : وقعة بدر وفتح مكة ، ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم ، نصر الله بها محمداً ﷺ وصحبه ، وخذل فيها الباطل وحزبه ، ويحتمل أن المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والاختلاط والهيئات العجيبة . وقوله ﴿ حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ أي كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم ، وهو يشهد أن محمداً ﷺ صادق فيما أخبر به عنه .

(٥٤) ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾

﴿ ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ﴾ أي في شك من قيام الساعة ، ولهذا لا يتفكرون فيه ، ولا يعملون له ، ولا يحذرون منه بل هو عندهم هدر لا يعبأون به ، وهو كائن لا محالة ، وواقع لا ريب فيه ﴿ ألا إنه بكل شيء محيط ﴾ أي المخلوقات كلها تحت قهره ، وفي قبضته ، وتحت طي علمه ، وهو المتصرف فيها بحكمه ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا إله إلا هو .




تفسير سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴾ (٢)

تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

(٣) ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله ﴾ أي كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك ﴿ العزيز ﴾ أي في انتقامه ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله . روى الإمام مالك عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة رضي الله عنها : فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ﷺ لينعصر عرقاً . أخرجاه في الصحيحين ، ولفظه للبخاري .

(٤) ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ كقوله تعالى ﴿ وهو الكبير المتعال ، وهو العلي الكبير ﴾ .

(٥) ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ﴾ أي فرقاً من العظمة . ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ كقوله جل جلاله ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ إعلام بذلك وتنويه به .

(٦) ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾

﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ يعني المشركين ﴿ الله حفيظ عليهم ﴾ أي شهيد على أعمالهم ، يحصيها ويعدها عداً ، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل .

(٧) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾

يقول تعالى : وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿ أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴾ أي واضحاً جلياً بيناً ﴿ لتنذر أم القرى ﴾ وهي مكة ﴿ ومن حولها ﴾ أي من سائر البلاد شرقاً وغرباً ، وسميت مكة أم القرى لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة منها أنه ﷺ وقف بالحزورة في سوق مكة وقال : « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليّ ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت » رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح . ﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد . وقوله تعالى ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لا شك في وقوعه ، وأنه كائن لا محالة . وقوله جل جلاله ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ كقوله تعالى ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾ أي يغبن أهل الجنة أهل النار ، وكقوله ﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ﴾ .

(٨) ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ﴾ أي إما على الهداية ، وإما على الضلالة ، ولكنه تعالى فاوت بينهم ، فهدى من يشاء إلى الحق ، وأضل من يشاء عنه ، وله الحكمة والحجة البالغة . ولهذا قال ﴿ ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير ﴾ . روى ابن جرير أن موسى عليه السلام قال : يا رب ، خلقك الذين خلقتهم جعلت منهم فريقاً في الجنة وفريقاً في النار ، لو أدخلتهم كلهم الجنة ، فقال : يا موسى ، ارفع درعك فرفع ، قال : قد رفعت ، قال : ارفع فرفع ، فلم يترك شيئاً ، قال : يا رب قد رفعت ، قال : ارفع قال : قد رفعت إلا ما لا خير منه ، قال : كذلك أدخل خلقي كلهم في الجنة إلا ما لا خير فيه .

(٩) ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ، ومخبراً أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له ، فإنه القادر على إحياء الموتى ، وهو على كل شيء قدير .

(١٠) ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾

﴿ وما اختلفتم فيه من شيء ﴾ أي مهما اختلفتم فيه من الأمور ، وهذا عام في جميع الأشياء ﴿ فحكمه إلى الله ﴾ أي هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ ، كقوله جل وعلا ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ وقوله عز وجل ﴿ ذلكم الله ربي ﴾ أي الحاكم في كل شيء ﴿ عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ أي أرجع في جميع الأمور .

(١١) ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾

﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أي خالقهما وما بينهما ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ أي من جنسكم وشكلكم منة عليكم وتفضلاً ، جعل من جنسكم ذكراً وأنثى ﴿ ومن الأنعام أزواجاً ﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج . وقوله تبارك وتعالى ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ أي يخلقكم فيه ، أي في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم فيه ذكوراً وإناثاً خلقاً من بعد خلق ، وجيلاً بعد جيل ، ونسلاً بعد نسل من الناس والأنعام ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ أي ليس كخالق الأزواج كلها شيء لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ﴿ وهو السميع البصير ﴾ .

(١٢) ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾

﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ هو المتصرف الحاكم فيهما ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء ، وله الحكمة والعدل التام ﴿ إنه بكل شيء عليم ﴾ .

(١٣) ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن

يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

يقول تعالى لهذه الأمة ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم وهو نوح عليه السلام ، وآخرهم وهو محمد ﷺ ، ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم : إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وفي الحديث « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد » أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم ، كقوله جل جلاله ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ ولهذا قال تبارك وتعالى ههنا ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ أي وصى جميع الأنبياء بالائتلاف والجماعة ، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف . وقوله جل جلاله ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ أي شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ أي هو الذي يقدر الهداية لمن يستحقها ، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد .

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (١٤)

﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم ، وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشاقة . ثم قال عز وجل ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم ﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل لهم العقوبة في الدنيا سريعاً . وقوله جلت عظمته ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ﴾ يعني الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿ لفي شك منه مريب ﴾ أي ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم ، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم ، بلا دليل ولا برهان ، وهم في حيرة من أمرهم ، وشك مريب ، وشقاق بعيد .

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ (١٥)

يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات ، كل منها منفصلة عن التي قبلها ، حكم برأسها ، قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسي ، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه . وقوله ﴿ فلذلك فادع ﴾ أي فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم فادع الناس إليه . وقوله عز وجل ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ يعني المشركين فيما اختلقوه فيه وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان . وقوله جل وعلا ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ أي صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحد منهم . وقوله ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ أي في الحكم كما أمرني الله . وقوله جلت عظمته ﴿ الله ربنا وربكم ﴾ أي هو المعبود لا إله غيره ، فنحن نقر بذلك اختياراً ، وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً فله يسجد من في العالَمَيْنِ طوعاً وإجباراً . وقوله تبارك وتعالى ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ أي نحن برآء منكم ، كما قال سبحانه وتعالى ﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ . وقوله ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ أي لا خصومة ، وذلك قبل نزول آية السيف ، فهذه الآية مكية ، وآية السيف بعد الهجرة . وقوله عز وجل ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ أي يوم القيامة ، كقوله ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ وإليه المصير ﴾ أي المرجع والمآب يوم الحساب .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ ﴿١٦﴾

يقول تعالى متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ﴿ والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له ﴾ أي يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ أي باطلة عند الله ﴿ وعليهم غضب ﴾ أي منه ﴿ ولهم عذاب شديد ﴾ أي يوم القيامة .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ ﴿١٧﴾

﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق ﴾ يعني الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿ والميزان ﴾ وهو العدل والانصاف ، وهذه كقوله تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ وقوله ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا

في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ وقوله تبارك وتعالى ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ فيه ترغيب فيها ، وترهيب منها ، وتزهيد في الدنيا .

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ ﴿١٨﴾

﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ أي يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، وإنما يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً وكفراً وعناداً . ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ أي خائفون وجلون من وقوعها ﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ أي كائنة لا محالة فهم مستعدون لها ، عاملون من أجلها . وقد روي من طرق تبلغ درجة التواتر في الصحاح والحسان والسنن والمسانيد ، وفي بعض ألفاظه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري ، وهو في بعض أسفاره فناداه فقال : يا محمد ، فقال له رسول الله ﷺ نحواً من صوته « هاؤم » فقال له : متى الساعة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ويحك إنها كائنة ، فما أعددت لها ؟ » فقال : حب الله ورسوله ، فقال ﷺ : « أنت مع من أحببت » . فقوله في الحديث « المرء مع من أحب » هذا متواتر لا محالة ، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة ، بل أمره بالاستعداد لها . وقوله تعالى ﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة ﴾ أي يجادلون في وجودها ويدفعون وقوعها ﴿ لفي ضلال بعيد ﴾ أي في جهل مبين ، لأن الذي خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى ، كما قال تعالى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم ، لا ينسى أحداً منهم ، سواء في رزقه البر والفاجر ، كقوله عز وجل ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ . وقوله جل جلاله ﴿ يرزق من يشاء ﴾ أي يوسع على من يشاء ﴿ وهو القوي العزيز ﴾ أي لا يعجزه شيء .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿ من كان يريد حرث الآخرة ﴾ أي عمل الآخرة ﴿ نزد له في حرثه ﴾ أي نقويه ونعينه على ما هو بصدده ، ونكثر نماءه ، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى

ما يشاء الله ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ أي ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا ، وليس له إلى الآخرة هَمٌّ البتة بالكلية حرمه الله الآخرة ، والدنيا إن شاء أعطاه منها ، وإن لم يشأ لم يحصل لا هذه ولا هذه . وفاز الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة .

(٢١) ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ أي هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم ، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والوصيلة والسائبة والحام ، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأموال الفاسدة ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت عمرو بن لحي بن قحفة يجر قصبه في النار » لأنه أول من سيب السوائب . وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة ، وهو أول من فعل هذه الأشياء ، وهو الذي حمل قريشاً على عبادة الأصنام . لعنه الله وقبحه ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم ﴾ أي لعوجلوا بالعقوبة لولا ما تقدم من الانظار إلى يوم المعاد ﴿ وإن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ أي شديد موجع في جهنم وبئس المصير .

(٢٢) ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾

﴿ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا ﴾ أي في عرصات القيامة ﴿ وهو واقع بهم ﴾ أي الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة ، هذا حالهم يوم معادهم ، وهم في هذا الخوف والوجل ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤ ون عند ربهم ﴾ فأين هذا من هذا ؟ أي أين من هو في العرصات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ممن هو في روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؟ ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ أي الفوز العظيم ، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة .

(٢٣) ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا

ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي هذا حاصل لهم كائن لا محالة ببشارة الله تعالى لهم به . وقوله عز وجل ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش : لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالاً تعطونيه ، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني ، وتذروني أبلغ رسالات ربي إن لم ينصروني ، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم « إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي ، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض » وقوله عز وجل ﴿ ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ﴾ أي ومن يعمل حسنة نزد له فيها حسناً أي أجراً وثواباً ، كقوله تعالى ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ ﴿ إن الله غفور شكور ﴾ أي يغفر الكثير من السيئات ، ويكثر القليل من الحسنات ، فيستر ويغفر ويضاعف ويشكر .

(٢٤) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

﴿ أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾ أي لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يختم على قلبك ﴾ أي يطبع على قلبك ، وسلبك ما كان آتاك من القرآن . وقوله جلت قدرته ﴿ ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته ﴾ أي يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه بكلماته ، أي بحججه وبراهينه ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما تكنه الضمائر ، وتنطوي عليه السرائر .

(٢٥) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ، ورجعوا إليه : إنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر كقوله ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ « لَلَّهُ تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانقلبت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي

وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح ـ » ﴿ ويعفو عن السيئات ﴾ أي يقبل التوبة في المستقبل ، ويعفو عن السيئات في الماضي ﴿ ويعلم ما تفعلون ﴾ أي هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم ، ومع هذا يتوب على من تاب إليه .

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (٢٦)

﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ معناه يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم ، أو يستجيبون للحق ، كقوله تعالى ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ والمعنى الأول أظهر لقوله تعالى ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أي يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك ﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم .

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (٢٧)

﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً ، وكان يقال : خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك ﴿ ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾ أي ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم ، وهو أعلم بذلك ، فيغني من يستحق الغنى ، ويفقر من يستحق الفقر ، كما جاء في الحديث « إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه » .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (٢٨)

﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ﴾ أي من بعد إياس الناس من نزول المطر ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه ، كقوله عز وجل ﴿ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ وينشر رحمته ﴾ أي يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية ﴿ وهو الولي الحميد ﴾ أي هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم ، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله .

﴿٢٩﴾ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾

﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة ، وسلطانه القاهر ﴿ خلق السموات والأرض وما بث فيهما ﴾ أي ذرأ فيهما ، أي في السموات والأرض ﴿ من دابة ﴾ وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم ، وقد فرقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض . ﴿ وهو ﴾ مع هذا كله ﴿ على جمعهم إذا ما يشاء قدير ﴾ أي يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد ، يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر ، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق .

﴿٣٠﴾ ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ﴿٣١﴾

﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ أي مهما أصابكم أيها الناس من المصائب ، فإنما هي سيئات تقدمت لكم ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ أي من السيئات ، فلا يجازيكم عليها ، بل يعفو عنها . وفي الحديث الصحيح « والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلا كفر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها » .

﴿٣٢﴾ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾

يقول تعالى : ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة ، وسلطانه تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره ، وهي الجواري في البحر كالأعلام أي كالجبال .

﴿٣٣﴾ ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

﴿ إن يشأ يسكن الريح ﴾ أي التي تسير في البحر كالسفن لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن ، بل تبقى راكدة لا تجيء ولا تذهب ، بل واقفة على ظهره ، أي على وجه الماء . ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار ﴾ في الشدائد ﴿ شكور ﴾ في الرخاء .

﴿٣٤﴾ ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾

﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ أي ولو شاء لأهلك السفن وغرّقها بذنوب أهلها الذين هم

راكبون فيها ﴿ ويعف عن كثير ﴾ أي من ذنوبهم ، ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر .

(٣٥) ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾

﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴾ أي لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا ، فإنهم مقهورون بقدرتنا .

(٣٦) ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

يقول تعالى محقراً لشأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهوة والنعيم الفاني بقوله تعالى ﴿ فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ﴾ أي مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به ، فإنما هو متاع الحياة الدنيا ، وهي دار دنيئة فانية زائلة ، لا محالة ﴿ وما عند الله خير وأبقى ﴾ أي وثواب الله تعالى خير من الدنيا ، وهو باق سرمدي ، فلا تقدموا الفاني على الباقي ، ولهذا قال تعالى ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات ، وترك المحرمات .

(٣٧) ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾

﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش واذا ما غضبواهم يغفرون ﴾ أي سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس ، ليس سجيتهم الأنتقام من الناس . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله .

(٣٨) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

﴿ والذين استجابوا لربهم ﴾ أي اتبعوا رسله ، وأطاعوا أمره ، واجتنبوا زجره ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ وهي أعظم العبادات لله عز وجل ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ أي لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها ، كما قال تعالى ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ وذلك بالاحسان الى خلق الله ، الأقرب منهم فالأقرب .

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾

﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى

عليهم ، ليسوا بالعاجزين ، ولا الأذلين ، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم ، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا ، كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم اليه .

(٤٠) ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ كقوله تعالى ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ وقوله تعالى ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ أي لا يضيع ذلك عند الله ، كما صح ذلك في الحديث « وما زاد الله تعالى عبداً بعفو الاعز » وقوله تعالى ﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ أي المعتدين ، وهو المبتدىء بالسيئة .

(٤١) ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾

﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ أي ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم .

(٤٢) ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ إنما السبيل ﴾ أي الحرج والتعنت ﴿ على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ﴾ أي يبدؤون الناس بالظلم ﴿ أولئك لهم عذاب أليم ﴾ أي شديد موجع .

(٤٣) ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

﴿ ولمن صبر وغفر ﴾ أي صبر على الأذى ، وستر السيئة ﴿ إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ أي لمن حق الأمور التي أمر الله بها ، أي لمن الأمور المشكورة ، والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل .

(٤٤) ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة أنه ما شاء كان ، ولا راد له ، وما لم يشأ لم يكن ، فلا موجد له ، وأنه من هداه فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، كما قال عز وجل ﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ . ثم قال تعالى مخبراً عن الظالمين وهم

المشركون بالله ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ أي يوم القيامة تمنوا الرجعة الى الدنيا ﴿ يقولون هل الى مرد من سبيل ﴾ كما قال عز وجل ﴿ ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ .

(٤٥) ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾

﴿ وتراهم يعرضون عليها ﴾ أي على النار ﴿ خاشعين من الذل ﴾ أي الذي قد عزاهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى ﴿ ينظرون من طرف خفي ﴾ ذليل ، أي ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها ، والذين يحذرون منه واقع بهم لا محالة وما هو أعظم مما في نفوسهم ، أجارنا الله من ذلك ﴿ وقال الذين آمنوا ﴾ أي يقولون يوم القيامة ﴿ إن الخاسرين ﴾ أي الخسار الأكبر ﴿ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ أي ذهب بهم الى النار ، فعدموا لذتهم في دار الأبد وخسروا أنفسهم ، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم وأهاليهم وقراباتهم فخسروهم ﴿ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴾ أي دائم سرمدي أبدي ، لا خروج لهم منها ، ولا محيد لهم عنها .

(٤٦) ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾

﴿ وما كان لهم من أولياء ينصرونهم دون الله ﴾ أي ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾ أي ليس له خلاص .

(٤٧) ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾

لماذا ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة حذر منه وأمر بالاستعداد له فقال ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردَّ له من الله﴾ أي إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون ، وليس له دافع ، ولا مانع ﴿ مالكم من ملجأ يومئذٍ ومالكم من نكير ﴾ أي ليس لكم حصن تتحصنون فيه ، ولا مكان يستركم ، وتتنكرون فيه ، فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى ، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته ، فلا ملجأ منه إلا إليه .

(٤٨) ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا

رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾

﴿ فإن أعرضوا ﴾ يعني المشركين ﴿ فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ أي ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ وقوله جل وعلا ﴿ إن عليك الا البلاغ ﴾ أي إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله اليهم ﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ﴾ أي إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بها ﴿ وإن تصبهم ﴾ يعني الناس ﴿ سيئة ﴾ أي جدب ونعمة وبلاء وشدة ﴿ فإن الإنسان كفور ﴾ يجحد ما تقدم من النعم ، ولا يعرف الا الساعة الراهنة ، فإن أصابته نعمة أشر وبطر ، وإن أصابته محنة يئس وقنط .

(٤٩) ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾

يخبر الله تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، وأنه يخلق ما يشاء ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ﴾ أي يرزقه الإناث فقط ، قال البغوي : ومنهم لوط ﴿ ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ أي يرزقه البنين فقط . قال البغوي : كابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، لم يولد له أنثى .

(٥٠) ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ أي ويعطي لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى ، أي من هذا أو هذا، قال البغوي: كمحمد ﷺ ﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾ أي لا يولد له. قال البغوي : كيحى وعيسى عليهما الصلاة والسلام فجعل الناس أربعة أقسام ، منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه النوعين ذكراً وإناثاً ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد له ﴿ إنه عليم ﴾ أي بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ﴿ قدير ﴾ أي على ما يشاء من تفاوت الناس في ذلك .

(٥١) ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾

هذه مقامات الوحي بالنسبة الى جناب الله عز وجل ، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل ، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى

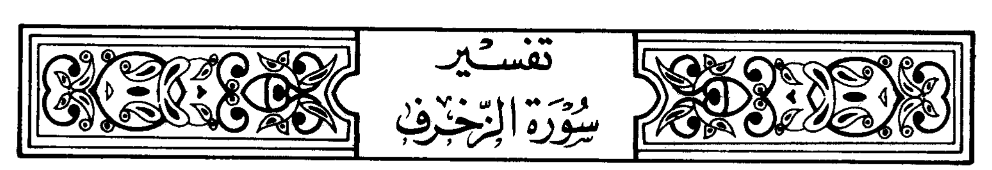
تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » وقوله تعالى ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام ، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما « ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحاً » ولكن هذا في عالم البرزخ ، والآية إنما هي في دار الدنيا . وقوله عز وجل ﴿ أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ كما ينزل جبريل وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ﴿ إنه علي حكيم ﴾ فهو عليم خبير حكيم .

(٥٢) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ﴾ يعني القرآن ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ أي على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿ ولكن جعلناه ﴾ أي القرآن ﴿ نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ كقوله تعالى ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ وقوله تعالى ﴿ وإنك ﴾ بالحمد ﴿ لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ وهو الخلق القديم ، ثم فسره بقوله تعالى :

(٥٣) ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾

﴿ صراط الله ﴾ أي شرعه الذي أمر به الله ﴿ الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ أي ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .





(١) ﴿ حمٓ ﴾

تقدم الكلام عن الحروف المقطعة أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾

﴿ والكتاب المبين ﴾ أي البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ ، لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس .

(٣) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

ولهذا قال ﴿ إنا جعلناه ﴾ أي أنزلناه ﴿ قرآناً عربياً ﴾ أي بلغة العرب فصيحاً واضحاً ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي تفهمونه وتتدبرونه .

(٤) ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ بين شرفه في الملأ الأعلى ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض ، فقال تعالى ﴿ وإنه ﴾ أي القرآن ﴿ في أم الكتاب ﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿ لدينا ﴾ أي عندنا ﴿ لعلي ﴾ أي ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل ﴿ حكيم ﴾ أي محكم بريء من اللبس والزيغ ، وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله .

(٥) ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾

﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ﴾ أي تحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ، ولم تفعلوا ما أمرتم به .

(٦) ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ وكم أرسلنا من نبي في الأولين ﴾ أي في شيع الأولين .

(٧) ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

﴿ وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزؤ ون ﴾ أي يكذبونه ويسخرون به .

(٨) ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ﴾ أي فأهلكنا المكذبين بالرسل ، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين لك يا محمد ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ سنتهم ، أو عقوبتهم أي جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم .

(٩) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

يقول تعالى : ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ من خلق السموٰت والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له ، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد .

(١٠) ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾ أي فراشاً قراراً ثابتة تسيرون عليها رتقدمون وتنامون وتنصرفون مع أنها مخلوقة على تيار الماء ، لكنه أرساها بالجبال لئلا تحيد هكذا وهكذا ﴿ وجعل لكم فيها سبلاً ﴾ أي طرقاً بين الجبال والأودية ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي في سيركم من بلد إلى بلد ، وقطر إلى قطر ، وإقليم الى إقليم .

(١١) ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾

﴿ والذي نزل من السماء ماء بقدر ﴾ أي بحسب الكفاية لزرعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم ﴿ فأنشرنا به بلدة ميتاً ﴾ أي أرضاً ميتة ، فلما جاءها اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ثم نبه تعالى باحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها فقال ﴿ كذلك تخرجون ﴾ .

(١٢) ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾

﴿ والذي خلق الأزواج كلها ﴾ أي مما تنبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزاهير وغير ذلك ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها ﴿ وجعل لكم من الفلك ﴾ أي السفن ﴿ والأنعام ما تركبون ﴾ أي ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها وشربكم ألبانها ، وركوبكم ظهورها . ولهذا قال جل وعلا :

(١٣) ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾

﴿ لتستووا اعلى ظهوره ﴾ أي لتستووا متمكنين مرتفقين ﴿ على ظهوره ﴾ أي على ظهور هذا الجنس ﴿ ثم تذكروا نعمة ربكم ﴾ أي فيما سخر لكم ﴿ إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ أي مقاومين ، ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه .

(١٤) ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾

﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ أي لصائرون اليه بعد مماتنا ، واليه سيرنا الأكبر ، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة ، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله تعالى ﴿ وتـزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ وباللباس الدنيوي على اللباس الأخروي في قوله تعالى ﴿ وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ﴾ روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً ثم قال : « سبحـان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، ثم يقول : اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا السفر ، واطوِ لنا البعيد ، اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللهم اصحبنا في سفرنا ، واخلفنا في أهلنا » .

(١٥) ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما افتروا وكذبوا في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم ، وبعضها لله تعالى فقال ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ﴾ ثم قال تعالى :

(١٦) ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾

﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ﴾ وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار ، ثم ذكر تمام الإنكار فقال جلت عظمته .

(١٧) ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

أي إذا بشر أحـد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة ، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به ، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك ، يقول تبارك وتعالى . فكيف تأنفون أنتم من ذلك وتنسبونه إلى الله عز وجل ؟

(١٨) ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾

﴿ أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ﴾ أي المرأة الناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة ، وإذا خاصمت فلا عبارة لها ، بل هي عاجزة عيية ، أو من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله العظيم ، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن في الصورة ، والمعنى فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي وما في معناه ليجبر ما فيها من نقص .

(١٩) ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾

﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ أي اعتقدوا فيهم ذلك فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك فقال ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ أي شاهدوه ، وقد خلقهم الله إناثاً ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ أي بذلك ﴿ ويسألون ﴾ عن ذلك يوم القيامة ، وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد .

(٢٠) ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

﴿ وقالوا لو شاء الرحمٰن ما عبدناهم ﴾ أي لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله ، فإنه عالم بذلك ، وهو يقررنا عليه فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ : أحدها جعلهم لله ولداً . تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ، والثاني دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمٰن إناثاً ، الثالث عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان ، ولا إذن من الله عز وجل ، بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للاسلاف والكبراء والآباء والخبط في الجاهلية الجهلاء ، الرابع احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدراً ، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً ، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الانكار ، فإنه منذ بعث الرسل ، وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه . قال تعالى بعد أن ذكر حجتهم هذه ﴿ ما لهم بذلك من علم ﴾ أي بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿ إن هم الا يخرصون ﴾ أي يكذبون ويتقولون .

(٢١) ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾

يقول تعالى منكراً عليهم في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة ﴿ أم آتيناهم كتاباً من قبله ﴾ أي من قبل شركهم ﴿ فهم به مستمسكون ﴾ أي فيما هم فيه ، أي ليس الأمر كذلك .

(٢٢) ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾

﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ أي ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة ، والمراد بها الدين ههنا ، وفي قوله تبارك وتعالى ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ ﴿ وإنا على آثارهم ﴾ أي وراءهم ﴿ مهتدون ﴾ دعوى منهم بلا دليل .

(٢٣) ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾

ثم بين جل وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقهم اليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل تشابهت قلوبهم ، فقالوا مثل مقالتهم ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ .

(٢٤) ﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

ثم قال عز وجل ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ أي ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به لما انقادوا لذلك لسوء قصدهم ، ومكابرتهم للحق وأهله .

(٢٥) ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

قال تعالى ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ أي من الأمم المكذبة بأنواع العذاب ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ أي كيف بادوا وهلكوا ، وكيف نجى الله المؤمنين ؟

(٢٦) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ، ووالد من بعث بعده من الأنبياء الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال ﴿ إنني براء مما تعبدون ﴾ .

(٢٧) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢٨)

﴿ إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ أي هذه الكلمة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان ، وهي لا إله إلا الله ، أي جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي إليها .

(٢٩) ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ بل متعت هؤلاء ﴾ يعني المشركين ﴿ وآباءهم ﴾ أي فتطاول عليهم العمر في ضلالهم

﴿ حتى جاءهم الحق ورسول مبين ﴾ أي بين الرسالة والنذارة .

(٣٠) ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴾ أي كابروه وعاندوه ، ودفعوا بالصدور والراح كفراً وحسداً وبغياً .

(٣١) ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾

﴿ وقالوا ﴾ أي كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتقدس ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ أي هلا كان انزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين ؟ يعنون مكة والطائف ، وقد ذكر غير واحد أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفي .

(٣٢) ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ ؟ أي ليس الأمر مردوداً اليهم ، بل إلى الله عز وجل ، و ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً وأشرفهم بيتاً ، وأطهرهم أصلاً ، ثم قال تعالى مبيناً أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة فقال ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ قيل : معناه ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ أي رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا .

(٣٣) ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾

﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ أي لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمٰن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج ﴾ أي سلالم ودرجاً من فضة ﴿ عليها يظهرون ﴾ أي يصعدون .

(٣٤) ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾

﴿ ولبيوتهم أبواباً ﴾ أغلاقاً على أبوابهم ﴿ وسرراً عليها يتكئون ﴾ أي جميع ذلك يكون فضة .

(٣٥) ﴿ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ وزخرفاً ﴾ أي ذهباً ﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ أي إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى ، أي يجعل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب ليوافوا الآخرة ، وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها ، كما ورد به الحديث الصحيح وورد في حديث آخر « لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء » أسنده البغوي ﴿ والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ أي لهم خاصة ، لا يشاركهم فيها أحد غيرهم .

(٣٦) ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾

﴿ ومن يعش ﴾ أي يتعامى ويتغافل ويعرض ﴿ عن ذكر الرحمن ﴾ والعشا في العين ضعف بصرها ، والمراد ههنا عشا البصيرة ﴿ نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ كقوله جل جلاله ﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ .

(٣٧) ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ (٣٨)

﴿ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا ﴾ أي هذا الذي تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضله ويهديه إلى صراط الجحيم ، فإذا وافى الله عز وجل يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذي وكل به ، ﴿ قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ والمراد بالمشرقين ههنا هو ما بين المشرق والمغرب ، وانما استعمل ههنا تغليباً ، كما يقال : القمران والعمران والأبوان .

(٣٩) ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾

﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ أي لا يغني عنكم اجتماعكم في النار ، واشتراككم في العذاب الأليم .

(٤٠) ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

أي ليس ذلك إليك ، إنما عليك البلاغ ، وليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الحكيم العدل في ذلك .

(٤١) ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾

﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ﴾ أي لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ، ولو ذهبت أنت .

(٤٢) ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾

﴿ أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ﴾ أي نحن قادرون على هذا وعلى هذا ، ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه ، وحكمه في نواصيهم ، وملكه ما تضمنته صياصيهم .

(٤٣) ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ فاستمسك بالذي أوحي اليك انك على صراط مستقيم ﴾ أي خذ بالقرآن المنزل على قلبك ، فإنه هو الحق وما يهدي اليه هو الحق المفضي إلى صراط مستقيم ، الموصل إلى جنات النعيم ، والخير الدائم المقيم .

(٤٤) ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾

﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ قيل : معناه لشرف لك ولقومك ، أو لتذكير لك ولقومك ، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم ، كقوله تعالى ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ .

(٤٥) ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾

﴿ واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ أي جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس اليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد .

(٤٦) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ (٤٧)

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعايا من القبط وبني اسرائيل ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ، وأنه بعث معه آيات عظاماً ، كيده وعصاه ، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات ، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها وكذبوها وسخروا منها ، وضحكوا ممن جاءهم بها .

(٤٨) ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴾ ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم وخبالهم ، وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى عليه الصلاة والسلام ، ويتلطفون له في العبارة بقولهم :

(٤٩) ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ (٥٠)

﴿ يا أيها الساحر ﴾ أي العالم ، وكان علماء زمانهم هم السحرة ، ولم يكن السحر في زمانهم مذموماً عندهم ، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم ، لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك ، وإنما هو تعظيم في زعمهم ففي كل مرة يعدون موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا به ، ويرسلوا معه بني اسرائيل ، وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه . ﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾ .

(٥١) ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها ﴿ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ ﴾ قال قتادة : قد كانت لهم جنات وأنهار وماء ﴿ أفلا تبصرون ﴾ أي أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك ؟ يعني وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء ، وهذا كقوله تعالى ﴿ فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ .

(٥٢) ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾

﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ﴾ يقول : بل أنا أخير من هذا الذي هو مهين ، يعني فرعون لعنه الله بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام ، وقد كذب في قوله هذا كذباً بيناً واضحاً ، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ﴿ مهين ﴾ حقير أو ضعيف ، أو لا ملك له ولا سلطان ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ يعني لا يكاد يفصح عن كلامه فهو عيي حصر ، وهذا كذب وافتراء ، فإنه وإن كان أصاب لسانه شيء من جهة الجمرة فقد سأل الله عز وجل أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله ، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ .

(٥٣) ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾

﴿ فلولا ألقي عليه اسورة من ذهب ﴾ وهي ما يجعل في الأيدي من الحلي ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ أي يكتنفونه خدمة ، ويشهدون بتصديقه . .

(٥٤) ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ أي استخف عقولهم فدعاهم إلى الصلاة فاستجابوا له ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ .

(٥٥) ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ آسفونا : أسخطونا ، أو أغضبونا . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطي العبد ما يشاء ، وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له » ثم تلا ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم . . . ﴾ وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : وجدت النقمة مع الغفلة ، يعني قوله تعالى ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم . . . ﴾ .

(٥٦) ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾

﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ ﴿ سلفاً ﴾ لمثل من عمل بعملهم ﴿ ومثلاً ﴾ أي عبرة لمن بعدهم . والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب .

(٥٧) ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ﴾ يضحكون ، أي أعجبوا بذلك ، أو يعرضون . لما نزل

قول الله ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ قال عبد الله بن الزبعري : سلوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيراً ، والنصارى تعبد المسيح عيسى بن مريم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال « كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ، ومن أمرهم بعبادته » فأنزل الله ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . . ﴾ وقوله ﴿ وقالوا اتخذ الرحمٰن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ثم هي خطاب لقريش ، وهم كانوا يعبدون الأصنام والأنداد ، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه ، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم ، ليسوا يعتقدون صحتها .

(٥٨) ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾

﴿ وقالوا أآلهتنا خير أم هو﴾ أي آلهتنا خير منه ، أو آلهتنا خير من محمد وقوله تبارك وتعالى ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً ﴾ أي مراء ، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية لأنها أي ﴿ ما ﴾ في قوله ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله ﴾ لما لا يعقل . روى الامام أحمد عن رسول الله ﷺ « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أورثوا الجدل » ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴾ وقد رواه الترمذي وابن ماجه وابن جرير ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٥٩) ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾

﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾ يعني عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، ما هو إلا عبد من عباد الله عز وجل أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة ﴿ وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾ أي دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نساعد .

(٦٠) ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴾

﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ﴾ أي بدلكم ﴿ ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ يخلفونكم فيها ، أو يعمرون الأرض بدلكم .

(٦١) ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾

﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة ، كما قال تبارك وتعالى ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ أي قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة

إماماً عادلاً مقسطاً . وقوله تعالى ﴿ فلا تمترن بها ﴾ أي لا تشكوا فيها ، إنها واقعة وكائنة لا محالة ﴿ واتبعون ﴾ أي فيما أخبركم به ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ .

(٦٢) ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

﴿ ولا يصدنكم الشيطان ﴾ أي عن اتباع الحق ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ .

(٦٣) ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

﴿ ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ﴾ أي بالنبوة ﴿ ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ يعني من الأمور الدينية ، لا الدنيوية ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي فيما أمركم به ﴿ وأطيعون ﴾ فيما جئتكم به .

(٦٤) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

﴿ إن الله ربي وربكم فاعبدوه ﴾ أي أنا وأنتم عبيد له ، فقراء اليه ، مشتركون في عبادته وحده لا شريك له ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ أي هذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم ، وهو عبادة الرب جل وعلا وحده .

(٦٥) ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ أي اختلف الفرق ، وصاروا شيعاً فيه ، منهم من يقر بأنه عبدالله ورسوله ، وهو الحق ، ومنهم من يدعي أنه ولد الله ، ومنهم من يقول : إنه الله . تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، ولهذا قال تعالى ﴿ فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ .

(٦٦) ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يقول تعالى : هل ينظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿ إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ أي فإنها كائنة لا محالة وواقعة ، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين ، فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها فحينئذٍ يندمون كل الندم حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم .

(٦٧) ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ أي كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عز وجل ، فإنه دائم بدوامه ، وهذا كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ . وفي الحديث « لو أن رجلين تحابا في الله ، أحدهما بالمشرق ، والآخر بالمغرب لجمع الله بينهما يوم القيامة ، يقول : هذا الذي أحببته فيّ » .

﴿ يَـٰعِبَادِ لَاخَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿٦٩﴾

﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ ثم بشرهم فقال ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ أي آمنت قلوبهم وبواطنهم ، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم .

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ ﴿٧٠﴾

﴿ ادخلوا الجنة ﴾ أي يقال لهم : ادخلوا الجنة ﴿ أنتم وأزواجكم ﴾ أي نظراؤكم ﴿ تحبرون ﴾ أي تنعمون وتسعدون .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ ﴿٧١﴾

﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذهب ﴾ أي زباديّ آنية لطعامهم ﴿ وأكواب ﴾ وهي آنية الشراب ، أي من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾ أي طيب الطعام والريح وحسن المنظر . ﴿ وأنتم فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ خالدون ﴾ أي لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولاً .

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٧٢﴾

﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ أي أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم ، فإنه لا يدخل أحداً الجنة عمله ، ولكن برحمة الله وفضله ، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات .

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ﴿٧٣﴾

﴿ لكم فيها فاكهة كثيرة ﴾ أي من جميع الأنواع ﴿ منها تأكلون ﴾ أي مهما اخترتم وأردتم ، ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة .

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ ﴿٧٥﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال ﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون . لا يفتر عنهم ﴾ أي ساعة واحدة ﴿ وهم فيه مبلسون ﴾ أي آيسون من كل خير .

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ﴿٧٦﴾

﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ أي بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم فكذبوا وعصوا ، فجوزوا بذلك جزاء وفاقاً ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾

﴿ ونادوا يا مالك ﴾ وهو خازن النار . روى البخاري عن أبي يعلى عن أبيه ، قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ﴾ أي يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه » . فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك ﴿ قال إنكم ماكثون ﴾ أي لا خروج لكم منها ، ولا محيد لكم عنها .

﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ ﴿٧٨﴾

﴿ لقد جئناكم بالحق ﴾ أي بيناه لكم ووضحناه وفسرناه ﴿ ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ أي ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه ، وتصد عن الحق ، وتأباه وتبغض أهله ، فعودوا على أنفسكم بالملامة ، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة .

﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ ﴿٧٩﴾

أرادوا كيد شر فكدناهم ، وهذا كقوله تعالى ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ﴾ وذلك أن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه فكادهم الله تعالى ، ورد وبال ذلك عليهم . ولهذا قال :

(٨٠) ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾

﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ﴾ أي سرهم وعلانيتهم ﴿ بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ أي نحن نعلم ما هم عليه ، والملائكة أيضاً يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها .

(٨١) ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾

﴿ قل إن كان للرحمٰن ولد فأنا أول العابدين ﴾ أي لو فرض هذا لعبدته على ذلك ، لأني عبد من عبيده ، مطيع لجميع ما يأمرني به ، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض هذا لكان هذا ، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى ، والشرط لا يلتزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً ، كما قال تعالى ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ .

(٨٢) ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

﴿ سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد ، فإنه فرد أحد صمد ، لا نظير له ولا كفء له ، فلا ولد له .

(٨٣) ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾

﴿ فذرهم يخوضوا ﴾ أي في جهلهم وضلالهم ﴿ ويلعبوا ﴾ في دنياهم ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ وهو يوم القيامة ، أي فسوف يعلمون كيف مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم .

(٨٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾

﴿ وهو الذي في السماء إلٰه وفي الأرض إلٰه ﴾ أي هو إلٰه من في السماء ، وإلٰه من في الأرض ، يعبده أهلهما ، وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ وهذه الآية كقوله سبحانه وتعالى ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾ أي هو المدعو الله في السموات وفي الأرض .

(٨٥) ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

﴿ وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما ، بلا مدافعة ولا ممانعة فسبحانه وتعالى عن الولد ، وتبارك أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص لأنه الرب العلي العظيم المالك للأشياء الذي بيده أزمة الأمور نقضاً

وإبراماً ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ أي لا يجليها لوقتها إلا هو ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي فيجازي كلًّا بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

(٨٦) ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه ﴾ أي من الأصنام والأوثان ﴿ الشفاعة ﴾ أي لا يقدرون على الشفاعة لهم . ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ هذا استثناء منقطع أي لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم ، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له .

(٨٧) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ أي ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله ، العابدين معه غيره ﴿ من خلقهم ليقولن الله ﴾ أي هم معترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له في ذلك ، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً ، ولا يقدر على شيء ، لهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة ، وسخافة العقل . ولهذا قال ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ .

(٨٨) ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ أي وقال محمد ﷺ أي شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه ، فقال : ﴿ يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ كما أخبر تعالى في الآية الأخرى ﴿ وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ ﴿ وقيله ﴾ معطوف على ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ وتقديره : وعنده علم الساعة وعلم قيله .

(٨٩) ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ فاصفح عنهم ﴾ أي المشركين ﴿ وقل سلام ﴾ أي لا تجادلهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيىء ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً . ﴿ فسوف يعلمون ﴾ هذا تهديد من الله تعالى لهم ، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد ، وأعلى دينه وكلمته وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب .

* * *



تفسير سُورَةُ الدُّخَانِ



روى الترمذي عن أبي هريرة قـال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حمّ الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿حمٓ﴾

تقدم الكلام عن الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

﴿٢﴾ ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ ﴿٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة ، وهي ليلة القدر ، كما قال عز وجل ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ وكان ذلك في شهر رمضان ، كما قال تبارك وتعالى ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ . ومن قال : إنها ليلة نصف شعبان فقد أبعد النجعة ، فإن نص القرآن أنها في رمضان . وحديث « تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد له ، وقد أخرج اسمه في الموتى » حديث مرسل ، ومثله لا يعارض به النصوص . ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ أي معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً لتقوم حجة الله على عباده .

﴿٤﴾ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾

﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ أي ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة ، وما يكون فيها من الآجال ، والأرزاق ، وما يكون فيها إلى آخرها . وقوله ﴿ حكيم ﴾ أي محكم لا يبدل ولا يغير . ولهذا قال جل جلاله :

﴿٥﴾ ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾

﴿ أمراً من عندنا ﴾ أي جميع ما يكون ويقدره الله تعالى ، وما يوجبه فبأمره وإذنه وعلمه

﴿ إنا كنا مرسلين ﴾ أي إلى الناس رسولاً يتلو عليهم آيات الله مبينات ، فإن الحاجة كانت ماسة إليه .

(٦) ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦) رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ (٧)

﴿ رحمة من ربك إنه هو السميع العليم رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي الذي أنزل القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أي إن كنتم متحققين .

(٨) ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت ﴾ .

(٩) ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾

يقول تعالى : بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون ، أي قد جاءهم الحق اليقين ، وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون به .

(١٠) ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ عن ابن مسعود : إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام ، واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة ، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان ، وفي رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فقيل : يا رسول الله استسق الله لمضر ، فإنها قد هلكت فاستسقى ﷺ فسقوا فنزلت : ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ يعني في يوم بدر . ﴿ بدخان مبين ﴾ هو خيال رأوه بأعينهم من شدة الجوع والجهد . على رأي ابن مسعود أو هو دخان مبين واضح يراه كل أحد ، والدخان من الآيات المنتظرة ، عن ابن عمر قال : يخرج

الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام ويدخل مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ أي المشوي على الرضف .

(١١) ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ يغشى الناس ﴾ أي يغشاهم ويعمهم ، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين كما قال ابن مسعود لما قيل فيه : ﴿ يغشى الناس ﴾ وقوله تعالى ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً .

(١٢) ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ أي يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم .

(١٣) ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ (١٤)

﴿ أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ﴾ يقول : كيف لهم بالتذكر وقد أرسلنا إليهم رسولاً بين الرسالة والنذارة ، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه ، بل كذبوه وقالوا معلم مجنون .

(١٥) ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾

﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ هذا يحتمل معنيين أحدهما : لو كشفنا عنكم العذاب ، ورجعناكم إلى الدار الدنيا لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب ، كقوله تعالى ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ والثاني أن يكون المراد : إنا مؤخروا العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم ، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال ، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم كقوله تعالى ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ .

(١٦) ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾

﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر ، وهذا قول جماعة ، وقال ابن عباس : هي يوم القيامة .

(١٧) ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾

يقول تعالى : ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون ، وهم قبط مصر ﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ يعني موسى كليم الله عليه الصلاة والسلام .

(١٨) ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

﴿ أن أدوا إلى عباد الله ﴾ كقوله عز وجل ﴿ أن أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية ﴾ وقوله تعالى ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أي مأمون على ما أبلغكموه .

(١٩) ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ أي لا تستكبروا عن اتباع آياته ، والانقياد لحججه ، والإيمان ببراهينه ، كقوله عز وجل ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ﴿ إني آتيكم بسلطان مبين ﴾ أي بحجة ظاهرة واضحة ، وهي ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعات .

(٢٠) ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾

﴿ وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون ﴾ هو الرجم باللسان ، وهو الشتم ، وقيل : الرجم بالحجارة ، أي أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل .

(٢١) ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾

﴿ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ أي فلا تتعرضوا لي ، ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا .

(٢٢) ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾

﴿ فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ فأمره الله أن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه .

(٢٣) ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾

﴿ فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون ﴾ كقوله تعالى ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾ .

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ (٢٤)

﴿ واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون ﴾ لما جاوز موسى عليه السلام وبنو إسرائيل البحر أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكناً ، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه ، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى ﴿ رهواً ﴾ كهيئته طريقاً يبساً ، لا تأمره يرجع ، بل اتركه على هيئته .

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ (٢٦)

﴿ كم تركوا من جنات ﴾ بساتين ﴿ وعيون وزروع ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار ﴿ ومقام كريم ﴾ وهي المساكن الأنيقة ، والأماكن الحسنة .

﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ (٢٨)

﴿ ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ أي عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤ وا ، ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد ، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة ، وفارقوا الدنيا ، وصاروا إلى جهنم وبئس المصير ، واستولى على البلاد المصرية ، وتلك الحواصل الفرعونية ، والممالك القبطية بنو إسرائيل ، كما قال تعالى ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ .

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ (٢٩)

أي لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم ، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها ففقدتهم ، فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم ، وفي الحديث « ما من عبد إلا وله في السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه » وتلا هذه الآية ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ رواه الحافظ أبو يعلى .

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٣١)

﴿ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون ﴾ يمتن عليهم تعالى بذلك حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله ، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة ﴿ من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين ﴾ أي مستكبراً جباراً عنيداً .

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ اختيروا على أهل زمانهم ذلك كقوله عز وجل لمريم ﴿ واصطفاك على نساء العالمين ﴾ أي في زمنها ، فإن خديجة رضي الله عنها إما أفضل منها ، أو مساوية لها في الفضل ، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وفضل عائشة رضي الله عنها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

(٣٣) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾

﴿ وآتيناهم من الآيات ﴾ الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿ ما فيه بلاء مبين ﴾ أي اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به .

(٣٤) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (٣٦)

يقول تعالى منكراً على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد ، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا بعد الممات ، ولا بعث ولا نشور ، ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا ، فإن كان البعث حقاً ﴿ فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ وهذه حجة باطلة ، وشبهة فاسدة ، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة ، لا في الدار الدنيا ، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقاً جديداً ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً .

(٣٧) ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾

ثم قال تعالى متهدداً لهم ومتوعداً ، ومنذراً لهم بأسه الذي لا يرد كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع ، وهم سبأ حيث أهلكهم الله عز وجل ، وخرب بلادهم ، وشردهم في البلاد ، وفرقهم شذر مذر ﴿ أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين ﴾ .

(٣٨) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٩)

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث الباطل كقوله تعالى ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾

وقال ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ .

(٤٠) ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

﴿ يوم الفصل ﴾ وهو يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق ، فيعذب الكافرين ، ويثيب المؤمنين ﴿ ميقاتهم أجمعين ﴾ أي يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم .

(٤١) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (٤٢)

﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ﴾ أي لا ينفع قريب قريباً كقوله سبحانه ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون ﴾ وكقوله تعالى ﴿ ولا يسأل حميم حميماً يبصرونهم ﴾ أي لا يسأل أخاً له عن حاله ، وهو يراه عياناً ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي لا ينصر القريب قريبه ولا يأتيه نصره من خارج ، ثم قال ﴿ إلا من رحم الله ﴾ أي لا ينفع يومئذٍ إلا رحمة الله عز وجل بخلقه ﴿ إنه هو العزيز الرحيم ﴾ أي هو عزيز ذو رحمة واسعة .

(٤٣) ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ (٤٤) كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ (٤٦)

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ والأثيم أي في قوله وفعله ، وهو الكافر ، وذكر غير واحد أنه أبو جهل ، ولا شك في دخوله في هذه الآية ، ولكن ليست خاصة به . قال مجاهد : ولو وقعت قطرة منها في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، وقد جاء نحوه مرفوعاً ﴿ كالمهل ﴾ قالوا : كعكر الزيت ﴿ يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ أي من حرارتها ورداءتها .

(٤٧) ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ (٥٠)

﴿ خذوه ﴾ أي الكافر ، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية : « خذوه » ابتدره سبعون ألفاً منهم . ﴿ فاعتلوه ﴾ أي سوقوه سحباً ودفعاً في ظهره ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ أي وسطها ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ كقوله تعالى ﴿ يصب من فوق رؤوسهم

الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴾ وقوله تعالى ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ أي قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ ﴿ إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ كقوله تعالى ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ ﴿٥٥﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء ، ولهذا سمى القرآن تعالى فقال ﴿ إن المتقين ﴾ أي لله في الدنيا ﴿ في مقام أمين ﴾ أي في الآخرة، وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج ، ومن كل هم وحزن ، وجزع وتعب ونصب ومن الشيطان وكيده ، وسائر الآفات والمصائب ﴿ في جنات وعيون ﴾ وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الحميم ﴿ يلبسون من سندس ﴾ وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوه ﴿ وإستبرق ﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان ، وذلك كالرياش وما يلبس على أعالي القماش ﴿ متقابلين ﴾ أي على السرر ، لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره ﴿ كذلك وزوجناهم بحور عين ﴾ أي هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحسان : الحور العين اللاتي ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ وقوله عز وجل ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ أي مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم ، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه ، بل يحضر لهم كلما أرادوا .

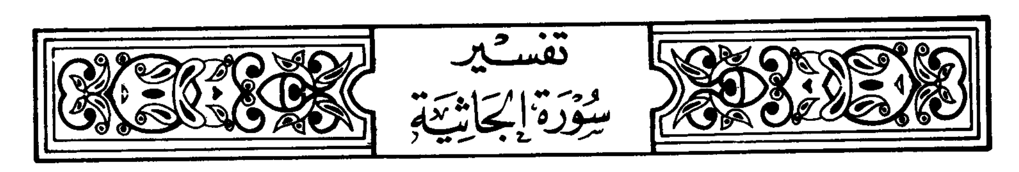
﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ﴿٥٧﴾

﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ هذا استثناء يؤكد النفي ، فإنه استثناء منقطع ، ومعناه أنهم لا يذوقون الموت أبداً ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ، ثم يذبح ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » وفي الحديث « يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً » رواه مسلم ، وقوله تعالى ﴿ ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ أي مع هذا النعيم المقيم قد وقاهم وسلمهم ونجاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم ، فحصل لهم المطلوب ، ونجاهم من

المرهوب . ولهذا قال عز وجل ﴿ فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾ أي إنما كان هذا بفضله عليهم ، وإحسانه اليهم ، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « اعملوا وسددوا وقاربوا ، واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » .

(٥٨) ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿ فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴾ أي إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأعلاها ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي يتفهمون ويعملون ، ثم كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند ، قال الله لرسوله ﷺ مسلياً له وواعداً له بالنصر ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك ﴿ فارتقب ﴾ أي انتظر ﴿ إنهم مرتقبون ﴾ أي فسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة ، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين ، كما قال تعالى ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ حمٓ ﴾

تقدم الكلام عن الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٥﴾

يرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آلائه ونعمه وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع من الملائكة والجن والإنس والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات وما في البحر من الأصناف المتنوعة ،

واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين ، لا يفتران : هذا بظلامه ، وهذا بضيائه ، وما أنزل الله تبارك وتعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة اليه ، وسماه رزقاً لأن به يحصل الرزق ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ أي بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء ﴿وتصريف الرياح﴾ أي جنوباً وشمالاً، ودبوراً وصبا، برية وبحرية، ليلية ونهارية، ومنها ما هو للمطر ، ومنها ما هو للقاح ، ومنها ما هو للأرواح ، ومنها ما هو عقيم لا ينتج . قال سبحانه وتعالى أولاً ﴿ لآيات للمؤمنين ﴾ ، ثم يوقنون ، ثم يعقلون وهو ترق من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى .

(٦) ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ تلك آيات الله ﴾ يعني القرآن بما فيه من الحجج والبينات ﴿ نتلوها عليك بالحق ﴾ أي متضمنة الحق من الحق ، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ .

(٧) ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾

﴿ ويل لكل أفاك أثيم ﴾ أي أفاك في قوله كذاب حلاف مهين ، أثيم في فعله وقلبه ، كافر بآيات الله .

(٨) ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ يسمع آيات الله تتلى عليه ﴾ أي تقرأ عليه ﴿ ثم يصر ﴾ أي على كفره وجحوده استكباراً وعناداً ﴿ كأن لم يسمعها ﴾ أي كأنه ما سمعها ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ أي فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً .

(٩) ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

﴿وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً ﴾ أي إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به ، واتخذه سخرياً وهزواً . ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي في مقابلة ما استهان بالقرآن ، واستهزأ به ، ولهذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو .

(١٠) ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ أي كل من اتصف بذلك سيصير إلى جهنم يوم القيامة ﴿ ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ﴾ أي لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ﴿ ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ أي ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ .

(١١) ﴿ هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾

﴿ هذا هدى ﴾ يعني القرآن ﴿ والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾ وهو المؤلم الموجع .

(١٢) ﴿ ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر ﴿ لتجري الفلك فيه بأمره ﴾ وهي السفن فيه بأمره تعالى ، فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أي في المتاجر والمكاسب ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي على حصول المنافع المجلوبة اليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية .

(١٣) ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي من الكواكب والجبال ، والبحار والأنهار ، وجميع ما تنتفعون به ، أي الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه ، ولهذا قال ﴿ جميعاً منه ﴾ أي من عنده وحده لا شريك له في ذلك ، كما قال تبارك وتعالى ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

(١٤) ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ أي ليصفحوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم ، وكان هذا في ابتداء الإسلام أمروا أن يصبروا على أذى المشركين ، وأهل الكتاب ، ليكون ذلك كالتأليف لهم ، ثم لما أصروا على العناد وشرع الله للمؤمنين الجهاد والجلاد . قال مجاهد : ﴿ لا يرجون أيام الله ﴾ لا ينالون نعم الله . ﴿ ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ أي اذا صفحوا عنهم في الدنيا فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة ، ولهذا قال تعالى .

(١٥) ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أي تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها .

(١٦) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على بني اسرائيل من إنزال الكتب عليهم ، وإرسال الرسل اليهم ، وجعله الملك فيهم ، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي من المآكل والمشارب ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ أي في زمانهم .

(١٧) ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾ أي حججاً وبراهين ، وأدلة قاطعات ، فقامت عليهم الحجج ، ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة ، وإنما كان ذلك بغياً منهم بعضهم على بعض ﴿ إن ربك ﴾ يا محمد ﴿ يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي سيفصل بينهم بحكمه العدل . وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم ، وأن تقصد منهجهم . ولهذا قال جل وعلا :

(١٨) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ﴾ أي ﴿ اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ﴾ ﴿ ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ .

(١٩) ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴾ أي وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم ؟ فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً ﴿ والله ولي المتقين ﴾ وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات .

(٢٠) ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

﴿ هذا بصائر للناس ﴾ يعني القرآن ﴿ وهدى ورحمة لقوم يوقنون ﴾ .

(٢١) ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

يقول تعالى : لا يستوي المؤمنون والكافرون ، كما قال عز وجل ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ وقال تبارك وتعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ أي عملوها وكسبوها ﴿ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ﴾ أي نساويهم بهم في الدنيا والآخرة ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي ساء ما ظنوا بنا ، وبعد لنا أن نساوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة ، وفي هذه الدار .

(٢٢) ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ أي بالعدل ﴿ ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ .

(٢٣) ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه ﴾ أي إنما يأتمر بهواه ، فمهما رآه حسناً فعله ، ومهما رآه قبيحاً تركه ﴿ وأضله الله على علم ﴾ يحتمل قولين : أحدهما وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك ، والآخر وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه ، وقيام الحجة عليه ، والثاني يستلزم الأول ، ولا ينعكس ﴿ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴾ أي فلا يسمع ما ينفعه ، ولا يعي شيئاً يهتدي به ، ولا يرى حجة يستضيء بها ، ولهذا قال ﴿ فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ كقوله تعالى ﴿ من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ .

(٢٤) ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ﴾ أي ما ثم إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة ، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد ، وتقوله الفلاسفة الآلهيون منهم ، وهم ينكرون البداءة والرجعة ، وتقوله الفلاسفة الدهرية المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه ، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكابروا العقول ، وكذبوا المنقول ، ولهذا قالوا ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ قال الله تعالى ﴿ وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ أي يتوهمون ويتخيلون . فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « يقول تعالى يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب ليله ونهاره » فإن العرب في جاهليتهم إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبته الدهر ، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله تعالى ، فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل ، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال . وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث .

(٢٥) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ أي إذا استدل عليهم وبين لهم الحق ، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ﴿ ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ أي أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً .

(٢٦) ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ﴾ أي كما تشاهدون ذلك يخرجكم من العدم الى الوجود ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ ؟ أي الذي قدر على البداءة قادر على الاعادة بطريق الأولى والأحرى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ ﴿ ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ أي إنما يجمعكم إلى يوم القيامة ، لا يعيدكم في الدنيا حتى تقولوا ﴿ ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾ ﴿ لأي يوم أجلت ليوم الفصل ﴾ ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ وقال ههنا

﴿ ثم يجمعكم ليوم القيامة لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي فلهذا ينكرون المعاد ، ويستبعدون قيام الأجساد ، قال تعالى ﴿ إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ﴾ أي يرون وقوعه بعيداً ، والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً .

(٢٧) ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال عز وجل ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ أي يوم القيامة ﴿ يومئذٍ يخسر المبطلون ﴾ وهم الكافرون بالله، الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات. قال ابن أبي حاتم : قدم سفيان الثوري المدينة فسمع المعافري يتكلم ببعض ما يضحك به الناس ، فقال له : يا شيخ ، أما علمت أن لله تعالى يوماً يخسر فيه المبطلون ؟ قال : فما زالت تعرف في المعافري حتى لحق بالله تعالى .

(٢٨) ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿وترى كل أمة جاثية﴾ أي على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا إذا جيء بجهنم، فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه حتى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ويقول : نفسي نفسي ، لا أسألك اليوم إلا نفسي ، وحتى عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام يقول: لا أسألك اليوم الا نفسي، لا أسألك مريم التي ولدتني. ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ يعني كتاب أعمالها ، كقوله عز وجل ﴿ ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ ولهذا قال سبحانه ﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أي تجازون بأعمالكم خيرها وشرها ﴿ ينبأ الأنسان يومئذٍ بما قدم وأخر ﴾ .

(٢٩) ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ أي ستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ أي إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم .

(٣٠) ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾

يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة فقال تعالى ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي امنت قلوبهم ، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة ، وهي الخالصة الموافقة للشرع ﴿ فيدخلهم ربهم في رحمته﴾ وهي الجنة كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى قال للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ﴿ ذلك هو الفوز المبين ﴾ أي البين الواضح .

(٣١) ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

﴿ وأما الذين كفرو أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم ﴾ أي يقال لهم : ذلك تقريعاً وتوبيخاً ، أما قرأت عليكم آيات الله تعالى فاستكبرتم وأعرضتم عن سماعها ﴿ وكنتم قوماً مجرمين ﴾ في أفعالكم مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب .

(٣٢) ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾

﴿ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها ﴾ أي اذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿ قلتم ما ندري ما الساعة ﴾ أي لا نعرفها ﴿ إن نظن إلا ظناً ﴾ أي إن نتوهم وقوعها الا توهماً ، أي مرجوحاً ، ولهذا قال ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾ أي بمحققين .

(٣٣) ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

﴿ وبدا سيئات ما عملوا ﴾ أي وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة ﴿ وحاق بهم ﴾ أي أحاط بهم ﴿ ما كانوا به يستهزؤ ن ﴾ أي من العذاب والنكال .

(٣٤) ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾

﴿ وقيل اليوم ننساكم ﴾ أي نعاملكم معاملة الناس لكم في نار جهنم ﴿ كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ أي فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به ﴿ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾ في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة « ألم أزوجك ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى يا رب ، فيقول : أظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني » .

(٣٥) ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

﴿ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً ﴾ أي إنما جازيناكم هذا الجزاء ، لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخرياً تسخرون وتستهزؤ ن بها ﴿ وغرتكم الحياة الدنيا ﴾ أي خدعتكم فاطمأننتم لها فأصبحتم من الخاسرين ، ولهذا قال عز وجل ﴿ فاليوم لا يخرجون منها ﴾ أي من النار ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أي لا يطلب منهم العتبى ، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب ، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب .

(٣٦) ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين قال ﴿ فلله الحمد رب السموات والأرض ﴾ أي المالك لهما وما فيهما ، ولهذا قال ﴿ رب العالمين ﴾ .

(٣٧) ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

﴿ وله الكبرياء في السموات والأرض ﴾ يعني السلطان ، أي هو العظيم المجيد الذي كل شيء خاضع لديه، فقير إليه وقد ورد في الحديث الصحيح يقول الله تعالى : « العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري » رواه مسلم ﴿ وهو العزيز ﴾ أي الذي لا يغالب ولا يمانع ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . تعالى وتقدس ، لا إله إلا هو .

* * *



تفسير سُورَةِ الأحقاف



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ حمٓ ﴾

تقدم أول سورة البقرة الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور

(٢) ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد ﷺ صلوات الله وسلامه عليه دائماً الى يوم الدين ، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام ، والحكمة في الأقوال والأفعال ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ .

(٣) ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾

﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ أي لا على وجه العبث ﴿ وأجل

مسمى ﴾ أي وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص ﴿ والذين كفرو عما أنذروا معرضون﴾ أي لا هون عما يراد لهم ، وقد أنزل الله اليهم كتاباً ، وأرسل اليهم رسولاً ، وهم معرضون عن ذلك كله ، أي وسيعلمون غب ذلك .

(٤) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره ﴿ أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ أي أرشدوني إلى أي مكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ﴿ أم لهم شرك في السموات ﴾ ؟ أي ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض ، وما يملكون من قطمير ، إن الملك والتصرف كله لله عز وجل ، فكيف تعبدون معه غيره ، وتشركون به ؟ من أرشدكم الى هذا ؟ من دعاكم اليه ؟ أهو أمركم به ؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم ؟ ولهذا قال ﴿ ائتوني بكتاب من قبل هذا ﴾ أي هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يأمركم بعبادة هذه الأصنام﴿ أو أثارة من علم ﴾ أي دليل بين على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي لا دليل لكم ، لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك .

(٥) ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾

﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ﴾ ؟ أي لا أضل ممن يدعو من دون الله أصناماً ، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة ، وهي غافلة عما يقول ، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش ، لأنها جماد حجارة صم .

(٦) ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾

﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ أي سيخونونهم أحوج ما يكونون اليهم .

(٧) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

يقول عز وجل مخبراً عن المشركين في كفرهم وعنادهم : إنهم اذا تتلى عليهم آيات الله

بينات ، أي في حال بيانها ووضوحها وجلائها يقولون ﴿ هذا سحر مبين ﴾ أي سحر واضح ، وقد كذبوا وافتروا ، وضلوا وكفروا .

(٨) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ أم يقولون افتراه ﴾ يعنون محمداً ﷺ . قال الله عز وجل ﴿ قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً ﴾ أي لو كذبت عليه ، وزعمت أنه أرسلني ، وليس كذلك لعاقبني أشد العقوبة ، ولم يقدر أحد من أهل الأرض ، لا أنتم ، ولا غيركم أن يجيرني منه ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم ﴾ هذا تهديد لهم ، ووعيد أكيد ، وترهيب شديد ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ ترغيب لهم الى التوبة والإنابة ، أي ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب عليكم وعفا عنكم ، وغفر ورحم .

(٩) ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ أي لست بأول رسول طرق العالم ، بل قد جاءت الرسل من قبلي ، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني ، وتستبعدوا بعثتي اليكم ، فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء الى الأمم . ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ عن الحسن البصري في قوله تعالى ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ قال : أما في الآخرة فمعاذ الله ، وقد علم أنه في الجنة ، ولكن قال : لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا ، أخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي ؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي ؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة ؟ وهذا القول هو الذي عوَّل عليه ابن جرير ، وأنه لا يجوز غيره ، ولا شك إن هذا هو اللائق به ﷺ ، فإنه بالنسبة الى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة ومن اتبعه ، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول اليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا أيؤمنون أم يكفرون فيعذبونه فيستأصلون بكفرهم ؟ وأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أم العلاء قالت : طاولهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون رضي الله عنه ، فاشتكى عثمان رضي الله عنه عندنا ، فمرضناه ، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه ، فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت : رحمك الله أبا السائب ، شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل ،

فقال رسول الله ﷺ وما يدريك أن الله تعالى أكرمه ؟ فقلت : لا أدري ، بأبي أنت وأمي ، فقال رسول الله ﷺ : « أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير ، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به » فقلت : والله لا أزكي أحداً بعده أبداً ، وأحزنني ذلك فنمت فرأيت لعثمان رضي الله عنه عيناً تجري ، فجئت الى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك عمله» انفرد به البخاري دون مسلم. وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم كالعشرة وابن سلام والعميصاء وسراقة وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة ، وزيد بن حارثة ، وجعفروا بن رواحة ، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى اليَّ ﴾ أي إنما أتبع ما ينزله الله علي من الوحي ﴿ وما أنا إلا نذير مبين ﴾ أي بين النذارة ، أمري ظاهر لكل ذي لب وعقل .

(١٠) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ قل أرأيتم إن كان ﴾ هذا القرآن ﴿ من عند الله وكفرتم به ﴾ أي ما ظنكم به ما الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزله علي لأبلغكموه ، وقد كفرتم به وكذبتموه ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ أي وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلي بشرت به ، وأخبرت ما أخبر هذا القرآن به ﴿ فآمن ﴾ أي هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿ واستكبرتم ﴾ أنتم عن اتباعه ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ وهذا الشاهد اسم جنس يعمم عبدالله ابن سلام وغيره ، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل عبد الله بن سلام رضي الله عنه .

(١١) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾

﴿ وقال الذين كفرو للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ أي قالوا عن المؤمنين بالقرآن : لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء اليه ، يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً رضي الله عنهم وأشباههم ﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾ أي بالقرآن ﴿ فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ أي كذب قديم ، أي مأثور عن الناس الأقدمين فينقصون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ « بطر الحق وغمط الناس »

(١٢) ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ وهو التوراة ﴿ اماماً ورحمة وهذا كتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ مصدق ﴾ أي لما قبله من الكتب ﴿ لساناً عربياً ﴾ أي فصيحاً بيناً واضحاً ﴿ لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ أي مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين .

(١٣) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ﴾ أي فيما يستقبلون ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما خلفوا .

(١٤) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أي الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم ، وسبوغها عليهم .

(١٥) ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

لما ذكر تعالى في الآية التوحيد له واخلاص العبادة والاستقامة اليه عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن فقال ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ﴾ أي أمرناه بالإحسان اليهما ، والحنو عليهما ، عن سعد رضي الله عنه قال : قالت أم سعد لسعد : أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين ، فلا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تكفر بالله تعالى ، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا ، ونزلت هذه الآية ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ﴾ رواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه . ﴿ حملته أمه كرها ﴾ أي قاست بسببه في حمله مشقة وتعباً من وحم وغثيان وثقل وكرب الى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة . ﴿ ووضعته كرهاً ﴾ أي بمشقة أيضاً من الطلق وشدته ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ وقد استدل علي رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿ وفصاله في عامين ﴾ وقوله تبارك وتعالى ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين

كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوي صحيح ، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم . ﴿ حتى إذا بلغ أشده ﴾ أي قوي وشب وارتجل ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾ أي تناهى عقله ، وكمل فهمه ، وحلمه ﴿ قال رب أوزعني ﴾ أي ألهمني ﴿ أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ أي في المستقبل ﴿ وأصلح لي في ذريتي ﴾ أي نسلي وعقبي ﴿ إني تبت اليك وإني من المسلمين ﴾ وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة ، والأنانية الى الله عز وجل ، ويعزم عليها .

(١٦) ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾

﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ﴾ أي هؤلاء المتصفون بما ذكرنا ، التائبون الى الله ، المنيبون إليه ، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فيغفر لهم الكثير من الزلل ، ونتقبل منهم اليسير من العمل ﴿ في أصحاب الجنة ﴾ أي هم في جملة أصحاب الجنة ، وهذا حكمهم عند الله ، كما وعد الله عز وجل من تاب اليه وأناب ، ولهذا قال تعالى ﴿ وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴾ .

(١٧) ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما ﴾ وهذا عام في كل من قال هذا ، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما فقوله ضعيف لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان من خيار أهل زمانه ، وروى العوفي عن ابن عباس أنها نزلت في ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وفي صحة هذا نظر والله أعلم ، ﴿ أتعدانني أن أخرج ﴾ أي أبعث ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾ أي قد مضى الناس فلم يرجع منهم خبر ﴿وهما يستغيثان الله ﴾ أي يسألان الله فيه أن يهديه ويقولا لولدهما ﴿ ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

(١٨) ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾

﴿ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ أي دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

(١٩) ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ أي لكل عذاب بحسب عمله ﴿ وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها .

(٢٠) ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾

﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثير من طيبات المآكل والمشارب وتنزه عنها، وكان يقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم ووبخهم وقرعهم ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ﴾ فجوزوا من جنس عملهم ، فكما متعوا أنفسهم ، واستكبروا عن اتباع الحق ، وتعاطوا الفسق والمعاصي جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون ، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة ، والحسرات المتتابعة ، والمنازل في الدركات المفظعة . أجارنا الله من ذلك كله .

(٢١) ﴿ ۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ﴿واذكر أخا عاد ﴾ وهو هود عليه الصلاة والسلام بعثه الله إلى عاد الأولى ، وكانوا يسكنون الأحقاف جمع حقف وهو الجبل من الرمل ، قال قتادة : ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن أهل رمل مشرفين على البحر

بأرض يقال لها : الشحر . ﴿ وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ﴾ يعني وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ .

(٢٢) ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ﴾ ؟ أي لتصدنا عن آلهتنا ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم وقوعه .

(٢٣) ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ ﴾

﴿ قال إنما العلم عند الله ﴾ أي الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فسيفعل ذلك بكم ، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ أي لا تعقلون ولا تفهمون .

(٢٤) ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضًا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم ﴾ أي لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض ممطر ففرحوا واستبشروا به ، وقد كانوا ممحلين إلى المطر . قال الله تعالى ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ﴾ أي هو العذاب الذي قلتم ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ .

(٢٥) ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾

﴿ تدمر ﴾ أي تخرب ﴿ كل شيء ﴾ من بلادهم مما شأنه الخراب ﴿ بأمر ربها ﴾ أي بإذن الله لها ﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴾ أي قد بادوا كلهم ، ولم تبق لهم باقية ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ أي هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا ، وخالف أمرنا .

(٢٦) ﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعًا وَأَبۡصَٰرًا وَأَفۡـِٔدَةً فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾

يقول تعالى : ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد ، وأعطيناهم منها ما

لم نعطكم مثله، ولا قريباً منه ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة .

(٢٧) ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ يعني أهل مكة ، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن ، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام ، وكذلك سبأوهم أهل اليمن ، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزةِ ، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرون بها أيضاً . وقوله عز وجل ﴿ وصرفنا الآيات ﴾ أي بيناها وأوضحناها ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ .

(٢٨) ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ﴾ أي فهل نصروهم عند احتياجهم إليهم ﴿ بل ضلوا عنهم ﴾ أي بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿ وذلك إفكهم ﴾ أي كذبهم ﴿ وما كانوا يفترون ﴾ في اتخاذهم إياهم آلهة ، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم إياها ، واعتمادهم عليها .

(٢٩) ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾

روى الامام أحمد عن الزبير ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ قال بنخلة ، ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة ﴿ كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ وعن ابن عباس أنهم سبعة من جن نصيبين . وعن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم ، وإنما أوحي إليه قول الجن . وهذا الذي حكاه ابن عباس إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله لم يقرأ عليهم ، ولم يرهم ، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله عز وجل كما رواه عبدالله بن مسعود . وقوله تعالى ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾ أي طائفة من الجن ﴿ يستمعون القرآن

فلما حضروه قالوا أنصتوا ﴾ أي استمعوا ، وهذا أدب منهم ﴿ فلما قضي ﴾ أي فرغ كقوله تعالى ﴿فإذا قضيت الصلاة﴾ وقوله ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾ أي رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ كقوله تعالى ﴿ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ .

(٣٠) ﴿ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم ﴿ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ﴾ ولم يذكروا عيسى عليه السلام لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل ، فيه مواعظ وترقيقات ، وقليل من التحليل والتحريم ، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ، فالعمدة هو التوراة ، فلهذا قالوا ﴿ أنزل من بعد موسى ﴾ وهكذا قال ورقة بن نوفل : بخ بخ هذا الناموس الذي كان يأتي موسى ، يا ليتني أكون فيها جذعاً ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي من الكتب المنزلة على الأنبياء قبله . وقولهم ﴿ يهدي إلى الحق ﴾ أي في الاعتقاد والإخبار ﴿ وإلى طريق مستقيم ﴾ في الأعمال ، فإن القرآن مشتمل على شيئين : خبر وطلب ، فخبره صدق ، وطلبه عدل ، كما قال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ .

(٣١) ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ يا قومنا أجيبوا داعي الله ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس ، حيث دعاهم إلى الله تعالى ، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم ، وهي سورة الرحمٰن ولهذا قال ﴿ أجيبوا داعي الله وآمنوا به ﴾ وقوله تعالى ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ قيل : ﴿ من ﴾ هذه زائدة ، وفيه نظر ، لأن زيادتها في الإثبات قليل ، وقيل : إنها على بابها للتبعيض ﴿ ويجركم من عذاب أليم ﴾ أي ويقيكم من عذابه الأليم .

(٣٢) ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُولَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ﴾ أي بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به ﴿ وليس لـه من دونه أولياء ﴾ أي لا يجيرهم منه أحد ﴿ أولئك في ضلال مبين ﴾ وهذا

مقام تهديد وترهيب ، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب ولهذا نجع في كثير منهم ، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً .

(٣٣) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول تعالى : أولم ير هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿ أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعيَ بخلقهن ﴾ أي ولم يكرثه خلقهن ، بل قال لها : كوني فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة ، بل طائعة خائفة وجلة ، أفليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى ؟ ﴿ بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ .

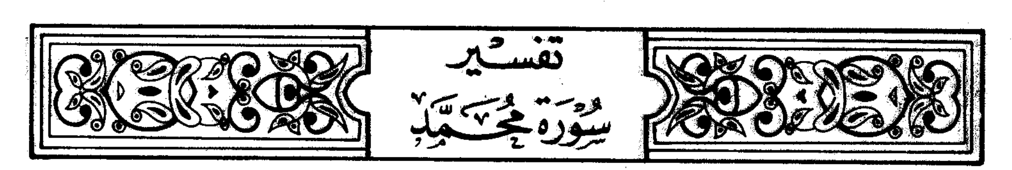
(٣٤) ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

ثم قال جل جلاله متهدداً ومتوعداً لمن كفر به ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق ﴾ أي يقال لهم : أما هذا حق ؟ ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ؟ ﴾ ﴿ قالوا بلى وربنا ﴾ أي لا يسعهم إلا الاعتراف ﴿ قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .

(٣٥) ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

ثم قال تبارك وتعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ أي على تكذيب قومهم . وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال ، وأشهرها أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ .
﴿ من ﴾ في قوله تعالى ﴿ من الرسل ﴾ لبيان الجنس . روى ابن أبي حاتم عن مسروق قال : قالت لي عائشة رضي الله عنها : ظل رسول الله ﷺ صائماً ، ثم طواه ، ثم ظل صائماً ، ثم طواه ، ثم ظل صائماً ، ثم قال : « يا عائشة ، إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة ، إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروهها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم فقال ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ، ولا قوة إلا

بالله » . ﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ أي لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ كقوله جل جلاله ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ وقوله جل وعلا ﴿ بلاغ ﴾ يحتمل معنيين، أحدهما أن يكون تقديره : وذلك لبث بلاغ ، والآخر أن يكون تقديره : هذا القرآن بلاغ . وقوله تعالى ﴿ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ أي لا يهلك على الله إلا هالك ، وهذا من عدله عز وجل أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾

﴿ الذين كفروا ﴾ أي بآيات الله ﴿ وصدوا ﴾ غيرهم ﴿ عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾ أي أبطلها وأذهبها ، ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاء ، كقوله تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ .

(٢) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾

ثم قال جل وعلا ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي آمنت قلوبهم وسرائرهم ، وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم ﴿ وآمنوا بما نزل على محمد ﴾ عطف خاص على عام ، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ . وقوله تبارك وتعالى ﴿ وهو الحق من ربهم ﴾ جملة معترضة حسنة . ولهذا قال جل جلاله ﴿ كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾ أي أمرهم ، أو شأنهم . وقد جاء في حديث تشميت العاطس « يهديكم الله ويصلح بالكم » .

(٣) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ﴾

ثم قال عز وجل ﴿ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ﴾ أي إنما أبطلنا أعمال الكفار ، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار ، وأصلحنا شؤونهم ، لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، أي اختاروا الباطل على الحق ﴿ وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ أي يبين لهم مآل أعمالهم ، وما يصيرون إليه في معادهم .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (٤)

يقول تعالى مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ أي إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصد السيوف ﴿ حتى إذا أثخنتموهم ﴾ أي أهلكتموهم قتلاً ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ أي الأسارى الذين تأسرونهم ، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب ، وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم ، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجاناً ، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم ، وتشارطونهم عليه ، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، فإن الله سبحانه عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذٍ ، ليأخذوا منهم الفداء ، والتقليل من القتل يومئذٍ فقال ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض . . . ﴾ وقوله عز وجل ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ حتى ينزل عيسى عليه السلام ، وكأنه أخذه من قوله ﷺ « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال » أو ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ حتى لا يبقى مشرك . وهذا كقوله تعالى ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴾ وقوله عز وجل ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ أي هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ﴿ ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ، ليختبركم ويبلو أخباركم . ثم لما كان شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال ﴿ والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ﴾ أي لن يذهبها ، بل يكثرها وينميها ويضاعفها . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « يعطى الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان » تفرد به أحمد رحمه الله . وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « يغفر

للشهيد كل شيء إلا الدين » وفي الحديث « يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته » رواه أبو داود والإمام مسلم .

(٥) ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾

﴿ سيهديهم ﴾ أي إلى الجنة كقوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ﴾ وقوله عز وجل ﴿ ويصلح بالهم ﴾ أي أمرهم وحالهم .

(٦) ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾

﴿ ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ أي عرفهم بها وهداهم إليها . قال مجاهد : يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لا يستدلون عليها أحداً . وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أن رسول الله ﷺ قال : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار ، يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا » .

(٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ كقوله عز وجل ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل ، ولهذا قال تعالى ﴿ ويثبت أقدامكم ﴾ كما جاء في الحديث « من بلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة » .

(٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

﴿ والذين كفروا فتعساً لهم ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسوله ﷺ وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » أي فلا شفاه الله عز وجل . ﴿ وأضل أعمالهم ﴾ أي أحبطها وأبطلها .

(٩) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله ﴾ أي لا يريدونه ولا يحبونه ﴿ فأحبط أعمالهم ﴾ .

(١٠) ﴿ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾

﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ يعني المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم ﴾ أي عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم ، أي ونجى المؤمنين من بين أظهرهم . ولهذا قال ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ .

(١١) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾

﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ ولهذا لما قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر فلم يجب وقال : أما هؤلاء فقد هلكوا ، وأجابه عمر فقال : كذبت يا عدو الله ، بل أبقى الله تعالى على ما يسوءك ، وإن الذين عددت لأحياء ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، أما إنكم ستجدون مثلة لم آمر بها ، ولم أنه عنها ، ثم ذهب يرتجز ويقول : اعل هبل اعل هبل ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا تجيبوه » ؟ فقالوا : يا رسول الله ، وما نقول ؟ قال ﷺ قولوا : « الله أعلى وأجل » ثم قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال ﷺ : « ألا تجيبوه » ؟ قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم » .

(١٢) ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾

﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي يوم القيامة ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴾ أي في دنياهم يتمتعون بها ، ويأكلون منها كأكل الأنعام خضماً وقضماً ، ليس لهم همة إلا في ذلك . ولهذا ثبت في الصحيح « المؤمن يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء » . ثم قال تعالى ﴿ والنار مثوى لهم ﴾ أي يوم جزائهم .

(١٣) ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾

﴿ وكأيـن من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتـك ﴾ يعني مكة ﴿ أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ ، وهو سيد الرسل ، وخاتم النبيين ، فإذا كان الله عز وجل قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم ، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء ، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى ؟ فإنه رفع عن كثير العقوبة في الدنيا وجود الرسول نبي الرحمة ، بأن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم ﴿ من قريتك التي أخرجتك ﴾ أي الذين أخرجوك من بين أظهرهم. روى ابن أبي حاتم لما خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى الغار، فالتفت إلى مكة وقال : « أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إليَّ ، ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك » فأعـدا الأعداء من عدا على الله تعالى في حرمه ، أو قتل غير قاتله .

(١٤) ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴾

﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ أي على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم ، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة ﴿ كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾ أي ليس هذا كهذا ، كقوله تعالى ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ .

(١٥) ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾

﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ أي نعتها ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ غير متغير ، تقول : أسن الماء إذا تغير ريحه . ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ أي بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة . وفي حديث مرفوع « لم يخرج من ضروع الماشية » ﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا ، بل حسنة المنظر ، والطعم والرائحة والفعل ﴿ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون﴾ ﴿ لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾ ﴿ بيضاء لذة للشاربين ﴾ وفي حديث مرفوع « لم يعصرها الرجال بأقدامهم » ﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾ أي وهو في غاية الصفاء ، وحسن اللون والطعم والريح . وفي حديث مرفوع « لم يخرج من بطون النحل » ﴿ ولهم فيها من كل

الثمرات ﴾ كقوله عز وجل ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ أي أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء ، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات (وسقوا ماء حميماً ﴾ أي حاراً شديدالحر ، لا يستطاع ﴿ فقطع امعاءهم ﴾ أي قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء . عياذاً بالله من ذلك .

(١٦) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقله فهمهم حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ، ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئاً ، فإذا خرجوا من عنده ﴿ قالوا للذين أوتوا العلم ﴾ من الصحابة رضي الله عنهم ﴿ ماذا قال آنفاً ﴾ أي الساعة . لا يعقلون ما قال ولا يكترثون له . قال الله تعالى ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ أي فلا فهم صحيح ، ولا قصد صحيح .

(١٧) ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾

﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ أي والذين قصدوا الهداية وفقهم الله تعالى لها فهداهم اليها وثبتهم عليها وزادهم منها ﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ أي ألهمهم رشدهم .

(١٨) ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾

﴿ فهل ينظرون إلا السّاعة أن تأتيهم بغتة ﴾ أي وهم غافلون ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ أي أمارات اقترابها، كقوله تعالى ﴿ هذا نذير من النذر الأولى. أزفت الآزفة. ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ فبعثه رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين ، وأقام به الحجة على العالمين ، وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها ، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله . وفي البخاري « بعثت أنا والساعة كهاتين » ﴿ فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ أي فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك ؟ كقوله تعالى ﴿ يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ .

(١٩) ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾

﴿ فاعلم أنه لا إلّه إلا الله ﴾ هذا إخبار بأنه لا إلّه إلا الله ، ولا يتأتى كونه آمراً بعلم ذلك ولهذا عطف عليه قوله عز وجل ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني ، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني ، أنت إلّهي لا إلّه إلا أنت » وفي الصحيح أنه قال « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » .
﴿ والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ أي يعلم تصرفكم في نهاركم ، ومستقركم في ليلكم ، كقوله تعالى ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ وقيل : يعلم متقلبكم ومثواكم في الأخرة ، وقيل : يعلم متقلبكم في الدنيا ، ومثواكم في الأخرة . والأول أولى وأظهر .

(٢٠) ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله عز وجل نكل كثير من الناس ، كقوله تعالى ﴿ فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب ﴾ وقال عز وجل ههنا ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ﴾ أي مشتملة على حكم القتال . ولهذا قال ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت ﴾ أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء . ثم قال مشجعاً لهم ﴿ فأولى لهم ﴾ .

(٢١) ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾

﴿ طاعة وقول معروف ﴾ أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا أو يطيعوا أي في الحالة الراهنة ﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ أي جد الحال ، وحضر القتال ﴿ فلو صدقوا الله ﴾ أي أخلصوا له النية ﴿ لكان خيراً لهم ﴾ .

(٢٢) ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴾

﴿ فهل عسيتم إن توليتم ﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿ أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا

أرحامكم ﴾ ؟ أي أن تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء ، تسفكون الدماء ، وتقطعون الأرحام .

(٢٣) ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾

﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً ، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأمثال وبذل الأموال ، وفي الحديث الذي رواه البخاري « خلق الله تعالى الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوى الرحمن عز وجل ، فقال : من ، فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال تعالى : ألا ترضى أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ، قال : فذاك لك » قال أبو هريرة: اقرؤ وا إن شئتم ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ .

(٢٤) ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه وناهياً عن الإعراض عنه ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ أي بل على قلوب أقفالها ، فهي مطبقة لا يخلص اليها شيء من معانيه .

(٢٥) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾

﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعدما يتبين لهم الهدى ﴾ أي فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ﴿ الشيطان سـول لهم ﴾ أي زين لهم ذلك وحسنه ﴿ وأملى لهم ﴾ أي غرَّهم وخدعهم .

(٢٦) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾

﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر ﴾ أي ما لؤ وهم وناصحوهم في الباطن على الباطل ، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون ، ولهذا قال تعالى ﴿ والله يعلم إسرارهم ﴾ أي ما يسرونه وما يخفونه ، فالله مطلع عليه ، وعالم به ، كقوله تبارك وتعالى ﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ .

(٣٧) ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾

﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم ، وتعاصت الأرواح في أجسادهم ، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب ، كما قال سبحانه ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفرو الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ .

(٣٨) ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾

ولهذا قال سبحانه ههنا ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾

(٣٩) ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾

﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ ؟ أي أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ، بل سيوضح أمرهم ، ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر ، وقد أنزل الله في ذلك سورة « براءة » فبين فيها فضائحهم ، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم ، ولهذا كانت تسمى الفاضحة . والأضغان جمع ضغن ، وهو باقي النفوس من الحسد والحقد للأسلام وأهله والقائمين بنصره .

(٣٠) ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ج وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ج وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾

﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ﴾ يقول عز وجل : ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم فوقهم عياناً ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين ستراً منه على خلقه وحملاً للأمور على ظاهر السلامة ، وردا للسرائر الى عالمها ﴿ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم ، بفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه : ما أسر احد سريرة الا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه . وفي الحديث « ما أسر أحد سريرة إلا اكساه الله تعالى جلبابها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر » روى الإمام أحمد عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال « إن منكم منافقين ، فممن سميت فليقم - ثم قال - قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً ، ثم قال : « إن فيكم أو منكم منافقين فاتقوا الله » قال فمر عمر رضي الله عنه برجل ممن سمى مقنع

قد كان يعرفه فقال : مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ ، فقال : بعداً لك سائر اليوم .

(٣١) ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾

﴿ ولنبلونكم ﴾ أي لنختبرنكم بالأوامر والنواهي ﴿ حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ وليس في تقدم علم الله تعالى بم هو كائن أنه سيكون ، شك ولا ريب ، فالمراد حتى نعلم وقوعه ، ولهذا يقول إبن عباس في مثل هذا :﴿ حتى نعلم ﴾ أي لنرى .

(٣٢) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

يخبر تعالى بمن كفرو وصد عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقه وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى أنه لن يضر الله شيئاً ، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها ، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه بردته جناح بعوضة من خير ، بل يحبطه ويمحقه بالكلية ، كما أن الحسنات يذهبن السيئات .

(٣٣) ﴿ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾

روى الإمام أحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إلّه إلا الله ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل . ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ أي بالردة .

(٣٤) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾

﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ﴾ كقوله سبحانه وتعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾.

(٣٥) ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾

﴿ فلا تهنوا ﴾ أي لا تضعفوا عن الأعداء ﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾ أي المهادنة والمسالمة

ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عَددكم وعُددكم ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ أي في حال علوكم على عدوكم ، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة الى جميع المسلمين ، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ، ودعوه إلى الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم ﷺ إلى ذلك . وقوله جلت عظمته ﴿ والله معكم ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء . ﴿ ولن يتركم أعمالكم ﴾ أي ولن يحبطها ويبطلها ، ويسلبكم اياها ، بل يوفيكم ثوابها ، ولا ينقصكم منها شيئاً .

(٣٦) ﴿ إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا تهويناً لشأنها ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ أي حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل ولهذا قال تعالى ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ﴾ أي هو غني عنكم ، لا يطلب منكم شيئاً ، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لأخوانكم الفقراء ، ليعود نفع ذلك عليكم ، ويرجع ثوابه إليكم .

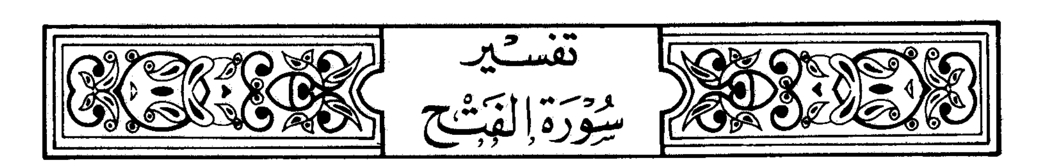
(٣٧) ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾

﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ﴾ أي يحرجكم تبخلوا ﴿ ويخرج أضغانكم ﴾ قال قتادة : قد علم الله أن في إخراج الأموال اخراج الأضغان ، وصدق ، فإن المال محبوب ، ولا يصرف الا فيما هو أحب الى شخص منه .

(٣٨) ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴾

﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ﴾ أي لا يجيب إلى ذلك ﴿ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ﴾ أي إنما نقص نفسه من الأجر ، وإنما يعود وبال ذلك عليه . ﴿ والله الغني ﴾ أي عن كل ما سواه ، وكل شيء فقير اليه دائماً ، ولهذا قال تعالى ﴿ وأنتم الفقراء ﴾ أي بالذات إليه ، فوصفه بالغنى وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه . وقوله تعالى ﴿ وإن تتولوا ﴾ أي عن طاعته واتباع شرعه ﴿ يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ أي ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره . روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن أبي هريرة قال : إن رسول الله ﷺ تلا هذه

الآية ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً . . . ﴾ قالوا : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدوا بنا، ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه ، ثم قال « هذا وقومه »، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس » تفرد به مسلم .



تفسير سورة الفتح

روى الإمام أحمد عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها ، قال معاوية : لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته . أخرجاه من حديث شعبة .

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة حين صده المشركون عن الوصول الى المسجد الحرام ، فيقضي عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ، ثم يأتي من قابل ، فأجابتهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما نحر ﷺ هديه حيث أحصر ورجع أنزل الله هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة ، وما آل الأمر اليه ، كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية . ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ أي بيناً ظاهراً ، والمراد به صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وأمن الناس ، واجتمع بعضهم ببعض ، وتعلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان .

(٢) ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها

غيره ، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره « غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ ، وهو ﷺ في جميع اموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه ، لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو ﷺ أكمل البشر على الاطلاق ، وسيدهم في الدنيا والآخرة ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿ ويهديك صراطاً مستقيماً ﴾ أي بما يشرعه لك من الشرع العظيم ، والدين القويم .

(٣) ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴾

﴿ وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ أي بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل يرفعك الله وينصرك على أعدائك ، كما جاء في الحديث الصحيح « وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزّاً ، وما تواضع أحد لله عز وجل الا رفعه الله تعالى » وعن عمر رضي الله عنه أنه قال : ما عاقبت أحداً عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله تبارك فيه .

(٤) ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾

﴿ هو الذي أنزل السكينة ﴾ أي جعل الطمأنينة ، وقيل : الرحمة ، وقيل : الوقار في قلوب المؤمنين، وهم الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية الذين استجابوا الله ولرسوله ، وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم ايماناً مع ايمانهم ، وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب .
﴿ ولله جنود السموات والأرض ﴾ فلو شاء الله لا نتصر من الكافرين إذا لو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم ، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال لما له في ذلك من الحكمة البالغة ، والحجة القاطعة ، والبراهين الواقعة ، ولهذا قال جلت عظمته ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ .

(٥) ﴿ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾

﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ ويكفر عنهم سيئاتهم ﴾ أي خطاياهم وذنوبهم ، فلا يعاقبهم عليها ، بل يعفو ويصفح ، ويغفر ويستر ، ويرحم ويشكر ﴿ وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾ كقوله عز

وجل ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ .

(٦) ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾

﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء ﴾ أي يتهمون الله تعالى في حكمه ، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية ، ولهذا قال تعالى ﴿ عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿ وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ .

(٧) ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

ثم قال الله عز وجل مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين ﴿ ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ .

(٨) ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

﴿ إنا أرسلناك شاهداً ﴾ أي على الخلق ﴿ ومبشراً ﴾ أي للمؤمنين ﴿ ونذيراً ﴾ أي للكافرين .

(٩) ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه ﴾ أي تعظموه ﴿ وتوقروه ﴾ من التوقير ، وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿ وتسبحوه ﴾ أي تسبحون الله ﴿ بكرة وأصيلاً ﴾ أي أول النهار وآخره .

(١٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

ثم قال عز وجل لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ كقوله جل جلاله ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ أي

هو حاضر معهم ، يسمع أقوالهم ، ويرى مكانهم ، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ ، كقوله تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ روى ابن أبي حاتم: «من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله» وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ في الحجر « والله ليبعثنه الله عز وجل يوم القيامة ، له عينان ينظر بهما ، ولسان ينطق به ، ويشهد على من استلمه بالحق ، فمن استلمه فقد بايع الله تعالى » . ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ أي إنما يعود وبال ذلك على الناكث ، والله غني عنه ﴿ ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾ أي ثواباً جزيلاً ، وهذه البيعة هي بيعة الرضوان ، وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية ، وكان الصحابة رضي الله عنهم الذين بايعوا رسول الله يومئذٍ ألفاً وثلاثمائة . عن جابر رضي الله عنه قال : كنا يومئذٍ ألفاً وأربعمائة ، ووضع يده في ذلك الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه حتى رووا كلهم . أخرجاه .

(١١) ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾

يقول تعالى مخبراً رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم بذلك ، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ ، وذلك قول منهم ، لا على سبيل الاعتقاد ، بل على وجه التقية والمصانعة ، ولهذا قال تعالى ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ﴾ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أراده الله فيكم ، تعالى وتقدس ، وهو العليم بسرائركم وضمائركم ، وإن صانعتمونا ونافقتمونا ، ولهذا قال تعالى ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ .

(١٢) ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾

﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ﴾ أي اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم ، وتستباد خضراؤهم ، ولا يرجع منهم مخبر ﴿ وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ أي هلكى ، أو فاسدين .

(١٣) ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾

﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله ﴾ أي من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله ، فإن الله سيعذبه في السعير ، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر .

(١٤) ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفور رحيماً ﴾ أي لمن تاب إليه ، وأناب ، وخضع لديه .

(١٥) ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر يفتحونها أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم ، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجادلتهم ومصابرتهم ، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يأذن لهم في ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم ، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين ، فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدراً ، ولهذا قال تعالى ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية وقيل : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ يعني بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد ﴿ قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ﴾ أي وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم ﴿ فسيقولون بل تحسدوننا ﴾ أي نشرككم في المغانم ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ، ولكن لا فهم لهم .

(١٦) ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن

تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم الذين هم أولوا بأس شديد على أقوال : أحدها أنهم هوازن ، الثاني أنهم ثقيف ، الثالث بنو حنيفة ، الرابع هم أهل فارس ، أو هم فارس والروم ، أو هم أهل الأوثان أو هم رجال أولوا بأس شديد ، ولم يعين فرقة ، وهو اختيار ابن جرير ، وبه يقول ابن جريج . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين ذلف الأنوف ، كأن وجوههم المجان المطرقة » قال سفيان : هم الترك . رواه ابن أبي حاتم ، وفسر أبو هريرة رضي الله عنه قول رسول الله ﷺ « تقاتلوا قوماً فعالهم الشعر » قال : هم البارزون يعني الأكراد . وقوله تعالى ﴿ تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم ، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم ، ولكم النصرة عليهم ، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال ، بل باختيار . ثم قال عز وجل ﴿ فإن تطيعوا ﴾ أي تستجيبوا أو تنفروا في الجهاد ، وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿ يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل ﴾ يعني زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم ﴿ يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ .

(١٧) ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد ، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر ، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ، ثم يزول فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى برأه ثم قال تبارك وتعالى مرغباً في الجهاد وطاعة الله ورسوله ﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول ﴾ أي ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش ﴿ يعذبه عذاباً أليماً ﴾ في الدنيا بالمذلة ، وفي الآخرة بالنار .

(١٨) ﴿ * لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، وعدتهم ألف وأربعمائة ، والشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية . ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ أي من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ﴿ فأنزل السكينة ﴾ وهي الطمأنينة ﴿ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ وهو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم ، وما

حصل بذلك من الخير المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم ، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة .

(١٩) ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

ولهذا قال تعالى ﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ ، روى ابن أبي حاتم عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : بينما نحن قائلون ، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ : أيها الناس ، البيعة البيعة ، نزل روح القدس ، قال : فثرنا إلى رسول الله ﷺ ، وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قول الله تعالى ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة . . . ﴾ فبايع رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه باحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس : هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ، ونحن ههنا ، فقال رسول الله ﷺ « لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف » .

(٢٠) ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

قال مجاهد في قوله تعالى ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ﴾ : هي جميع المغانم إلى اليوم ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ يعني فتح خيبر ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ يعني صلح الحديبية ﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ أي لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال ، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحريمكم ﴿ ولتكون آية للمؤمنين ﴾ أي يعتبرون بذلك ، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم ، وليعلموا بصنيع الله هذابهم أنه العالم بعواقب الأمور ، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين ، وإن كرهوه في الظاهر ، كما قال الله عز وجل ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ ﴿ ويهديكم صراطاً مستقيماً ﴾ أي بسبب انقيادكم لأمره ، واتباعكم طاعته ، وموافقتكم رسوله ﷺ .

(٢١) ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾

﴿ وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ أي وغنيمة أخرى ، وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرون عليها قد يسرها الله عليكم ، وأحاط بها لكم ، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون ، وعن ابن عباس : هذه الغنيمة هي خيبر ، وقال قتادة : هي مكة .

(٢٢) ﴿ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ يقول عز وجل مبشراً لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ، ولانهزم جيش الكفر فاراً مدبراً لا يجدون ولياً ولا نصيراً ، لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين .

(٢٣) ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

ثم قال تبارك وتعالى ﴿ سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي هذه سنة الله وعادته في خلقه . ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر فرفع الحق ووضع الباطل ، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين ، نصرهم الله على أعدائه من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعُددهم ، وكثرة المشركين وعُددهم .

(٢٤) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة . . . ﴾ هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين ، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلاً من الفريقين ، وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين ، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة . روى الامام أحمد لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح من قبل جبل التنعيم ، يريدون غرة رسول الله ﷺ ، فدعا عليهم فأخذوا ، فعفا عنهم ، ونزلت هذه الآية . ورواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

(٢٥) ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومن ما لأهم على نصرتهم

على رسول الله ﷺ ﴿ هم الذين كفروا ﴾ أي هم الكفار دون غيرهم ﴿ وصدوكم عن المسجد الحرام ﴾ أي وأنتم أحق به ، وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿ والهدي معكوفاً أن يبلغ محله ﴾ أي وصدوا الهدي أن يصل إلى محله ، وهذا من بغيهم وعنادهم ، وكان الهدي سبعين بدنة ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ﴾ أي بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم لكنا سلطناكم عليهم فقتلتموهم ، وأبدتم خضراءهم ، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل ، ولهذا قال تعالى ﴿ لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ﴾ أي إثم وغرامة ﴿ ليدخل الله في رحمته من يشاء ﴾ أي يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين ، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام . ﴿ لو تزيلوا ﴾ أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿ لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾ أي لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلاً ذريعاً .

(٢٦) ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾

﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا « بسم الله الرحمن الرحيم » وأبوا أن يكتبوا : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » ﴿ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى ﴾ وهي قول « لا إله إلا الله » ﴿ وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ أي كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿ وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر .

(٢٧) ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت ، فأخبر أصحابه بذلك . وهو بالمدينة ، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤ يا تتفسر هذا العام ، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ، ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفس بعض الصحابة ، رضي الله عنهم من ذلك شيء ، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك ، فقال له فيما قال : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ »قال : لا ، قال النبي ﷺ :

« فإنك آتيه ومطوف به » وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه أيضاً حذو القذة بالقذة ، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤ يا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده ، وليس هذا من الاستثناء في شيء ﴿ آمنين ﴾ أي في حال دخولكم ﴿ محلقين رؤ وسكم ومقصرين ﴾ حال مقدرة ، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين ، وإنما كان هذا في ثاني الحال ، كان منهم من حلق رأسه ، ومنهم من قصره ، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « رحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « رحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « رحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله . قال ﷺ : « والمقصرين » في الثالثة ، أو الرابعة . ﴿ لا تخافون ﴾ حال مؤكدة في المعنى ، فأثبت لهم الأمن حال الدخول ، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد ، لا يخافون من أحد ، وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع . ﴿ فعلم ما لم تعلموا ﴾ أي فعلم الله عز وجل من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ، ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿ فجعل من دون ذلك ﴾ أي قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤ يا النبي ﷺ ﴿ فتحاً قريباً ﴾ وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين .

(٢٨) ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ﴾ أي بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل ، فالعلم الشرعي صحيح ، والعمل الشرعي مقبول ، فاخباراتها حق ، وإنشاءاتها عدل . ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ أي على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومليين ومشركين . ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ أي أنه رسول الله ، وهو ناصره .

(٢٩) ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب فقال ﴿ محمد رسول الله ﴾ وهذا مبتدأ وخبر ، وهو مشتمل على كل وصف جميل ، ثم ثنى بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم فقال ﴿ والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار ، براً رحيماً بالأخيار ، غضوباً عبوساً في وجه الكفار ، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن ﴿ تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة ، وهي خير الأعمال ، ووصفهم بالاخلاص فيها لله عز وجل ، والاحتساب عند الله جزيل الثواب وهو الجنة ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ يعني السمت الحسن ، أو الخشوع والتواضع . قال أحدهم لمجاهد : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه ، فقال : ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون . وفي الحديث « من كثرت صلاته بالليل حن وجهه بالنهار » رواه ابن ماجه . والصحيح أنه موقوف . ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ﴾ إذ نوهت بهم الكتب المنزلة ، والأخبار المتداولة . ﴿ ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه ﴾ أي فراخه ﴿ فآزره ﴾ أي شده ﴿ فاستغلظ ﴾ أي شب وطال ﴿ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ﴾ أي فكذلك أصحاب رسول الله آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك في رواية عنه بتكفير الذين يبغضون الصحابة ووافقه طائفة من العلماء على ذلك . والأحاديث في فضل الصحابة ، والنهي عن التعرض لهم بمباديهم كثيرة . ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم ﴾ ﴿ من ﴾ هذه لبيان الجنس ﴿ مغفرة ﴾ أي لذنوبهم ﴿ وأجراً عظيماً ﴾ أي ثواباً جزيلاً ، ورزقاً كريماً ، ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل . وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمتهم ، ولهم الفضل والسبق . وفي الحديث « لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » .

* * *



تفسير سُورَةُ الحُجُرَاتِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والاعظام فقال تبارك وتعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ أي لا تسرعوا في الأشياء بين يديه ، أي قبله ، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور ، أو لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ، أو لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم ، أو لا تقدموا بين يدي الله ورسوله بقول ولا فعل ، ﴿ واتقوا الله ﴾ أي فيما أمركم به ﴿ إن الله سميع ﴾ أي لأقوالكم ﴿ عليم ﴾ بنياتكم .

(٢) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين ، أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته ، روى البخاري عن ابن أبي مليكة قال : كاد الخيران أن يهلكا : أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، رفعا أصواتهما حين قدم عليه ركب بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس ، وأشار الآخر برجل آخر فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي ، قال : ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما في ذلك ، فأنزل الله هذه الآية . وروى البخاري عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس رضي الله عنه ، فقال رجل يا رسول الله ، أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شر ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله ، فهو من أهل النار ، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال : كذا وكذا ، فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال : « اذهب إليه ، فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة » تفرد به البخاري من هذا الوجه . ﴿ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك ، فيغضب الله تعالى لغضبه ، فيحبط عمل من أغضبه ، وهو لا يدري ،

كما جاء في الصحيح « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالاً يكتب له بها الجنة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض » .

(٣) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده ، وحث على ذلك ، وأرشد إليه ، ورغب فيه فقال ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ أي خلصها لها ، وجعلها أهلاً ومحلاً ﴿ لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ روى الإمام أحمد عن مجاهد قال : كتب إلى عمر : يا أمير المؤمنين ، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل ، أم رجل يشتهي المعصية ، ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر رضي الله عنه : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ .

(٤) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات ، وهي بيوت نسائه كما يصنع أجلاف العرب ، فقال : ﴿ أكثرهم لا يعقلون ﴾ .

(٥) ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك فقال عز وجل ﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ﴾ أي لكان لهم في ذلك الخيرة ، والمصلحة في الدنيا والآخرة ، ثم قال تعالى داعياً لهم إلى التوبة والإنابة ﴿ والله غفور رحيم ﴾ وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي رضي الله عنه ، روى الإمام أحمد أن الأقرع بن حابس نادى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد يا محمد ، وفي رواية يا رسول الله فلم يجبه ، فقال : يا رسول الله ، إن حمدي لزين ، وإن ذمي لشين ، فقال : « ذاك الله عز وجل » .

(٦) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له ، لئلا يحكم بقوله فيكون في نفس الأمر

كاذباً أو مخطئاً ، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه ، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين ، ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر ، وقبلها آخرون لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق الفسق ، لأنه مجهول الحال . وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق ، فلما سمع بذلك القوم تلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ ، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال : إن بني المصطلق قد منعوني صدقاتهم ، فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون ، فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ فصغوا له حين صلى الظهر فقال : نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله ، بعثت إلينا رجلاً مصدقاً فسررنا بذلك ، وقرت به أعيننا ، ثم إنه رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك غضباً من الله تعالى ومن رسوله ﷺ ، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال فأذن بصلاة العصر ونزلت . قال قتادة : فكان رسول الله ﷺ يقول : « التثبت من الله والعجلة من الشيطان » .

(٧) ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾

﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ أي اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم ، وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ ثم بين أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال ﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ أي لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجكم ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ﴾ أي حببه إلى نفوسكم ، وحسنه في قلوبكم . ﴿ وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ أي وبغض إليكم الكفر والفسوق ، وهي الذنوب الكبار ، ﴿ والعصيان ﴾ وهي جميع المعاصي ، وهذا تدريج لكمال النعمة ﴿ أولئك هم الراشدون ﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم .

(٨) ﴿ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ فضلاً من الله ونعمة ﴾ أي هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ، ونعمة من

لدنه ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

(٩) ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً بالاصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ فسماهم مؤمنين مع الاقتتال ، وبهذا استدل البخاري بأنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت ، لا كما يقول الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة وغيرهم ﴿ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله وتسمع للحق وتطيعه ﴿ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ﴾ أي اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط ، وهو العدل ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ وفي الحديث « إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمٰن عز وجل بما أقسطوا في الدنيا رواه ابن أبي حاتم ، ورواه النسائي ، وإسناده جيد قوي ، ورجاله على شرط الصحيح .

(١٠) ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ أي الجميع إخوة في الدين ، كما قال رسول الله ﷺ « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه » . وفي الصحيح « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » وفي الصحيح « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : « آمين » ولك بمثله » . ﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ يعني الفئتين المقتتلتين ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أموركم ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه .

(١١) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾

ينهى تعالى عن السخرية بالناس ، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم كما ثبت في الصحيح

عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الكبر بطر الحق ، وغمص الناس ، ويروى وغمط الناس » والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم وهذا حرام ، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله تعالى ، وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له ، ولهذا قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ﴾ فنص على نهي الرجال وعطف بنهي النساء . وقوله تبارك وتعالى ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ أي لا تلمزوا الناس ، والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون ، كما قال تعالى ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ والهمز بالفعل ، واللمز بالقول ، كما قال تعالى ﴿ هماز مشاء بنميم ﴾ أي يحتقر الناس ويهمزهم طاغياً عليهم ، ويمشي بينهم بالنميمة ، وهي اللمز بالمقال ، ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ كما قال تعالى ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً . وقوله تعالى ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ أي لا تداعوا بالألقاب ، وهي التي يسوء الشخص سماعها . روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قدم المدينة ، وليس فينا - يعني بني سلمة - رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله ، إنه يغضب من هذا ، فنزلت ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ أي بئس الصفة والاسم الفسوق ، وهو التنابز بالألقاب ، كما كان في أهل الجاهلية ، تتناعتون بعدما دخلتم في الاسلام وعقلتموه ﴿ ومن لم يتب ﴾ أي من هذا ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

(١٢) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن ، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله ، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً ، فليجتنب كثير منه احتياطاً ، فعن عمر رضي الله عنه : ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً وأنت تجد لها في الخير محلاً . وروى ابن ماجه عن ابن عمر قال : رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفسي بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك : ماله ودمه وأن يظن به خيراً » وروى البخاري وأبو داود عن رسول الله ﷺ « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً » وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ يقول : « من ستر عورة مؤمن فكأنما

استحيا موءودة من قبرها » وروى سفيان الثوري عن معاوية قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم » ﴿ ولا تجسسوا ﴾ أي بعضكم على بعض ، والتجسس غالباً يطلق في الشر ، ومنه الجاسوس ، وأما التحسس فيكون غالباً في الخير ، كما قال تعالى ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ وقد يستعمل كل منهما في الشر ، كما في الحديث « لا تجسسوا ولا تحسسوا . . . » ، ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ فيه نهي عن الغيبة ، روى أبو داود ، قيل : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ قال : « ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » ورواه الترمذي وقال حسن صحيح . وروى أبو داود أن عائشة قالت : قلت للنبي ﷺ : حسبك من صفية كذا وكذا ـ تعني قصيرة ـ فقال ﷺ : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ أي كما تكرهون هذا طبعاً فاكرهوا ذاك شرعاً ، فإن عقوبته أشد من هذا ، وهذا من التنفير عنها ، والتحذير منها ، كما قال ﷺ : « العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه » ﴿ واتقوا الله ﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه فراقبوه في ذلك واخشوا منه ﴿ إن الله تواب رحيم ﴾ أي تواب على من تاب إليه ، رحيم لمن رجع إليه واعتمد عليه .

(١٣) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ، وهما آدم وحواء ، وجعلهم شعوباً ، وهي أعم من القبائل ، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك ، فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية ، وهي طاعة الله تعالى ، ومتابعة رسوله ﷺ ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً منبهاً على تساويهم في البشرية ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ أي ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ أي إنما يتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى ، لا بالأحساب ، روى البخاري عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أي الناس أكرم ؟ قال « أكرمهم عند الله أتقاهم » قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن خليل الله » قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فعن معادن العرب

تسألوني ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » ورواه النسائي . وروى مسلم عن رسول الله ﷺ « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ورواه ابن ماجه . وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله » تفرد به أحمد رحمه الله . وروى الطبراني عن رسول الله ﷺ « المسلمون إخوة ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى » ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ أي عليم بكم ، خبير بأموركم ، فيهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويعذب من يشاء ، ويفضل من يشاء على من يشاء ، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله ، وقد استدل بهذه الآية الكريمة ، وهذه الأحاديث الشريفة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط ، ولا يشترط سوى الدين لقوله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

(١٤) ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعدُ ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ وقيل في قوله ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ أي استسلمنا خوف القتل والسبي وقيل : نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ ، والصحيح الأول ، وهو أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يحصل لهم بعدُ ، فأدبوا وأُعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعدُ ، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ﴾ أي لا ينقصكم من أجوركم شيئاً كقوله عز وجل ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أي لمن تاب إليه وأناب .

(١٥) ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾

﴿ إنما المؤمنون ﴾ أي إنما المؤمنون الكمَّل ﴿ الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ أي وبذلوا جهدهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ أي في قولهم إذا قالوا : مؤمنون ، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة .

﴿ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ (١٦)

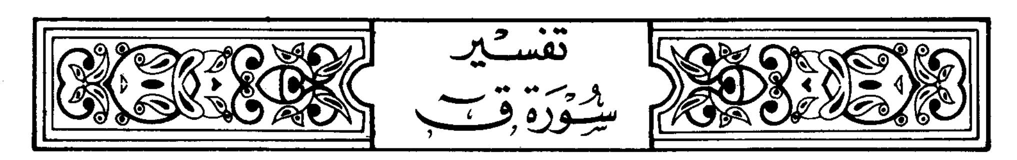
﴿ قل أتعلمون الله بدينكم ﴾ اي أتخبرونه بما في ضمائركم ﴿ والله يعلم ما في السموات وما في الأرض ﴾ اي لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا اصغر من ذلك ولا أكبر ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾.

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (١٧)

﴿ يمنُّون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم ﴾ يعني الأعراب الذين يمنون باسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ يقول الله رداً عليهم ﴿ قل لا تمنوا علي اسلامكم ﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ، ولله المنة عليكم فيه ﴿ بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين ﴾ اي في دعواكم ذلك ، كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم صفين « يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله لي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ كلما قال شيئا ، قالوا : الله ورسوله أمن ».

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (١٨)

ثم كرر تعالى عمله بجميع الكائنات ، وبصره بأعمال المخلوقات فقال ﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾.



تفسير سُورَة قٓ

هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح ، وقيل : من الحجرات . روى الإمام أحمد عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة ، وما أخذت ﴿ قٓ والقرآن المجيد ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ كان يقرؤ ها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس . ورواه مسلم . والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار ، كالعيد والجمع لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾

تقدم الكلام عن حروف الهجاء في أول سورة البقرة ﴿ والقرآن المجيد ﴾ أي الكريم العظيم الذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ وجواب القسم ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم . . ﴾ وفي هذا نظر ، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم ، وهو اثبات النبوة واثبات المعاد وتقريره وتحقيقه ، وإن لم يكن القسم يتلقى لفظاً ، وهذا كثير في أقسام القرآن كما في قوله ﴿ ص والقرآن ذي الذكر . بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ .

(٢) ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾

﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ أي تعجبوا من إرسال رسول اليهم من البشر ، وليس هذا بعجيب ، فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس .

(٣) ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾

ثم قال عز وجل مخبراً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه ﴿ أئذامتنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد ﴾ أي يقولون : أئذامتنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا ، وصرنا تراباً كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب ؟ ﴿ ذلك رجع بعيد ﴾ أي بعيد الوقوع . والمعنى أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه .

(٤) ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾

قال تعالى رداً عليهم ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ أي ما تأكل من أجسادهم في البلى ، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان ، وأين ذهبت ، وإلى أين صارت ﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾ أي حافظ لذلك ، فالعلم شامل ، والكتاب فيه أيضاً كل الأشياء مضبوطة .

(٥) ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾

ثم بين تبارك وتعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال ﴿ بل كذبوا

بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ﴾ أي وهذا حال كل من خرج عن الحق ، مهما قال بعد ذلك فهو باطل ، والمريج المختلف المضطرب الملتبس كقوله تعالى ﴿ إنكم لفي قول مختلف . يؤفك عنه من أفك ﴾ .

(٦) ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾

يقول تعالى منبهاً للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ﴾ أي بالمصابيح ﴿ وما لها من فروج ﴾ يعني من شقوق ، أو صدوع ، كقوله تبارك وتعالى ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ أي كليل عن أن يرى عيباً أو نقصاً .

(٧) ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾

﴿ والأرض مددناها ﴾ أي وسعناها وفرشناها ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ وهي الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب فإنها مقرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ أي من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ وقوله : ﴿ بهيج ﴾ أي حسن المنظر .

(٨) ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾

﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ أي ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب ، أي خاضع خائف وجل رجاع إلى الله عز وجل .

(٩) ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾

﴿ ونزلنا من السماء ماء مبارَكاً ﴾ أي نافعاً ﴿ فأنبتنا به جنات ﴾ أي حدائق وبساتين ونحوها ﴿ وحب الحصيد ﴾ وهو الزرع الذي يراد لِحَبِّهِ وادخاره .

(١٠) ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾

﴿ والنخل باسقات ﴾ أي طوالاً شاهقات ﴿ لها طلع نضيد ﴾ أي منضود .

(١١) ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾

﴿ رزقاً للعباد ﴾ أي للخلق ﴿ وأحيينا به بلدة ميتاً ﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة ، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف في حسنها ، وذلك بعد ما كانت لا نبات فيها ، فأصبحت تهتز خضراء ، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك ، كذلك يحي الله الموتى ، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبَعث ، كقوله عز وجل ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقوله سبحانه ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ وقال سبحانه ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ .

(١٢) ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ (١٤)

يقول تعالى متهدداً لكفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا كقوم نوح ، وما عذبهم الله به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود. وعاد وفرعون وإخوان لوط﴾ وهم أمته الذين بعث اليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور ، وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض ، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق . ﴿ وأصحاب الأيكة ﴾ وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿ وقوم تبع ﴾ وهو اليماني ﴿ كل كذب الرسل ﴾ أي كل من هذه الأمم ، وهؤلاء القرون كذبوا رسولهم ، ومن كذب رسولاً فكأنما كذب جميع الرسل ، كقوله جل وعلا ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ أي وإنما جاءهم رسول واحد ، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم . ﴿ فحق وعيد ﴾ أي فحق عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التكذيب من العذاب والنكال ، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم ، فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك .

(١٥) ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾ أي أفعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شكٍّ من الإعادة ﴿ بل

هم في لبس من خلق جديد ﴾ والمعنى أن ابتداء الخلق لم يعجزنا ، والإعادة أسهل ، كما قال تعالى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ .

(١٦) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه وعلمه محيط بجميع أموره حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر . وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، ومن تأوله على العلم فإنما فسر لئلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع . تعالى الله وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه ، فإنه لم يقل : وأنا أقرب إليه من حبل الوريد ، وإنما قال ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ كما قال في المحتضر ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴾ يعني ملائكته ، وكما قال تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ فالملائكة نزلت بالذكر ، وهو القرآن باذن الله عز وجل ، وكذلك الملائكة اقرب إلى الإنسان من حبل وريده .

(١٧) ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾

﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ يعني الملكين اللَّذين يكتبان عمل الإنسان ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ أي مترصد .

(١٨) ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾

﴿ ما يلفظ ﴾ أي ابن آدم ﴿ من قول ﴾ أي ما يتكلم من كلمة ﴿ إلا لديه رقيب عتيد ﴾ أي إلا ولها من يرقبها ويكتبها ، لا يترك كلمة ولا حركة .

(١٩) ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾

﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق ، أي كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ أي هذا هو الذي كنت تعز منه قد جاءك ، فلا محيد ولا مناص ، ولا فكاك ولا خلاص . والمخاطب الإنسان من حيث هو ، وقيل : الكافر ، وقيل : غير ذلك .

(٢٠) ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾

﴿ ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد ﴾ وذلك يوم القيامة ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له » قالوا : يا رسول الله كيف نقول ؟ قال ﷺ : « قولوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » فقال القوم : « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

(٢١) ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾

﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ أي ملك يسوقه إلى المحشر ، وملك يشهد عليه بأعماله .

(٢٢) ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾

﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ والمخاطب بذلك الكافر ، أو كل أحد من بر وفاجر، لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام ، أو المخاطب بذلك النبي ﷺ ، والمعنى على هذا لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك ، فكشفنا عنك غطاءك بانزاله اليك فبصرك اليوم حديد ، والظاهر من السياق خلاف هذا ، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو . والمراد بقوله ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ يعني من هذا اليوم ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ أي قوي ، لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة لكن لا ينفعهم ذلك ، قال الله تعالى ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ وقال عز وجل ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ .

(٢٣) ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ، ويقول ﴿ هذا ما لدي عتيد ﴾ أي معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان . قال مجاهد : هذا كلام السائق ، يقول : هذا ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته ، وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد ، وله اتجاه وقوة . فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل ، فيقول :

(٢٤) ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

﴿ ألقيافي جهنم كل كفار عنيد ﴾ ولغة بعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية ، كقوله :

فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر ... وإن تتركاني أحم عرضاً ممنعاً

والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد ، فالسائق أحضره إلى عرضة الحساب ، فلما أدى الشهيد عليه أمرهما الله تعالى بالقائه في نار جهنم وبئس المصير ﴿ كل كفار ﴾ أي كثير الكفر والتكذيب بالحق ﴿ عنيد ﴾ معاند للحق ، معارض له بالباطل مع علمه بذلك .

(٢٥) ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾

﴿ مناع للخير ﴾ أي لا يؤدي ما عليه من الحقوق ، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة ﴿ معتد ﴾ أي فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد . قال قتادة : معتد في منطقه وسيره وأمره . ﴿ مريب ﴾ أي شاك في أمره ، مريب لمن نظر في أمره .

(٢٦) ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾

﴿ الذي جعل مع الله إلّهاً آخر ﴾ أي أشرك بالله فعبد معه غيره ﴿ فألقياه في العذاب الشديد ﴾ .

(٢٧) ﴿ * قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾

﴿ قال قرينه ﴾ هو الشيطان الذي وكل به ﴿ ربنا ما أطغيته ﴾ أي يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافراً ، يتبرأ منه شيطانه فيقول ﴿ ربنا ما أطغيته ﴾ أي ما أضللته ﴿ ولكن كان في ضلال بعيد ﴾ أي بل كان هو في نفسه ضالاً ، قابلاً للباطل ، معانداً للحق .

(٢٨) ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾

﴿ قال لا تختصموا لدي ﴾ يقول الرب عز وجل للإنسي وقرينه من الجن ، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق فيقول للإنسي : ربنا هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ، ويقول الشيطان ﴿ ربنا ما أطغيته ﴾ فيقول الله لهما ﴿ لا تختصموا لدي ﴾ أي عندي ﴿ وقد قدمت إليكم بالوعيد ﴾ أي قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل ، وأنزلت الكتب ، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين .

(٢٩) ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

﴿ ما يبدل القول لدي ﴾ يعني قد قضيت ما أنا قاضي ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ أي لست أعذب احداً بذنب أحد ، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه .

(٣٠) ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾

﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ في البخاري عن النبي ﷺ « يلقى في النار فتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع قدمه فيها فتقول : قط قط .

٣١ ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾

﴿ وأزلفت ﴾ أي أدنيت وقربت ﴿ الجنة للمتقين ﴾ من المتقين ﴿ غير بعيد ﴾ وذلك يوم القيامة ، وليس ببعيد لأنه واقع لا محالة ، وكل ما هو آت قريب .

٣٢ ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾

﴿ هذا ما توعدون لكل أواب ﴾ أي رجاع تائب مقلع ﴿ حفيظ ﴾ أي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه .

٣٣ ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾

﴿ من خشي الرحمٰن بالغيب ﴾ أي من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله عز وجل ، كقوله ﷺ « ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » ﴿ وجاء بقلب منيب ﴾ أي ولقي الله عز وجل يوم القيامة بقلب منيب سليم إليه خاضع لديه .

٣٤ ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾

﴿ ادخلوها ﴾ أي الجنة ﴿ بسلام ﴾ أي سلموا من عذاب الله عز وجل ، وسلم عليهم ملائكة الله ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ أي يخلدون في الجنة ، فلا يموتون أبداً ، ولا يظعنون أبداً ، ولا يبغون عنها حولاً .

٣٥ ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾

﴿ لهم ما يشاؤ ون فيها ﴾ أي مهما اختاروا وجدوا ومن أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم ﴿ ولدينا مزيد ﴾ كقوله سبحانه ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ أي والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم .

٣٦ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾

يقول تعالى : وكم أهلكنا قبل هؤلاء المكذبين ﴿ من قرن هم أشد منهم بطشاً ﴾ أي كانوا أكثر منهم وأشد قوة ، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فنقبوا في البلاد ﴾ ضربوا في الأرض يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم

بها ﴿ هل من محيص ﴾ أي هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره ، وهل نفعهم ما جمعوه ، ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل ، فأنتم أيضاً لا مفر لكم ، ولا محيد ولا مناص ولا محيص .

(٣٧) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾

﴿ إن في ذلك لذكرى ﴾ أي لعبرة ﴿ لمن كان له قلب ﴾ أي لب يعي به ، أي عقل ﴿ أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ أي استمع الكلام فوعاه ، وتعقله بعقله ، وتفهمه بلبه .

(٣٨) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾

﴿ ولقد خلقنا السموات . . . ﴾ فيه تقرير للمعاد ، لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن قادر على أن يحي الموتى بطريق الأولى والأحرى ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ أي من إعياء ولا تعب ولا نصب .

(٣٩) ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾

﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ يعني المكذبين ، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلاً ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر ، وقبل الغروب في وقت العصر ، وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً ، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه ، ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسراء بخمسْ صلوات ، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب .

(٤٠) ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾

﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ أي فصل له ، كقوله ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ ﴿ وأدبار السجود ﴾ هو التسبيح بعد الصلاة .

(٤١) ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾

﴿ واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب ﴾ يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادي على صخرة بيت المقدس : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

(٤٢) ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾

﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ﴾ يعني النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون ﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ أي من الأجداث .

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (٤٣)

﴿ إنا نحن نحي ونميت وإلينا المصير ﴾ أي هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وإليه مصير الخلائق كلهم ، فيجازي كلاً بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

﴿ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴾ (٤٤)

﴿ يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ﴾ وذلك أن الله عز وجل ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها كما ينبت الحب في الثرى بالماء ، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور ، وقد أودعت الأرواح في ثقب الصور ، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي لترجعين : كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره ، فترجع كل روح إلى جسدها ، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً مبادرين إلى أمر الله عز وجل ﴿ مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ . وفي صحيح مسلم « أنا أول من تنشق عنه الأرض » ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ أي تلك إعادة سهلة علينا ، يسيرة لدينا ، كما قال جل جلاله ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ وقال سبحانه ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ .

﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (٤٥)

﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ أي نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب ، فلا يهولنك ذلك ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ أي ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى ، وليس ذلك مما كلفت به ، أو لا تتجبر عليهم ، والقول الأول أولى . ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ أي بلغ أنت رسالة ربك ، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ، ويرجو وعده .

* * *



تفسير سورة الذاريات



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ (٤)

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ، ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك ، فقام إليه ابن الكواء فقال : يا أمير المؤمنين ، ما معنى قوله تعالى ﴿ والذاريات ذرواً ﴾ قال : الريح ، قال ﴿ فالحاملات وقراً ﴾ قال : السحاب ، قال ﴿ فالجاريات يسراً ﴾ قال : السفن ، قال ﴿ فالمقسمات أمراً ﴾ قال : الملائكة .

(٥) ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ (١١)

﴿ إنما توعدون لصادق ﴾ أي لخبر صادق . ﴿ وإن الدين ﴾ وهو الحساب ﴿ لواقع ﴾ أي لكائن لا محالة ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء ، أو ذات طرائق . ﴿ إنكم لفي قول مختلف ﴾ أي إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل ﴿ لفي قول مختلف ﴾ أي مضطرب ، لا يلتئم ولا يجتمع ، أو ما بين مصدق ومكذب به . ﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ أي إنما يروج على من هو ضال في نفسه ، لأنه قول باطل ، إنما ينقادله ، ويضل بسببه ، ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غمر لا فهم له ، كما قال تعالى ﴿ فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين . إلا من هو صال الحميم ﴾ وقوله تعالى ﴿ قتل الخراصون ﴾ الكذابون ، كقوله تعالى ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ والخراصون هم الذين يقولون : لا نبعث ولا يوقنون أو ﴿ قتل الخراصون ﴾ لعن المرتابون ﴿ الذين هم في غمرة ساهون ﴾ الذين هم في الكفر والشك غافلون لاهون .

(١٢) ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (١٤)

﴿ يسألون أيان يوم الدين ﴾ وإنما يقولون هذا تكذيباً وعناداً وشكاً واستبعاداً . ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ يعذبون ، أو كما يفتن الذهب على النار ، أو يحرقون . ﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ عذابكم ، أو حريقكم ﴿ هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ أي يقال لهم : ذلك تقريعاً وتحقيراً وتصغيراً .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله عز وجل أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحرق والاغراق ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ أي عاملين بما آتاهم الله من الفرائض ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ أي قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضاً ، وهذا تفسير ابن جرير ، وفيه نظر ، لذلك فإن قوله عز وجل ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ محسنين ﴾ كقوله جل وعلا ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ ثم إنه تعالى بين إحسانهم في العمل فقال جل وعلا ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ قيل إن ﴿ ما ﴾ في قوله ﴿ ما يهجعون ﴾ نافية ، تقديره كانوا قليلاً من الليل لا يهجعون ، وقيل : ﴿ ما ﴾ مصدرية تقديره كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم . ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ يصلون ، أو يؤخرون الاستغفار إلى الأسحار ، كما قال تعالى ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ ولما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة فقال ﴿ وفي أموالهم حق ﴾ أي جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم ، أما السائل فمعروف، وهو الذي يتبدى بالسؤال ، وله حق . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ « للسائل حق وإن جاء على ظهر فرس » وأما المحروم فهو المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم ، أي لا سهم له في بيت المال ، ولا كسب له ، ولا حرفة يتقوت منها . وفي الحديث « ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه » وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحهما . ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ أي فيها من الآيات الدالة على عظمة

الخالق وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النباتات والحيوانات والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار واختلاف ألسنة الناس وألوانهم ، وما جبلوا عليه من الارادات والقوى ، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم ، والحركات والسعادة والشقاوة ، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه ، ولهذا قال ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ فمن تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة ﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ يعني المطر ﴿ وما توعدون ﴾ يعني الجنة . ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة ، وهو حق لا مرية فيه ، فلا تشكوا فيه ، كما لا تشكون في نطقكم حين تنطقون .

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ أي الذين أرصد لهم الكرامة . ﴿ قالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ﴾ ﴿ فراغ إلى أهله ﴾ أي انسل خفية في سرعة ﴿ فجاء بعجل سمين ﴾ أي من خيار ماله ، وفي الآية الأخرى ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ أي مشوي على الرضف .

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿ فقربه إليهم ﴾ أي أدناه منهم ﴿ قال ألا تأكلون ؟ ﴾ تلطف في العبارة ، وعرض حسن ، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة ، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون ، وبسرعة ، ولم يمتن عليهم أولاً فقال : نأتيكم بطعام ، بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله ، وهو عجل فتي سمين مشوي ، ﴿ فقربه إليهم ﴾، لم يضعه وقال : اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم ، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم ، بل قال ﴿ ألا تأكلون ؟ ﴾ على سبيل العرض والتلطف ، كما يقول القائل اليوم : إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل . ﴿ فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾

فالبشارة له هي بشارة لها ، لأن الولد منهما ، فكل منهما بشر به ﴿ فأقبلت امرأته في صرة ﴾ أي في صرخة عظيمة ورنة . ﴿ فصكت وجهها ﴾ أي ضربت بيدها على جبينها تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب ﴿ وقالت عجوز عقيم ﴾ أي كيف ألد ، وأنا عجوز ، وقد كنت حال الصبا عقيماً لا أحبل ؟ ﴿ قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾ أي عليم بما يستحقونه من الكرامة ، حكيم في أقواله وأفعاله .

﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ ﴿٣٧﴾

﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ؟) أي ما شأنكم ، وفيم جئتم ؟ ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يعنون قوم لوط ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة ﴾ أي معلمة ﴿ عند ربك للمسرفين ﴾ أي مكتتبة عنده بأسمائهم ، كل حجر عليه اسم صاحبه ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ﴾ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ احتج بهذه من ذهب إلى رأي المعتزلة ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام ، لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين ، وهذا الاستدلال ضعيف لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين ، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس ، فاتفق الاسمان ههنا لخصوصية الحال ، ولا يلزم ذلك في كل حال . ﴿ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ أي جعلناها عبرة بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال ، وحجارة السجيل ، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة ، ففي ذلك عبرة للمؤمنين ﴿ الذين يخافون العذاب الأليم ﴾ .

﴿٣٨﴾ ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ ﴿٤٠﴾

﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ﴾ أي بدليل باهر وحجة قاطعة ﴿ فتولى بركنه ﴾ أي فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين استكباراً وعناداً . قال مجاهد : تعزز بأصحابه ﴿ وقال ساحر أو مجنون ﴾ أي لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحراً أو مجنوناً ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم ﴾ أي ألقيناهم ﴿ في اليم ﴾ وهو البحر

﴿ وهو مليم ﴾ أي وهو ملوم جاحد فاجر معاند .

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ ﴿٤٦﴾

﴿ وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ أي المفسدة التي لا تنتج شيئاً ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه ﴾ أي مما تفسده الريح ﴿ إلا جعلته كالرميم ﴾ أي كالشيء الهالك البالي . ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » ﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ إلى وقت فناء آجالكم ﴿ فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ﴾ وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ أي من هرب ولا نهوض ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ أي لا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه ﴿ وقوم نوح من قبل ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ .

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿٥١﴾

يقول تعالى منبهاً على خلق العالم العلوي والسفلي ﴿والسماء بنيناها﴾ أي جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً ﴿ بأيد ﴾ أي بقوة ﴿ وإنا لموسعون ﴾ أي قد وسعنا أرجاءها ، ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي ﴿ والأرض فرشناها ﴾ أي جعلناها فراشاً للمخلوقات ﴿ فنعم الماهدون ﴾ أي وجعلناها مهداً لأهلها ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ أي جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض ، وليل ونهار ، وشمس وقمر ، وبر وبحر ، وضياء وظلام ، وإيمان وكفر ، وموت وحياة ، وشقاء وسعادة ، وجنة ونار ، حتى الحيوانات والنباتات ، ولهذا قال تعالى ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ﴿ ففروا إلى الله ﴾ أي الجأوا إليه ، واعتمدوا في أموركم عليه ﴿ إني لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ﴾ أي لا تشركوا به شيئاً ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ .

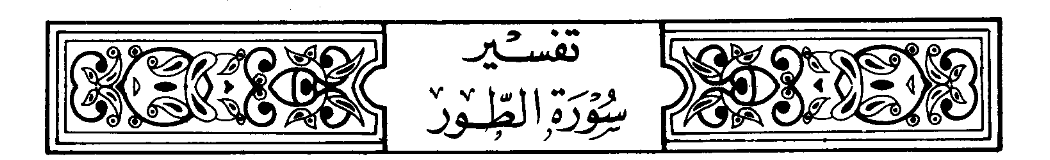
﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ﴾ ۝٥٣

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ : وكما قال لك هؤلاء المشركون قال المكذبون الأولون لرسلهم ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به ؟ ﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة ؟ ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ أي لكن هم قوم طغاة ، تشابهت قلوبهم ، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم .

﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ ۝٦٠

﴿ فتول عنهم ﴾ أي فأعرض عنهم يا محمد ﴿ فما أنت بملوم ﴾ يعني فما نلومك على ذلك ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ أي إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي ، لا لاحتياجي إليهم ، أو إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً ، أو إلا ليعرفون ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب ، وأخبر أنه غير محتاج إليهم ، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ، فهو خالقهم ورازقهم . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ ، قال الله تبارك وتعالى « يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسد فقرك » ورواه الترمذي وابن ماجة . وروى الإمام أحمد أن حبة وسوأة ابني خالد ، يقولون : أتينا رسول الله ﷺ ، وهو يعمل عملاً ، أو يبني بناء ، فأعناه عليه ، فلما فرغ دعا لنا وقال : « لا تيأسا من الرزق ما تهز هزت رؤوسكما ، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يعطيه الله ويرزقه » . وقد ورد في بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من

كل شيء ﴿ فإن للذين ظلموا ذنوباً ﴾ أي نصيباً من العذاب ﴿ مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ﴾ أي فلا يستعجلوا ذلك ، فإنه واقع لا محالة ﴿ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴾ يعني يوم القيامة .



روى مالك عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه . أخرجاه من طريق مالك . وروى البخاري عن أم سلمة قالت : شكوت إلى رسول الله ﷺ أني اشتكي فقال : « طوفي من وراء الناس وأنت راكبة » فطفت ، ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ ﴿٣﴾

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم ، فالطور هو الجبل الذي يكون فيه أشجار ، مثل الذي كلم الله عليه موسى وأرسل منه عيسى ، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طوراً ، إنما يقال له : جبل ﴿ وكتاب مسطور ﴾ قيل : هو اللوح المحفوظ ، وقيل : الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهاراً ، ولهذا قال : ﴿ في رق منشور ﴾ .

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ

إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٦﴾

﴿ والبيت المعمور ﴾ ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الاسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة « ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم » يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ، ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور لأنه باني الكعبة الأرضية ، والجزاء من جنس العمل ، وهو بحيال الكعبة ، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ، ويصلون إليه ، والذي في السماء الدنيا يقال له : بيت العزة . ﴿ والسقف المرفوع ﴾ عن علي رضي الله عنه : يعني السماء : ثم تلا ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ﴾ أو هو العرش ، فإنه سقف لجميع المخلوقات ﴿ والبحر المسجور ﴾ هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله منه المطر الذي تحيا به الأجساد في قبورها يوم معادها ، وقال الجمهور : هو هذا البحر . والمراد بالمسجور أنه يوقد يوم القيامة ناراً ، كقوله ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ أي أضرمت فتصير ناراً تتأجج محيطة بأهل الموقف ، أو المسجور المملوء ، أو الفارغ ، أو الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها . روى الإمام أحمد في مسنده عن رسول الله ﷺ قال : « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات يستأذن الله تعالى أن ينفضخ عليهم فيكفه الله عز وجل » . ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ هذا هو المقسم عليه ، أي لواقع بالكافرين ﴿ ما له من دافع ﴾ أي ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك . روى ابن أبي الدنيا أن عمر خرج يعس المدينة ذات ليلة فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائماً يصلي فوقف يستمع قراءته فقرأ ﴿ والطور - حتى بلغ - إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع ﴾ قال : قسم ورب الكعبة حق ، فنزل عن حماره واستند إلى حائط فمكث ملياً ، ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهراً يعوده الناس ، لا يدرون ما مرضه ؟ رضي الله عنه . ﴿ يوم تمور السماء موراً ﴾ تتحرك تحريكاً ﴿ وتسير الجبال سيراً ﴾ أي تذهب فتصير هباء منبثاً ، وتنسف نسفاً ﴿ فويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ أي ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ، ونكاله بهم وعقابه لهم ﴿ الذين هم في خوض يلعبون ﴾ أي هم في الدنيا يخوضون في الباطل ، ويتخذون دينهم هزواً ولعباً ﴿ يوم يدعون ﴾ أي يدفعون ويساقون ﴿ إلى نار جهنم دعاً ﴾ أي يدفعون فيها دفعاً ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ أي تقول لهم الزبانية ذلك تقريعاً وتوبيخاً ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها ﴾ أي ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاتها ﴿ فاصبروا أو

لا تصبروا سواء عليكم ﴾ أي سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا ، لا محيد لكم عنها ، ولا خلاص لكم منها ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أي ولا يظلم الله أحداً ، بل يجازي كلاً بعمله .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال ﴿ إن المتقين في جنات ونعيم ﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال ﴿ فاكهين بما آتاهم ربهم ﴾ أي يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم من أصناف الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك ﴿ ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ﴾ أي وقد نجاهم من عذاب النار ، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة التي فيها من السرر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ كقوله تعالى ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ أي هذا بذاك تفضلاً منه وإحساناً ﴿ متكئين على سرر مصفوفة ﴾ السرر في الحجال . روى ابن أبي حاتم أن رسول الله قال : « إن الرجل ليتكيء المتكأ مقدار أربعين سنة ، ما يتحول عنه ولا يمله ما اشتهت نفسه ولذت عينه » ﴿ مصفوفة ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض ، كقوله ﴿ على سرر متقابلين ﴾ ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ أي وجعلنا لهم قرينات صالحات ، وزوجات حساناً من الحور العين .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بآبائهم في المنزلة ، وإن لم يبلغوا عملهم لتقر أعين الآباء

بالأبناء عندهم في منازلهم فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته للتساوي بينه وبين ذاك . ولهذا قال ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ عن ابن عباس قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته ، وإن كانوا دونه في العمل لتقربهم عينه ، ثم قرأ ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان . . ﴾ وهذا من فضله تعالى على الابناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعا الأبناء فقد روى الامام احمد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة ، فيقول : يا رب ، أنى إلي هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك » إسناده صحيح ، وله شاهد في صحيح مسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ولما أخبر سبحانه عن مقام الفضل ، وهو رفع درجة الذرية الى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك أخبر عن مقام العدل ، وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد فقال تعالى ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ أي مرتهن بعمله ، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس ، سواء كان أباً او ابناً . وقوله ﴿ وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ﴾ أي وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويشتهى . وقوله ﴿ يتنازعون فيها كأساً ﴾ أي يتعاطون فيها كأساً أي من الخمر . ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ أي لا يتكلمون فيها بكلام لاغ ، أي هذيان ، واثم أي فحش ، كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا . قال ابن عباس : اللغو الباطل ، والتأثيم الكذب . فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها ، فنفى عنها صداع الرأس ، ووجع البطن ، وإزالة العقل بالكلية ، وأخبر أنها لا تحملهم الكلام الشيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذياناً وفحشاً ، وأخبر بحسن منظرها ، وطيب طعمها ومخبرها فقال ﴿ بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾ وقوله ﴿ ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾ اخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون في حسنهم وبهائهم ، ونظافتهم وحسن ملابسهم . وقوله تعالى (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ أي أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا ، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم ﴿ قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ﴾ أي كنا في الدار الدنيا، ونحن بين أهلينا خائفين من ربنا ، مشفقين من عذابه وعقابه ﴿ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴾ أي فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه ﴾ أي نتضرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤالنا ﴿ إنه هو البر الرحيم ﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾

يقول الله تعالى آمراً رسوله ﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده ، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه ، ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ أي لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش ، والكاهن الذي يأتيه الرئى من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء ﴿ ولا مجنون ﴾ وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس . ثم قال تعالى منكراً عليهم في قولهم في الرسول ﷺ ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ أي قوارع الدهر ، والمنون الموت ، ننتظره ونصبر عليه حتي يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه ، قال تعالى ﴿ قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾ أي انتظروا فإني معكم ، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ أي عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولون فيك من الأقاويل الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور ﴿أم هم قوم طاغون﴾ أي والله هم قوم طاغون ضلال معاندون ، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك ﴿أم يقولون تقوله ؟﴾ أي اختلقه وافتراه من عند نفسه ، يعنون القرآن ، قال تعالى ﴿ بل لا يؤمنون ﴾ أي كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة .

﴿٣٤﴾ ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾

﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ أي إن كانوا صادقين في قولهم : تقوله وافتراه فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن ، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاؤوا بمثله ولا بعشر سور من مثله ولا بسورة من مثله .

﴿٣٥﴾ ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ

ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٤٣﴾

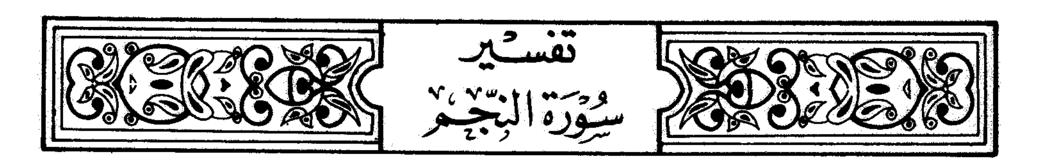
هذا المقام في إثبات الربوبية ، وتوحيد الألوهية فقال تعالى ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ أي أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم ، أي لا هذا ولا هذا ، بل هو الله الذي أنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً . روى البخاري عن محمد ابن جبير بن مطعم عن أبيه قال : سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية ، ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون ﴾ كاد قلبي أن يطير . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين. ﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾ أي أهم المتصرفون في الملك ، وبيدهم مفاتيح الخزائن ﴿ أم هم المصيطرون ﴾ أي المحاسبون للخلائق ، ليس الأمر كذلك ، بل الله عز وجل هو المالك المتصرف الفعال لما يريد ﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه ﴾ أي مرقاة إلى الملأ الأعلى ﴿ فليأت مستمعهم بسلطان مبين ﴾ أي فليأت الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال ، أي وليس لهم سبيل إلى سبيل ، فليسوا على شيء ، ولا لهم دليل . ثم قال منكراً عليهم فيما نسبوه إليه من البنات ، وجعلهم الملائكة إناثاً ، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الاناث بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله ، وعبدوهم مع الله ، فقال تعالى ﴿ أم له البنات ولكم البنون ﴾ وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد﴿ أم تسألهم أجراً ﴾ أي أجره على ابلاغك إياهم رسالة الله ، أي لست تسألهم على ذلك شيئاً ﴿ فهم من مغرم مثقلون ﴾ أي فهم من أدنى شيء يتبرمون منه ، ويثقلهم ويشق عليهم ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ أي ليس كذلك ، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله ﴿ أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ يقول تعالى أم يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول وفي الدين غرور الناس ، وكيد الرسول وأصحابه ، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم فالذين كفروا هم المكيدون ﴿ أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون ﴾ وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله ، ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون فقال ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ .

﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس ﴿ وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً ﴾ أي عليهم يعذبون به لما صدقوا ولما أيقنوا ، بل يقولون ﴿ هذا سحاب مركوم﴾ أي متراكم ﴿ فذرهم ﴾ أي دعهم يا محمد ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ﴾ أي لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا لا يجزي عنهم يوم القيامة شيئاً ﴿ ولا هم ينصرون ﴾.

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾

﴿ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ﴾ أي قبل ذلك في الدار الدنيا ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي نعذبهم في الدنيا ، ونبتليهم فيها بالمصائب لعلهم يرجعون وينيبون ، فلا يفهمون ما يراد بهم ، بل اذا جلى عنهم مما كانوا فيه عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه ، كما جاء في الحديث « إن المنافق إذا مرض وعوفي ، مثله في ذلك كمثل البعير ، لا يدري فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه » وفي الأثر الإلَهي : كم أعصيك ولا تعاقبني ؟ قال الله تعالى : يا عبدي ، كم أعافيك وأنت لا تدري ؟ وقوله تعالى ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ أي اصبر على أذاهم ولا تبالهم ، فإنك بمرأى منا ، وتحت كلاءتنا ، والله يعصمك من الناس . وقوله تعالى ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ أي إلى الصلاة ، سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إلَه غيرك . أو ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ أي من قومك من فراشك ، أو إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال : سبحانك اللهم وبحمدك . روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن رباح أنه قال ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ أي حين تقوم من كل مجلس إن كنت أحسنت ازددت خيراً ، وإن كنت غير ذلك كان هذا كفارة له . ﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ أي اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل كما قال تعالى ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وإدبار النجوم ﴾ هما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر ، فإنهما مشروعتان عند ادبار النجوم ، أي عند جنوحها للغيبوبة . وقد روى ابن سيلان عن أبي هريرة مرفوعاً « لا تدعوهما وإن طردتكم الخيل » يعني ركعتي الفجر . رواه أبو داود . وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر ، وفي لفظ لمسلم « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » .



روى البخاري عن عبدالله قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة « والنجم » قال : فسجد النبي ﷺ وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً ، وهو أمية بن خلف ، وقد جاء أنه عتبة بن ربيعة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ ﴿٩﴾

قال الشعبي وغيره : الخالق يقسم بما شاء من خلقه ، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق ، رواه ابن أبي حاتم . واختلف المفسرون في معنى قوله ﴿والنجم﴾ ، فقيل : هو الثريا إذا سقطت مع الفجر ، أو هي الزهرة ﴿ إذا هوى ﴾ إذا رمى به الشيطان ، أو هو القرآن إذا نزل ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين ﴾ . ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ هذا هو المقسم عليه ، وهو الشهادة للرسول ﷺ بأنه راشد تابع للحق ليس بضال ، وهو الجاهل الذي يسلك غير طريق الحق بغير علم ، والغاوي هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره ، فنزه الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود ، وهي علم الشيء وكتمانه والعمل بخلافه ، بل هو صلاة الله وسلامه عليه ، وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد ، ولهذا قال ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ أي ما يقول قولاً عن هوى وغرض ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ أي إنما يقول ما أمر أن يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان ﴿ علمه شديد القوى ﴾ وهو جبريل عليه السلام ﴿ ذو مرة ﴾ أي ذو قوة ، أو ذو منظر حسن ﴿ فاستوى ﴾ يعني جبريل عليه السلام ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ يعني جبريل استوى في الأفق الأعلى . والأفق الأعلى الذي يأتي منه الصبح ،

أو هو مطلع الشمس . ﴿ ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ أي فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين أي بقدرهما إذا مدا ﴿ أو أدنى ﴾ هذه الصيغة تستعمل في اللغة لاثبات المخبر عنه ونفي ما زاد عليه كقوله تعالى ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ أي ما هي بألين من الحجارة ، بل هي مثلها ، أو تزيد عليها في الشدة والقسوة ، وكذا قوله ﴿ يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾ وقوله ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ .

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ ﴿١٨﴾

﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ في الحديث « رأيت جبريل له ستمائة جناح » ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ أي رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ عن ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين ﴿ عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى ﴾ روى الامام أحمد أنه أسرى برسول الله ﷺ فانتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة اليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ، واليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ، ويغشاها فراش من ذهب ، وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً أعطي الصلوات الخمس ، وخواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته . ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ ما ذهب يميناً ولا شمالاً ، ﴿ وما طغى ﴾ ما جاوز ما أمر به ، وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة ، فإنه ما فعل إلا ما أمر به ، ولا سأل فوق ما أعطى ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ كقول ﴿ لنريـه من آياتنا ﴾ أي الدالة على قدرتنا وعظمتنا . وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة على أن الرؤية تلك الليلة لم تقع ، لأنه قال ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن

يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مقرعاً للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان ، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمٰن عليه السلام ﴿ أفرأيتم اللات ﴾ وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا اللات يعنون مؤنثة منه ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، وكانت صخرة بيضاء ، بالطائف ، تعظمها ثقيف ويفتخرون بها على من عداهم من احياء العرب. وفي البخاري قال رسول الله ﷺ «من حلف فقال في حلفه، واللات والعزى فليقل لا إلٰه إلا الله ، ومن قال لصاحبه : تعال اقامرك فليتصدق » وهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك ، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية ﴿ والعزى ﴾ وكانت لبني كنانة بنخلة ، وكان سدنتها وحجابها من بني شيبان من سليم ، وقد بعث اليها رسول الله خالد بن الوليد ليهدمها . ﴿ ومناة الثالثة الأخرى ﴾ وكانت مناة بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة ، وكان خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة . وقد كانت بجزيرة العرب طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاث التي نص عليها في كتابه العزيز ، وانما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها . ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ أي أتجعلون له ولداً ، وتجعلون ولده أنثى ، وتختارون لأنفسكم الذكور ؟ فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت هذه القسمة غير عادلة ، كما قال سبحانه ﴿ تلك اذاً قسمة ضيزى ﴾ أي جور باطلة ، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً . ثم قال تعالى منكراً عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أي من تلقاء أنفسكم ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أي من حجة ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ أي ليس له مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ أي ولقد أرسل الله اليهم الرسل بالحق المنير ، والحجة القاطعة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به ولا انقادوا له . ثم قال تعالى ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ أي ليس كل من تمنى خيراً حصل له ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ﴾ أي ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال ، ولا

كل من ود شيئاً يحصل له ، وفي مسند الامام أحمد قال رسول الله ﷺ « إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته » وقوله ﴿ فلله الآخرة والأولى ﴾ أي انما الأمر كله لله ، مالك الدنيا والآخرة ، والمتصرف في الدنيا والآخرة فهو الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ فإذا كان هذا في حق الملائكة المُقربين فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله ؟ وهو تعالى لم يشرع عبادتها ولا اذن فيها ، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله ، وانزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى ، وجعلهم لها نبات الله . تعالى الله عن ذلك ، ولهذا قال تعالى ﴿ وما لهم به من علم ﴾ أي ليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه ، بل هو كذب وزور وافتراء ، وكفر شنيع ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ أي لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث» وقوله تعالى ﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا﴾ أي أعرض عن الذي تولى عن الحق واهجره ﴿ ولم يرد الا الحياة الدنيا ﴾ أي وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا ، فذاك هو مبلغ ما لا خير فيه ، ولهذا قال تعالى ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ أي طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا اليه ، وقد روى الامام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ «الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » وفي الدعاء المأثور « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » وقوله تعالى ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ أي هو الخالق لجمتع المخلوقات ، والعالم بمصالح عباده ، وهو الذي يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته ، وهو العادل الذي لا يجور ابداً لا في شرعه ولا في قدره .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ﴿٣١﴾

بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ ﴿٣٢﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه الغني عما سواه الحاكم في خلقه بالعدل ، وخلق الخلق بالحق ﴿ ليجزي الذين أساؤ وا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ أي يجازي كلاً بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، أي لا يتعاطون المحرمات الكبائر ، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم ، كما قال ﴿ الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ﴾ وهذا استثناء منقطع لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال . روى الامام أحمد عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال ابو هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » أخرجاه في الصحيحين . وروى ابن جرير عن ابن مسعود قال : زنا العينين النظر ، وزنا الشفتين التقبيل ، وزنا اليد البطش ، وزنا الرجلين المشي ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه ، فإن تقدم بفرجه كان زانياً ، وإلا فهو اللمم . قال عبد الرحمن بن نافع الذي يقال له ابن لبابة الطائفي قال : سألت أبا هريرة عن قول الله ﴿ الا اللمم ﴾ قال : القبلة والغمزة والنظرة والمباشرة ، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل ، وهو الزنا . وعن ابن عباس : اللمم هو الذي يلم بالفاحشة ثم يتوب ، وقال : قال رسول الله ﷺ :

إن تغفر اللهم تغفر جماً وأي عبد لك ما ألما ؟

وهكذا رواه الترمذي ثم قال : هذا حديث صحيح حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن اسحق . ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ أي رحمته وسعت كل شيء ، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها .

﴿٣٣﴾ ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ ﴿٤١﴾

يقول تعالى ذاماً لمن تولى عن طاعة الله ﴿ أفرأيت الذي تولى ﴾ (فلا صدق ولا صلى

ولكن كذب وتولى) ﴿ وأعطى قليلاً وأكدى ﴾ أطاع قليلاً ثم قطعه ، كمثل القوم الذين يحفرون بئراً فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل فيقولون : أكدينا ويتركون العمل . ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ؟ ﴾ أي عند هذا الذي قد أمسك يده خشية الانفاق ، وقطع معروفه ، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما في يده حتى قد أمسك عن معروفه ، فهو يرى ذلك عياناً ، أي ليس الأمر كذلك ، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وهلعاً ، ولهذا جاء في الحديث « أنفق بلالا ، ولا تخش من ذي العرش اقلالاً » وقد قال تعالى ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ وقوله تعالى ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى . وابراهيم الذي وفى ﴾ أي بلغ جميع ما أمر به أو ﴿ وفى ﴾ طاعة الله ، وأدى رسالته إلى خلقه ، ويشهد لهذا قوله تعالى ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن ﴾ فقام بجميع الأوامر ، وترك جميع النواهي ، وبلغ الرسالة على التمام والكمال ، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يقتدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله . ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها لا يحمله عنها أحد ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ أي كما لا يحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه . ومن هذه الآية استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه أن القراءة لا يحصل اهداء ثوابها إلى الموتى لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ، ومنصوص من الشارع عليهما . وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية، أو علم ينتفع به » فهذه الثلاثة هي في الحقيقة من سعيه وكده وعمله ، كما جاء في الحديث « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه » والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى ﴿ إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله . وثبت في الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل اجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً » وقوله تعالى ﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ أي الأوفر .

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ ﴾

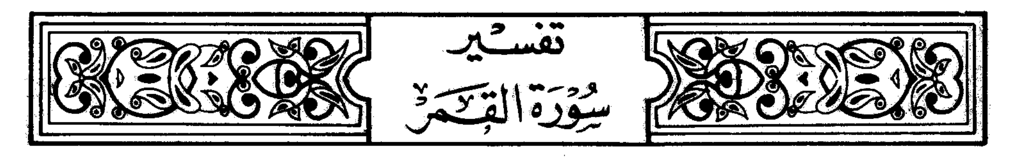
﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ أي المعاد يوم القيامة ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ أي خلق في عباده الضحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان ﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾ كقوله ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى ﴾ كقوله ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى. ألم يك نطفة من مني يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى ﴾ وقوله تعالى ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ أي كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة ، وهي النشأة الآخرة يوم القيامة ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ أي ملك عباده المال ، وجعله قنية مقيماً عندهم لا يحتاجون إلى بيعه ، فهذا تمام النعمة عليهم ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ هو هذا النجم الوقاد الذي يقال له : مرزم الجوزاء ، كانت طائفة من العرب يعبدونه ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾ وهم قوم هود ﴿ وثمود فما أبقى ﴾ أي دمرهم فلم يبق منهم أحداً ﴿ وقوم نوح من قبل ﴾ أي من قبل هؤلاء ﴿ إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾ أي أشد تمرداً من الذين من بعدهم .

﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ يعني مدائن لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال ﴿ فغشاها ما غشى ﴾ يعني من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿ فبأي آلاء ربك تتمارى ﴾ أي ففي أي نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري ؟، أو يا محمد ، والأول أولى .

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾ ﴾

﴿ هذا نذير ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ من النذر الأولى ﴾ أي من جنسهم ، أرسل كما أرسلوا ، كما قال تعالى ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ ﴿ أزفت الآزفة ﴾ أي اقتربت القريبة ، وهي القيامة ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ أي لا يدفعها إذاً من دون الله أحد ، ولا يطلع على علمها سواه ، والنذير الحذر لما يعاين من الشر الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم ﴿ إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ وفي الحديث « أنا النذير العريان » أي الذي أعجله شدة ما عاين من الشر فبادر إلى انذار قومه فجاءهم عرياناً مسرعاً ، وهو مناسب لقوله ﴿ أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ وقوله ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ﴾ من أن يكون صحيحاً ﴿ وتضحكون ﴾ منه استهزاء وسخرية ﴿ ولا تبكون ﴾ أي كما يفعل الموقنون به ، كما أخبر عنهم ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وأنتم سامدون ﴾ عن ابن عباس قال : الغناء ، هي بحانية ، اسمد لنا ، أي غنِّ لنا ، أو ﴿ سامدون ﴾ معرضون . ثم قال تعالى آمراً لعباده بالسجود له ، والعبادة وهي المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والاخلاص ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ أي فاخضعوا له وأخلصوا ووحدوه . روى البخاري عن ابن عباس قال : سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس . انفرد به دون مسلم .



تفسير سورة القمر

كان رسول الله ﷺ يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الأضحى والفطر ، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار ، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق واعادته وإثبات النبوات وغير ذلك من المقاصد العظيمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) ﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها كما قال تعالى ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ وقال ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ روى الامام أحمد عن خالد بن عمير قال : خطب عتبة بن غزوان ، قال بهز . وقال قبل هذه المرة : خطبنا

رسول الله ﷺ قال : فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولدت حذاء ، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم ، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ما يدرك لها قعراً ، والله لتملؤنه أفعجبتم ؟ والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عاماً ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام » انفرد به مسلم . وروى الامام أحمد عن أنس بن مالك قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة مرتين فقال ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ورواه مسلم ﴿ وإن يروا آية ﴾ أي دليلاً وحجة وبرهاناً ﴿ يعرضوا ﴾ أي لا ينقادوا له ، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم ﴿ ويقولوا سحر مستمر ﴾ أي ويقولون هذا الذي شاهدناه من الحجج سحر سحرنا به . ومعنى ﴿ مستمر ﴾ أي ذاهب ، أو باطل مضمحل لا دوام له ﴿ وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ أي كذبوا بالحق إذ جاءهم ، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقولهم وقوله ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ معناه أن الخير واقع بأهل الخير ، والشر واقع بأهل الشر . قال مجاهد : ﴿ كل أمر مستقر ﴾ أي يوم القيامة .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ ﴿٥﴾

﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ﴾ أي من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل ، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب مما يتلى عليهم في هذا القرآن ﴿ ما فيه مزدجر ﴾ أي ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب . ﴿ حكمة بالغة ﴾ أي في هدايته تعالى ﴿ فما تغني النذر ﴾ يعني أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه ؟ فمن الذي يهديه من بعد الله ؟ وهذه الآية كقوله الله تعالى ﴿ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ وقوله تعالى ﴿ فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ .

﴿٦﴾ ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ ﴿٨﴾

يقول تعالى : فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا هذا سحر مستمر ، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿ يوم يدع الداع إلى شيء نكر ﴾ أي إلى شيء منكر فظيع ، وهو موقف الحساب ، وما فيه من البلاء ، بل والزلزال والأهوال ﴿ خشعاً أبصارهم ﴾ أي ذليلة أبصارهم ﴿ يخرجون من الأجداث ﴾ وهي القبور ﴿ كأنهم جراد

منتشر ﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي جراد منتشر في الآفاق ، ولهذا قال ﴿ مهطعين ﴾ أي مسرعين ﴿ إلى الداع ﴾ لا يخالفون ولا يتأخرون ﴿ يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ أي يوم شديد الهول ، عبوس قمطرير ﴿ فذلك يوم عسير . على الكافرين غير يسير ﴾ .

﴿ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ ﴿١٧﴾

﴿ كذبت ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿ قوم نوح فكذبوا عبدنا ﴾ أي صرحوا له بالتكذيب ، واتهموه بالجنون ﴿ وقالوا مجنون وازدجر ﴾ أي استطير جنوناً ، أو انتهروه وزجروه وتواعدوه ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ وهذا متوجه حسن ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ أي إني ضعيف عن هؤلاء ، وعن مقاومتهم فانتصر أنت لدينك . قال الله تعالى ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ هو الكثير ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ أي نبعت جميع أرجاء الأرض حتى التنانير التي هي محال النيران تبعث عيوناً ﴿ فالتقى الماء ﴾ أي من السماء والأرض ﴿ على أمر قد قدر ﴾ أي أمر مقدر ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ هي المسامير ، وواحدها دسار ، ويقال : دسير ، كما يقال : حبيك وحباك والجمع حبك . أو الدسر أضلاع السفينة ، ﴿ تجري بأعيننا ﴾ أي بأمرنا ، بمرأىً منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾ أي جزاء لهم على كفرهم بالله ، وانتصاراً لنوح عليه السلام ﴿ ولقد تركناها آية ﴾ أي أبقى الله سفينة نوح حتى ادركها أول هذه الأمة ، والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن ، كقوله تعالى ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون . وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون . إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين ﴾ وقال تعالى ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ فهل من مدكر ﴾ أي فهل من يتذكر ويتعظ ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ أي كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ، ولم يتعظ بما جاءت به نذري ، وكيف انتصرت لهم ،

وأخذت لهم بالثأر ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ أي سهلنا لفظه ، ويسرنا معناه لمن أراده ، ليتذكر الناس ، كما قال تعالى ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ وقال تعالى ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم هود أنهم كذبوا رسولهم أيضاً كما صنع قوم نوح ، وأنه تعالى أرسل ﴿ عليهم ريحاً صرصراً ﴾ وهي الباردة الشديدة البرد ﴿ في يوم نحس ﴾ أي عليهم ﴿ مستمر ﴾ عليهم نحسه ودماره ، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي ﴿ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ثم تنكسه على أم رأسه فيسقط إلى الأرض فتثلغ رأسه ، فيبقى جثة بلا رأس ، ولهذا قال ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ ﴿٣١﴾

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً ﴿ فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر ﴾ يقولون لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا ، ثم تعجبوا من القاء الوحي عليه خاصة من دونهم ، ثم رموه بالكذب فقالوا ﴿ بل هو كذاب أشر ﴾ أي متجاوز في حد الكذب . قال تعالى ﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ وهذا تهديد لهم ، ووعيد أكيد . ثم قال تعالى ﴿ إنا مرسلو الناقة فتنة لهم ﴾ أي اختباراً لهم ، أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشراء من صخرة صماء طبق ما سألوا لتكون حجة عليهم في تصديق

صالح عليه السلام فيما جاءهم به . ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله صالح عليه السلام : ﴿ فارتقبهم واصطبر ﴾ أي انتظر ما يؤول إليه أمرهم ، واصبر عليهم فإن العاقبة لك ، والنصر في الدنيا والآخرة ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ﴾ أي يوم لهم ويوم للناقة ، كقوله تعالى ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ وقوله تعالى ﴿ كل شرب محتضر ﴾ قال مجاهد : إذا غابت حضروا الماء ، وإذا جاءت حضروا اللبن . ثم قال تعالى ﴿ فنادوا صاحبهم ﴾ هو عاقر الناقة ، واسمه قدار بن سالف ، وكان أشقى قومه كقوله تعالى ﴿ إذا انبعث أشقاها ﴾ ﴿ فتعاطى ﴾ أي حسر ﴿ فعقر . فكيف كان عذابي ونذر ﴾ أي فعاقبتهم فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي ، وتكذيبهم رسولي ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ أي فبادوا عن آخرهم ، لم تبق منهم باقية ، وخمدوا وهمدوا كما يهمد يبس الزرع والنبات . والمحتظر : هو المرعي بالصحراء حين ييبس ويحترق وتسفيه الريح .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه ، وارتكبوا المكروه من اتيان الذكور ، وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسلها ، وأتبعت بحجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال ههنا : ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً ﴾ وهي الحجارة ﴿ إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ أي خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ، ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، فقد أصابها ما أصاب قومها ، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسسه سوء ، ولهذا قال تعالى ﴿ كذلك نجزي من شكر . ولقد أنذرهم بطشتنا ﴾ أي ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه ، فما التفتوا إلى ذلك ، ولا أصغوا إليه ، بل شكوا فيه ، وتماروا به ﴿ ولقد

راودوه عن ضيفه ﴾ وذلك ليلة ورد عليه جبريل وميكائيل وإسرافيل في صورة شباب مرد حسان محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها فأعلمتهم بأضياف لوط ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فأغلق لوط دونهم الباب ، فجعلوا يحاولون كسر الباب ، وذلك عشية ، ولوط عليه السلام يدافعهم ، ويمانعهم دون أضيافه ويقول لهم ﴿ هؤلاء بناتي ﴾ يعني نساءهم ﴿ إن كنتم فاعلين . قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ﴾ أي ليس لنا فيهن أرب ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ فلما اشتد الحال ، وأبوا الا الدخول خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم ، يقال : إنها غارت من وجوههم ، وقيل : إنه لم تبق لهم عيون بالكلية ، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان ، ويتوعدون لوطاً عليه السلام إلى الصباح ، قال تعالى ﴿ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ أي لا محيد لهم عنه ، ولا انفكاك لهم منه ﴿ فذوقوا عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾

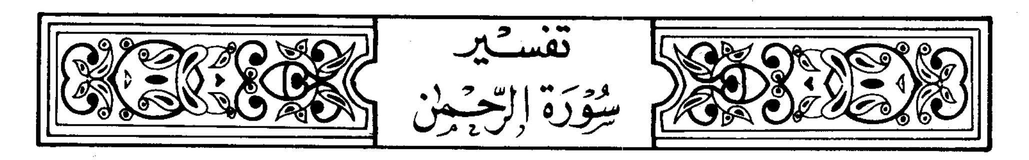
يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه إنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا ، والنذارة إن كفروا ، وأيدهما بمعجزات عظيمة ، وآيات متعددة فكذبوا بها ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، أي فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبر ولا عين ولا أثر . ثم قال تعالى ﴿ أكفاركم ﴾ أي أيها المشركون من كفار قريش ﴿ خير من أولئكم ﴾ يعني من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل ، وكفرهم بالكتب ، أأنتم خير من أولئكم ؟ ﴿ أم لكم براءة في الزبر ﴾ أي أمعكم من الله براءة أن لا ينالكم عذاب ولا نكال ؟ ثم قال تعالى ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ أي يعتقدون أنهم يتناصرون ، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء . قال تعالى ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ أي سيتفرق شملهم ويغلبون . روى البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر « أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً » فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربك

فخرج ، وهو يثب في الدرع وهو يقول ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى عن المجرمين : إنهم في ضلال عن الحق ، وسوء مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء ، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق . ثم قال تعالى ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ أي كما كانوا في سوء وشك وتردد أورثهم ذلك النار ، وكما كانوا ضلالاً يسحبون فيها على وجوههم لا يدرون أين يذهبون ، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً ﴿ ذوقوا مس سقر ﴾ وقوله تعالى ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ كقوله ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ وكقوله تعالى ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى ﴾ أي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه ، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه وهو علمه الأشياء قبل كونها ، وكتابته لها قبل برئها ، وردوا بهذه الآية ، وبما شاكلها من الآيات ، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتة على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة . وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » زاد ابن وهب « وكان عرشه على الماء » . ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال ﴿ وما أمرنا إلا واحدة ﴾ أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد بثانية ، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح بالبصر ، لا يتأخر طرفة عين ﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم ﴾ يعني أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسل ﴿ فهل من مدكر ﴾ أي فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك وقدر لهم من العذاب ، كما قال تعالى ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ وقوله تعالى ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ أي مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام ﴿ وكل صغير وكبير ﴾ أي من أعمالهم ﴿ مستطر ﴾ أي

مجموع عليهم ، ومسطر في صحائفهم ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « يا عائشة ، إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً » ورواه النسائي وابن ماجه . ﴿ إن المتقين في جنات ونهر ﴾ أي بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر ، والسحب في النار على وجوههم مع التوبيخ والتقريع والتهديد . ﴿ في مقعد صدق ﴾ أي في دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه ﴿ عند مليك مقتدر ﴾ أي عند الملك العظيم ، الخالق للأشياء كلها ومقدرها ، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون . روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال : « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمٰن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » انفرد بإخراجه مسلم والنسائي .



تفسير سُورَةِ الرَّحْمٰن

روى الترمذي عن جابر قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمٰن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال : لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » ثم قال : هذا حديث غريب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ۝٤

يخبر تعالى عن فضله ورحمته أنه أنزل على عباده القرآن ، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه فقال تعالى ﴿ الرحمٰن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان ﴾ يعني النطق ، وقيل : علمه الخير والشر ، والأول أحسن وأقوى لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن ، وهو أداء تلاوته ، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق ، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين على اختلاف مخارجها وأنواعها .

﴿٥﴾ ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿١٣﴾

﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ أي يجريان متعاقبين بحساب مقنن ، لا يختلف ولا يضطرب ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ أجمعوا على أن الشجر ما قام على ساق . ولكن ما المراد بالنجم هنا ، فقيل : هو ما انبسط على وجه الأرض ، يعني من النبات ، وقيل : هو النجم الذي في السماء ، وهذا القول هو الأظهر ـ والله أعلم ـ لقوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ﴾ وقوله تعالى ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾ يعني العدل ، كما قال تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ وهكذا قال ههنا ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ أي خلق السموات والأرض بالحق والعدل لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل ، ولهذا قال ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، أي لا تبخسوا الوزن ، بل زنوا بالحق والقسط كما قال تعالى ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ وقوله تعالى ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ أي كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات لتستقر لما على وجهها من الأنام ، وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم في سائر أقطارها وأرجائها .

﴿ فيها فاكهة ﴾ أي مختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿ والنخل ذات الأكمام ﴾ أفرده بالذكر لشرفه ونفعه : رطباً ويابساً . والأكمام هي أوعية الطلع ، وهو الذي يطلع فيه القنو ، ثم ينشق عن العنقود ، فيكون بسراً ، ثم رطباً ، ثم ينضج ، ويتناهى يفعه واستواؤه ﴿ والحب ذو العصف ﴾ يعني التين ﴿ والريحان ﴾ خضر الزرع ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ أي فبأي الآلاء يا معشر الجن والإنس تكذبان ؟ أي النعم ظاهرة عليكم ، وأنتم مغمورون بها لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون به : اللهم ، ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

﴿١٤﴾ ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٢٣﴾

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، وهو طرف لهبها ، ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان . رب المشرقين ورب المغربين ﴾ يعني مشرقي الصيف والشتاء ، ومغربي الصيف والشتاء ، وقال في الآية الأخرى ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾ وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم وبروزها منه إلى الناس ، وقال في الآية الأخرى ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ﴾ وهذا المراد منه جنس المشارق والمغارب . ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ وقوله تعالى ﴿ مرج البحرين ﴾ أي أرسلهما ﴿ يلتقيان ﴾ أي منعهما أن يلتقيا بما جعل بينهما من البرزخ الفاصل بينهما، والمراد بقوله ﴿البحرين﴾ الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس ﴿بينهما برزخ لا يبغيان﴾ أي وجعل بينهما برزخاً، وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا ، وهذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر ، ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه . ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ أي من مجموعهما فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى ، كما قال تعالى ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن ، وقد صح هذا الاطلاق . واللؤلؤ معروف ، وأما المرجان فقيل : هو صغار اللؤلؤ ، وقيل : هو الخرز الأحمر ، وقيل : هو نوع من الجواهر أحمر اللون ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

﴿٢٤﴾ ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٢٥﴾

﴿ وله الجوار المنشآت ﴾ يعني السفن التي تجري ﴿ في البحر ﴾ قال مجاهد : ما رفع قلعه من السفن فهي منشآت ، وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت . وقال قتادة : المنشئات يعني المخلوقات ﴿ كالأعلام ﴾ أي كالجبال في كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم مما فيه صلاح للناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع ، ولهذا قال ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

﴿٢٦﴾ ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون ، وكذلك أهل السماوات إلا من شاء الله ، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم ، فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت ، بل هو الحي الذي لا يموت أبداً ، قال قتادة : أنبأ بما خلق ثم أنبأ أن ذلك كله فانٍ . وفي الدعاء المأثور : يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والاكرام لا إله إلا أنت برحمتك نستغيث ، أصلح لنا شأننا كله ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا إلى أحد من خلقك . وقال الشعبي : إذا قرأت ﴿ كل من عليها فان ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ذو الجلال والإكرام ، أي هو أهل أن يجل فلا يعصى ، وأن يطاع فلا يخالف ، ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم بحكمه العدل قال ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ . وقوله تعالى ﴿ يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن ﴾ وهذا إخبار عن غناه عما سواه ، وافتقار الخلائق إليه في جميع الآنات ، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم ، وأنه ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ أي من شأنه أن يجيب داعياً ، أو يعطي سائلاً ، أو يفك عانياً أو يشفي سقيماً ، ويحيي حياً ، ويميت ميتاً ، ويربي صغيراً ويفك أسيراً ، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم ومنتهى شكواهم . ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٣٨﴾

﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ هذا وعيد من الله تعالى للعباد ، وليس بالله شغل ، أي سنقضي لكم ، قال البخاري : سنحاسبكم لا يشغله شيء عن شيء ، وهو معروف في كلام العرب ، يقال : لأتفرغن لك ، وما به شغل ، يقول : لآخذنك على غرتك وقوله

تعالى ﴿ أيها الثقلان ﴾ الثقلان : الإنس والجن ، كما جاء في الصحيحين : « يسمعه كل شيء إلا الثقلين » وفي رواية « الإنس والجن » ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ثم قال تعالى ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ أي لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره ، بل هو محيط بكم ، لا تقدرون على التخلص من حكمه ، ولا النفوذ عن حكمه فيكم ، أينما ذهبتم أحيط بكم .

وهذا في مقام الحشر ، الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب ، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿ إلا بسلطان ﴾ أي إلا بأمر الله ﴿ يقول الانسان يومئذٍ أين المفر . كلا لا وزر إلى ربك يومئذٍ المستقر﴾ ولهذا قال: ﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ الشواظ : هو لهب النار ، أو هو الدخان ﴿ ونحاس ﴾ دخان النار ، أو هو النحاس الصفر يذاب فيصب على رؤوسهم ، والمعنى لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار ، والنحاس المذاب عليكم لترجعوا ، ولهذا قال ﴿ فلا تنتصران . فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ﴿ فإذا انشقت السماء ﴾ يوم القيامة كما دلت عليه هذه الآيات مع ما شاكلها من الآيات الواردة في معناها ﴿ فكانت وردة كالدهان ﴾ أي تذوب كما يذوب الدردى والفضة في السبك وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم .

وعن ابن عباس ﴿وردة كالدهان﴾ هو الأديم الأحمر ، كالغرس الورد . وقال مجاهد : ﴿ كالدهان ﴾ كألوان الدهان . ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿ فيومئذٍ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ وهذه كقوله تعالى ﴿ هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ فهذا في حال . وثم في حال يسأل الخلائق عن جميع أعمالهم قال الله تعالى ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون ﴾ ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ أي بعلامات تظهر عليهم . قال قتادة : يعرفون باسوداد الوجوه وزرقة العيون ، وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء ﴿ فيؤخذ بالنواصي والاقدام ﴾ أي يجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ويلقونه في النار ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ﴾ أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ، ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً ،

يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً . وقوله تعالى ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ أي تارة يعذبون في الجحيم ، وتارة يسقون من الحميم ، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب يقطع الامعاء والأحشاء وقوله ﴿ آن ﴾ أي حار ، قد بلغ الغاية في الحرارة ، لا يستطاع من شدة ذلك . وعن القرظي ﴿ حميم آن ﴾ أي حاضر كقوله تعالى ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أي حاضرة شديدة الحر لا تستطاع ، وكقوله ﴿ غير ناظرين إناه ﴾ يعني استواءه ونضجه ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٥٥﴾

﴿ ولمن خاف مقام ربه ﴾ بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ ولم يطع ولا آثر الحياة الدنيا ، وعلم أن الآخرة خير وأبقى فأدى فرائض الله ، واجتنب محارمه فله عند ربه يوم القيامة جنتان ، كما روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » وأخرجه بقية الجماعة إلا أبا داود . وروى ابن جرير عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ فقال ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ فقال ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال : « وإن رغم أنف أبي الدرداء » ورواه النسائي . وهذه الآية عامة في الإنس والجن فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا ، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ثم نعت هاتين الجنتين فقال ﴿ ذواتا أفنان ﴾ أي أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة . ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ أو ﴿ ذواتا أفنان ﴾ واسعتا الفناء ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قال الحسن البصري : إحداهما يقال لها : تسنيم ، والأخرى سلسبيل ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ أي من

جميع أنواع الثمار مما يعلمون ، وخير ما يعلمون ، ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ﴿ متكئين ﴾ يعني أهل الجنة ، والمراد بالاتكاء هنا الاضطجاع ﴿ على فرش بطائنها من استبرق ﴾ وهو ما غلظ من الديباج . قال أبو عمران الجوني : هو الديباج المزين بالذهب ، فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة فهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى ، وعن ابن مسعود قال : هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر ؟ ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾ أي ثمرهما قريب إليهم ، متى شاؤوا تناولوه على أي صفة كانوا ، كما قال تعالى ﴿ قطوفها دانية ﴾ وقال ﴿ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ أي لا تمتنع ممن تناولها ، بل تنحط إليه من أغصانها ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٦١﴾

ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك ﴿ فيهن ﴾ أي الفرش ﴿ قاصرات الطرف ﴾ أي غضيضات عن غير أزواجهن فلا يرين شيئاً في الجنة أحسن من أزواجهن ، وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها : والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك ، ولا في الجنة شيئاً أحب إلي منك ، فالحمد لله الذي جعلك لي ، وجعلني لك ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ أي بل هن عرب أتراب ، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن ، وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة . ثم قال سبحانه ينعتهن ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ في صفاء الياقوت ، وبياض المرجان ، فجعلوا المرجان هنا اللؤلؤ ، روى ابن أبي حاتم عن النبي ﷺ قال : « إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير حتى يرى مخها » وروى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال : « للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين ، على كل واحدة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب» ﴿هل جزاء الاحسان إلا الاحسان﴾ أي ليس لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الاحسان إليه في الآخرة روى البغوي عن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿ هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ﴾ وقال « هل تدرون ما قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « يقول : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » ولما كان

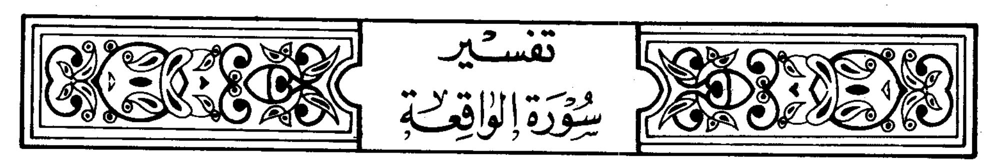
في الذي ذكر نعم عظيمة لا يقاومها عمل ، بل مجرد تفضل وامتنان قال بعد ذلك ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ .

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٧٥﴾

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن ، قال الله تعالى ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ ﴿ مدهامتان ﴾ ممتلئتان من الخضرة ﴿ فيهما عينان نضاختان ﴾ أي فياضتان ، أو ممتلئتان ولا تنقطعان ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما . عن عمر بن الخطاب قال : جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ، أفي الجنة فاكهة ؟ قال : نعم ، ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ » قالوا : أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا ؟ قال : « نعم ، وأضعاف » قالوا : فيقضون الحوائج ؟ قال : « لا ، ولكنهم يعرقون ويرشحون فيذهب الله ما في بطونهم من أذى » وروي أن رسول الله ﷺ قال : « نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كالبعير المقتب » ثم قال ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ قيل : المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة ، وقيل : خيرات جمع خيرة ، وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه ، ولهذا قرأ بعضهم ﴿ فيهن خيِّرات حسان ﴾ بتشديد الياء ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ثم قال ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ خيام اللؤلؤ . روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة ، عرضها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون » وأخرجه مسلم . ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ﴿٧٨﴾

﴿ متكئين على رفرف خضر ﴾ يعني الوسائد ، أو الرفرف المجالس ، أو رياض الجنة ﴿ وعبقري حسان ﴾ العبقري الزرابي ، وعن الحسن البصري : هي بسط أهل الجنة ، لا أبالكم فاطلبوها . ﴿ هل جزاء الاحسان إلا الإحسان ﴾ فوصف أهلها بالإحسان ، وهو أعلى المراتب والنهايات . ثم قال ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ أي هو أهل أن يجل فلا يعصى ، وأن يكرم فيعبد ، ويشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ﴿ ذي الجلال والاكرام ﴾ ذي العظمة والكبرياء . روى الامام أحمد ، قال رسول الله ﷺ « أجلوا الله يغفر لكم » وفي الحديث الآخر « إن من اجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم ، وذي السلطان ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ، ولا الجافي عنه » . وروى الحافظ أبو يعلى أن رسول الله ﷺ قال : « ألظوا بياذا الجلال والاكرام » وكذا رواه الترمذي . وروى مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد ، يعني بعد الصلاة إلا بقدر ما يقول « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والاكرام » .



تفسير سُورَةُ الوَاقِعَةِ

قال أبو اسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو بكر يا رسول الله قد شبت ، قال : شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » رواه الترمذي ، وقال : حسن غريب . وروى الحافظ ابن عساكر قال : مرض عبدالله مرضه الذي توفي فيه فعاده عثمان بن عفان ، فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي ، قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي ، قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني ، قال : ألا آمر لك بعطاء؟ قال : لا حاجة لي فيه، قال : ما يكون لبناتك من بعدك، قال: أتخشى على بناتي الفقر ؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ

ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ ﴿١٢﴾

الواقعة من أسماء يوم القيامة ، سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها ، كما قال تعالى ﴿ فيومئذٍ وقعت الواقعة ﴾ وقوله تعالى ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ أي ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها ، ولا دافع يدفعها كما قال تعالى ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴾ وقال ﴿ سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع ﴾ وقوله ﴿ خافضة رافعة ﴾ أي تخفض أقواماً إلى أسفل سافلين إلى الجحيم ، وإن كانوا في الدنيا أعزاء ، وترفع آخرين إلى أعلى عليين إلى النعيم المقيم ، وإن كانوا في الدنيا وضعاء ﴿ إذا رجت الأرض رجاً ﴾ أي حركت تحريكاً واضطربت بطولها وعرضها ، أي زلزلت زلزالاً ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ أي فتت فتاً ، أي صارت الجبال ﴿ كثيباً مهيلاً ﴾ ﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾ كرهج الغبار يسطع ، ثم يذهب فلا يبقى منه شيء ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ أي ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف . ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة . والسابقون السابقون ﴾ اثنان في الجنة ، وواحد في النار ﴿ والسابقون السابقون ﴾ هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو هم أهل عليين ، أو هم الذين صلوا إلى القبلتين ، أو هم من كل أمة . ﴿ أولئك المقربون . في جنات النعيم ﴾ .

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ثلة أي جماعة من الأولين ، وقليل من الآخرين وقد اختلفوا بقوله الأولين والآخرين ، فقيل : المراد بالأولين الأمم الماضية ، وبالآخرين هذه الأمة ، وهو اختيار ابن جرير واستأنس بقوله ﷺ « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » ومما يستأنس به لهذا القول ما رواه الامام ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : لما نزلت ﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ فنزلت

﴿ ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين ﴾ فقال النبي ﷺ « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث أهل الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة ، أو شطر أهل الجنة ، وتقاسمونهم النصف الثاني » وقيل ، وهو الراجح ، المراد بقوله ﴿ ثلة من الأولين ﴾ أي من صدر هذه الأمة ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ أي من هذه الأمة ، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم ، كل أمة بحسبها ، ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » فأما الحديث الذي رواه الامام أحمد عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ « مثل أمتي مثل المطر ، لا يدري أوله خير أم آخره » فهذا الحديث بعد الحكم بصحة اسناده محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في ابلاغه إلى من بعدهم كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها ، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها ، والفضل للمتقدم ، وكذلك الزروع هو محتاج إلى المطر الأول ، وإلى المطر الثاني ، ولكن العمدة الكبرى على الأول ، واحتياج الزرع إليه آكد . ﴿ على سرر موضونة ﴾ أي مرمولة بالذهب ، يعني منسوجة به ﴿ متكئين عليها متقابلين ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض ليس أحد وراء أحد ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ أي مخلدون على صفة واحدة ، لا يتكبرون عنها ، ولا يشيبون ولا يتغيرون ﴿ بأكواب وأباريق وكأس من معين ﴾ أما الأكواب فهي الكيزان التي لا خراطيم لها ولا آذان ، والأباريق التي جمعت الوصفين ، أي لها خراطيم وآذان ﴿ من معين ﴾ من عين جارية ليس من أوعية تنقطع وتفرغ ، بل من عيون سارحة . ﴿ لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ أي لا تصدع رؤوسهم ، ولا تنزف عقولهم ، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة ، واللذة الحاصلة ﴿ وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون ﴾ أي ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار ، وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها ﴿ حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ أي كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه . ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أي هذا الذي أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ أي لا يسمعون في الجنة كلاماً لاغياً أي عبثاً خالياً عن المعنى ، أو مشتملاً على معنى حقير أو ضعيف كما قال تعالى ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ أي كلمة لاغية ﴿ ولا تأثيماً ﴾ أي كلاماً فيه قبح ﴿ إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ أي إلا التسليم منهم بعضهم على بعض كما قال تعالى ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ وكلامهم أيضاً سالم من اللغو والاثم .

(٣٧) ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ

مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ ﴿٣٤﴾

لما ذكر تعالى مآل السابقين ، وهم المقربون عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين ، وهم الأبرار ، ومنزلتهم دون المقربين ، فقال ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾ أي أيُّ شيء أصحاب اليمين ، وما حالهم وكيف مآلهم ؟ ثم فسر ذلك فقال ﴿ في سدر مخضود ﴾ هو الذي لا شوك فيه ، وموقر بالثمر ، فإن سدر الدنيا كثير الشوك ، قليل الثمر ، وفي الآخرة على العكس من هذا ، كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالاعراب ومسائلهم ، قال : أقبل أعرابي يوماً ، فقال : يا رسول الله ، ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، فقال رسول الله ﷺ وما هي ؟ قال : السدر ، فإن له شوكاً مؤذياً ، فقال رسول الله ﷺ : أليس الله تعالى يقول ﴿ في سدر مخضود ﴾ خضد الله شوكة فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها لتنبت ثمراً تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام ، ما فيها لون يشبه الآخر » ﴿ وطلح منضود ﴾ هو الموز ﴿ وظل ممدود ﴾ في البخاري « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرؤوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾ ﴿ وماء مسكوب ﴾ يجري في غير اخدود ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ أي وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، لا تنقطع صيفاً ولا شتاء ، بل أكلها دائم مستمر أبداً مهما طلبوا وجدوا ، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ أي عالية وطيئة ناعمة .

﴿٣٥﴾ ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ ﴿٤٠﴾

﴿ إنا أنشأناهن ﴾ جرى الضمير على غير مذكور ، لكن لما دل السياق ، وهو ذكر الفرش على النساء اللاتي يضاجعن فيها اكتفى بذلك عن ذكرهن ، وعاد الضمير عليهن ، ﴿ كما في قوله ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ يعني الشمس على المشهور من قولي المفسرين ﴿ أنشأناهن ﴾ أعدناهن في النشأة الأخرى بعدما كن عجائز ، رمصاً ، صرن ﴿ أبكاراً ﴾ أي بعد الثيوبة عدن أبكاراً ﴿ عرباً ﴾ متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة ﴿ أتراباً ﴾ في سن واحدة ، ثلاث وثلاثين سنة ، ومع ذلك هن متساويات في الأخلاق

المتواخيات بينهن ليس بينهن تباغض ولا تحاسد ، يعني لا كما كن ضرائر متعاديات ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ أي خلقن لأصحاب اليمين ، أو ادخرن ، أو زوجن لأصحاب اليمين ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ أي جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين .

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ ﴿٥٦﴾

لما ذكر تعالى أصحاب اليمين عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال فقال ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ أي أي شيء هم فيه أصحاب الشمال ؟ ثم فسر ذلك فقال ﴿ في سموم ﴾ وهو الهواء الحار ﴿ وحميم ﴾ وهو الماء الحار ﴿ وظل من يحموم ﴾ ظل من دخان ﴿ لا بارد ﴾ أي ليس طيب الهبوب ﴿ ولا كريم ﴾ ولا حسن المنظر ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ﴾ أي كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم ، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل ﴿ وكانوا يصرون ﴾ أي يقيمون ولا ينوون توبة ﴿ على الحنث العظيم ﴾ وهو الكفر بالله ، وجعل الأوثان الأصنام أرباباً من دون الله ﴿ وكانوا يقولون أئذامتنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ؟ ﴾ يعني أنهم يقولون ذلك مكذبين به ، مستبعدين لوقوعه ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ أي أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بني آدم سيجمعون إلى عرصات القيامة ، لا يغادر منهم أحد ﴿ معلوم ﴾ أي هو موقت محدود ، لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم . فمالئون منها البطون ﴾ وذلك أنهم يقبضون ويسجرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم حتى يملأوا منها بطونهم ﴿ فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم ﴾ وهي الابل العطاش ، واحدها أهيم ، والأنثى هيماء ﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾ أي هذا الذي

وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

يقول تعالى مقرراً للمعاد ، وراداً على المكذبين به من أهل الزيغ والالحاد من قالوا ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ﴾ وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد فقال تعالى ﴿ نحن خلقناكم ﴾ أي نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، أفليس الذي قدر على البداءة بقادر على الاعادة بطريق الأولى والأحرى ؟ ولهذا قال ﴿ فلولا تصدقون ﴾ أي فهلا تصدقون بالبعث . ثم قال تعالى مستدلاً عليهم بقوله ﴿ أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ ؟ أي أنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه فيها أم الله الخالق لذلك ؟ ثم قال تعالى ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ أي صرفناه بينكم ، قال الضحاك : ساوى فيه بين أهل السماء والأرض ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أي وما نحن بعاجزين ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ أي نغير خلقكم يوم القيامة ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ أي من الصفات والأحوال . ثم قال تعالى ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ أي قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً فخلقكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة ، وهي البداءة قادر على النشأة الأخرى ، وهي الاعادة بطريق الأولى والأحرى ، كما قال تعالى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

﴿ أفرأيتم ما تحرثون ؟ ﴾ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها ﴿ أأنتم تزرعونه ؟ ﴾ أي تنبتونه في الأرض ﴿ أم نحن الزارعون ﴾ أي بل نحن الذين نقره قرارة وننبته في الأرض

﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ أي نحن أنبتناه بلطفنا ، ورحمتنا ، وأبقيناه لكم رحمة بكم ، ولو نشاء لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ ثم فسر ذلك بقوله ﴿ إنا لمغرمون بل نحن محرومون ﴾ أي لو جعلناه حطاماً لظللتم تفكهون في المقالة تنوعون كلامكم ، فتقولون تارة ﴿ إنا لمغرمون ﴾ أي ملقون للشر ، أو لمولع بنا ، أو معذبون ، وتارة تقولون ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أي لا يثبت لنا مال ، ولا ينتج لنا ربح ، أو مجدودون أي لاحظ لنا . ثم قال تعالى ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن ﴾ يعني من السحاب ﴿ أم نحن المنزلون ﴾ يقول : بل نحن المنزلون ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ أي زعاقاً مراً ، لا يصلح لشرب ولا زرع ﴿ فلولا تشكرون ﴾ أي فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في انزاله المطر عليكم عذباً زلالاً ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾ أي تقدحون من الزناد ، وتستخرجونها من أصلها ﴿ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾ أي بل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها ، وللعرب شجرتان ، إحداهما المرخ ، والأخرى العفار ، إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار .

﴿٧٣﴾ ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ﴿٧٤﴾

﴿ نحن جعلناها تذكرة ﴾ أي تذكر النار الكبرى ﴿ ومتاعاً للمقوين ﴾ للمسافرين ، ومنه قولهم أقوت الدار إذا رحل عنها أهلها ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ أي الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة .

﴿٧٥﴾ ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾

هذا قسم ، وقال بعض المفسرين : ﴿ لا ﴾ ههنا زائدة ، وتقديره أقسم بمواقع النجوم ، وجوابه ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ وقال آخرون ﴿ لا ﴾ ههنا ليست زائدة لا معنى لها ، بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسماً به على معنى كقول عائشة رضي الله عنها : لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط ، وهكذا ههنا تقدير الكلام لا أقسم بمواقع النجوم ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحراً وكهانة ، بل هو قرآن كريم ، وقال بعض أهل

العربية : معنى قوله ﴿ فلا أقسم ﴾ فليس الأمر كما تقولون ، ثم استأنف القسم بعد ذلك فقال : أقسم . ﴿ بمواقع النجوم ﴾ يعني نجوم القرآن ، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقاً في السنين بعدُ ، وقيل : يعني ﴿ بمواقع النجوم ﴾ الأنواء التي كان أهل الجاهلية إذا مطروا قالوا : مطرنا بنوء كذا وكذا . وقوله ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ أي وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به عليه ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ أي إن هذا القرآن الذي نزل على محمد ﷺ لكتاب عظيم ﴿ في كتاب مكنون ﴾ أي معظم في كتاب معظم محفوظ موقر ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ عن ابن عباس : الكتاب الذي في السماء لا يمسه إلا الملائكة ، أو لا يمس القرآن إلا المطهرون من الجنابة والحدث . وفي الحديث « لا يمس القرآن إلا طاهر » قال ابن زيد : زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله أنه لا يمسه إلا المطهرون كما قال تعالى ﴿ وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أي هذا القرآن من الله رب العالمين ، وليس هو كما يقولون : إنه سحر أو كهانة ، أو شعر ، بل هو الحق الذي لا مرية فيه ، وليس وراءه حق نافع ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ﴾ أي مكذبون غير مصدقين ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ أي وتجعلون رزقكم بمعنى شكركم أنكم تكذبون ، أي تكذبون بهذا الشكر .

﴿٨٣﴾ ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ ﴿٨٧﴾

﴿ فلولا إذا بلغت ﴾ أي الروح ﴿ الحلقوم ﴾ أي الحلق ، وذلك حين الاحتضار ، كما قال تعالى ﴿ كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذٍ المساق ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ وأنتم حينئذٍ تنظرون ﴾ أي إلى المحتضر ، وما يكابده من سكرات الموت ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ أي بملائكتنا ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ أي ولكن لا ترونهم ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها ﴾ معناه فهلا ترجعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ومقرها من الجسد إن كنتم غير مدينين .

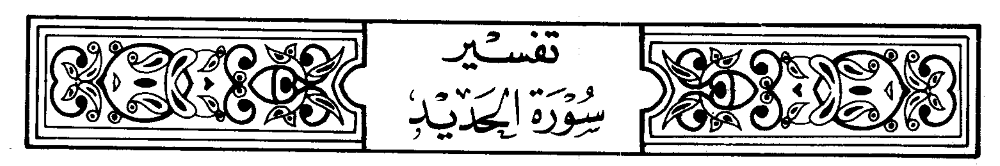
﴿٨٨﴾ ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ

ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ﴿٩٢﴾

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم ، إما أن يكون من المقربين ، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين ، وإما أن يكون من المكذبين بالحق ، الضالين عن الهدى ، الجاهلين بأمر الله ، ولهذا قال ﴿ فأما إن كان ﴾ أي المحتضر ﴿ من المقربين ﴾ وهم الذين فعلوا الواجبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، وبعض المباحات ﴿ فروح وريحان وجنة نعيم ﴾ أي فلهم روح وريحان وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت ﴿ وأما إن كان من أصحاب اليمين ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ أي تبشرهم الملائكة بذلك ، تقول لأحدهم : سلام لك أي لا بأس عليك ، أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين . ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين ﴾ .

﴿٩٣﴾ ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ﴿٩٦﴾

﴿ فنزل من حميم ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى ﴿ فنزل ﴾ أي فضيافة ﴿ من حميم ﴾ وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿ وتصلية جحيم ﴾ أي وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته . ثم قال تعالى ﴿ إنه هذا لهو حق اليقين ﴾ أي إن هذا الخبر لهو حق اليقين الذي لا مرية فيه ، ولا محيد لأحد عنه ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ روى الإمام أحمد لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قال « اجعلوها في ركوعكم » ولما نزلت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال رسول الله ﷺ « اجعلوها في سجودكم » .



تفسير سُورَةُ الحَدِيدِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض ، أي من الحيوانات والنباتات ، كما قال

في الآية الأخرى ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وهو العزيز ﴾ أي الذي خضع له كل شيء ﴿ الحكيم ﴾ في خلقه وأمره وشرعه .

(٢) ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ له ملك السموات والأرض يحيي ويميت ﴾ أي هو المالك المتصرف في خلقه ، فيحيي ويميت ، ويعطي من يشاء ما يشاء ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

(٣) ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن . . ﴾ روى الإمام أحمد عن عرباض بن سارية أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ، وقال « إن فيهن آية أفضل من ألف آية » وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن غريب . والآية المشار إليها ـ والله أعلم ـ قوله تعالى ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ قال البخاري : قال يحيى : الظاهر على كل شيء علماً ، والباطن على كل شيء علماً . روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم « اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، منزل التوراة والانجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول ، فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر ، فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر ، فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن ، ليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر » ورواه مسلم في صحيحه .

(٤) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن ﴿ يعلم ما يلج في الأرض ﴾ أي يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿ وما يخرج منها ﴾ من نبات وزروع وثمار كما قال تعالى ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في

ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما ينزل من السماء ﴾ أي من الأمطار والثلوج والبرد والاقدار والأحكام مع الملائكة الكرام . ﴿ وما يعرج فيها ﴾ أي من الملائكة والأعمال ، كما جاء في الصحيح « يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل » وقوله تعالى ﴿ وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ أي رقيب عليكم ، شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر في ليل أو نهار ، في البيوت أو في القفار ، الجميع في علمه على السواء ، وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ، ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم ، كما قال تعالى ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ وقال تعالى ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ فلا إله غيره ولا رب سواه . وقد ثبت في الحديث أن رسول الله قال لجبريل حين سأله عن الاحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(٥) ﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

﴿ له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي هو المالك للدنيا والآخرة ، كما قال تعالى ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ وهو المحمود على ذلك ، كما قال تعالى ﴿ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة ﴾ فجميع ما في السموات والأرض ملك له ، وأهلهما عبيد أرقاء أذلاء بين يديه كما قال تعالى ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ ولهذا قال ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي إليه المرجع يوم القيامة ، فيحكم في خلقه بما يشاء ، وهو العادل الذي لا يجور ، ولا يظلم مثقال ذرة ، بل إن يكن عمل أحدهم حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها ﴿ ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ .

(٦) ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ أي هو المتصرف في الخلق ، يقلب الليل والنهار ، ويقدرهما بحكمته كما يشاء فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين ، وتارة يكون الفصل شتاء ، ثم ربيعاً ، ثم قيظاً ، ثم خريفاً ، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه ﴿ وهو عليم بذات الصدور ﴾ أي يعلم السراء وإن دقت وإن خفيت .

(٧) ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾
أمر تبارك وتعالى بالإيمان بالله وبرسوله على الوجه الأكمل ، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار ، وحث على الانفاق ﴿ مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ أي مما هو معكم على سبيل العارية ، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ، ثم صار إليكم فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته ، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه ، وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه . وقوله ﴿ مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك ، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك ، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان . روى الإمام أحمد عن مطرف يعني عبدالله بن الشخير عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول « ألهاكم التكاثر » يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » ورواه مسلم وزاد « وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » . وقوله تعالى ﴿ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾ ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة .

(٨) ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾
﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ﴾ أي وأي شيء يمنعكم من الإيمان بالله ، والرسول بين أظهركم ، يدعوكم إلى ذلك ، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به . روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه « أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ قالوا الملائكة ، قال : وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ، قالوا فالأنبياء ، قال : وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ، قالوا : فنحن ، قال : وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها . ﴿ وقد أخذ ميثاقكم ﴾ كما قال تعالى ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ ويعني بذلك بيعة رسول الله ﷺ .

(٩) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾
﴿ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ﴾ أي حججاً واضحات ودلائل باهرات ، وبراهين

قاطعات ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ أي من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان ﴿ وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴾ أي في إنزاله الكتب ، وإرساله الرسل ، وإزاحة العلل ، وإزالة الشبه .

(١٠) ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

﴿ وما لكم أن لا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض ﴾ أي أنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلالاً ، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السموات والأرض ، وبيده مقاليدهما ، وعنده خزائنهما ، وهو مالك العرش بما حوى ، وهو القائل ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ وقال ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ وقوله ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ أي لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله ، وذلك أنه قبل فتح مكة كان الحال شديداً ، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون ، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، ولهذا قال تعالى ﴿ أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى ﴾ والجمهور على أن المراد بالفتح ههنا فتح مكة ، وقيل : صلح الحديبية . ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد ذلك .

(١١) ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾

﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ هو الانفاق في سبيل الله ، وقيل : هو النفقة على العيال ، والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة ، وعزيمة صادقة دخل في عموم هذه الآية ﴿ وله أجر كريم ﴾ أي جزاء جميل ، ورزق باهر ، وهو الجنة يوم القيامة . روى ابن أبي حاتم لما نزلت هذه الآية ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح » قال : أرني يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده قال : فإني قد أقرضت ربي حائطي ـ وله حائط فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها ـ قال : فجاء أبو الدحداح فناداها ، يا أم الدحداح ، قالت : لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل ، وفي رواية قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها

وصبيانها ، وإن رسول الله ﷺ قال : « كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح » .

(١٢) ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة بحسب أعمالهم . كما قال ابن مسعود : في قوله تعالى ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ قال على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه ، يتقد مرة ويطفأ مرة . وقوله ﴿ وبأيمانهم ﴾ أي وبأيمانهم كتبهم كما قال ﴿ فمن أوتي كتابه بيمينه ﴾ وقوله : ﴿بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي يقال لهم : بشراكم اليوم جنات ، أي لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

(١٣) ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾

﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة ، والزلازل العظيمة ، والأمور الفظيعة ، وإنه لا ينجو يومئذٍ إلا من آمن بالله ورسوله وعمل بما أمر الله به ، وترك ما زجر الله عنه ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ فما يزال المنافق مغتراً حتى يقسم النور ، ويميز الله بين المنافق والمؤمن ﴿ أنظرونا نقتبس من نوركم ﴾ فإنا كنا معكم في الدنيا ، قال المؤمنون ﴿ ارجعوا وراءكم ﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور ﴿ فضرب بينهم بسور ﴾ هو حائط بين الجنة والنار . قال الله تعالى ﴿ وبينهما حجاب ﴾ ﴿ باطنه فيه الرحمة ﴾ أي الجنة وما فيها ﴿ وظاهره من قبله العذاب ﴾ أي النار .

(١٤) ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾

﴿ ينادونهم ألم نكن معكم ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين : أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات ، ونصلي معكم الجماعات ونقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدي معكم سائر الواجبات ؟ ﴿ قالوا بلى ﴾ أي فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين : بلى ، قد كنتم معنا ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني ﴾ أي ﴿ فتنتم أنفسكم ﴾ باللذات والمعاصي ، والشهوات ، ﴿ وتربصتم ﴾ أي أخرتم التوبة من وقت إلى وقت ﴿ وارتبتم ﴾ أي بالبعث بعد الموت ﴿ وغرتكم الأماني ﴾ أي قلتم سيغفر لنا . وقيل : غرتكم الدنيا ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ أي ما زلتم في هذا حتى جاءكم الموت ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ أي الشيطان . ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين أنكم كنتم معنا ، أي بأبدان لا نية لها ، ولا قلوب معها ، وإنما كنتم في حيرة وشك ، فكنتم تراؤون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً .

(١٥) ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ﴾ أي لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه . وقوله تعالى ﴿ مأواكم النار ﴾ أي هي مصيركم ، وإليها منقلبكم . وقوله تعالى ﴿ هي مولاكم ﴾ أي هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم وبئس المصير .

(١٦) ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

يقول تعالى : أما آن للمؤمنين ﴿ أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن ، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه ، عن ابن عباس أنه قال : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن فقال ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ عن ابن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن . . ﴾ إلا أربع سنين . رواه مسلم . قال قتادة : ذكر لنا أن شداد بن أوس كان يروي عن رسول الله ﷺ قال : « إن أول ما يرفع من الناس الخشوع » وقوله تعالى ﴿ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل

فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال في دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أي في الأعمال فقلوبهم فاسدة ، وأعمالهم باطلة .

(١٧) ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها . . ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدي الحيارى بعد ضلها ، ويفرج الكروب بعد شدتها ، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل ، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن ، والدلائل . ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذي هو لما يشاء فعال ، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

(١٨) ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ أي دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله ، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ، ولا شكراً ، ولهذا قال ﴿ يضاعف لهم ﴾ أي يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك ﴿ ولهم أجر كريم ﴾ أي ثواب جزيل حسن ومرجع صالح ومآب كريم .

(١٩) ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ﴾ هذا تمام الجملة ، وصف الله المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون . ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ﴾ هذه مفصولة ﴿ والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ﴾ فهم ثلاثة أصناف : يعني المصدقين ، والصديقين ، والشهداء كما قال تعالى ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ ففرق بين الصديقين

والشهداء فدل على أنهما صنفان ، ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد .
﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ لما ذكر السعداء ومآلهم عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم .

﴿ اعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (٢٠)

يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقراً لها ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾ أي إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا ، كما قال تعالى ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾. ثم ضرب الله مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ، ونعمة زائلة فقال ﴿ كمثل غيث ﴾ وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس ، كما قال تعالى ﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ﴾ وقوله ﴿ أعجب الكفار نباته ﴾ أي يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث ، وكما يعجب الزراع ذلك ، كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار ، فإنهم أحرص شيء عليها ، وأميل الناس إليها ﴿ ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً ﴾ أي يهيج الزرع فتراه مصفراً بعدما كان خضراً نضراً ، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً ، أي يصير يبساً متحطماً ، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء ، والإنسان يكون كذلك في أول عمره ، وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف ، بهي المنظر ، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه ، ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ، ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه الشيء اليسير ، كما قال تعالى ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة حذر من أمرها ، ورغب فيما فيها من الخير ، فقال ﴿ وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ أي ليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا ، وإما هذا : إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من الله ورضوان . وقوله تعالى ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ أي هي متاع فانٍ غار لمن ركن إليه ، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ، ولا معاد وراءها ،

وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة،روى ابن جرير عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها » اقرؤوا ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ وهذا الحديث ثابت في الصحيح بدون هذه الزيادة . والله أعلم . وروى الإمام قال رسول الله ﷺ : « للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » انفرد بإخراجه البخاري .

﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (٢١)

﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ والمراد جنس السماء والأرض ﴿ أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ أي هذا الذي أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم ، وإحسانه إليهم ، جاء في الصحيح أن فقراء المهاجرين قالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، قال : « وما ذاك ؟ » قالوا : يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق ، قال : « أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ، تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » قال : فرجعوا فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ، ففعلوا مثله فقال رسول الله ﷺ « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٢٢)

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية فقال ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم ﴾ أي في الآفاق وفي نفوسكم ﴿ إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ أي من قبل أن نخلق الخليقة ، ونبرأ النسمة ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ أي إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها ، وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله عز وجل ، لأنه يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (٢٣)

﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ﴾ أي أعلمناكم بتقدم علمنا ، وسبق كتابتنا للأشياء قبل

كونها وتقديرنا الكائنات قبل وجودها لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم . وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم ، فلا تأسوا على ما فاتكم ، لأنه لو قدر شيء لكان ﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ أي أعطاكم ﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ أي مختال في نفسه ، متكبر فخور على غيره .

(٢٤) ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾

﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ أي يفعلوا المنكر ويحضون الناس عليه ﴿ ومن يتول ﴾ أي عن أمر الله وطاعته ﴿ فإن الله هو الغني الحميد ﴾ كما قال موسى ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ .

(٢٥) ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾

يقول تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ أي بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ وهو النقل الصدق ﴿ والميزان ﴾ وهو العدل ، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾ أي بالحق والعدل ، وهو اتباع الرسل فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا به ، فإن الذي جاؤوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق ، كما قال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ أي وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية ، وكلها جدال مع المشركين ، وبيان وإيضاح للتوحيد ، وبينات ودلالات ، فلما قامت الحجة على من خالف شرع الله الهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف ، وضرب الرقاب ، والهلم لمن خالف القرآن وكذب به وعانده ، وقد روى الامام أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » ولهذا قال ﴿ فيه بأس شديد ﴾ يعني السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع ونحوها ﴿ ومنافع للناس ﴾ أي في معايشهم كالسكة والفأس والقدوم والمنشار والازميل والمجرفة والآلات التي يستعان بها على الحراثة والحياكة والطبخ والخبز ، وما لا قوام للناس بدونه

وغير ذلك ﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾ أي من نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسوله ﴿ إن الله قوي عزيز ﴾ أي هو قوي عزيز ، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس ، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض .

(٢٦) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٢٧)

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً عليه السلام لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته ، وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمٰن ، لم ينزل من السماء كتاباً ، ولا أرسل رسولاً ، ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالته ، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ حتى كان آخر أنبياء بني اسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، ولهذا قال تعالى ﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه ﴾ وهم الحواريون ﴿ رأفة ﴾ أي رقة ﴿ ورحمة ﴾ بالخلق . وقوله ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ أي ابتدعها أمة النصارى ﴿ ما كتبناها عليهم ﴾ أي ما شرعناها ، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم . وقوله تعالى ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ فيه قولان ، أحدهما أنهم قصدوا بذلك رضوان الله ، والآخر : ما كتبنا عليهم ذلك ، إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله . وقوله تعالى ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ أي فما قاموا بما التزموه حق القيام ، وهذا ذم لهم من وجهين : أحدهما الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله ، والثاني في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ هم الذين آمنوا بي وصدقوني ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ وهم الذين كذبوني وخالفوني .

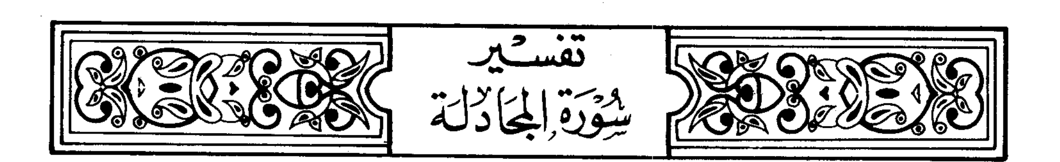
(٢٨) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ أجرين بايمانهم

بعيسى ابن مريم، وبايمانهم بمحمد ﷺ ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ القرآن واتباعهم النبي ﷺ . في الحديث « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله اجران ، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها ، فله أجران » ﴿ يؤتكم كفلين ﴾ أي ضعفين ﴿ من رحمته ﴾ وزادهم ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ يعني هدى يتبصر به من العمى والجهالة ﴿ ويغفر لكم ﴾ ففضلهم بالنور والمغفرة .

(٢٩) ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله ﴾ أي ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله ﴿ وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .



تفسير سُورَةُ المجادلة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾

روى الامام أحمد عن عائشة قالت : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه ، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله عز وجل ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها . . . ﴾ وهكذا رواه البخاري تعليقاً .

(٢) ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾

روى الامام أحمد عن خولة بنت ثعلبة قالت : فيّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله

صدر سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده ، وكان شيخاً كبيراً ، قد ساء خلقه ، قالت : فدخل علي يوماً فراجعته بشيء فغضب ، فقال : أنت علي كظهرامي ، قالت : ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ، ثم دخل علي ، فإذا هو يريدني عن نفسي ، قالت : قلت : كلا والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه ، قالت : فواثبني فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عني ، قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتي ، فاستعرت منها ثياباً ، ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه ، قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : « يا خويلة ، ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه » قالت : فوالله ما برحت حتى نزل في قرآن ، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ، ثم سري عنه ، فقال لي « يا خويلة ، قد أنزل الله فيك ، وفي صاحبك قرآناً » ، ثم قرأ علي : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها إلى قوله تعالى ﴿ وللكافرين عذاب اليم ﴾ قالت : فقال لي رسول الله ﷺ « مريه فليعتق رقبة » قالت : فقلت له : يا رسول الله ، ما عنده ما يعتق ، قال : « فليصم شهرين متتابعين » قالت : فقلت : والله إنه لشيخ كبير ، ما به من صيام ، قال « فليطعم ستين مسكيناً : وسقاً من تمر » قالت : فقلت : والله يا رسول الله ، ما ذاك عنده ، قالت : فقال رسول الله ﷺ « فإنا سنعينه بفرق من تمر » قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا سأعينه بفرق آخر ، قال : « قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه ، ثم استوصي بابن عمك خيراً » ورواه ابو داود في كتاب الطلاق . ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر ، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها : أنت علي كظهرأمي ، ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياساً على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً ، فأرخص الله لهذه الأمة ، وجعل فيه كفارة ، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم ، وعن ابن عباس : قال كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية : أنت علي كظهرامي حرمت عليه ، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس ، وكان تحته ابنة عم له ، يقال لها خويلة بنت ثعلبة فظاهر منها فأسقط في يديه ، وقال : ما أراك إلا قد حرمت علي ، وقالت له : مثل ذلك ، قال فانطلقي إلى رسول الله ﷺ ، فأتت رسول الله ﷺ فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فقال : « يا خويلة » ما أمرنا في أمرك بشيء ، فأنزل الله على رسوله ﷺ ، فقال « يا خويلة أبشري » قالت : خيراً فقرأ عليها ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما ، إلى قوله تعالى والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن

يتماسا ﴾ قالت : وأي رقبة لنا ؟ والله ما يجد رقبة غيري ، قال ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ﴾ قالت : والله لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصره ، قال ﴿ فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ﴾ قالت : من أين ؟ ما هي الأكلة إلى مثلها قال : فدعا بشطر وسق : ثلاثين صاعاً ، والوسق ستون صاعاً فقال : ليطعم ستين مسكيناً ، وليراجعك . وهذا اسناد جيد قوي . ﴿ ماهن امهاتهم إن امهاتهم إلا اللائي ولدنهم ﴾ أي لا تصير المرأة بقول الرجل أنت على كأمي ونحو ذلك لا تصير امه بذلك ، وإنما أمه التي ولدته ، ولهذا قال ﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ﴾ أي كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿ وإن الله لعفو غفور ﴾ أي عما كان منكم في الجاهلية ، وهكذا عما كان من سبق اللسان ، ولم يقصر إليه المتكلم .

(٣) ﴿ وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ قال الشافعي : العود : هو أن يمسكها بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق ، وقال أحمد بن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع ، أو يعزم عليه ، فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة ، وقال أبو حنيفة : هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ، ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ والمس النكاح . وعن ابن عباس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن اكفر ، فقال : ما حملك على ذلك يرحمك الله ؟ » قال : رأيت خلخالها في ضوء القمر ، قال : « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله عز وجل » رواه أهل السنن ، وقال الترمذي : حسن غريب صحيح . ﴿ فتحرير رقبة ﴾ أي فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا ، فههنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالايمان ، وفي كفارة القتل مقيدة بالايمان فحمل الشافعي رحمه الله ما أطلق ههنا على ما قيد هناك ، لاتحاد الموجب ، وهو عتق الرقبة ﴿ ذلكم توعظون به ﴾ أي تزجرون به ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي خبير بما يصلحكم ، عليم بأحوالكم .

(٤) ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين

مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ أي شرعنا هذا لهذا ﴿ وتلك حدود الله ﴾ أي محارمه فلا تنتهكوها ﴿ وللكافرين عذاب اليم ﴾ أي الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء ، كلا ليس الأمر كما زعموا ، بل لهم عذاب اليم في الدنيا والآخرة .

(٥) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

يخبر تعالى عن الذين شاقوا الله ورسوله، وعاندوا شرعه ﴿كبتوا كما كبت الذين من قبلهم﴾ أي أهينوا ولعنوا وأخزوا كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم ﴿ وقد أنزلنا آيات بينات ﴾ أي واضحات لا يعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر ﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ أي في مقابلة ما استكبروا من اتباع شرع الله ، والانقياد له ، والخضوع لديه .

(٦) ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ وذلك يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ﴿ فينبئهم عما عملوا ﴾ أي فيخبرهم بالذي صنعوا من خير وشر ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾ أي ضبطه الله وحفظه عليهم ، وهم قد نسوا ما كانوا عملوا ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ أي لا يغيب عنه شيء ، ولا يخفى ولا ينسى شيئاً .

(٧) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة ﴾ أي من سر ثلاثة ﴿ إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾ أي مطلع عليهم ، يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم الله به وسمعه له ، كما قال تعالى ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾ وقال تعالى ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ ثم قال تعالى ﴿ ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ قال الامام أحمد : افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم .

(٨) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى . . . ﴾ كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة ، وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله ، أو بما يكره المؤمن ، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى ، فلم ينتهو او عادوا إلى النجوى فأنزل الله تعالى هذه الآية . ﴿ ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول ﴾ أي يتحدثون فيما بينهم بالاثم ، وهو ما يختص بهم ﴿ والعدوان ﴾ وهو ما يتعلق بغيرهم ، ومنه معصية الرسول ومخالفته يصرون عليها ، ويتواصون بها ﴿ وإذا جاؤ وك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : دخل على رسول الله ﷺ يهود ، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقالت عائشة : وعليكم السام ، قالت : فقال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ، إن لا يحب الغمش ولا التغمش » قلت : ألا تسمعهم يقولون : السام عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أو ما سمعت أقول وعليكم ؟ » وفي رواية في الصحيح أنها قالت لهم : عليكم السام واللعنة ، وأن رسول الله ﷺ قال : « إنه يستجاب لنا فيهم ، ولا يستجاب لهم فينا » وقوله تعالى ﴿ ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ أي يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام ، وإيهام السلام ، وإنما هو شتم في الباطل ، ومع هذا يقولون في أنفسهم : لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقوله في الباطن ، لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا ، فقال الله تعالى ﴿ حسبهم جهنم ﴾ أي جهنم كفايتهم في الدار الآخرة ﴿ يصلونها فبئس المصير ﴾ .

(٩) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيـة الرسول﴾ أي كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن ما لأهم على ضلالهم من المنافقين ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون ﴾ أي فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم ، وسيجزيكم بها . روى الامام أحمد عن صفوان بن محرز قال : كنت

آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل ، فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كتفه ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أن قد هلك ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين . أخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة .

(١٠) ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ إنما النجوى ﴾ وهي المسارة حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً ﴿ من الشيطان ليحزن الذين آمنوا ﴾ يعني إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ﴿ ليحزن الذين آمنوا ﴾ أي ليسوءهم ﴿ وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ﴾ ومن أحس من ذلك شيئاً فليستعذ بالله ، وليتوكل على الله فإنه لا يضره شيء باذن الله . وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن كما روى الامام أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه » أخرجاه من حديث الأعمش . وفي رواية « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه » انفرد باخراجه مسلم عن أبي الربيع .

(١١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

يقول تعالى مؤدباً عباده المؤمنين ، وآمراً لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، كما جاء في الحديث الصحيح « من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة » وفي الحديث الآخر « ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » ولهذا أشباه كثيرة ﴿ فافسحوا يفسح الله لكم ﴾ قال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الجمعة ، وكان رسول الله ﷺ يومئذ في الصفة ، وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ،

فجاء ناس من أهل بدر ، وقد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله ﷺ ، فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي ﷺ عليهم ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام ، فلم يفسح لهم فشق ذلك على النبي ﷺ ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر « قم يا فلان ، وأنت يا فلان » فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، وعرف النبي ﷺ الكراهة في وجوههم ، فقال المنافقون : ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ والله ما رأيناه قبلُ عدل على هؤلاء ، إن قوماً أخذوا مجالسهم ، وأحبوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه ، فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « رحم الله رجلاً يفسح لأخيه » فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعاً فيفسح القوم لاخوانهم ، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة . رواه ابن أبي حاتم . وقد روى الامام الشافعي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » . وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال : فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث « قوموا لسيدكم » ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث « من أحب أن يتمثل الرجال له قياماً فليتبوأ مقعده من النار » ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم في محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة فرآه مقبلاً قال للمسلمين : « قوموا إلى سيدكم » وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه ، والله أعلم . فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم . وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكان اذا جاء لا يقومون له لما يعلمون من كراهته ذلك . وفي الحديث المروي في السنن أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس . وقيل في قوله تعالى ﴿ فافسحوا يفسح الله لكم ﴾ يعني في مجالس الحرب ﴿ وإذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾ أي انهضوا إلى القتال . ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات ﴾ أي لا تعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه إذا أقبل ، أو إذا أمر بالخروج فخرج أن يكون ذلك نقصاً في حقه ، بل هو رفعة ورتبة عند الله ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه .

(١٢) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ ، أي يساره فيما بينه وبينه أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام ﴿ ذلك خير لكم وأطهر ﴾ ثم قال تعالى ﴿ فإن لم تجدوا ﴾ أي إلا من عجز عن ذلك ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ فما أمر بها إلا من قدر عليها .

﴿١٣﴾ ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ أي أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﴿ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم . . . ﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم . وقد قيل : إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي بن أبي طالب ، قدم ديناراً صدقة تصدق به ، ثم ناجى رسول الله ﷺ .

﴿١٤﴾ ﴿ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى منكراً على المنافقين في موالاتهم الكفار في الباطن ، وهم في نفس الأمر ، لا معهم ، ولا مع المؤمنين ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ يعني اليهود الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن . ثم قال تعالى ﴿ ما هم منكم ولا منهم ﴾ أي هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون ، ولا من الذين يوالونهم ، وهم اليهود . ثم قال تعالى ﴿ ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ﴾ يعني المنافقون يحلفون على الكذب ، وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا ، وهي اليمين الغموس .

﴿١٥﴾ ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ أي أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة وهي موالاة الكافرين ، ونصحهم ، ومعاداة المؤمنين وغشهم . ولهذا قال تعالى :

﴿١٦﴾ ﴿ ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ﴾ أي أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، واتقوا

بالأيمان الكاذبة فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿ فلهم عذاب مهين ﴾ أي في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحانثة .

(١٧) ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ أي لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

(١٨) ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾

﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ أي يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم ، فلا يغادر منهم أحداً ﴿ فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ﴾ أي يحلفون بالله عز وجل أنهم كانوا على الهدى والاستقامة كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا ، لأن من عاش على شيء مات عليه ، وبعث عليه ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس ، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة . ثم قال تعالى منكراً عليهم حسبانهم ﴿ ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب . روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجره ، وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل قال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان ، فإذا أتاكم فلا تكلموه » فجاء رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه فقال : « علام تشتمني أنت وفلان وفلان ؟ » نفر دعاهم بأسمائهم ، قال : فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له ، واعتذروا إليه ، قال : فأنزل الله عز وجل هذه الآية . ورواه الإمام أحمد .

(١٩) ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ﴾ أي استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله عز وجل ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه . وقد روى أبو داود عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليك بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب القاصية » (يعني صلاة الجماعة) ثم قال تعالى ﴿ أولئك حزب الشيطان ﴾ يعني الذين استحوذ عليهم

الشيطان فأنساهم ذكر الله .ثم قال تعالى﴿ ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ .

(٢٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ولرسوله ، يعني الذين هم في حد ، والشرع في حد ، أي مجانبون للحق مشاقون له ، هم في ناحية والهدى في ناحية ﴿ أولئك في الأذلين ﴾ أي في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب الأذلين في الدنيا والآخرة .

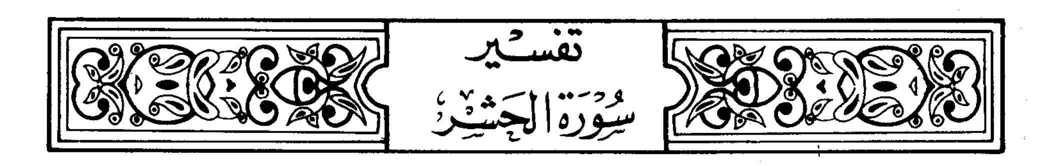
(٢١) ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ أي قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة .

(٢٢) ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ أي لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين ﴿ ولو كانوا آباءهم ﴾ نزلت في أبي عبيدة ، قتل أباه يوم بدر ﴿ أو أبناءهم ﴾ نزلت في الصديق ، هم يومئذٍ بقتل ابنه عبدالرحمٰن ﴿ أو إخوانهم ﴾ نزلت في مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذٍ ﴿ أو عشيرتهم ﴾ نزلت في عمر ، قتل قريباً له يومئذٍ ، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذٍ . ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ أي من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه فهذا ممن كتب الله له السعادة وقررها في قلبه ، وزين الإيمان في بصيرته ﴿ وأيدهم بروح منه ﴾ أي قواهم ﴿ ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم ﴿ أولئك حزب الله ﴾ أي هؤلاء حزب الله ، أي عباد الله وأهل كرامته

﴿ ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة في مقابلة ما ذكر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان وأنهم هم الخاسرون .



تفسير سُورَةُ الحَشْرِ

عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : أنزلت في بني النضير . رواه البخاري ومسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يخبر تعالى أن جميع ما في السموات والأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقدسه ويصلي له ويوحده ﴿ وهو العزيز ﴾ أي منيع الجناب ﴿ الحكيم ﴾ في قدره وشرعه .

(٢) ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾

﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ يعني يهود بني النضير ، كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه ، فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد ، فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون وظنوا هم أنها ما نعتهم من بأس الله ، فما أغنى عنهم من الله شيئاً ، وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم ، وسيرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام ، وهي أرض الحشر والنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر ، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يخربون ما في

بيوتهم من المنقولات التي يمكن أن تحمل معهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ أي تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله ، وخالف رسوله ، وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم . ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ يعني بني النضير ﴿ من ديارهم لأول الحشر ﴾ عن ابن عباس قال : من شك في أن أرض المحشر ههنا يعني الشام فليقرأ هذه الآية ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا . . ﴾ قال لهم رسول الله ﷺ : « اخرجوا » قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » ﴿ ما ظننتم أن يخرجوا ﴾ أي في مدة حصاركم لهم وقصرها ، وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها ، ولهذا قال تعالى ﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ أي جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ، كما قال تعالى ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ ﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ أي الخوف والهلع ، والجزع . وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذي نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات الله وسلامه عليه . ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴾ هو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم وحملها على الإبل . قال مقاتل بن حيان : كان رسول الله ﷺ يقاتلهم ، فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال ، وكان اليهود إذا علوا مكاناً ، أو غلبوا على درب أو دار نقبوا من أدبارها ودروبها ، يقول تعالى ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ .

(٣) ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾

﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ﴾ أي لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء ، وهو النفي من ديارهم وأموالهم لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبي ، روى ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير قال : كانت وقعة بني النضير ، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكان منزلهم بناحية من المدينة ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ، وأن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة ، وهي السلاح . فأجلاهم رسول الله ﷺ قبل الشام . وقوله تعالى ﴿ ولهم في الآخرة عذاب النار ﴾ أي حتم لازم لا بد منه .

(٤) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ أي إنما فعل الله بهم ذلك ، وسلط عليهم رسوله ، وعباده المؤمنين ، لأنهم خالفوا الله ورسوله ، وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال تعالى ﴿ ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ .

(٥) ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾

﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾ اللين : نوع من التمر سوى العجوة . أو هو جميع النخل . وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم ، وإرهاباً ، وإرعاباً لقلوبهم .

(٦) ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول تعالى مبيناً ما الفيء وما صفته وما حكمه ، فالفيء كل ما أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كأموال بني النضير هذه ، فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة ، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ فأفاء الله على رسوله ، ولهذا تصرف فيه كما يشاء فرده على المسلمين في وجود البر والمصالح في هذه الآيات ، فقال تعالى ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ أي من بني النضير ﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ يعني الابل ﴿ ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ أي هو قدير لا يغالب ، ولا يمانع ، بل هو القاهر لكل شيء .

(٧) ﴿ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ أي جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير . ولهذا قال تعالى ﴿ فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . . ﴾ فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه ﴿ كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ أي جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها

الأغنياء ، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ أي مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير ، وإنما ينهى عن شر . روى ابن أبي حاتم قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : بلغني أنك تنهى عن الواشمة والواصلة ، أشيء وجدته في كتاب الله تعالى ، أو عن رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى شيء وجدته في كتاب الله وعن رسول الله ﷺ ، قالت : والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف فما وجدت فيه الذي تقول ، قال : فما وجدت فيه ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ؟ قالت : بلى ، قال : فإني سمعت رسول الله ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة ، قالت : فلعله في بعض أهلك ، قال : فادخلي فانظري فدخلت فنظرت ، ثم خرجت ، قالت : ما بأساً ، فقال لها : أما حفظت وصية العبد الصالح ؟ ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ . ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره، وترك زواجره، فإنه شديد العقاب لمن عصاه، وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجز ونهاه.

﴿٨﴾ ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفيء فقال ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ أي خرجوا من ديارهم ، وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿ وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ أي هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم ، وهؤلاء هم سادات المهاجرين .

﴿٩﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ، ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم ، وإيثارهم مع الحاجة فقال تعالى ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ﴾ أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين ، وآمنوا قبل كثير منهم ، قال عمر رضي الله عنه : وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم كرامتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم . رواه البخاري . وقوله تعالى ﴿ يحبون من هاجر إليهم ﴾ أي من كرمهم ، وشرف أنفسهم

يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم . روى الإمام أحمد عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ، ولا أحسن بذلاً في كثير ، لقد كفونا المؤنة ، وأشركونا في المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ، قال : « لا ، ما أثنيتم عليهم ، ودعوتهم الله لهم » وروى البخاري عن أنس قال : دعا النبي ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين ، قالوا : لا ، إلا أن تقطع لاخواننا من المهاجرين مثلها ، قال : « أما لا ، فاصبروا حتى تلقوني ، فإنه سيصيبكم أثرة » تفرد به البخاري من هذا الوجه . ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ أي ولا يجدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة . قال الحسن البصري : ﴿ حاجة ﴾ يعني حسداً ﴿ مما أوتوا ﴾ قال قتادة : فيما أعطي إخوانهم ، ومما يستدل به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد عن أنس قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ : « مثل ذلك » فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضاً فطلع ذلك الرجل على مثل حالته الأولى ، فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبدالله بن عمرو بن العاص فقال : إني لاحيت أبي فأقسمت أني لا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤمني إليك حتى تمضي فعلت ، قال : نعم ، قال أنس : فكان عبدالله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث ، فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار تقلب على فراشه ذكر الله وكبر ، حتى يقوم لصلاة الفجر ، قال عبدالله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الليالي الثلاث ، وكدت أن أحتقر عمله قلت : يا عبدالله ، لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلعت أنت الثلاث مرات ، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك ؟ فأقتدي به فلم أرك تعمل كبير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه ، قال عبدالله : فهذه التي بلغت بك ، وهي التي لا تطاق . ورواه النسائي في اليوم والليلة . وهذا إسناد جيد على شرط الصحيحين . ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ يعني حاجة أي يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ، ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ أي من سلم من الشح فقد أفلح ونجح .

(١٠) ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ والذين جاؤوا من بعدهم . . . ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء ، وهم المهاجرون ، ثم الأنصار ، ثم التابعون لهم بإحسان . ﴿ غلاً ﴾ أي بغضاً وحسداً . وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية أن الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب ، لعدم إنصافه بما مدح الله به هؤلاء .

(١١) ﴿ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين كعبدالله بن أبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم ، فقال تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا . . . ﴾ قال تعالى ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ أي لكاذبون فيما وعدهم به ، إما لأنهم قالوا لهم قولاً ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به ، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه .

(١٢) ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾

ولهذا قال تعالى ﴿ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴾ أي لا يقاتلون معهم ﴿ ولئن نصروهم ﴾ أي قاتلوا معهم ﴿ ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها .

(١٣) ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ﴾ أي يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله كقوله تعالى ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ .

(١٤) ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر ﴾ يعني أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الاسلام بالمبارزة والمقابلة ، بل إما في

حصون ، أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة . ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ أي تراهم فتحسبهم مؤتلفين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف . قال إبراهيم النخعي : يعني أهل الكتاب والمنافقين . ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ .

(١٥) ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ﴾ كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر ، أو كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع ، وهذا القول أشبه بالصواب فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا .

(١٦) ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك ﴾ يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين وقول المنافقين لهم لئن قوتلتم لننصرنكم ، ثم لما حقن الحقائق وجد بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان ـ والعياذ بالله ـ الكفر ، فإذا دخل فيما سوله له تبرأ وتنصل وقال ﴿ إني أخاف الله رب العالمين ﴾ .

(١٧) ﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ﴾ أي فكان عاقبة الآمر بالكفر ، والفاعل له ، ومصيرهما إلى النار خالدين فيها . ﴿ وذلك جزاء الظالمين ﴾ أي جزاء كل ظالم .

(١٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

روى الإمام أحمد عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار ، قال : فجاءه قوم حفاة عراة مجتالي النمار ، أو العباء ، متقلدي السيوف ، عامتهم من مضر ، بل كلهم من مضر ، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى ما بهم من الفاقة ، قال : فدخل ، ثم خرج ، فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة ، فصلى ، ثم خطب فقال : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً

كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ وقرأ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره ، حتى قال : ولو بشق تمرة » قال : فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس ، حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مذهبة ، فقال رسول الله ﷺ « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » انفرد بإخراجه مسلم . فقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أمر بتقواه ، وهو يشمل فعل ما أمر به ، وترك ما عنه زجر ﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة يوم معادكم وعرضكم على ربكم ﴿ واتقوا الله ﴾ تأكيد ثان ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم ، لا تخفى عليه منكم خافية ، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير .

﴿١٩﴾ ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾

﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ أي لا تنسوا ذكر الله فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم ، فإن الجزاء من جنس العمل ، ولهذا قال تعالى ﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله الهالكون يوم القيامة ، الخاسرون يوم معادهم .

﴿٢٠﴾ ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾

﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ أي لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة ﴿ أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ أي الناجون المسلَّمون من عذاب الله عز وجل .

﴿٢١﴾ ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى معظماً لأمر القرآن، ومبيناً علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع

عند سماعه لما فيه من الوعد الحق ، والوعيد الأكيد ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾ أي فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل ، فكيف يليق بكم أيها البشر أن لا تلين قلوبكم ، وتخشع وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتم عن أمر الله وتدبرتم كتابه ، ولهذا قال تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ وقد ثبت في الحديث المتواتر أن رسول الله ﷺ لما علا المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع ، وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر فعند ذلك حن الجذع وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكت لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده . ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري : فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع . وهكذا هذه الآية الكريمة إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدعت من خشيته فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟

(٢٢) ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ هو الله الذي لا إلٰه إلا هو عالم الغيب والشهادة ﴾ أخبر تعالى أنه لا إلٰه إلا هو ، فلا رب غيره ، ولا إلٰه للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، أي يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير حتى الذر في الظلمات ﴿ هو الرحمٰن الرحيم ﴾ والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما .

(٢٣) ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

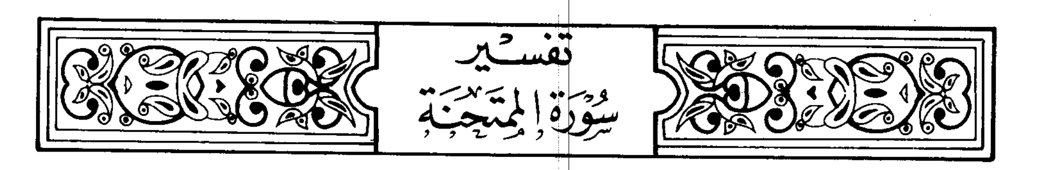
﴿ هو الله الذي لا إلٰه إلا هو الملك ﴾ أي المالك لجميع الأشياء ، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة ﴿ القدوس ﴾ أي الطاهر ، تقدسه الملائكة الكرام ﴿ السلام ﴾ أي من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ المؤمن ﴾ أي أمن خلقه من أن يظلمهم ﴿ المهيمن ﴾ الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنى هو رقيب عليهم ﴿ العزيز ﴾ أي الذي قد عز كل شيء فقهره ، وغلب كل الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ، ولهذا قال ﴿ الجبار المتكبر ﴾ أي الذي لا تليق الجبرية إلا له، ولا التكبر إلا

لعظمته وفي الصحيح « العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته » ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ .

(٢٤) ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

﴿ هو الله الخالق البارىء المصور ﴾ أي الخلق والتقدير ، والبرء هو القرى ، وهو التنفيذ ، وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل ﴿ الخالق البارىء المصور ﴾ أي الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار، كقوله تعالى ﴿في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ ولهذا قال : ﴿ المصور ﴾ أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها . وقوله تعالى ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » ورواه الترمذي وابن ماجه ، وزاد بعد قوله « وهو يحب الوتر » واللفظ للترمذي « هو الله الذي لا إلٰه إلا هو الرحمٰن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي، المبدىء ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعالي ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والاكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المعطي ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور . ﴿ يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز ﴾ أي فلا يرام جنابه ﴿ الحكيم ﴾ في شرعه وقدره . روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال : « من قال حين يصبح ثلاث مرات . أعوذ بالله السميع من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر

سورة الحشر ، وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي ، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة » ورواه الترمذي .



تفسير سُورَةُ المُمتَحنَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة ، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين ، وكان من أهل بدر أيضاً ، وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان ، فلما عزم رسول الله على فتح مكة لما نقض أهلها العهد فأمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم ، وقال اللهم عم عليهم خبرنا » فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً ، فأطلع الله تعالى على ذلك رسوله ﷺ استجابة لدعائه فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها . وهذا بيِّن في هذا الحديث المتفق على صحته . ﴿ يخرجون الرسول وإياكم ﴾ هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم لما هم عليهم من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ﴿ أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾ أي لم يكن لهم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين ﴿ إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ﴾ أي إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم ﴿ تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾ أي تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ﴿ ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ .

(٢) ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾

﴿ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴾ أي لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال ﴿ ودوا لو تكفرون ﴾ أي ويحرصون على أن لا تنالوا خيراً فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة ، فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضاً .

(٣) ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ﴾ أي قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءاً ، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله . ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ، ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء . روى الإمام أحمد عن أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أين أبي ؟ قال : « في النار » فلما قفى دعاه فقال : « إن أبي وأباك في النار » ورواه مسلم وأبو داود .

(٤) ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبري منهم ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ﴾ أي وأتباعه الذين آمنوا به ﴿ إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ﴾ أي تبرأنا منكم ﴿ ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ﴾ أي بدينكم وطريقكم ﴿ وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ﴾ يعني وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ما دمتم على كفركم فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿ حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ أي إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له ، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد . وقوله تعالى ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ أي لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه ، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ويقولون إن

إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأنزل الله عز وجل ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ أي ليس لكم في ذلك أسوة أي في الاستغفار للمشركين ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ أي توكلنا عليك في جميع الأمور وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك ، وإليك المصير ، أي المعاد في الدار الآخرة .

(٥) ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ معناه لا تعذبنا بأيديهم ، ولا بعذاب من عندك ، فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا . ﴿ واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أي واستر ذنوبنا عن غيرك ، واعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿ إنك أنت العزيز ﴾ أي الذي لا يضام من لاذ بجنابك ﴿ الحكيم ﴾ في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك .

(٦) ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

﴿ لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ وهذا تأكيد لما تقدم . وقوله ﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ تهييج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد . ﴿ ومن يتول ﴾ أي عما أمر الله به ﴿ فإن الله هو الغني الحميد ﴾ كقوله ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ الغني الذي قد كمل في غناه ، هذه صفته لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء ، وليس كمثله شيء ، سبحان الله الواحد القهار ، والحميد المستحمد إلى خلقه ، أي هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله ، لا إلٓه غيره ولا رب سواه .

(٧) ﴿ ۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ أي محبة بعد البغضة ، ومودة بعد النفرة ، وألفة بعد الفرقة ﴿ والله قدير ﴾ أي على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة ، والمتباينة ، والمختلفة ، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة ، فتصبح مجتمعة متفقة ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أي يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه ، وأنابوا إلى ربهم ، وأسلموا له ، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه من أي ذنب .

(٨) ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ﴾ ولم يظاهروا ، أي يعاونوا على إخراجكم ، أي لا ينهاكم عن الاحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين كالنساء والضعفة منهم ﴿ أن تبروهم ﴾ أي تحسنوا إليهم ﴿ وتقسطوا إليهم ﴾ أي تعدلوا ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ روى الإمام أحمد عن أسماء بنت أبي بكر قالت : قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا ، فأتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن أمي قدمت وهي راغبة ، أفأصلها ؟ قال : « نعم ، صلي أمك » أخرجاه . روى الإمام أحمد : قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا ضباب وقرظ وسمن ، وهي مشركة فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها ، فسألت عائشة النبي ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين . . . ﴾ فأمرها أن تقبل هديتها ، وأن تدخلها بيتها . ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ في الحديث الصحيح « المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش ، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا » .

(٩) ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾

﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ﴾ أي إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة ، فقاتلوكم وأخرجوكم ، وعاونوا على إخراجكم ، ينهاكم الله عز وجل عن موالاتهم ، ويأمركم بمعاداتهم ، ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال ﴿ ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

جاء في معاهدة صلح الحديبية بين النبي ﷺ وبين كفار قريش أنه لا يأتينك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، فهاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط فخرج أخواها : عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلماه فيها أن يردها إليهما فنقض الله العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصة ، فمنعهم أن يردوهن إلى المشركين ، وأنزل الله آية الامتحان ، وقد سئل ابن عباس : كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء ؟ قال : كان يمتحنهن : بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله . وقيل : كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله . ﴿ فامتحنوهن ﴾ فاسألوهن عما جاء بهن ، فإن كان جاء بهن غضب على أزواجهن ، أو سخطة ، أو غيره ولم يؤمن فارجعوهن ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً ﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين ، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة . ﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ يعني أزواج المهاجرات من المشركين ، ادفعوا إليهم الذي غرموه عليهن من الأصدقة ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ﴾ يعني إذا أعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن ، أي تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولي وغير ذلك ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ تحريم من الله عز وجل على عباده المؤمنين نكاح المشركات ، والاستمرار معهن ﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ﴾ أي وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن . وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين ﴿ ذلكم حكم الله يحكم بينكم ﴾ أي في الصلح واستثناء النساء منه ، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عليم بما يصلح عباده ، حكيم في ذلك .

(١١) ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾ هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد إذا فرت إليهم امرأة ، ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً ، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليهم .

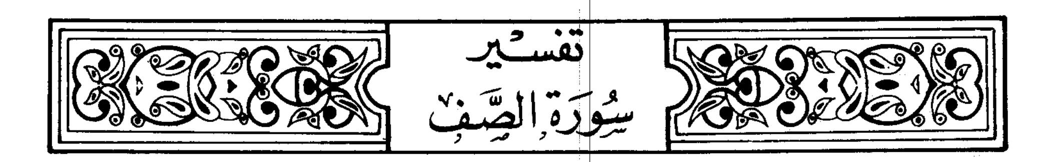
﴿١٢﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

روى البخاري عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك . . ﴾ قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ : « قد بايعتك » كلاماً ، ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة ، ما يبايعهن إلا بقوله « قد بايعتك على ذلك » . هذا لفظ البخاري .
أي من جاءك منهن يبايعنك على هذه الشروط فبايعها على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن أموال الناس الأجانب ، فإما إذا كان الزوج مقصراً في نفقتها فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ما جرت به عادة أمثالها ، وإن كان من غير علم عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني ، فهل علي جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك » أخرجاه في الصحيحين . وقوله تعالى ﴿ ولا يزنين ﴾ كقوله تعالى ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الاملاق ، ويعم قتله ، وهو جنين كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء تطرح نفسها لئلا تحبل ، إما لغرض فاسد ، أو ما أشبهه ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ أي لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ فيما أمرتهن به من معروف ، ونهيتهن عنه من منكر .

﴿١٣﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾

ينهي تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها فقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ يعني اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والابعاد ، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء ، وقد يئسوا من الآخرة ، أي من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عز وجل . وقوله تعالى ﴿ كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ فيه قولان

أحدهما كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك لأنهم لا يعتقدون بعثاً ، ولا نشوراً ، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه ، والثاني يعني من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم ، أو يبعثهم الله عز وجل .



تفسير سُورَةِ الصَّفِ

روى الامام أحمد عن عبدالله بن سلام قال : تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله أي الأعمال أحب إلى الله فلم يقم أحد منا ، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة ، يعني سورة الصف كلها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢)

﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ إنكار على من يعد وعداً ، أو يقول قولاً لا يفي به ، وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً سواء ترتب عليه عزم للموعود أم لا ، واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

(٣) ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ روى الامام أحمد وأبو داود عن عبدالله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله ﷺ وأنا صبي ، فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمي : يا عبدالله ، تعال أعطك ، فقال لها رسول الله ﷺ « وما أردت أن تعطيه ؟ » قالت : تمراً ، فقال : « أما إنك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة » وذهب الامام مالك

رحمه الله إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود وجب الوفاء به ، كما لو قال لغيره : تزوج ، ولك علي كل يوم كذا ، فتزوج وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك ، لأنه تعلق به حق آدمي ، وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً وحملوا الآية على انها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم ، فلما فرض نكل عنه بعضهم . قال المؤمنون : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به فدلهم الله على أحب الأعمال إليه فقال :

(٤) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾

﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ فبين لهم فابتلوا يوم أحد بذلك فولوا عن النبي ﷺ مدبرين فنزلت هذه الآية ، وقال : أحبكم إلي من قاتل في سبيلي . روى الامام أحمد ، أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفُّوا للصلاة ، والقوم إذا صفُّوا للقتال » ورواه ابن ماجه . ﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾ أي ملتصق بعضه ببعض ، مثبت لا يزول .

(٥) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه ﴿ لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ﴾ أي لم توصلون الأذى إلي ، وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة ، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ، ولهذا قال « رحمة الله على موسى : لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر » وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يوصلوا إليه أذى ، كما قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ أي فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ، وأمسكها الشك والحيرة والخذلان ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

(٦) ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل . . . ﴾ يعني التوراة قد بشرت بي ، وأنا

مصداق ما أخبرت عنه ، وأنا مبشر بمن بعدي ، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد ، فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني اسرائيل ، وقد أقام في ملأ بني اسرائيل مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة . ﴿ فلما جاءهم بالبينات ﴾ أي فلما جاءهم أحمد ، أي المبشر به في الأعصار المتقادمة المنوه بذكره في القرون السالفة ، قال الكفرة : ﴿ هذا سحر مبين ﴾ .

(٧) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يقول تعالى ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ﴾ أي لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله ، ويجعل له أنداداً وشركاء ، وهو يدعى إلى التوحيد والاخلاص ، ولهذا قال تعالى ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

(٨) ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (٩)

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ﴾ أي يحاولون أن يردوا الحق بالباطل ، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس بفيه ، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذاك مستحيل ، ولهذا قال تعالى ﴿ والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ .

(١٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ﴾ ثم فسر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور ، التي هي محصلة للمقصود ، ومزيلة للمحذور فقال تعالى :

(١١) ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي من تجارة الدنيا ، والكد لها ، والتصدي لها وحدها .

(١٢) ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ أي إن فعلتم ما أمرتكم به ، ودللتكم عليه غفرت لكم الزلات ، وأدخلتكم الجنات ، والمساكن الطيبات والدرجات العاليات ، ولهذا قال تعالى ﴿ ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ﴾ .

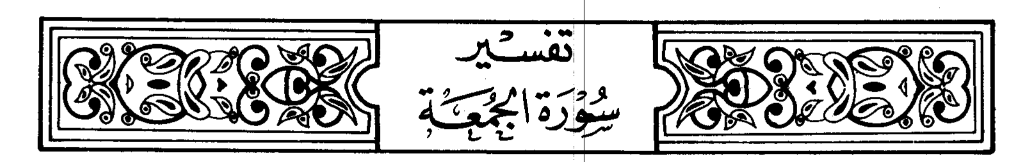
(١٣) ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وأخرى تحبونها ﴾ أي وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها ، وهي ﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾ أي إذا قاتلتم في سبيله ، ونصرتم دينه تكفل الله بنصركم ، قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ وقال تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ وقوله تعالى ﴿ وفتح قريب ﴾ أي عاجل . فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله ، ونصر الله ودينه ، ولهذا قال تعالى ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ .

(١٤) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى بن مريم حين قال : ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ أي من معيني في الدعوة إلى الله عز وجل ؟ ﴿ قال الحواريون ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿ نحن أنصار الله ﴾ أي نحن أنصارك على ما أرسلت به وموازروك على ذلك ، ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج : « من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي ، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي » حتى قيض الله له عز وجل الأوس والخزرج من أهل المدينة ، فبايعوه ووازروه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم ، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه ، ولهذا سماهم الله الأنصار وصار ذلك علماً عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم . ﴿ فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة ﴾ أي لما بلغ عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه ووازره من وازره من الحواريين اهتدت طائفة من

بني اسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة ، فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوته ، ورموه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، وغلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة ، وافترقوا فرقاً وشيعاً ، فمن قائل منهم : إنه ابن الله ، وقائل : إنه ثالث ثلاثة : الأب والابن وروح القدس ، ومن قائل : إنه الله . تعالى الله عن ذلك كله . ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ﴾ أي نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾ أي عليهم ، وذلك ببعثة محمد ﷺ .



تفسير سُورَةُ الجُمُعَةِ

عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين رواه مسلم في صحيحه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات وما في الأرض ، أي من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها ﴿ الملك القدوس ﴾ أي هو مالك السموات والأرض ، المتصرف فيهما بحكمه ، وهو المقدس ، أي المنزه عن النقائص الموصوف بصفات الكمال ﴿ العزيز الحكيم ﴾ .

(٢) ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾ الأميون هم العرب ، وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم ، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر . وذلك أن العرب كانوا قديماً

متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه ، واستبدلوا بالتوحيد شركاً ، وباليقين شكاً ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل ، شامل لجميع الخلق ، فيه هدايته والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ، ورضا الله عنهم ، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى ، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع ، وجمع له تعالى ، وله الحمد والمنة جميع المحاسن ممن كان قبله ، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين ولا يعطيه أحداً من الآخرين . فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

(٣) ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزير الحكيم ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ ، فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً ، وفينا سلمان الفارسي فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال « لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال ، أو رجل من هؤلاء » ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير ، وقيل : هم الأعاجم ، وكل من صدق النبي ﷺ وغير العرب . ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ أي ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره .

(٤) ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ يعني ما أعطاه محمداً ﷺ من النبوة العظيمة ، وما خص به أمته من بعثته ﷺ .

(٥) ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يقول تعالى ذاماً لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ، ثم لم يعملوا بها ، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها ، فهو

يحملها حملاً حسياً ، ولا يدري ما عليه ، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظاً ، ولم يتفهموه ولا عملوا بمقتضاه ، بل أولوه وحرفوه ، وبدلوه ، فهم أسوأ حالاً من الحمير لأن الحمار لا فهم له ، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها ﴿ بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ روى الامام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من تكلم يوم الجمعة ، والامام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، والذي يقول أنصت ليس له جمعة » .

(٦) ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾

﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ أي إن كنتم تزعمون أنكم على هدى ، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة فادعوا بالموت على الضال من الفئتين إن كنتم صادقين أي فيما تزعمونه .

(٧) ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

﴿ ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم ﴾ أي بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ .

(٨) ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ كقوله تعالى في سورة النساء ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ .

(٩) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

إنما سميت الجمعة جمعة لأنها مشتقة من الجمع ، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار ، وفيه كمل جميع الخلائق ، فإنه اليوم السادس من السنة التي خلق الله فيها السموات والأرض ، وفيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، وفيه تقوم الساعة ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه كما

ثبتت بذلك الأحاديث الصحيحة . وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة فقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ أي اقصدوا واعمدوا واهتموا في سيركم اليها ، وليس المراد بالسعي ههنا المشي السريع ، وإنما هو الاهتمام بها ، كقوله تعالى ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ﴾ فأما المشي السريع إلى الصلاة فقد نهى عنه لما أخرجاه في الصحيحين « إذا سمعتم الاقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ، ولا تسرعوا ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » لفظ البخاري ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ أي المشي معه . ويستحب لمن جاء إلى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه لما ثبت في الصحيحين « إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل » ولهما « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم » وروى الامام أحمد « من اغتسل يوم الجمعة ، ومس من طيب أهله إن كان عنده ، ولبس من احسن ثيابه ، ثم خرج حتى يأتي المسجد ، فيركع إن بدا له ، ولم يؤذ أحداً ، ثم أنصت ، إذا خرج إمامه حتى يصلي كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى » وقوله ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ﴾ والمراد بهذا النداء النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر ، فإنه كان حينئذٍ يؤذن بين يديه ، فهذا هو المراد ، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنما كان هذا لكثرة الناس ، كما رواه البخاري رحمه الله . قوله تعالى ﴿ وذروا البيع ﴾ أي اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة ، ولهذا اتفق العلماء رضي الله عنهم على تحريم البيع بعد النداء الثاني ، واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا ؟ على قولين ، وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر في موضعه . ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي ترككم البيع ، وإقبالكم إلى ذكر الله وإلىٰ الصلاة خير لكم ، أي في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون .

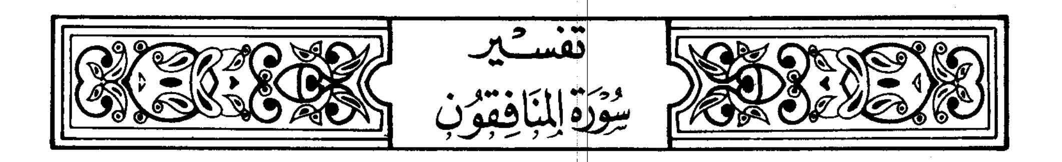
(١٠) ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾ أي فرغ منها ﴿ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء ، أمرهم بالاجتماع أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض ، والابتغاء من فضل الله ، كما كان عراك بن مالك رضي الله عنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللهم إني أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين . رواه ابن أبي حاتم ﴿ واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ أي في حال بيعكم وشرائكم وأخذكم ،

وإعطائكم اذكروا الله ذكراً كثيراً ، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة . ولهذا جاء في الحديث « من دخل سوقاً من الأسواق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة » .

(١١) ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

يعاتب تعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذٍ فقال تعالى ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً ﴾ أي على المنبر تخطب . روى الامام أحمد عن جابر قال : قدمت غير مرة المدينة ، ورسول الله ﷺ يخطب فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلاً فنزلت هذه الآية . أخرجاه في الصحيحين ﴿ وتركوك قائماً ﴾ دليل على أن الامام يخطب يوم الجمعة قائماً ﴿ قل ما عند الله ﴾ أي الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة ﴿ خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾ أي لمن توكل عليه ، وطلب الرزق في وقته .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاؤوا النبي ﷺ ، فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك ، بل على الضد من ذلك ، ولهذا قال تعالى ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ﴾ أي إذا حضروا عندك واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك ، وليس كما يقولون ، ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله فقال ﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ ثم قال تعالى ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ أي فيما أخبروا

به ، وإن كان مطابقاً للخارج ، لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدْقه ، ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم .

(٢) ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ﴾ أي اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة ، والحلفان الآثمة ليصدقوا فيما يقولون ، فاغتربهم من لا يعرف جلية أمرهم ، فاعتقدوا أنهم مسلمون ، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون ، وصدقهم فيما يقولون ، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الاسلام وأهله خبالاً ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس ، ولهذا قال تعالى ﴿ فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ ﴿ جنة ﴾ أي تقية يتقون به القتل .

(٣) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ أي إنما قدر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران ، واستبدالهم الضلالة بالهدى ، فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون ، أي فلا يصل إلى قلوبهم هدى ، ولا يخلص اليها خير ، فلا تعي ولا تهتدي .

(٤) ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾ أي وكانوا أشكالاً حسنة ، وذوي فصاحة وألسنة ، وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم ، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور ، والهلع والجزع والجبن ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ أي كلما وقع أمر ، أو كائنة ، أو خوف يعتقدون لحينهم أنه نازل بهم ، كما قال تعالى ﴿ أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ فهم جهامات وصور بلا معان ، ولهذا قال تعالى ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال .روى الامام أحمد أن النبي ﷺ قال« إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ،وطعامهم نهبة ،وغنيمتهم غلول ،ولا يقربون المساجد إلا هجراً ، ولا يأتون

الصلاة إلا دبراً ، مستكبرين ، لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل ، صخب بالنهار .

(٥) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين عليهم لعائن الله أنهم ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ﴾ أي صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك ، واحتقاراً لما قيل لهم . ولهذا قال تعالى ﴿ رأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴾ .

(٦) ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

ثم جزاهم على ذلك فقال ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾

(٧) ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨)

روى الامام أحمد عن زيد بن أرقم قال : خرجت مع عمي في غزاة فسمعت عبدالله بن أبي ابن سلول يقول لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فذكرت ذلك لعمي فذكره عمي لرسول الله ﷺ فأرسل إلي رسول الله ﷺ فحدثته ، فأرسل إلى عبدالله بن أبي ابن سلول وأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا ، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه ، فأصابني هم لم يصبني مثله قط ، وجلست في البيت ، فقال عمي : ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك، قال : حتى أنزل الله ﴿ إذا جاءك المنافقون . . . ﴾ قال : فبعث إلي رسول الله فقرأها رسول الله ﷺ علي ثم قال « إن الله صدقك » .

(٩) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره ، وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ، ومخبراً لهم أنه ينهاهم عن التلهي بمتاع الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره ، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ثم حثهم على الانفاق في طاعته .

(١٠) ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١١)

﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ﴾ فكل مفرط يندم عند الاحتضار ، ويسأل طول المدة ، ولو شيئاً يسيراً ليستغيث ويستدرك ما فاته ، وهيهات ، كان ما كان ، وآت ما هو آت ، وكل بحسب تفريطه ، قال الله تعالى ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾ وروى الترمذي عن ابن عباس قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه ، أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت ، فقال رجل يا ابن عباس : اتق الله فإنما الرجعة للكفار ، فقال : سأتلو عليك بذلك قرآناً ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾ قال فما يوجب الزكاة ؟ قال : إذا بلغ المال مائتين فصاعداً ، قال : فما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والراحلة . روى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال : ذكرنا عند رسول الله الزيادة في العمر فقال : « إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما الزيادة في العمر أن يرزق الله العبد ذرية صالحة يدعون له ، فيلحقه دعاؤهم في قبره » .



تفسير سورة التغابن



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

هذه السورة هي آخر المسبحات ، والمخلوقات كلها تسبح بارءها وخالقها ومالكها ، ولهذا قال ﴿ له الملك وله الحمد ﴾ أي هو المتصرف في جميع الكائنات ، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع ، وما لم يشأ لم يكن .

(٢) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ أي هو الخالق لكم على هذه الصفة ، وأراد منكم ذلك ، فلا بد من وجود مؤمن وكافر ، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال ، وهو شهيد على أعمال عباده ، وسيجزيهم بها أتم الجزاء ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ .

(٣) ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أي بالعدل والحكمة ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ أي أحسن أشكالكم كقوله تعالى ﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم . الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ وكقوله ﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ﴾ وقوله تعالى ﴿ واليه المصير ﴾ أي المرجع والمآب .

(٤) ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية فقال تعالى ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ﴾ .

(٥) ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين ، وما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ، والتكذيب بالحق فقال تعالى ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل ﴾ أي خبرهم وما كان من أمرهم ﴿ فذاقوا وبال أمرهم ﴾ أي وخيم تكذيبهم ، ورديء أفعالهم ، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي في الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوي .

(٦) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج والدلائل والبراهين ﴿ فقالوا أبشر يهدوننا ﴾ أي استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر ، وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم ﴿ فكفروا وتولوا ﴾ أي كذبوا بالحق ، ونكلوا عن العمل ﴿ واستغنى الله ﴾ أي عنهم ﴿ والله غني حميد ﴾ .

(٧) ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون ﴿ قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ﴾ أي لتخبرن بجميع أعمالكم : جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها ﴿ وذلك على الله يسير ﴾ أي بعثكم ومجازاتكم ، وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه عز وجل على وقوع المعاد ووجوده ، فالأولى في سورة يونس ﴿ ويستنبؤنك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ والثانية في سورة سبأ ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ﴾ والثالثة هي هذه ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبئون بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ .

(٨) ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا ﴾ يعني القرآن ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية .

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٩)

﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾ وهو يوم القيامة ، سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد ، يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر ، كما قال تعالى ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾ وقال تعالى ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ وقوله تعالى ﴿ذلك يوم التغابن﴾ قال ابن عباس : هو اسم من أسماء يوم القيامة ، وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار ، وقال مقاتل بن حيان : لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ، ويذهب بأولئك إلى النار ، وقد فسر ذلك بقوله تعالى ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٠) ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١)

يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ ، وهكذا قال ههنا ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله﴾ بأمر الله ، يعني عن قدره ومشيئته ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم﴾ أي ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب ، واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه ، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه ، ويقيناً وصدقاً ، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه ، أو خيراً منه . وعن ابن عباس ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ يعني يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، أو معنى ﴿يهدقلبه﴾ يسترجع أي يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . وفي الحديث المتفق عليه « عجباً لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » وروى الامام أحمد عن عبادة بن الصامت أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ، وتصديق به ، وجهاد في سبيل الله » قال : أريد أهون من هذا يا رسول الله ، قال : « لا تتهم الله في شيء قضى لك به » لم يخرجوه .

(١٢) ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ هذا أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع ، وفعل ما به أمر ، وترك ما عنه نهى وزجر ﴿ فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ أي إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حمل من البلاغ ، وعليكم ما حملتم من السمع والطاعة ، قال الزهري : من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم .

(١٣) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد الذي لا إله غيره فقال تعالى ﴿ الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ فهذا خبر عن التوحيد ، ومعناه معنى الطلب ، أي وحدوا الآلهية له ، وأخلصوها لديه ، وتوكلوا عليه ، كما قال تعالى ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ﴾ .

(١٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد أن منهم من هو عدو الزوج والوالد ، بمعنى أنه يلتهي به عن العمل الصالح ، كقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ فاحذروهم ﴾ يعني على دينكم . وقال مجاهد : ﴿ إن من ازواجكم وأولادكم عدواً لكم ﴾ قال : عجل الرجل على قطيعة الرحم ، أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه ، وعن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية فقال : رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين ، فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله تعالى ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾ رواه ابن أبي حاتم والترمذي وقال : حسن صحيح . ورواه ابن جرير والطبراني .

(١٥) ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾ يقول تعالى : إنما الأموال والأولاد فتنة ، أي اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه ليعلم من يطيعه ممن يعصيه . وقوله تعالى

﴿ والله عنده ﴾ أي يوم القيامة . ﴿ أجر عظيم ﴾ روى الامام أحمد عن عبدالله بن بريدة سمعت أبا بريدة يقول : كان رسول الله ﷺ يخطب ، فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما ، عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملها فوضعهما بين يديه ، ثم قال « صدق الله ورسوله ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما» ورواه أهل السنن .

(١٦) ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

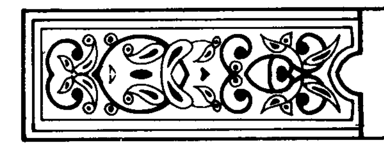
﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ أي جهدكم وطاقتكم كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » . روى ابن أبي حاتم في قوله ﴿ اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ قال : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم ، وتقرصت جباههم، فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً على المسلمين ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ ﴿ واسمعوا وأطيعوا ﴾ أي كونوا منقادين لما يأمركم به الله ورسوله ، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة ، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله ولا تتخلفوا عما به أمرتم ، ولا ترتكبوا ما عنه زجرتم . وقوله ﴿ وأنفقوا خيراً لأنفسكم ﴾ أي وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات ، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن الله اليكم يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة ، وإن لم تفعلوا يكن شراً لكم في الدنيا والآخرة ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

(١٧) ﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١٨)

﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم ﴾ أي مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه ونزل ذلك منزلة القرض له كما ثبت في الصحيحين أن الله يقول : من يقرض غير ظلوم ولا عديم . ولهذا قال ﴿ يضاعفه لكم ويغفر لكم ﴾ أي ويكفر عنكم سيئاتكم ﴿ والله شكور ﴾ أي يجزي على القليل بالكثير ﴿ حكيم ﴾ أي يصفح ويغفر ويستر ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيات .



تفسير سُورَةُ الطَّلَاقِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ (١)

خوطب النبي ﷺ أولاً تشريفاً وتكريماً ، ثم خاطب الأمة تبعاً فقال تعالى ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أنس قال : طلق رسول الله ﷺ حفصة فأتت أهلها فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فقيل له : راجعها ، فإنها صوامة قوامة ، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة ، ورواه ابن جرير . وروى البخاري أن عبدالله بن عمر طلق امرأة له وهي حائض ، فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال : « ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها ، فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل . ورواه مسلم ، ولفظه « فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء » . قسم الفقهاء الطلاق إلى طلاق سنة ، وطلاق بدعة ، فطلاق السنة أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، أو حاملاً قد استبان حملها ، والبدعة هو أن يطلقها في حال الحيض ، أو في طهر قد جامعها فيه ، ولا يدري أحملت أم لا ، وطلاق ثالث ، لا سنة فيه ولا بدعة ، وهو طلاق الصغيرة والآيسة ، وغير المدخول بها ﴿ وأحصوا العدة ﴾ أي احفظوها ، واعرفوا ابتداءها وانتهاءها لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج ﴿ واتقوا الله ربكم ﴾ أي في ذلك ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن ﴾ أي في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه ، فليس للرجل أن يخرجها ، ولا يجوز لها أيضاً الخروج لأنها معتقلة لحق الزوج أيضاً ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ أي لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة فتخرج من المنزل ، والفاحشة المبينة تشمل الزنا ، وتشمل ما إذا نشزت المرأة ، أو بذت على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال ﴿ وتلك حدود الله ﴾ أي شرائعه ومحارمه ﴿ ومن يتعد حدود الله ﴾ أي يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها

﴿ فقد ظلم نفسه ﴾ أي بفعل ذلك ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ أي إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة لعل الزوج يندم على طلاقها ، ويخلق الله في قلبه رجعتها ، فيكون ذلك أيسر وأسهل .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (٣)

يقول تعالى فإذا بلغت المعتدات أجلهن ، أي شارفن على انقضاء العدة ، وقاربن ذلك ، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية فحينئذٍ إما أن يعزم الزوج على إمساكها ، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه ، والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿ بمعروف ﴾ أي محسناً إليها في صحبتها ، وإما أن يعزم على مفارقتها بمعروف ، أي من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف ، بل يطلقها على وجه جميل ، وسبيل حسن . ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ أي على الرجعة إذا عزمتم عليها ﴿ ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة إنما يأتمر به من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يخاف عقاب الله في الدار الآخرة ، ومن ههنا ذهب الشافعي في أحد قوليه إلى وجوب الاشهاد في الرجعة كما يجب عنده في ابتداء النكاح وقد قال بهذا طائفة من العلماء ، ومن قال بهذا يقول : إن الرجعة لا تصح إلا بالقول ليقع الاشهاد عليها . وقوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ أي ومن يتق الله فيما أمره به ، وترك ما نهاه عنه يجعل له من أمره مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، أي من جهة لا تخطر بباله . روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ حتى فرغ من الآية ثم قال : « يا أبا ذر ، لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم » قال فجعل يتلوها ويرددها عليّ حتى نعست ، ثم قال « يا أبا ذر كيف تصنع إذا أخرجت من المدينة ؟ » قلت : إلى السعة والدعة فأكون حمامة من حمام مكة ، قال : « كيف تصنع إذا أخرجت من مكة ؟ » قال : إلى السعة والدعة ، إلى الشام والأرض المقدسة ، قال : « وكيف تصنع إذا أخرجت من الشام » ؟ قلت : إذاً والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي ، قال :

« أوخير من ذلك » قلت : أوخير من ذلك ؟ قال : « تسمع وتطيع ، وإن كان عبداً حبشياً » ﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ أي منفذ قضاءه وأحكامه في خلقه بما يريده ويشاؤه وقد جعل الله لكل شيء قدراً كقوله تعالى ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾

(٤) ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾

يقول تعالى مبيناً لعدة الآيسة ، وهي التي قد انقطع عنها المحيض لكبرها أنها ثلاثة أشهر عوضاً عن الثلاثة قروء في حق من تحيض ، وكذا الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض ، إن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر ، ولهذا قال تعالى ﴿ واللائي لم يحضن ﴾ وقوله تعالى ﴿ إن ارتبتم ﴾ أي إن رأين دماً وشككتم في كونه حيضاً أو استحاضة ، وارتبتم فيه ، أو إن ارتبتم في حكم عدتهن ، ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ أي ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه ، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفواق ناقة في قول جمهور العلماء من السلف والخلف . ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾ أي يسهل له أمره وييسره عليه ، ويجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً .

(٥) ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾

﴿ ذلك أمر الله أنزله إليكم ﴾ أي حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسول الله ﷺ ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴾ أي يذهب عنه المحذور ، ويجزل له الثواب على العمل اليسير .

(٦) ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزله حتى تنقضي عدتها فقال ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم ﴾ أي عندكم ﴿ من وجدكم ﴾ يعني سعتكم ، قال قتادة : إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه ﴿ ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾ يعني يضارها لتفتدي منه بمالها ، أو تخرج من مسكنه ، أو يطلقها فإذا بقي يومان راجعها . ﴿ وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ﴾ قال كثير من العلماء : هذه في البائن

إن كانت حاملاً أنفق عليها حتى تضع حملها ، قالوا : بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملاً ، أو حائلاً ، وقال آخرون : بل السياق كل في الرجعيات ، وإنما نص على الانفاق على الحامل ، وإن كانت رجعية لأن الحمل تطول مدته غالباً ، فاحتيج إلى النص على وجوب الانفاق إلى الوضع لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة . ﴿ فإن أرضعن لكم ﴾ أي إذا وضعن حملهن وهن طوالق فقدبن بانقضاء عدتهن ، ولها حينئذٍ أن ترضع الولد ، وأن تمتنع منه ، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ ، وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للمولود غالباً إلا به ، فإن أرضعت استحقت أجر مثلها ، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما ينفقان عليه من أجرة ، ولهذا قال تعالى ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ﴾ وقوله تعالى ﴿ وأتمروا بينكم بمعروف ﴾ أي ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف من غير إضرار ولا مضارة ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾ أي وإن اختلف الرجل والمرأة فطلبت المرأة في أجرة الرضاع كثيراً ، ولم يجبها الرجل إلى ذلك ، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه فليسترضع له غيرها ، فلو رضيت الأم بما استؤجرت به الأجنبية فهي أحق بولدها .

(٧) ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾

﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾ أي لينفق على المولود والده أو وليه بحسب قدرته ﴿ ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ كقوله تعالى ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ وقوله تعالى ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾ وعد منه تعالى ، ووعده حق لا يخلفه ، وهذه كقوله تعالى ﴿ فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً ﴾ .

(٨) ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾

يقول تعالى متوعداً لمن خالف أمره وكذب رسله ، وسلك غير ما شرعه ، ومخبراً عما حصل بالأمم السالفة بسبب ذلك فقال تعالى ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ﴾ أي تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ، ومتابعة رسله ﴿ فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً ﴾ أي منكراً فظيعاً .

(٩) ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾

﴿ فذاقت وبال أمرها ﴾ أي غب مخالفتها ، وندموا حيث لا ينفعهم الندم ﴿ وكان عاقبة أمرها خسراً ﴾ .

(١٠) ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾

﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ أي في الدار الآخرة ، مع ما لهم من العذاب في الدنيا . ﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب ﴾ أي الأفهام المستقيمة ، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي صدقوا بالله ورسله ﴿ قد أنزل الله إليكم ذكراً ﴾ يعني القرآن ، كقوله تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

(١١) ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾

﴿ رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ﴾ أي في حال كونها مبينة واضحة جلية ﴿ ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾ أي من ظلمات الكفر ، والجهل إلى نور الإيمان والعلم ، وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نوراً لما يحصل به من الهدى ، كما سماه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب . ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً ﴾ .

(١٢) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ﴾ أي سبعاً أيضاً كما ثبت في الصحيحين « من ظلم قيد شبر من أرض طوقه من سبع أرضين » وفي صحيح البخاري « خسف به إلى سبع أرضين » ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة ، وأغرق في النزع ، وخالف القرآن والحديث بلا/ مستند .



تفسير سُورَةُ التَّحْرِيمِ



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ﴿٣﴾

قيل : نزلت في شأن مارية ، وكان رسول الله ﷺ قد حرمها . روى النسائي عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها فأنزل الله عز وجل هذه الآية . وروى ابن جرير أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه ، فقالت : أي رسول الله ، في بيتي وعلى فراشي ، فجعلها عليه حراماً فقالت : أي رسول الله ، كيف يحرم عليك الحلال ؟ فحلف لها بالله لا يصيبها ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل ، كما في البخاري عند هذه الآية عن عائشة قالت : كان النبي ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا ، دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير ، إني أجد منك ريح مغافير ، قال : « لا ، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له ، وقد حلفت ، لا تخبري بذلك أحداً » ﴿ تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم ﴾ ﴿ وإن تظاهرا عليه ﴾ عائشة وحفصة . ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ أبو بكر وعمر ، أو علي بن أبي طالب . روى ابن أبي حاتم عن أنس قال : قال عمر : بلغني شيء كان بين أمهات المؤمنين وبين النبي ﷺ ، فاستقريتهن أقول : لتكفن عن رسول الله ﷺ ، أو ليبدلنه الله أزواجاً خيراً منكن ، حتى أتيت آخر أمهات المؤمنين فقالت : يا عمر ، أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن ، فأنزل الله ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن. . . ﴾ وهذه المرأة التي ردته هي أم سلمة ، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري .

(٤) ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾

﴿ إن تتوبا إلى الله . . . ﴾ قال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله ، ما يشق عليك من أمر النساء ؟ فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكال ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك . وقلما تكلمت ـ وأحمد الله ـ بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي فنزلت هذه الآية : آية التخير ﴿ عسى ربه إن طلقكن . . . ﴾ .

(٥) ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾

﴿ سائحات ﴾ صائمات ، أو مهاجرات ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ منهن ثيبات ، ومنهن أبكار ليكون ذلك أشهى إلى النفس ، فإن التنوع يبسط النفس .

(٦) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ أدبوهم وعلموهم أن يعملوا بطاعة الله ، ويتقوا معاصيه . روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن رسول الله ﷺ : « مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها » قال الفقهاء : وهكذا في الصوم ، ليكون ذلك تمريناً له على العبادة لكي يبلغ وهو يستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر . ﴿ وقودها الناس ﴾ وقودها أي حطبها الذي يلقى فيها جثث بني آدم ﴿ والحجارة ﴾ قيل : المراد بها الأصنام التي تعبد ، لقوله تعالى ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ وقيل : هي حجارة من كبريت أنتن من الجيف . روى ابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً . . . ﴾ وعنده بعض أصحابه ، وفيهم شيخ ، فقال الشيخ : يا رسول الله ، حجارة جهنم كحجارة الدنيا ؟ فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لصخرة من صخر جهنم أعظم من جبال الدنيا كلها » قال : فوقع الشيخ مغشياً عليه ، فوضع النبي ﷺ يده على فؤاده ، فإذا هو حي ، فناداه قال : « يا شيخ ، قل : لا إله إلا الله » فقالها فبشره بالجنة ، فقال أصحابه : يا رسول الله أمن بيننا ؟ قال : « نعم » يقول الله تعالى ﴿ ذلك

لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ » هذا حديث مرسل غريب . ﴿ عليها ملائكة غلاظ ﴾ أي طباعهم غليظة ، قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ﴿ شداد ﴾ أي تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج . ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أي مهما أمر به تعالى يبادرون إليه ، لا يتأخرون عنه طرفة عين ، وهم قادرون على فعله ، ليس بهم عجز عنه ، وهؤلاء هم الزبانية . عياذاً بالله منهم .

(٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

﴿ يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أي يقال للكفرة يوم القيامة : لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ، ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم .

(٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾ أي توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات ، وتلم شعث التائب ، وتجمعه ، وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات . ﴿ توبة نصوحاً ﴾ يتوب ثم لا يعود ، روى الإمام أحمد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « التوبة من الذنب أن يتوب منه ثم لا يعود فيه » . ولهذا قال العلماء : التوبة النصوح هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر ، ويندم على ما سلف منه في الماضي ، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل ، ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقة . وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات ، كما في الحديث « ثم لا يعود فيه أبداً » أو يكفي العزم على أن لا يعود في تكفير الماضي بحيث لو دفع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ضاراً في تكفير ما تقدم لعموم قوله عليه الصلاة والسلام « التوبة تجب ما قبلها » وللأول أن يحتج بما ثبت في الصحيح « من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر » . فإذا كان هذا في الإسلام الذي هو أقوى من التوبة فالتوبة بطريق الأولى . ﴿ عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ و « عسى » من الله موجبة ﴿ يوم لا يخزي الله

النبي والذين آمنوا معه ﴾ أي ولا يخزيهم معه ، يعني يوم القيامة ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴾ .

(٩) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله بجهاد الكفار والمنافقين ، هؤلاء بالسلاح والقتال ، وهؤلاء باقامة الحدود عليهم ﴿ واغلظ عليهم ﴾ أي في الدنيا ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ أي في الآخرة .

(١٠) ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾

﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا ﴾ أي في مخالطتهم المسلمين ، ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً ، ولا ينفعهم عند الله إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم ﴿ امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ﴾ نبيين رسولين عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ﴿ فخانتاهما ﴾ أي في الايمان ، لم توافقاهما على الإيمان ، ولا صدقتاهما في الرسالة ، فلم يجد ذلك كل شيئاً ، ولا دفع عنهما محذوراً ، ولهذا قال ﴿ فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ﴾ أي لكفرهما ﴿ وقيل ﴾ أي للمرأتين ﴿ ادخلا النار مع الداخلين ﴾ . وليس المراد بقوله ﴿ فخانتاهما ﴾ في فاحشة ، بل في الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه . وقد استدل بهذه الآية الكريمة بعض العلماء على ضعف الحديث الذي يأثره كثير من الناس : من أكل مع مغفور له غفر له . وهذا الحديث لا أصل له ، وإنما يروي هذا بعض الصالحين أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال : يا رسول الله ، أنت قلت : من أكل مع مغفور له غفر له ؟ قال : لا ، ولكني الآن أقوله .

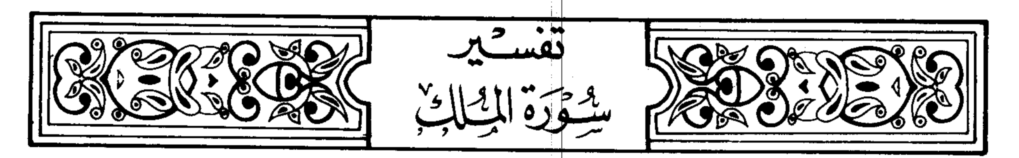
(١١) ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين اليهم كما قال تعالى ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك

فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض . وأكفرهم ، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها ، ليعلموا أن الله حكم عدل ، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه ﴿ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ﴾ قالت العلماء : اختارت الجار قبل الدار ﴿ ونجني من فرعون وعمله ﴾ أي خلصني منه ، فإني أبرأ اليك من عمله ﴿ ونجني من القوم الظالمين ﴾ وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم .

(١٢) ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾

﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها ﴾ أي حفظته وصانته ، والإحصان هو العفاف والحرية ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ أي بواسطة الملك ، وهو جبريل ، فإن الله بعثه اليها فتمثل لها في صورة بشر سوي ، وأمره الله أن ينفخ بفيه في جيب درعها ، فنزلت النفخة فولجت في فرجها ، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام ، ولهذا قال تعالى ﴿ فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه ﴾ أي بقدره وشرعه ﴿ وكانت من القانتين ﴾ وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .



تفسير سورة الملك

روى الامام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « إن سورة في القرآنين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له : تبارك الذي بيده الملك » ورواه أهل السنن الأربعة .



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يمجد تعالى نفسه الكريمة ، ويخبر أنه بيده الملك ، أي هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ، لقهره وحكمته وعدله ، ولهذا قال ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ .

(٢) ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾

﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ استدل بهذه الآية من قال : إن الموت أمر وجودي ، لأنه مخلوق ، ومعنى الآية أنه أوجد الخلائق من العدم ليبلوهم ، أي ليختبرهم أيهم أحسن عملاً كما قال تعالى ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ فسمي الحال الأول ، وهو العدم موتاً ، وسمي هذه النشأة حياة ، ولهذا قال ﴿ ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ روى ابن أبي حاتم : كان رسول الله ﷺ يقول : « إن الله أذل بني آدم بالموت ، وجعل الدنيا دار حياة ، ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ، ثم دار بقاء » ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ أي خير عملاً ، ولم يقل : أكثر عملاً ﴿ وهو العزيز الغفور ﴾ أي هو العزيز العظيم المنيع الجناب ، وهو مع ذلك غفور لمن تاب وأناب بعدما عصاه وخالف أمره ، وإن كان تعالى عزيزاً هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز .

(٣) ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾

﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ﴾ أي طبقة بعد طبقة ، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض ، أو متفاصلات ، بينهن خلاء ؟ فيه قولان ، أصحهما الثاني ، كما دل على ذلك حديث الاسراء . ﴿ ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت ﴾ ليس فيه اختلاف ولا تنافر ، ولا مخالفة ، ولا نقص ، ولا عيب ، ولا خلل ، ولهذا قال تعالى ﴿ فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾ أي انظر إلى السماء فتأملها هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً ، أو شقوقاً .

(٤) ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾

﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ مرتين ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئاً ﴾ ذليلاً صاغراً ﴿ وهو حسير ﴾ وهو كليل ، من الإعياء، ومعنى الآية أنك لو كررت البصر مهما كررت لرجع إليك البصر ﴿ خاسئاً ﴾ عن أن يرى عيباً أو خللاً .

(٥) ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾

﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ عاد الضمير في قوله ﴿ وجعلناها ﴾ على جنس المصابيح ، لا على عينها ، لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء ، بل بشهب من

دونها ، وقد تكون مستمدة منها . والله أعلم ﴿ وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ أي جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا ، وأعتدنا لهم عذاب السعير في الأخرى .

(٦) ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ أي بئس المآل والمنقلب .

(٧) ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴾

﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً ﴾ يعني الصياح ﴿ وهي تفور ﴾ تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير .

(٨) ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾

﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ أي يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴾ .

(٩) ﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾

يذكر تعالى عدله في خلقه ، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول اليه ، كما قال تعالى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ .

(١٠) ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ أي لو كانت لنا عقول ننتفع بها ، أو نسمع ما أنزله الله من الحق ، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله ، والاغترار به ، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم .

(١١) ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم » وفي حديث آخر « لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة » .

(١٢) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس ، فينكف عن المعاصي ، ويقوم بالطاعات حيث لا يراه احد إلا الله تعالى بأنه له مغفرة وأجر كبير ، أي تكفر عنه ذنوبه ، ويجازى بالثواب الجزيل ، كما ثبت في الصحيحين « سبعة يظلهم الله تعالى في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » فذكر منهم امرأة دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجلاً تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » . وروى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن أنس ، قال : قالوا : يا رسول الله : إنا نكون عندك على حال ، فإذا فارقناك ، كنا على غيره ، قال : كيف أنتم وربكم ؟ » قالوا : الله ربنا في السرو العلانية، قال : « ليس ذلكم النفاق » .

(١٣) ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما يخطر في القلوب .

(١٤) ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ ؟ أي ألا يعلم الخالق ، وقيل : معناه ألا يعلم الخالق مخلوقه ؟ والأول أولى ، لقوله ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ .

(١٥) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾

ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض ، وتذليله إياها لهم ، بأنه جعلها قارة ساكنة ، لا يمتد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيأ فيها من المنافع ، ومواضع الزروع والثمار ، فقال تعالى ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها ﴾ أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً إلا أن ييسره الله لكم ، ولهذا قال ﴿ وكلوا من رزقه ﴾ فالسعي في السبب لا ينافي التوكل . روى الامام أحمد عن رسول الله ﷺ « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً » رواه الترمذي والنسائي ، وابن ماجه ﴿ وإليه النشور ﴾ أي المرجع يوم القيامة . ﴿ في مناكبها ﴾ هي الجبال . روى ابن أبي حاتم أنه قرأ هذه الآية ﴿ فامشوا في مناكبها ﴾ فقال لأم ولد له : إن علمت ما مناكبها ؟ فأتت عتيقة ، فقالت : هي الجبال ، فسأل أبا الدرداء ، فقال : هي الجبال .

(١٦) ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾

وهـذا أيضـاً من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به ، وعبادتهم معه غيره ، وهو مع هذا يحلم ويصفح ، ويؤجل ، ولا يعجل كما قال تعالى ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ وقال ههنا ﴿ أإمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ﴾ أي تذهب وتجيء وتضطرب .

(١٧) ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾

﴿أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً ﴾ أي ريحاً فيها حصباء تدفعكم ، كما قال تعالى ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ﴾ ، وهكذا توعدهم ههنا بقوله ﴿ فستعلمون كيف نذير ﴾ أي كيف يكون إنذاري وعاقبة من تخلف عنه وكذب به .

(١٨) ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم ﴾ أي من الأمم السالفة ، والقرون الخالية ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي فكيف كان انكاري عليهم ، ومعاقبتي لهم ، أي عظيماً شديداً .

(١٩) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾

﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبض ﴾ أي تارة يصففـن أجنحتهن في الهواء ، وتارة تجمع جناحاً ، وتنشر جناحاً ﴿ ما يمسكهن ﴾ أي في الجو ﴿ إلا الرحمٰن ﴾ أي بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه ﴿ إنه بكل شيء بصير ﴾ أي بما يصلح كل شيء من مخلوقاته ، وهذه كقوله تعالى ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾

(٢٠) ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴾

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره يبتغون عندهم نصراً ورزقاً منكراً عليهم فيما اعتقدوه ، ومخبراً لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه فقال تعالى ﴿ أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمٰن ﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ولا واق ، ولا ناصر لكم غيره ، ولهذا قال تعالى ﴿ إن الكافرون إلا في غرور ﴾ .

(٢١) ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ﴾ أي من هذا الذي إذا قطع الله

عنكم رزقه يرزقكم بعده ، أي لا أحد يعطي ويمنع ، ويخلق ويرزق ، وينصر إلا الله وحده لا شريك له ، أي وهم يعلمـون ذلك ، ومع هذا يعبدون غيره ، ولهذا قال ﴿ بل لجوا ﴾ أي استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ في عتو ونفور ﴾ أي في معاندة واستكبار ونفور على ادبارهم عن الحق ، لا يسمعون له ولا يتبعونه .

(٢٢) ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم ﴾ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكباً على وجهه ، أي يمشي منحنياً ، لا مستوياً على وجهه ، أي لا يدري أين يسلك ، ولا كيف يذهب ، بل تائه حائر ضال ، أهذا أهدي ﴿ أمن يمشي سوياً ﴾ أي منتصب القامة ﴿ على صراط مستقيم ﴾ أي على طريق واضح بين ، وهو في نفسه مستقيم ، وطريقه مستقيمة ، هذا مثلهم في الدنيا ، وكذلك يكونون في الآخرة ، فالمؤمن يحشر يمشي سوياً على صراط مستقيم ، يفضي به إلى الجنة الغيماء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم ﴿ أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ أزواجهم : أشباههم . روى الامام أحمد : قيل : يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : « أليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادراً على أن يمشيهم على وجوههم » ؟ وهذا الحديث مخرج في الصحيحين .

(٢٣) ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ أي العقول والادراك ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي قلما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره ، وترك مزاجره .

(٢٤) ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

﴿ قل هو الذي ذرأكم في الأرض ﴾ أي بثكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم ، وحلاكم ، وأشكالكم وصوركم ﴿ وإليه تحشرون ﴾ أي تجمعون بعد هذا التفرق والشتات يجمعكم كما فرقكم ، ويعيدكم كما بدأكم .

٢٥ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ أي متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد التفرق .

٢٦ ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ قل إنما العلم عند الله ﴾ أي لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله عز وجل ، لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ أي ، وإنما علي البلاغ ، وقد أديته إليكم .

٢٧ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾

﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ أي لما قامت القيامة وشاهدها الكفار ، ورأوا أن الأمر كان قريباً ، لأن كل ما هو آت آت ، وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك ، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر ، أي فأحاط بهم ذلك ، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون . وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ . ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ﴿ هذا الذي كنتم به تدعون ﴾ أي تستعجلون .

٢٨ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

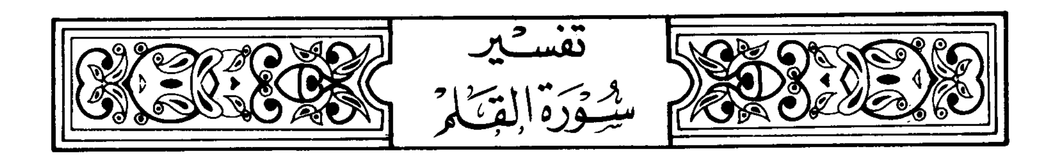
يقول تعالى ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله ، الجاحدين لنعمه ﴿ أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ﴾ أي خلصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والانابة والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال ، فسواء عذبنا الله ، أو رحمنا ، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم .

٢٩ ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴾ أي آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم ، وعليه توكلنا في جميع أمورنا ، كما قال تعالى ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ ، ولهذا قال تعالى ﴿ فستعلمون من هو في ضلال مبين ﴾ أي منا ومنكم ، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة .

(٣٠) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾

ثم قال تعالى إظهاراً للرحمة في خلقه ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً ﴾ أي ذاهباً في الأرض إلى أسفل ، فلا ينال بالفؤوس الحداد، ولا السواعد الشداد ، والغائر عكس النابع . ولهذا قال تعالى ﴿ فمن يأتيكم بماء معين ﴾ أي نابع سائح جار على وجه الأرض ، أي لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل ، فمن فضله وكرمه أنبع لكم المياه ، وأجراها في سائر أقطار الأرض بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة ، والكثرة ، فلله الحمد والمنة .



تفسير سُورَةِ القَلَمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ نٓ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة ؛ وأن قوله ﴿ ن ﴾ كقوله ﴿ ص ، ق ﴾ ﴿ والقلم ﴾ الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به ، كقوله ﴿ اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ﴾ فهو قسم منه تعالى ، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم . ﴿ وما يسطرون ﴾ وما يكتبون ، أو وما يعملون ، أي وما يسطرون يعني الملائكة ، وما تكتب من أعمال العباد .

(٢) ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾

﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ أي لست ـ ولله الحمد ـ بمجنون كما يقوله الجهلة من قومك المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين فنسبوك فيه إلى الجنون .

(٣) ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾

﴿ وإن لك لأجراً غير ممنون ﴾ أي بل إن لك الأجر العظيم ، والثواب الجزيل الذي لا

ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق ، وصبرك على أذاهم . ومعنى غير ممنون : غير مقطوع ، كقوله ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع عنهم :

(٤) ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وإنك لعلى دين عظيم ، وهو الإسلام ، أو لعلى أدب عظيم . سئلت عائشة عن خُلُق رسول الله قالت : كان خلقه القرآن ، تقول : كما هو في القرآن ، ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن امراً ونهياً ، سجية له فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم ، من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم ، وكل خلق جميل ، كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال : أف قط ، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله : ألا فعلته ؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً ، ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألينْ من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ . روى البخاري : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأحسن الناس خلقاً ، ليس بالطويل ولا بالقصير . وروى الامام أحمد عن عائشة قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط ، ولا ضرب امرأة ، ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا خير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الاثم ، ولا انتقم من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله ، فيكون هو ينتقم لله عز وجل . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » تفرد به الإمام أحمد .

(٥) ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾

﴿ فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ﴾ أي فستعلم يا محمد ، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك من المفتون الضال منك ومنهم ؟

(٦) ﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾

وهذا كقوله تعالى ﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ كقوله تعالى ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ .

﴿٧﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ أي هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي ، ويعلم الحزب الضال عن الحق .

﴿٨﴾ ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ ﴿١٦﴾

يقول تعالى : كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم ، والخلق العظيم ﴿ فلا تطع المكذبين . ودوالو تدهن فيدهنون ﴾ لو ترخص لهم فيرخصون ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترىء بها على أسماء الله تعالى ، واستعمالها في كل وقت في غير محلها . المهين : الكاذب ، أو هو الضعيف القلب ، قال الحسن : كل حلاف مكابر مهين ضعيف . ﴿ هماز ﴾ مغتاب ﴿ مشاء بنميم ﴾ يعني الذي يمشي بين الناس ويحرش بينهم ، وينقل الحديث لفساد ذات البين ، وهي الحالقة . وقد ثبت في الصحيحين : مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة » وفي الحديث « لا يدخل الجنة قتات » رواه الجماعة إلا ابن ماجه ﴿ مناع للخير معتد أثيم ﴾ أي يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿ معتد ﴾ في تناول ما أحل الله له ، يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿ أثيم ﴾ أي يتناول المحرمات ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ أما العتل فهو الغليظ الغظ وأما الزنيم ، ففي البخاري : رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة ، ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة الزنمة من بين اخواتها . وإنما الزنيم في لغة العرب هو الدعي في القوم . ﴿ أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ يقول هذا في مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين كفر بآيات الله عز وجل وأعرض عنها وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين . ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ سنبين أمره بياناً واضحاً حتى يعرفوه ، ولا يخفى عليهم كما لا تخفى عليهم السمة على الخراطيم .

﴿١٧﴾ ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾

فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴾ ﴿٢١﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى اليهم من الرحمة العظيمة واعطاهم من النعمة الجسيمة ، وهو بعثة محمد ﷺ فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ولهذا قال تعالى ﴿ إنا بلوناهم ﴾ أي اختبرناهم ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ وهي البستان المشتمل على انواع الثمار والفواكه ﴿ إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ﴾ أي حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ، ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء ﴿ ولا يستثنون ﴾ أي فيما حلفوا به ، ولهذا حنثهم الله في أيمانهم فقال تعالى ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ أي أصابتها آفة سماوية ﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ أي كالليل الأسود ، أو مثل الزرع اذا حصد ، أي هشيماً يبساً ﴿ فتنادوا مصبحين ﴾ أي نادى بعضهم بعضاً وقت الصبح .

﴿٢٢﴾ ﴿ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾

﴿ أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾ أي تريدون الصرم ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون ﴾ أي يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ أي يقول بعضهم لبعض : لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم ﴿ وغدوا على حرد ﴾ أي قوة وشدة ﴿ قادرين ﴾ أي عليها فيما يزعمون ويرومون ﴿ فلما رأوها قالوا إنا لضالون ﴾ أي بل هي هذه ، ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب ﴿ قال أوسطهم ﴾ أعد لهم وخيرهم ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ ؟ هو قول القائل : إن شاء الله ، أو هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ﴿ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع ، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع ، ولهذا قالوا ﴿ إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ أي يلوم

بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاء ، فما كان جواب بعضهم لبعض الا الاعتراف بالخطيئة والذنب ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين ﴾ أي اعتدينا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ﴾ قيل : رغبوا في بذلها لهم في الدنيا ، وقيل : احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة ﴿ كذلك العذاب ﴾ أي هكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله ، وأنعم به عليه ، ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات ، وبدل نعمة الله كفراً ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ أي هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم ، ولعذاب الآخرة أشق .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية ، وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله عز وجل ، وخالفوا أمره بين أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقص نعيمها . ثم قال تعالى ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ﴾ أي أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء ، ولهذا قال ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ أي كيف تظنون ذلك . ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون . إن لكم فيه لما تخيرون ﴾ يقول تعالى : أفبأيدكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف متضمن حكماً مؤكداً كما تدعونه ؟ .

﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

﴿ إن لكم فيه لما تخيرون . أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ﴾ أي أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة ﴿ إن لكم لما تحكمون ﴾ أي إنه سيحصل لكم ما تريدون وما تشتهون ﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾ أي قل لهم : من هو المتضمن المتكفل بهذا ؟ ﴿ أم لهم شركاء ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ

وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ﴿٤٧﴾

لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم بين متى ذلك كائن وواقع فقال تعالى ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ يعني يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام . في البخاري « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليجد فيعود ظهره طبقاً واحداً » وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وفي غيرهما من طرق ، وله ألفاظ ، وهو حديث طويل مشهور ﴿ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾ أي في الدار الآخرة باجرامهم وتكبرهم في الدنيا ، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه . ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة ، إذا تجلى الرب فيسجد له المؤمنون ، ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد ، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً كلما أراد أحدهم أن يسجد خر لقفاه ، عكس السجود ، كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون . ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ يعني القرآن ، وهذا تهديد شديد ، أي دعني وإياه ، مني ومنه ، أنا أعلم به كيف أستدرجه وأمده في غيه ، وأنظره ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر ، ولهذا قال : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ أي وهم لا يشعرون ، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة ، وهو في نفس الأمر اهانة كما قال سبحانه ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ ﴿ وأملي لهم إن كيدي متين ﴾ أي وأؤخرهم وأنظرهم وأمهلهم، وذلك من كيدي ومكري بهم، ولهذا قال ﴿إن كيدي متين﴾ أي عظيم لمن خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ والمعنى في ذلك أنك يا محمد تدعوهم إلى الله عز وجل ، بلا أجر تأخذه منهم ، بل ترجو ثواب ذلك عند الله عز وجل ، وهم يكذبون بما جئتهم به بمجرد الجهل والكفر والعناد .

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ ﴿٤٩﴾

﴿ فاصبر ﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم ، فإن الله سيحكم لك عليهم ، ويجعل العاقبة لك ، ولأتباعك في الدنيا والآخرة ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ يعني ذا النون ، وهو يونس عليه السلام حين ذهب مغاضباً على قومه فكان من أمره ما كان ركوبه في البحر ، والتقام الحوت ، وشرود الحوت به في البحار ، وظلمات غمرات اليم ، وسماعه يسبح البحر بما فيه للعلي القدير الذي لا يرد ما أنقذه من التقدير ، فحينئذٍ نادى في الظلمات ﴿ أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ قال الله تعالى ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ﴾ فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء .

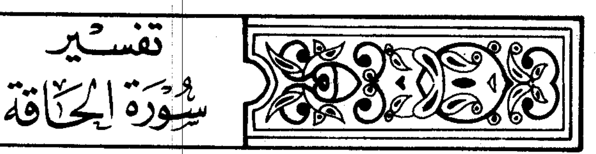
(٥٠) ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

﴿ فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾ روى الامام أحمد عن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة .

(٥١) ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٥٢)

﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك ﴾ لينقذونك ﴿ بأبصارهم ﴾ أي يعينونك بأبصارهم ، يعني يحسدونك لبغضهم اياك ، لولا وقاية الله لك ، وحمايته إياك منهم ، وفي هذه الآية دليل على أن العين واصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة . روى أبو داود عن رسول الله ﷺ « لا رقية إلا من عين أو حمة أو دم لا يرقأ » وروى مسلم في صحيحه « العين حق ، لو كان شيء سابق القدر سبقت العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا» انفرد به دون البخاري وعن ابن عباس كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين يقول «أعيذ كما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة » ويقول : « هكذا كان ابراهيم يعوذ اسحاق وإسماعيل عليهما السلام » أخرجه البخاري وأهل السنن . وقوله تعالى ﴿ ويقولون إنه لمجنون ﴾ أي يزدرونه بأعينهم ، ويؤذونه بألسنتهم ، ويقولون إنه لمجنون ، أي لمجيئه بالقرآن ، قال الله تعالى ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ (٨)

الحاقة من أسماء القيامة ، لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد ، ولهذا عظم الله أمرها فقال ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين فقال ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ وهي الصيحة التي أسكتتهم والزلزلة التي أسكنتهم ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر ﴾ أي باردة ﴿ عاتية ﴾ أي شديدة الهبوب ﴿ سخرها عليهم ﴾ أي سلطها عليهم ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ أي كوامل ، متتابعات مشائيم ﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ أي جعلت الريح تضرب بأحدهم فيخر على أم رأسه فينشرح رأسه ، وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان . وقد ثبت في الصحيحين : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ أي هل تحس منهم من أحد من بقاياهم ، أو ممن ينتسب إليهم ، بل بادوا عن آخرهم ، ولم يجعل الله لهم خلفاً .

(٩) ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ (١٢)

﴿ وجاء فرعون ومن قبله ﴾ من الأمم المشبهين له ﴿ والمؤتفكات ﴾ وهم الأمم المكذبون بالرسل ﴿ بالخاطئة ﴾ وهي التكذيب بما أنزل الله ، أو ﴿ بالخاطئة ﴾ بالمعصية ، أو بالخطايا ﴿ فعصوا رسول ربهم ﴾ وهذا جنس ، أي كل كذب رسول الله إليهم كما قال تعالى ﴿ كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾ ومن كذب برسول فقد كذب بالجميع ، كما قال تعالى ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ ﴿ كذبت ثمود

المرسلين﴾ وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد ولهذا قال ههنا ﴿فعصوا رسول بهم فأخذهم اخذة رابية﴾ أي عظيمة شديدة أليمة . ﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ أي زاد على الحد بإذن الله ، وارتفع على الموجود ، وذلك بسبب دعوة نوح عليه السلام على قومه حين كذبوه وخالفوه فعبدوا غير الله فاستجاب الله له ، وعم أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة ، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته ولهذا قال ممتناً على الناس ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ﴾ وهي السفينة الجارية على وجه الماء ﴿ لنجعلها لكم تذكرة ﴾ عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه ، أي وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار كما قال تعالى ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه ﴾ ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ أي وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله .

(١٣) ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١٥) وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ (١٨)

يقول تعالى مخبراً عن أهوال يوم القيامة ، وأول ذلك نفخة النزع ، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور ، وهي هذه النفخة ، وقد أكدها ههنا بأنها واحدة ، لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ، ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ فمدت مد الأديم العكاظي ، وتبدلت الأرض غير الأرض ﴿ فيومئذٍ وقعت الواقعة ﴾ أي قامت القيامة ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذٍ واهية ﴾ كقوله تعالى ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ ﴿ والملك على أرجائها ﴾ الملك اسم جنس ، أي الملائكة على أرجاء السماء أي على حافاتها ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية ﴾ أي يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة ، ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العرش العظيم ، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ أي تعرضون على عالم السر والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم ، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر . روى الامام أحمد عن أبي موسى قال . قال رسول الله ﷺ : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في

الأيدي ، فآخذ بيمينه ، وآخذ بشماله » ورواه ابن ماجه .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عن سعادة من يؤتي كتابه بيمينه يوم القيامة ، وفرحه بذلك ، وأنه من فرحه يقول لكل من لقيه ﴿ هاؤم اقروا كتابيه ﴾ أي خذوا اقرؤ وا كتابيه ، لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضة لأنه ممن يدل الله سيئاته حسنات ﴿ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ أي قدراً موقتاً في الدنيا أي هذا اليوم كائن لا محالة ﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ أي مرضية . ﴿في جنة عالية﴾ أي رفيعة قصورها، حسان حورها، نعيمة دورها، دائم حبورها. وقد ثبت في الصحيح « إن الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » ﴿ قطوفها دانية ﴾ قريبة ، يتناولها أحدهم ، وهو نائم على سريره ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ أي يقال لهم ذلك تفضلاً عليهم وامتناناً واحساناً ، وإلا فقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اعملوا وسددوا وقاربوا ، واعلموا أن أحداً منكم لن يدخله عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه في العرصات بشماله ، فحينئذٍ يندم غاية الندم ﴿ فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية ﴾ يعني موتة لا حياة بعدها . قال قتادة : تمنى الموت ، ولم يكن شيء في الدنيا أكره اليه

منه ﴿ ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه ﴾ أي لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه ، بل خلص الأمر إلى وحدي ، فلا معين لي ولا مجير ، فعندها يقول الله عز وجل ﴿ خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه ﴾ أي يأمر الزبانية أن تأخذه عنفاً من المحشر فتغله ، أي تضع الأغلال في عنقه ، ثم تورده إلى جهنم فتصليه إياها ، أي تغمره فيها ﴿ ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أي لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ، ولا ينفع خلقه ولا يؤدي حقهم ، فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وللعباد بعضهم على بعض حق الاحسان والمعاونة على البر والتقوى ، ولهذا أمر الله بإقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وقبض النبي ﷺ وهو يقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم » وقوله تعالى ﴿ فليس له اليوم ههنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ أي ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله تعالى ، لا حميم ، وهو القريب ، ولا شفيع يطاع ، ولا طعام له ههنا إلا من غسلين ، هو شر طعام أهل النار، وقيل: هو الزقوم ، أو هو الدم والماء يسيل من لحومهم .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى مقسماً لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة فقال تعالى ﴿ فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم ﴾ يعني محمداً ﷺ ، أضافه إليه على معني التبليغ ، لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل . ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين ﴾ روى الامام أحمد عن عمر بن الخطاب قال : خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم ، فوجدته سبقني إلى المسجد ، فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب ما تأليف القرآن ، قال : فقلت : هذا والله شاعر ، كما قالت : قريش ،قال فقرأ وإنه لقول رسول كريم ﴿وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ﴾ قال : فقلت : كاهن ، قال : فقرأ ﴿ ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين . ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ إلى آخر السورة . قال

فوقع الإسلام في قلبي كل موقع ، فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله مؤثرة في هداية عمر رضي الله عنه .

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿٥٢﴾

﴿ ولو تقول علينا ﴾ أي محمد ﷺ ، لو كان كما يزعمون مفترياً علينا ، فزاد في الرسالة أو نقص منها ، أو قال شيئاً من عنده فنسبه الينا ، وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة ، ولهذا قال تعالى ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ أي لانتقمنا منه باليمين ، لأنها أشد في البطش ﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ هو نياط القلب ، وقيل : هو البطين ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ أي فما يقدر أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئاً من ذلك ، والمعنى في ذلك بل هو صادق بار راشد ، لأن الله عز وجل مقرر له ما يبلغه عنه ، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات ، والدلالات القاطعات ثم قال تعالى ﴿ وإنه لتذكرة للمتقين ﴾ يعني القرآن ، كما قال سبحانه ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ ثم قال تعالى ﴿ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ أي مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم من يكذب بالقرآن ﴿ وإنه لحسرة على الكافرين ﴾ وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة ، ويحتمل عود الضمير على القرآن ، أي وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين ، كما قال تعالى ﴿ كذلك سلكناه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به ﴾ وقال تعالى ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ أي الخبر الصدق الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب . ثم قال تعالى ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ أي الذي أنزل هذا القرآن العظيم .



تفسير سُورَةِ المعارج



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ (٢)

فيه تضمين دل عليه حرف الباء ، كأن تقديره « استعجل » أي استعجل سائل بعذاب واقع ، كقوله تعالى ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ﴾ أي وعذابه واقع لا محالة . وفي النسائي أن هذا السائل هو النضر بن الحارث . أو هو سؤال الكفار عن عذاب الله ، وهو واقع بهم ، أو دعا داع بعذاب يقع في الآخرة ، وهو قولهم : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ وقوله تعالى ﴿ واقع للكافرين ﴾ أي مرصد معد للكافرين ﴿ ليس له دافع ﴾ أي لا دافع له إذا أراد الله كونه .

(٣) ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ (٧)

﴿ من الله ذي المعارج ﴾ ذي الدرجات ، أو معارج السماء ، أو ذي الفواضل والنعم ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ ﴿ تعرج ﴾ تصعد ، وأما الروح فهم خلق من خلق الله يشبهون الناس وليسوا ناساً ، ويحتمل أن يكون المراد به جبريل ، ويكون من باب عطف الخاص على العام وقوله تعالى ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : هو يوم القيامة . وإسناده صحيح ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴾ أي اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه ﴿ إنهم يرونه بعيداً ﴾ أي وقوع العذاب ، وقيام الساعة ، يراه الكفرة بعيد الوقوع ، بمعنى مستحيل الوقوع ﴿ ونراه قريباً ﴾ أي المؤمنون يعتقدون كونه قريباً ، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله عز وجل ، لكن كل ما هو آت فهو قريب ، وواقع لا محالة .

(٨) ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ

ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ ﴿١٨﴾

﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ كدردي الزيت ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ أي كالصوف المنفوش ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا يسأل حميم حميماً يبصرونهم ﴾ أي لا يسأل القريب قريبه عن حاله ، وهو يراه في أسوأ الأحوال ، فتشغله نفسه عن غيره ، بل يفر بعضهم من بعض بعد ذلك . وقوله تعالى ﴿ يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التي تؤ ويه . ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه . كلا ﴾ أي لا يقبل منه فداء ، ولو جاء بأهل الأرض ، وبأعز ما يجده من المال ، ولو بملء الأرض ذهباً ، أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده ، يود يوم القيامة اذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به ولا يقبل منه ﴿ فصيلته ﴾ قبيلته وعشيرته ﴿ إنها لظى ﴾ يصف النار وشدة حرها . ﴿ نزاعة للشوى ﴾ هي جلدة الرأس ، أو أطراف اليدين والرجلين ﴿ تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى . ﴾ أي تدعو النار اليها أبناءها الذين خلقهم الله لها ، وقدر لهم أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها ، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق ، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب ، وذلك أنهم كما قال الله عز وجل ، كانوا ممن أدبر وتولى ، أي كذب بقلبه ، وترك العمل بجوارحه ﴿ وجمع فأوعى ﴾ أي جمع المال بعضه على بعض ، فأوعاه أي أوكاه ، ومنع حق الله منه من الواجب عليه في النفقات ، ومن اخراج الزكاة ، وقد ورد في الحديث « ولا توعي فيوعي الله عليك » .

﴿١٩﴾ ﴿ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان ، ما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ﴾ ثم فسره ﴿ إذا مسه الشر جزوعاً ﴾ أي إذا مسه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير ﴿ وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ أي إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره ، ومنع حق الله فيها . روى الامام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « شر ما في الرجل : شح هالع ، وجبن خالع » ورواه أبو داود . ثم قال تعالى ﴿ إلا المصلين ﴾ أي ، الانسان من حيث هو

متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه ، وهم المصلون ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ قيل : معناه يحافظون على أوقاتها وواجباتها ، وقيل : المراد بالدوام هنا السكون والخشوع ، وقيل : المراد بذلك الذين اذا عملوا عملاً داوموا عليه وأثبتوه ، كما جاء في الصحيحين عن عائشة عن رسول الله ﷺ قال : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » .

﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَـٰدُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾

﴿ والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ أي في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات ﴿ والذين يصدقون بيوم الدين ﴾ أي يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء ، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ، ويخاف العقاب ، ولهذا قال تعالى ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾ أي خائفون وجلون ﴿ إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾ أي لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ أي يكفونها عن الحرام ، ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه ، ولهذا قال تعالى ﴿ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ أي من الإماء ﴿ فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ وقوله تعالى ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ أي إذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا ، وهذه صفات المؤمنين ، وضدها صفات المنافقين ، كما ورد في الصحيح « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان» وفي رواية « إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر » وقوله تعالى ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ أي محافظون عليها ، لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها ، ولا يكتمونها ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ ثم قال تعالى ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ أي على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها ، يحافظون ، فافتتح الكلام بذكر الصلاة ، وافتتحه بذكرها فدل على الاعتناء بها ، والتنويه بشرفها ﴿ أولئك في جنات مكرمون ﴾ أي مكرمون بأنواع الملاذ والمسار .

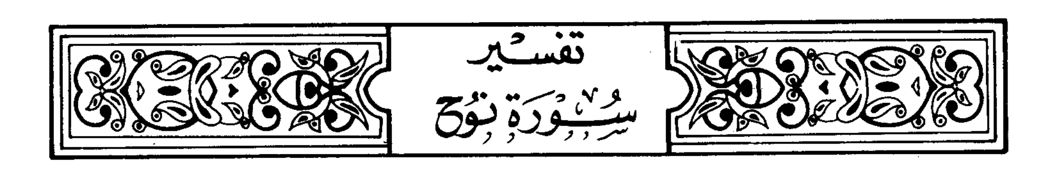
﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ﴿٣٨﴾ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

يقول تعالى منكراً على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ ، وهم مشاهدون له ، ولما أرسله الله به من الهدى ، وما أيده الله به من المعجزات الباهرات ، ثم مع هذا كله فارون منه ، متفرقون عنه ، شاردون يميناً وشمالاً فرقاً فرقاً ، وشيعاً شيعاً كما قال تعالى ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة ﴾ وهذه مثلها فإنه تعالى قال ﴿ فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ﴾ أي فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد مهطعين ، أي مسرعين نافرين منك ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ واحده عزة ، أي متفرقين ، وهو حال من مهطعين ، أي في حال تفرقهم واختلافهم كما قال الامام أحمد في أهل الأهواء : فهم مخالفون للكتاب ، مختلفون في الكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب . ﴿ أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم . كلا ﴾ أي أيطمع هؤلاء والحالة هذه من فرارهم عن الرسول ﷺ . ونفارهم عن الحق أن يدخلوا جنات النعيم ؟ كلا ، بل مأواهم جهنم ، ثم قال تعالى مقرراً لوقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروا كونه ، واستبعدوا وجوده مستدلاً عليهم بالبداءة التي الاعادة أهون منها ، وهم معترفون بها ، فقال تعالى ﴿ إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ أي من المنى الضعيف ، كما قال تعالى ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ ثم قال تعالى ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾ أي الذي خلق السموات والأرض ، وجعل مشرقاً ومغرباً ، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها ، وتغيب في مغاربها ، وتقرير الكلام : ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب ، ولا بعث ولا نشور ، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة ، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله ما هو أبلغ من إقامة القيامة ، وهو خلق السموات والأرض ، وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، وسائر صنوف الموجودات ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقال ههنا ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم ﴾ أي يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه ، فإن قدرته صالحة لذلك ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أي بعاجزين . كما قال تعالى ﴿ أيحسب الانسان الن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ .

﴿ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا

﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿ فذرهم ﴾ يا محمد ﴿ يخوضوا ويلعبوا ﴾ أي دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ أي فسيعلمون غب ذلك ، ويذوقون وباله ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ أي يقومون من القبور اذا دعاهم الرب تعالى لموقف الحساب ينهضون سراعاً كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب وهو الصنم ، يبتدرون أيهم يستلمه ؟ وقوله تعالى ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ أي خاضعة ﴿ ترهقهم ذلة ﴾ أي في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ .



تفسير سورة نوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال يا قوم إني لكم نذير مبين . ﴾ أي مبين النذارة ، ظاهر الأمر واضحه ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه ﴾ أي اتركوا محارمه ، واجتنبوا مآثمه ﴿ وأطيعون ﴾ فيما آمركم به ، وأنهاكم عنه ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ أي إذا فعلتم ما آمركم به ، وصدقتم ما أرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم ، و﴿ من ﴾ ههنا قيل : بزيادتها ، ولكن القول بزيادتها في الاثبات قليل ، ومنه قول بعض العرب : قد كان من مطر ، وقيل : إنها بمعنى ﴿ عن ﴾ تقديره يصفح لكم عن ذنوبكم ، وقيل : إنها للتبعيض ، أي يغفر لكم الذنوب

العظيمة التي وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ أي يمد في أعماركم ، ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم، وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة كما ورد به الحديث : « صلة الرحم تزيد في العمر » وقوله تعالى ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾ أي بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة ، فإنه إذا أمر الله تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع ، فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء ، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ ﴿٧﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ما لقي من قومه ، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما بين لقومه ووضح لهم ، ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم ، فقال : ﴿ رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ﴾ أي لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار امتثالاً لأمرك ، وابتغاء لطاعتك ﴿ فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ﴾ أي كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فروا منه وحادوا عنه ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ﴾ أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه ﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ تنكروا له لئلا يعرفهم ، أو غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما أقول ﴿ وأصروا ﴾ أي استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع ﴿ واستكبروا استكباراً ﴾ أي واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد اليه .

﴿٨﴾ ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾

﴿ ثم إني دعوتهم جهاراً ﴾ أي جهرة بين الناس .

﴿٩﴾ ﴿ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾

﴿ ثم إني أعلنت لهم ﴾ أي كلاماً ظاهراً بصوت عال ﴿وأسررت لهم إسراراً ﴾ أي فيما بيني وبينهم ، فنوع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم .

﴿١٠﴾ ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾

﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ أي ارجعوا إليه ، وارجعوا عما أنتم فيه ، وتوبوا

إليه من قريب ، فإنه من تاب إليه تاب عليه ولو كانت ذنوبه مهما كانت في الكفر والشرك .

(١١) ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾

﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ أي متواصلة الأمطار ، ولهذا تستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء ، روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه صعد المنبر ليستسقي فلم يزد على الاستغفار ، وقراءة الآيات في الاستغفار ، ومنها هذه الآية ﴿ فقلت استغفروا ربكم . . ﴾ ثم قال : لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر .

(١٢) ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾

﴿ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ أي إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه ، واطعتموه كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت الزرع ، وأدر لكم الضرع ، وأمدكم بأموال وبنين ، أي أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخللها بالأنهار الجارية بينها . هذا مقام الدعوة بالترغيب ، ثم عدل بهم إلى مقام الدعوة بالترهيب فقال :

(١٣) ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾

﴿ مالكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ أي عظمة ، أي لا تخافون بأسه ونقمته .

(١٤) ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾

﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة .

(١٥) ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾

﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ﴾ أي واحدة فوق واحدة .

(١٦) ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾

﴿ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ أي فاوت بينهما في الاستنارة ، فجعل كلاً منهما أنموذجاً على حدة ، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدر للقمر منازل وبروجاً ، وفاوت نوره فيزداد حتى يتناهى ، ثم يشرع في النقص حتى يستتر ليدل على مضي الشهور والأعوام .

(١٧) ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾

﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ هذا اسم مصدر ، والاتيان به هنا أحسن .

(١٨) ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾

﴿ ثم يعيدكم فيها ﴾ أي إذا متم ﴿ ويخرجكم إخراجاً ﴾ أي يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة .

(١٩) ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾

﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً ﴾ أي بسطها ومهدها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات .

(٢٠) ﴿ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾

﴿ لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ أي خلقها لكم لتستقروا عليها ، وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها ، وكل هذا مما ينبههم به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض ، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرازق ، جعل السماء بناء ، والأرض مهاداً ، وأوسع على خلقه من رزقه ، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ، ولا يشرك به أحد ، لأنه لا نظير له ولا عديل له ، ولا ندله ولا كفء ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا وزير ولا مشير ، بل هو العلي الكبير .

(٢١) ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أنهى إليه وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء أنه مع البيان المتقدم ذكره ، والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة ، والترهيب اخرى أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه ، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله ، ومتع بمال وأولاد ، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام ، ولهذا قال . ﴿واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ﴾.

(٢٢) ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾

﴿ ومكروا مكراً كباراً ﴾ أي عظيماً ، كبيراً ، والعرب تقول : أمر عجيب وعجاب أي مكروا مكراً عظيماً بأتباعهم في تسويلهم لهم أنهم على الحق والهدى .

﴿٢٣﴾ ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾

﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ، ونسخ العلم عبدت .

﴿٢٤﴾ ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾

﴿ وقد أضلوا كثيراً ﴾ يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقاً كثيراً ، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم ، وسائر صنوف بني آدم ، وقد قال الخليل عليه السلام في دعائه ﴿ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ وقوله ﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً ﴾ دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه ، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاء به .

﴿٢٥﴾ ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾

﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا ﴾ أي من كثرة ذنوبهم وعتوهم ، وإصرارهم على كفرهم ، ومخالفتهم رسولهم ﴿ أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾ أي نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار ﴿ فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾ أي لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله ، كقوله تعالى ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ .

﴿٢٦﴾ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾

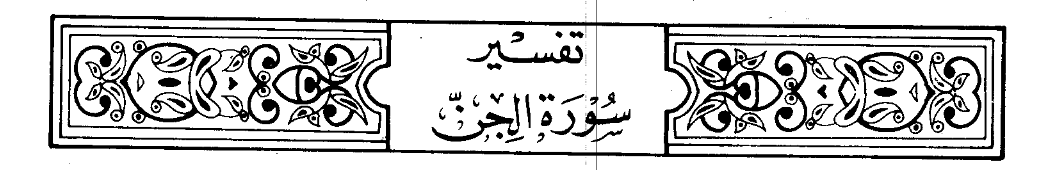
﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ أي لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً ولا دياراً وهو الذي يسكن الدار ، فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين ، حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن ابيه وقال ﴿ سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ .

﴿٢٧﴾ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾

﴿ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحداً أضلوا عبادك أي الذين تخلقهم بعدهم ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ أي فاجراً في الأعمال ، كافراً في القلب ، وذلك لخبرته بهم ، ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

(٢٨) ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾

﴿ رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً ﴾ يعني مسجدي ، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها ، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات ، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات ﴿ ولا تزد الظالمين الا تباراً ﴾ أي خساراً في الدنيا والآخرة .



تفسير سورة الجن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله أن يخبر قومه أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه ، وانقادوا له فقال تعالى ﴿ قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً ﴾ .

(٢) ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾

﴿ يهدي إلىٰ الرشد ﴾ أي إلى السداد والنجاح ﴿ فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ .

(٣) ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾

﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ أي فعله وأمره وقدرته ، أو تعالى ربنا ﴿ ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ﴾ أي تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد ، أي قالت الجن ذلك حين أسلموا . ويحتمل أنه اسم جنس لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولداً .

(٤) ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴾

﴿ وأنه كان يقول سفيهنا ﴾ يعنون إبليس ﴿ على الله شططاً ﴾ أي جوراً وباطلاً وزوراً .

(٥) ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾

﴿ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً ﴾ أي ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالئون على الكذب على الله تعالى في نسبة الصاحبة والولد إليه ، فلما سمعنا هذا القرآن ، وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك .

(٦) ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾

﴿ وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن ﴾ أي كنا نرى أن لنا فضلاً على الانس ، لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها ، كما كانت عادة العرب في جاهليتها ، يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسؤهم ، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الانس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً ، أي خوفاً وإرهاباً وذعراً حتى بقوا أشد منهم مخافة ، وأكثر تعوذاً بهم كما قال قتادة : ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ أي إثماً ، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة ، أو خوفاً .

(٧) ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾

﴿ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً ﴾ أي لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً .

(٨) ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ ، وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً ، وحفظت من سائر ارجائها ، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق . وهذا من لطف الله تعالى بخلقه ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز ، ولهذا قال الجن ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ﴾ .

(٩) ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾

﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ أي من يروم

أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً رصداً له لا يتخطاه ، ولا يتعداه ، بل يمحقه ويهلكه .

(١٠) ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾

﴿ وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ وهذا من أدبهم في العبارة ، حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل ، والخير أضافوه إلى الله عز وجل . وقد ورد في الحديث الصحيح « والشر ليس لك » وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك ، ولكن ليس بكثير ، بل في الأحيان بعد الأحيان .

(١١) ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم ﴿ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ﴾ أي غير ذلك ﴿ كنا طرائق قدداً ﴾ أي طرائق متعددة مختلفة ، وآراء متفرقة ، أو منا المؤمن ، ومنا الكافر .

(١٢) ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾

﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً ﴾ أي نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا ، وأنا لا نعجزه في الأرض ، ولو أمعنا في الهرب فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا .

(١٣) ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾

﴿ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ﴾ يفتخرون بذلك ، وهو مفخر لهم ، وشرف رفيع ، وصفة حسنة . وقولهم : ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ فلا يخاف أن ينقص من حسناته ، أو يحمل عليه غير سيئاته ، كما قال تعالى ﴿ فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ .

(١٤) ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴾

﴿ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ﴾ أي منا المسلم ، ومنا القاسط ، وهو الجائر عن الحق ، الناكب عنه ، بخلاف المقسط ، فإنه العادل ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ أي طلبوا لأنفسهم النجاة .

(١٥) ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾

﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ أي وقوداً تسعر بهم .

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ ﴿١٧﴾

﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً . لنفتنهم فيه ﴾ في معنى هذا قولان أحدهما : لو استقاموا على طريقة الاسلام وعدلوا اليها ، واستمروا عليها ﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ أي كثيراً ، والمراد بذلك سعة الرزق ، ومعنى ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ على هذا : لنختبرهم فيه ليتبين من يستمر على الهداية ممن يرتد على الغواية ، والثاني ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ على طريقة الضلال ﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ أي لأوسعنا عليهم الرزق استدراجاً ، ويتأيد بقوله تعالى ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ وقوله ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً ﴾ أي عذاباً مشقاً شديداً موجعاً مؤلماً ، أو ﴿ عذاباً صعداً ﴾ أي مشقة ، لا راحة معها .

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ ﴿١٨﴾

﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ قال قتادة : كانت اليهود والنصارى اذا دخلوا كنائسهم ، وبيعهم أشركوا بالله ، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده .

﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ ﴿١٩﴾

﴿ وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿ قل ﴾ أي قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق على عداوته ﴿ إنما أدعو ربي ﴾ أي إنما أعبد ربي وحده لا شريك له ، وأستجير به ، وأتوكل عليه ﴿ ولا أشرك به أحداً ﴾ .

﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ ﴿٢١﴾

﴿ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ﴾ أي إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ، وعبد من عباد الله ، ليس إلي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم ، بل المرجع في ذلك كله إلى الله عز وجل .

(٢٢) ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾

ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لا يجيره من الله أحد ، أي لو عصيته ، فإنه لا يقدر أحد على انقاذي من عذابه ﴿ ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾ ملجأ .

(٢٣) ﴿ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾

﴿ إلا بلاغاً من الله ورسالاته ﴾ أي لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علي ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً ﴾ أي أنا أبلغكم رسالة الله ، فمن يعصي بعد ذلك فله جزاء على ذلك جهنم خالدين فيها أبداً ، أي لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها .

(٢٤) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾

﴿ حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً ﴾ أي حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة فسيعلمون يومئذٍ من أضعف ناصراً وأقل عدداً ، هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى ، أي بل المشركون لا ناصر لهم بالكلية ، وهم أقل عدداً من جنود الله عز وجل .

(٢٥) ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴾

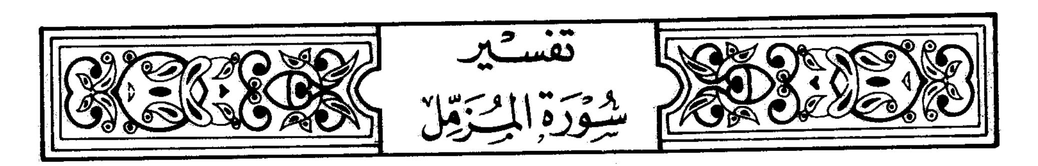
يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للناس إنه لا علم له بوقت الساعة ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد ﴿ قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً ﴾ أي مدة طويلة .

(٢٦) ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾

﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول ﴾ هذه كقوله تعالى ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ وهكذا قال ههنا : إنه يعلم الغيب والشهادة ، وإنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا مما أطلعه تعالى عليه ﴿ إلا من ارتضى من رسول ﴾ وهذا يعم الرسول الملكي والبشري . ثم قال تعالى ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ أي يخصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله ، ويساوقونه على ما معه من وحي الله .

﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ (٢٨)

﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ ليعلم نبي الله أن الرسل قد بلغت عن الله ، وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها . ﴿ وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴾ .



تفسير سورة المزمل

روى البزار عن جابر قال : اجتمعت قريش في دار الندوة ، فقالوا : سموا هذا الرجل اسماً يصد الناس عنه ، فقالوا : كاهن ، قالوا : ليس بكاهن ، قالوا : مجنون ، قالوا : ليس بمجنون ، قالوا : ساحر ، قالوا : ليس بساحر ، فتفرق المشركون عن ذلك ، فبلغ النبي ﷺ فتزمل في ثيابه وتدثر فيها ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ ﴿ يا أيها المدثر ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (٩)

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل ، وهو التغطي بالليل ، وينهض إلى القيام لربه عز وجل ، كما قال تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وكذلك كان ﷺ ممتثلاً ما أمره الله تعالى به ، من قيام الليل ، وقد كان واجباً عليه وحده كما قال تعالى ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ وههنا بين له مقدار ما يقوم، فقال تعالى ﴿ يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلاً ﴾ يا أيها النائم ، أو المزمل في ثيابه ، أو يا محمد زملت القرآن . ﴿ نصفه ﴾ بدل من الليل ﴿ أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ﴾ أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة ،

أو نقصان قليل ، لا حرج عليك في ذلك . وقوله تعالى ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ أي اقرأه على تمهل ، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره ، وكذلك كان يقرأ صلوات الله عليه . قالت عائشة رضي الله عنها : كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها . ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ أي العمل به ، وقيل : ثقيلاً وقت نزوله من عظمته كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه : أنزل على رسول الله ﷺ ، وفخذه على فخذي فكادت ترض فخذي . ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلاً ﴾ ناشئة الليل : ساعاته وأوقاته ، وكل ساعة منه تسمى ناشئة ، وهي الآنات ، والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان ، وأجمع على التلاوة ، ولهذا قال ﴿ هي أشد وطأ وأقوم قيلاً ﴾ أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام الليل لأنه وقت انتشار الناس ، ولغط الأصوات ، وأوقات المعاش . ﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ﴾ تطوعاً كثيراً . ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ﴾ أي أخلص له العبادة . ﴿ رب المشرق والمغرب لا إلٓه إلا هو فاتخذه وكيلاً ﴾ أي هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إلٓه إلا هو وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل .

(١٠) ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه ، وأن يهجرهم هجراً جميلاً ، وهو الذي لا عتاب معه .

(١١) ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾

ثم قال له متهدداً لكفار قومه ومتوعداً ، وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء ﴿ وذرني والمكذبين أولي النعمة ﴾ أي دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال ، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم ، وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عندهم ﴿ ومهلهم قليلاً ﴾ أي رُويداً ، كما قال تعالى ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ .

(١٢) ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴾

ولهذا قال ههنا ﴿ إن لدينا أنكالاً ﴾ وهي القيود ﴿ وجحيماً ﴾ وهي السعير المضطرمة .

(١٣) ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾

﴿ وطعاماً ذا غصة ﴾ ينشب في الحلق ، فلا يدخل ولا يخرج ﴿ وعذاباً أليماً ﴾ .

(١٤) ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾

﴿ يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ أي تزلزل ﴿ وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ﴾ أي تصير ككثبان الرمل بعدما كانت حجارة صماً ، ثم إنها تنسف نسفاً ، فلا يبقى منها شيء إلا ذهب حتى تصير الأرض ﴿ قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ﴾ أي وادياً ﴿ ولا أمتاً ﴾ أي رابية ، ومعناه لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع .

(١٥) ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾

ثم قال مخاطباً لكفار قريش ، والمراد سائر الناس ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم ﴾ أي بأعمالكم ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ﴾ .

(١٦) ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾

﴿ فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً ﴾ أي شديداً ، أي فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ما أصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، كما قال الله تعالى ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم رسولكم ، لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران .

(١٧) ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾

﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ يحتمل أن يكون ﴿ يوماً ﴾ معمولاً لتتقون . ويحتمل أن يكون معمولاً لكفرتم ، فعلى الأول : كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم ، وعلى الثاني : كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه ، وكلاهما معنى حسن ، ولكن الأول أولى . ومعنى قوله ﴿ يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ أي من شدة أهواله وزلازله وبلابله .

(١٨) ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾

﴿ السماء منفطر به ﴾ أي بسبب شدته وهوله ﴿ كان وعده مفعولاً ﴾ أي كان وعد هذا اليوم مفعولاً أي واقعاً لا محالة ، وكائناً لا محيد عنه .

(١٩) ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾

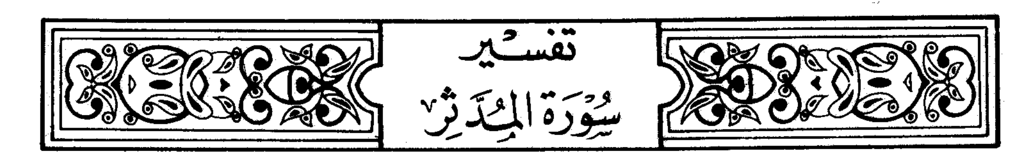
﴿ إن هذه ﴾ أي السورة ﴿ تذكرة ﴾ أي يتذكر بها أولوا الألباب ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه

سبيلاً ﴾ أي فمن شاء الله هدايته ، كما قيده في السورة الأخرى ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ .

﴿ * إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴾ (٢٠)

﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ﴾ أي تارة هكذا ، وذلك كله من غير قصد منكم ، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل لأنه يشق عليكم ، ولهذا قال ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ أي تارة يعتدلان ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، وهذا من هذا ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ أي الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿ فاقرؤ وا ما تيسر من القرآن ﴾ أي من غير تحديد بوقت ، أي ولكن قوموا من الليل ما تيسر ، وعبر عن الصلاة بالقراءة ، كما قال في سورة سبحان ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ أي بقراءتك ، ﴿ ولا تخافت بها ﴾ . وقد استدل أصحاب الإمام أبي حنيفة رحمه الله بهذه الآية ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ على أنه لا يجب قراءة الفاتحة في الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ولو بآية أجزأه ، واعتضدوا بحديث المسيء صلاته الذي هو في الصحيحين « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت وهو في الصحيحين أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن ، فهي خداج ، فهي خداج ، فهي خداج غير تمام» وقوله ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾ أي علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل : من مرضى لا يستطيعون ذلك ، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر ، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله ، وهذه

الآية ، بل السورة كلها مكية ، ولم يكن القتال شرع بعدُ فهي من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الاخبار بالمغيبات المستقبلة ، ولهذا قال تعالى ﴿ فاقرءوا ما تيسر منه ﴾ أي قوموا بما تيسر عليكم منه . ومذهب الحسن البصري أنه كان يرى حقاً واجباً على حملة القرآن أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل ، ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح فقال : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنه » فقيل : معناه نام عن المكتوبة ، وقيل : عن قيام الليل ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أي أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم ، وآتوا الزكاة المفروضة ، وهذا يدل لمن قال : إن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصب والمخرج لم يتبين إلا بالمدينة . وقد قال ابن عباس وغير واحد من السلف : إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل ، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل « خمس صلوات في اليوم والليلة » قال : هل علي غيرها ؟ قال : « لا ، إلا أن تطوع » وقوله تعالى ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ يعني من الصدقات ، فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره كما قال تعالى ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ وقوله ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً ﴾ أي جميع ما تقدمونه بين أيديكم فهو لكم حاصل ، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا . روى الحافظ أبو يعلى « قال رسول الله ﷺ : « أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه ؟ » قالوا : يا رسول الله ، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه ، قال : « اعلموا ما تقولون » قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ، قال : « إنما مال أحدكم ما قدم . ومال وارثه ما أخر » ورواه البخاري . ثم قال تعالى ﴿ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ أي أكثروا من ذكره ، واستغفاره في أموركم كلها فإنه غفور رحيم لمن استغفره .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ ﴿٣﴾

ثبت في صحيح البخاري عن جابر أنه كان يقول : أول شيء نزل من القرآن ﴿ يا أيها

المدثر ﴾ وخالفه الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً قوله تعالى ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ وقوله ﴿ قم فأنذر ﴾ أي شمر عن ساق العزم ، وأنذر الناس ﴿ وربك فكبر ﴾ أي عظم .

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ﴿١٠﴾

﴿ وثيابك فطهر ﴾ سئل ابن عباس عن هذه الآية فقال : لا تلبسها على معصية ، ولا على غدرة ، أي طهر نفسك من الإثم ، واجعل عملك صالحاً ، وقيل : لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائب ، أو اغسلها بالماء ، فقد كان المشركون لا يتطهرون فأمره الله أن يتطهر ، أو طهر قلبك ونيتك ، أو حسن خلقك . ﴿ والرجز فاهجر ﴾ والأصنام فاهجر ، أو اترك المعصية ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ لا تمنن بعملك على ربك تستكثره أو لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها ﴿ ولربك فاصبر ﴾ أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل ﴿ فإذا نقر في الناقور . فذلك يومئذٍ يوم عسير . على الكافرين غير يسير ﴾ ﴿ الناقور ﴾ : الصور ، وفي الحديث « كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ » فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » رواه الإمام أحمد ﴿عسير﴾ شديد . ﴿غير يسير﴾ غير سهل عليهم كما قال تعالى ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ وقد قرأ زرارة بن أبي أوفى قاضي البصرة في صلاة الصبح هذه السورة ، فلما وصل إلى قوله تعالى ﴿ فإذا نقر في الناقور . فذلك يومئذٍ يوم عسير . على الكافرين غير يسير ﴾ شهق شهقة ثم خر ميتاً . رحمه الله تعالى .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا فكفر بأنعم الله ، وبدلها كفراً ، وقابلها بالجحود بآيات الله ، والافتراء عليها من قول البشر ، وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال تعالى ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ أي خرج من بطن أمه وحده ، لا مال له ولا ولد ، ثم رزقه الله تعالى ﴿ وجعلتُ له مالاً ممدوداً ﴾ أي واسعاً كثيراً ، ﴿ و ﴾ جعل له ﴿ بنين شهوداً ﴾ أي حضوراً عنده ، لا يغيبون ولا يسافرون بالتجارات ، بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم ، وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ، ويتملى بهم ، وهذا أبلغ في النعمة ، وهو إقامتهم عنده ﴿ ومهدت له تمهيداً ﴾ أي مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك . ﴿ ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ أي معانداً ، وهو الكفر على نعمه بعد العلم ، قال الله تعالى ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « ويل » واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره . و « الصعود » جبل من نار يتصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ثم يهوي به كذلك فيه أبداً » وقد رواه الترمذي . قال مجاهد ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ أي مشقة من العذاب ﴿ إنه فكر وقدر ﴾ أي إنما أرهقناه صعوداً ، أي قربناه من العذاب الشاق لبعده عن الإيمان لأنه فكر وقدر ، أي تروى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن ففكر ماذا يختلق من المقال ﴿ وقدر ﴾ أي تروى ﴿ فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر ﴾ دعاء عليه ﴿ ثم نظر ﴾ أي أعاد النظرة والتروي ﴿ ثم عبس ﴾ أي قبض بين عينيه وقطب ﴿ وبسر ﴾ أي كلح وكره ﴿ ثم أدبر واستكبر ﴾ أي صرف عن الحق ، ورجع القهقرى مستكبراً عن الانقياد للقرآن ﴿ فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ أي هذا سحر ينقله محمد ممن قبله ، ويحكيه عنهم ، ولهذا قال ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ أي ليس بكلام الله . وهذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش قال تعالى ﴿ سأصليه سقر ﴾ أي سأغمره فيها من جميع جهاته . ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم ، ثم فسر ذلك بقوله ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾ أي تأكل لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم ، ثم تبدل غير ذلك ، وهم في ذلك لا يموتون ولا يحييون ﴿ لواحة للبشر ﴾ أي تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ أي من مقدمي الزبانية ، عظيم خلقهم ، غليظ خُلُقُهم .

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ (٣١)

ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ ﴿٣٧﴾

﴿ وما جعلنا أصحاب النار ﴾ أي خزانها ﴿ إلا ملائكة ﴾ أي زبانية غلاظاً شداداً ، وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزانة ، فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم ، فتغلبونهم ، فقال الله تعالى ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ أي شديدو الخلق، لا يقاومون ، ولا يغالبون ، وقد قيل : إن أبا الأشد قال : يا معشر قريش ، اكفوني منهم اثنين ، وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر إعجاباً منه بنفسه ، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ، ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه . قال السهيلي : وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته ، وقال : إن صرعتني آمنت بك ، فصرعه النبي ﷺ مراراً فلم يؤمن ، قال : وقد نسب ابن إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد ، ولا منافاة بين ما ذكراه . ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ اختباراً منا للناس ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾ أي ليعلموا أن هذا الرسول حق ، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله . وقوله تعالى ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ أي إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم محمد ﷺ ﴿ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي من المنافقين ﴿ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ أي يقولون : ما الحكمة في ذكر هذا ههنا ؟ قال الله تعالى ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ أي بمثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ، ويتزلزل عند آخرين ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة . وقوله تعالى ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط . وقد ثبت في حديث الاسراء المروي في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة « فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم » ﴿ وما هي ﴾ أي النار التي وصفت ﴿ إلا ذكرى للبشر ﴾ ﴿ كلا والقمر . والليل إذ أدبر ﴾ أي ولى ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ أي أشرق ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ أي العظائم ، يعني النار ﴿ نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن

يتقدم أو يتأخر ﴾ أي لمن شاء أن يقبل النذارة ، ويهتدي للحق ، أو يتأخر عنها ويولي دبرها .

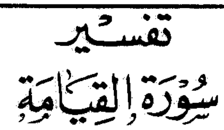
﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ أي متعلقة بعملها يوم القيامة ﴿ إلا أصحاب اليمين . في جنات يتساءلون . عن المجرمين ﴾ أي يسألون المجرمين ، وهم في الغرفات ، وأولئك في الدركات قائلين لهم ﴿ ما سلككم في سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين ﴾ أي ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا .

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ ﴿٥٦﴾

﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أي نتكلم فيما لا نعلم ، قال قتادة : كلما غوى غاوٍ غوينا معه ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ يعني الموت ، كقوله تعالى ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ وقال رسول الله ﷺ « أما هو - يعني عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقين من ربه » قال الله تعالى ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ أي من كان متصفاً بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه ، لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلاً ، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة ، فإنه له النار لا محالة خالداً فيها .
ثم قال تعالى ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ ﴾ أي فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك معرضين عما تدعوهم إليه ، وتذكرهم به ﴿ كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة ﴾ أي كأنهم في نفارهم عن الحق ، وإعراضهم عن حمر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد ، أو رام ﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ أي بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب كما أنزل الله على النبي ﷺ ، كقوله تعالى ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم

حيث يجعل رسالته ﴾ ، أو أن يؤتوا براءة بغير عمل ﴿ كلا بل لا يخافون الآخرة ﴾ أي إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها ، وتكذيبهم بوقوعها . ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ أي حقاً إن القرآن تذكرة ﴿ فمن شاء ذكره . وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ كقوله تعالى ﴿ وما تشاؤ ون إلا أن يشاء الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ أي هو أهل أن يخاف منه ، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب . روى الامام أحمد عن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ وقال : « قال ربكم : أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إلّه ، فمن اتقى أن يجعل معي إلّهاً كان أهلاً أن أغفر له » ورواه الترمذي وابن ماجه .

تفسير سُورَةِ القِيَامَةِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾ (٢)

إذا كان المقسم عليه منتفياً جاز الاتيان بـ﴿ لا ﴾ قبل القسم لتأكيد النفي ، والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد ، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد ، ولهذا قال تعالى ﴿ لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ أقسم بهما جميعاً معاً ، فأما يوم القيامة فمعروف ، وأما النفس اللوامة فعن الحسن البصري إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ، ما أردت بأكلتي ، ما أردت بحديث نفسي ؟ وأن الفاجر يمضي قدماً ما يعاتب نفسه . وعن الحسن : ليس أحد من أهل السموات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة .

(٣) ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ

بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ ﴿١٥﴾

﴿ أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ﴾ أي يوم القيامة ، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه ، وجمعها من أماكنها المتفرقة ؟ ﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ أي أن نجعله خفاً أو حافراً ، أي أن نجعل أصابعة مستوية ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ يعني يمضي قدماً ، أو يعني الأمل ، يقول : أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة ، ويقال : هو الكفر بالحق بين يدي يوم القيامة ، أو ليمضي أمامه راكباً رأسه . ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ أي يقول : متى يوم القيامة ، وإنما سؤ اله سؤ ال استبعاد لوقوعه ، وتكذيب لوجوده ﴿ فإذا برق البصر ﴾ أي حار ، كقوله تعالى ﴿ لا يرتد اليهم طرفهم ﴾ أي بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا ، لا يستقر لهم بصر على شيء من شدة الرعب ، والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال ، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور ﴿ وخسف القمر ﴾ أي ذهب ضوءه ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ كوراً ﴿ يقول الانسان يومئذٍ أين المفر ﴾ أي إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة حينئذٍ يريد أن يفر ، ويقول : أين المفر ، أي هل من ملجأ أو موئل ؟ قال تعالى ﴿ كلا لا وزر ﴾ أي لا نجاة ، كقوله تعالى ﴿ مالكم من ملجأ يومئذٍ وما لكم من نكير ﴾ أي ليس لكم مكان تتنكرون فيه ، وكذا قال ههنا ﴿ لا وزر ﴾ أي ليس لكم مكان تعتصمون فيه ، ولهذا قال ﴿ إلى ربك يومئذٍ المستقر ﴾ أي المرجع والمصير . ﴿ ينبأ الانسان يومئذٍ بما قدم وأخر ﴾ أي يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، كما قال تعالى ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ ﴿ بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ أي هو شهيد على نفسه ، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر كما قال تعالى ﴿ إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ .

﴿١٦﴾ ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ﴿٢٣﴾

هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه ، ويسابق الملك في قراءته ، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره ، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه ، وأن يبينه له ، ويفسره ويوضحه ، فالحالة الأولى جمعه في صدره ، والثانية تلاوته ، والثالثة تفسيره ، وإيضاح معناه ، ولهذا قال تعالى ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ أي بالقرآن كما قال تعالى ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى

اليك وحيه ﴾ ثم قال تعالى ﴿ إن علينا جمعه ﴾ أي في صدرك ﴿ وقرآنه ﴾ أي أن تقرأه ﴿ فإذا قرأناه ﴾ أي تلاه عليك الملك عن الله تعالى ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ فاستمع له ، ثم اقرأه كما أقرأك ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ أي بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ، ونلهمك معناه على ما أردنا . ﴿ كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة ﴾ أي إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزله الله عزوجل على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة ، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة ﴾ من النضارة ، أي حسنة بهية مشرقة مسرورة ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ أي تراه عياناً ، كما رواه البخاري في صحيحه « إنكم سترون ربكم عِياناً » وقد ثبتت رؤ ية المؤمنين لله عزوجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحيحة من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها .

(٢٤) ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ (٢٥)

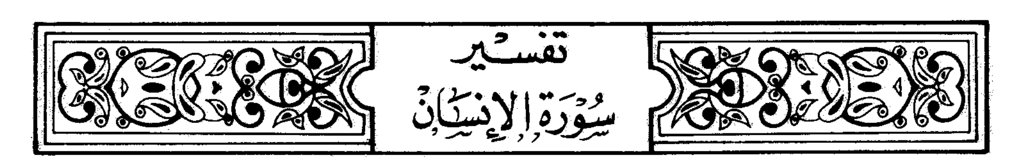
﴿ ووجوه يومئذٍ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة ، أي كالحة ، عابسة ﴿ تظن ﴾ أي تستيقن ﴿ فاقرة ﴾ داهية ، وشر .

(٣٦) ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (٤٠)

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار ، وما عنده من الأهوال ، ثبتنا الله هنالك بالقول الثابت، فقال تعالى ﴿ كلا ﴾ حقاً ﴿ إذا بلغت التراقي ﴾ أي انتزعت الروح من الجسد ، وبلغت العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق ﴿ وقيل : من راق ﴾ أي من طبيب شاف ، أو من يرقى يروحه : ملائكة الرحمة ، أو ملائكة العذاب ؟ ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ آخر يوم من أيام الدنيا ، وأول يوم من أيام الآخرة ، فتلتقي الشدة بالشدة إلا ومن رحمه الله ، أو الأمر العظيم بالأمر العظيم ، ﴿ إلى ربك يومئذٍ المساق ﴾ أي المرجع والمآب ﴿ فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ﴾ هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذباً بقلبه متولياً عن العمل بقالبه ، فلا خير فيه باطناً ولا

ظاهراً ﴿ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ أي جذلان أشراً بطراً كسلاناً ، لا همة له ولا عمل ﴿ أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد من الله تعالى للكـافر به المتبختر في مشيه ، أي يحق لك أن تمشي هكذا ، وقد كفرت بخالقك وبارئك ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ يعني لا يبعث ، أو لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهي في الدنيا ، محشور إلى الله في الدار الآخرة . والمقصود هنا إثبات المعاد ، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد ، ولهذا قال تعالى مستدلاً على الاعادة بالبداءة فقال تعالى ﴿ ألم يك نطفة من مني يمنى ﴾ أي أما كان الانسان نطفة ضعيفة من ماء مهين ؟ ﴿ يمنى ﴾ يراق من الاصلاب في الأرحام ﴿ ثم كان علقة فخلق فسوى ﴾ أي فصار علقة ، ثم مضغة، ثم شكل ونفخ فيه الروح ، فصار خلقاً آخر سوياً ، سليم الأعضاء ، ذكراً أو أنثى باذن الله وتقديره ، ولهذا قال ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ ثم قال تعالى ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى ﴾ أي أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه ، وتناول القدرة للاعادة إما بطريق الأولى بالنسبة للبداءة ، وإما مساوية على القولين في قوله تعالى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ والأول أشهر . روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه مر بهذه الآية ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى ﴾ قال : سبحانك فبكى .

* * *



تفسير سُورَةِ الإِنسَانِ

في صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ ألم تنزيل﴾ السجدة و﴿ هل أتى على الإنسان ؟ ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الانسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه ، فقال تعالى ﴿ هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ .

(٢) ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾

ثم بين ذلك فقال ﴿ إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج ﴾ أي أخلاط، والمشيج: الشيء المختلط بعضه في بعضه ، وعن ابن عباس : ماء الرجل ، وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ، ثم ينتقل بعد ذلك من طور إلى طور ، وحال إلى حال ، ولون إلى لون ﴿ نبتليه ﴾ أي نختبره ، كقوله تعالى ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ أي جعلنا له سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية . وقوله جل وعلا

(٣) ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾

﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ أي بيناه ووضحناه وبصرناه ، كقوله تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أي بينا له طريق الخير وطريق الشر . أو ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ يعني خروجه من الرحم ، وهذا قول غريب ، والصحيح المشهور الأول . ﴿ إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد ، روى مسلم قال : قال رسول الله ﷺ « كل الناس يغدو : فبائع نفسه فموبقها أو مهلكها » .

(٤) ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾

يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير ، وهو اللهب والحريق في نار جهنم كما قال تعالى ﴿ إذ الأغلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون . في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ .

(٥) ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾

ولما ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ﴾ وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنة .

(٦) ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾

﴿ عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ﴾ أي هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج ويروون بها ، ولهذا ضمن يشرب معنى يروي حتى عداه بالباء ، ونصب عيناً على التمييز ﴿ يفجرونها تفجيراً ﴾ أي يتصرفون فيها حيث شاؤوا ، وأين شاؤوا من قصورهم ودورهم ومجالهم ومحالهم ، والتفجير هو الاتباع .

(٧) ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾

﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ أي يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع ، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر . روى الامام مالك عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » رواه البخاري .

(٨) ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾

﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ قيل : على حب الله تعالى ، وقيل : على حب الطعام ، أي ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له ، وهذا هو الأظهر ، كقوله تعالى ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ وكقوله تعالى ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وفي الصحيح « أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر » أي في حال محبتك للمال، وحرصك عليه، وحاجتك إليه ﴿مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ عن ابن عباس كان أسراؤ هم يومئذٍ مشركين، ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الفداء ، وقيل : هم العبيد ، واختاره ابن جرير، فعموم الآية للمسلم والمشرك. وقد أوصى رسول الله ﷺ بالاحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث حتى إنه كان آخر ما أوصى أنه أن جعل يقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .

(٩) ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾

﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ أي رجاء ثواب الله ورضاه ﴿ لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ أي لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها ، ولا أن تشكرونا عند الناس .

(١٠) ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾

﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ﴾ أي إنما نفعل هذا ، لعل الله أن يرحمنا ، ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس القمطرير ، أي الطويل ، أو هو تقليص الوجه وما بين العينين من الهول ، أو العبوس : الشر ، والقمطرير : الشديد .

(١١) ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾

﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ﴾ أي آمنهم مما خافوا منه ﴿ ولقاهم نضرة ﴾ أي في وجوههم ﴿ وسروراً ﴾ أي في قلوبهم .

(١٢) ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾

﴿ وجزاهم بما صبروا ﴾ أي بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم وبوأهم جنة وحريراً ، أي منزلاً رحباً ، وعيشاً رغداً ولباساً حسناً .

(١٣) ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة ، وما هم فيه من النعيم المقيم ، وما أسبغ عليهم من الفضل العظيم فقال تعالى ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ الأرائك هي السرر تحت الحجال ﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾ أي ليس عندهم حر مزعج ، ولا برد مؤلم ، بل هي مزاج واحد دائم سرمدي ، لا يبغون عنها حولاً .

(١٤) ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾

﴿ ودانية عليهم ظلالها ﴾ أي قريبة اليهم أغصانها ﴿ وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ أي متى تعاطاه دنا القطف وتدلى من أعلى غصنه ، كأنه سامع طائع .

(١٥) ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴾

﴿ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب ﴾ أي يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام ، وهي من فضة وأكواب الشراب ، وهي الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم ﴿ كانت قواريرا ﴾ .

(١٦) ﴿ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾

﴿ قوارير من فضة ﴾ أي بياض الفضة في صفاء الزجاج ، والقوارير لا تكون إلا من زجاج ، فهذه الأكواب هي من فضة ، وهي مع هذا شفافة يرى ما في باطنها من ظاهرها ، وهذا مما لا نظير له في الدنيا ﴿ قدروها تقديراً ﴾ أي على قدر ريِّهم لا تزيد ولا تنقص ، بل هي معدة لذلك ، مقدرة بحسب ري صاحبها .

(١٧) ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾

﴿ ويسقون ﴾ يعني الأبرار أيضاً فت هذه الأكواب ﴿ كأساً ﴾ أي خمراً ﴿ كان مزاجها زنجبيلاً ﴾ فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور ، وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل ، وهو حار ، ليعتدل الأمر ، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ، ومن هذا تارة ، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً .

(١٨) ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾

﴿ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ أي الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسبيلاً .

(١٩) ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾

﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ أي يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة ﴿ مخلدون ﴾ أي على حالة واحدة مخلدون عليها ، لا يتغيرون عنها ، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن ﴿ إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ﴾ أي إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة ، وكثرتهم ، وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا ، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن .

(٢٠) ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾

﴿ وإذا رأيت ﴾ أي وإذا رأيت يا محمد ﴿ ثم ﴾ أي هناك ، يعني في الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحيرة والسرور ﴿ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴾ أي مملكة لله هناك عظيمة ، وسلطاناً باهراً .

(٢١) ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾

﴿ عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ﴾ أي لباس أهل الجنة فيها الحرير ، ومنه سندس ، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم ، والاستبرق ، منه ما فيه بريق ولمعان ، وهو مما يلي الظاهر ، كما هو المعهود في اللباس . ﴿ وحلوا أساور من فضة ﴾ وهذه صفة الأبرار ، وأما المقربون فكما قال تعالى ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ أي طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة .

(٢٢) ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾

﴿ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴾ أي يقال لهم : ذلك تكريماً لهم ، وإحساناً إليهم كما قال تعالى ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ ﴿ وكان سعيكم مشكوراً ﴾ أي جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير .

(٢٣) ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴾

يقول تعالى ممتناً على رسوله ﷺ بما أنزله عليه من القرآن العظيم تنزيلاً ﴿ إنا نحن نزَّلنا عليك القرآن تنزيلاً ﴾ .

(٢٤) ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾

﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أي كما أكرمتك بما أنزلت عليك ، فاصبر على قضائه وقدره ، واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره ﴿ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ أي لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك من ربك ، وتوكل على الله ، فإن الله يعصمك من الناس ، فالآثم هو الفاجر في أفعاله ، والكفور هو الكافر قلبه .

(٢٥) ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ﴾ أي أول النهار وآخره .

(٢٦) ﴿ وَمِنَ الَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾

﴿ ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ﴾ كقوله تعالى ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ .

(٢٧) ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾

ثم قال منكراً على الكفار ومن أشبههم في حب الدنيا ، والاقبال عليها ، والانصباب إليها ، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم ﴿ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ﴾ يعني يوم القيامة .

(٢٨) ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾

﴿ نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ﴾ يعني خلقهم ﴿ وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً ﴾ أي إذا شئنا بعثناهم يوم القيامة وبدلناهم . فأعدناهم يوم القيامة وبدلناهم . فأعدناهم خلقاً جديداً ، وهذا استدلال بالبداءة على الرجعة ، أو وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم ، كقوله تعالى ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بآخرين ﴾ .

(٢٩) ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾

﴿ إن هذه تذكرة ﴾ يعني هذه السورة تذكرة ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ أي طريقاً

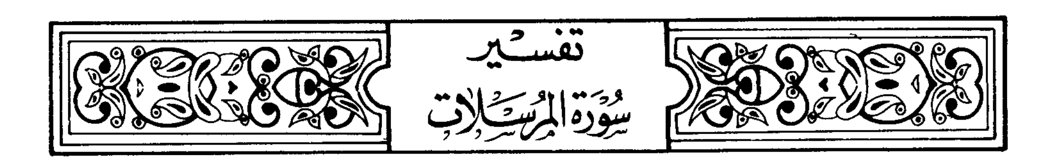
ومسلكاً ، أي من شاء اهتدى بالقرآن .

(٣٠) ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

﴿ وما تشاؤ ون إلا أن يشاء الله ﴾ أي لا يقدر أحد أن يهدي نفسه ، ولا يدخل في الإيمان ، ولا يجر لنفسه نفعاً ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ أي عليماً بمن يستحق الهداية فييسرها له ، ويقيض له أسبابها ، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

(٣١) ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴾

﴿ يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً ﴾ أي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، فمن يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .



تفسير سورة المرسلات

روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه ﴿ والمرسلات ﴾ فإنه ليتلوها ، وإني لأتلقاها من فيه ، وإن فاه الرطب بها إذ وثبت علينا حية فقال النبي ﷺ « اقتلوها » فابتدرناها فذهبت ، فقال النبي ﷺ : « وقيت شركم كما وقيتم شرها » وأخرجه مسلم . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أن أم الفضل سمعته يقرأ ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ فقالت : يا بني ، أذكرتني بقراءتك هذه السورة ، إنها لآخر من سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب . أخرجاه في الصحيحين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا (١) فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا (٢) وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا (٣) فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا (٤) فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ (٧) فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢)

لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿١٥﴾

﴿ والمرسلات عرفاً . فالعاصفات عصفاً . والناشرات نشراً . فالفارقات فرقاً ، فالملقيات ذكراً . عذراً أو نذراً ﴾ يعني الملائكة ، فإنها تنزل بأمر الله على الرسل ، تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والغي ، والحلال والحرام ، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعذار إلى الخلق ، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره ، أو هي الرياح ترسل ، وتعصف وتنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب جل وعز ﴿ إنما توعدون لواقع ﴾ هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام ، أي ما وعدتم به من قيام الساعة ، والنفخ في الصور ، وبعث الأجساد ، وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ، ومجازاة كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، إن هذا كله لواقع أي لكائن لا محالة . ثم قال تعالى ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ أي ذهب ضوؤها . كقوله تعالى ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أي انفطرت وانشقت وتدلت أرجاؤها ، ووهت أطرافها ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ أي ذهب بها فلا يبقى لها عين ولا أثر ، كقوله تعالى ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾ ﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ جمعت أو أجلت ، أو أوعدت ﴿ لأي يوم أجلت ﴾ يقول تعالى : لأي يوم أجلت الرسل ، وأرجىء أمرها ﴿ ليوم الفصل ﴾ ليوم قيام الساعة . ثم قال تعالى، معظماً لشأنه ﴿ ما أدراك ما يوم الفصل . ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ أي ويل لهم من عذاب الله غداً . وفي الحديث ﴿ ويل ﴾ واد في جهنم . ولا يصح .

﴿١٦﴾ ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿١٩﴾

﴿ ألم نهلك الأولين ﴾ يعني من المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤهم به ﴿ ثم نتبعهم الآخرين ﴾ أي ممن أشبههم . ولهذا قال تعالى ﴿ كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ .

﴿٢٠﴾ ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿٢٨﴾

ثم قال تعالى ممتناً على خلقه ، ومحتجاً على الاعادة بالبداءة ﴿ ألم نخلقكم من ماء

مهين ﴾ أي ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة الباري عز وجل ، وفي حديث بشر بن جحاش « ابن آدم أنى تعجزني ، وقد خلقتك مثل هذه » ﴿ فجعلناه في قرار مكين ﴾ يعني جمعناه في الرحم ، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة ، والرحم معد حافظ لما أودع فيه من الماء ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ يعني إلى مدة معينة ، من ستة أشهر ، أو تسعة أشهر . ولهذا قال تعالى ﴿ فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ ثم قال تعالى ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتاً . أحياء وأمواتاً ﴾ كفاتاً كناً ، يكفت الميت فلا يرى منه شيء ، قال الشعبي : بطنها لأمواتكم ، وظهرها لأحيائكم ﴿ وجعلنا فيها رواسي شامخات ﴾ يعني الجبال رسى بها الأرض لئلا تميد وتضطرب ﴿ وأسقيناكم ماء فراتاً ﴾ أي عذباً زلالاً من السحاب ، أو مما أنبعه من عيون الأرض ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ أي ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها ، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره .

﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار أنهم يقال لهم يوم القيامة ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ﴾ يعني لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان فمن شدته وقوته له ثلاث شعب ﴿ لا ظليل ولا يغني من اللهب ﴾ أي ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو نفسه ، ولا يغني من اللهب ، يعني ولا يقيهم حر اللهب ﴿ إنها ترمي بشرر كالقصر ﴾ أي يتطاير الشرر من لهبها كالقصر ، قال ابن مسعود : كالحصون . ﴿ كأنه جمالة صفر ﴾ أي كالإبل السود ، أو كقطع النحاس ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين . هذا يوم لا ينطقون ﴾ أي لا يتكلمون ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ أي لا يقدرون على الكلام . ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا ، بل قد قامت عليهم الحجة ﴿ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴾ وعرصات القيامة حالات ، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة ، وعن هذه الحالة تارة ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذٍ ، ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ﴾ وهذه مخاطبة من الخالق تعالى

لعباده ، يعني أنه جمعهم بقدرته في صعيد واحد ، يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر . ﴿ فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، أي إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي ، وتنجوا من حكمي فافعلوا ، فإنكم لا تقدرون على ذلك ، كما قال تعالى ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ وقد قال تعالى ﴿ ولا تضرونه شيئاً ﴾ وفي الحديث « يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، ولن تبلغوا ضري فتضروني » ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات ، وترك المحرمات ، إنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون ، أي بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظل اليحموم ، وهو الدخان الأسود المنتن . وقوله ﴿ وفواكه مما يشتهون ﴾ أي ومن سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ أي يقال لهم : ذلك على سبيل الاحسان إليهم ثم قال تعالى مخبراً خبراً مستأنفاً ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ وقوله تعالى ﴿ كلوا ﴾ خطاب للمكذبين بيوم الدين ، وأمرهم أمر تهديد ووعيد ﴿ وتمتعوا قليلاً ﴾ أي مدة قليلة قريبة قصيرة ﴿ إنكم مجرمون ﴾ أي ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ كما قال تعالى ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ أي إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك ، واستكبروا عنه ، ولهذا قال تعالى ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ ثم قال تعالى ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي كلام يؤمنون به ؟ كقوله تعالى ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ ؟ . روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة يرويه : إذا قرأ ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ ـ فقرأ ـ فبأي حديث بعد يؤمنون ؟ فليقل آمنت بالله ، وبما أنزل .

* * *



تفسير سُورَةِ النَّبَأ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣)﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها ﴿عم يتساءلون عن النبأ العظيم﴾ أي عن أي شيء يتساءلون عن أمر القيامة، وهو النبأ العظيم، يعني الخبر الهائل، المفظع الباهر، أو هو القرآن، والأظهر الأول ﴿الذي هم فيه مختلفون﴾ يعني أن الناس فيه على قولين: مؤمن به وكافر.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾

﴿كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون﴾ وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، ثم شرع تبارك وتعالى يبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة، والأمور العجيبة الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره فقال ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾ أي ممهدة للخلائق، ذلولاً لهم، قارة ساكنة ثابتة ﴿والجبال أوتاداً﴾ أي جعلها لها أوتاداً، أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها. ثم قال تعالى ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾ يعني ذكراً وأنثى، يتمتع كل منهما بالآخر، ويحصل التناسل بذلك، كقوله تعالى ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ وقوله تعالى ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ أي قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعايش في عرض النهار ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ أي يغشى الناس ظلامه وسواده كما قال تعالى ﴿والليل إذا يغشاها﴾ أو ﴿لباساً﴾ سكناً. وقوله تعالى ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ أي جعلناه مشرقاً نيراً مضيئاً ليتمكن الناس من التصرف فيه، والذهاب والمجيء للمعاش

والتكسب والتجارة وغير ذلك . وقوله تعالى ﴿ وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ﴾ يعني السموات السبع في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها وتزيينها بالكواكب الثوابت ، والسيارات ، ولهذا قال تعالى ﴿ وجعلنا سراجاً وهاجاً ﴾ يعني الشمس المنيرة على جميع العالم التي يتوهج ضوؤ ها لأهل الأرض كلهم . وقوله تعالى ﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾ من الرياح ، ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب كما قال تعالى ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ أي من بينه ﴿ ماء ثجاجاً ﴾ منصباً متتابعاً . ومنه قول النبي ﷺ « أفضل الحج العج والثج » يعني صب دماء البدن . وقوله ﴿ لنخرج به ﴾ أي لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك ﴿ حباً ﴾ يدخر للأناس والأنعام ﴿ ونباتاً ﴾ أي خضراً يؤكل رطباً ﴿ وجنات ﴾ أي بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة وألوان مختلفة ، وطعوم وروائح متفاوتة ، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً ، ولهذا قال ﴿ وجنات ألفافاً ﴾ أي مجتمعة ، وهذه كقوله تعالى ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

(١٧) ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفصل ، وهو يوم القيامة أنه مؤقت بأجل معدود ، لا يزاد عليه ، ولا ينقص منه ، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عز وجل كما قال تعالى ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ ﴿ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً ﴾ زمراً زمراً ، أو تأتي كل أمة مع رسولها ، كقوله تعالى ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ عن رسول الله ﷺ « ما بين النفختين أربعون » قالوا : أربعون يوماً ؟ قال : « أبيت » قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : « أبيت » قالوا : أربعون سنة ؟ قال : « أبيت » قال : « ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، ليس من الانسان شيء إلا يبلى ، إلا عظماً واحداً ، وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة » ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ أي طرقاً ومسالك لنزول الملائكة ﴿ وسيرت الجبال ﴾ كقوله تعالى ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ ﴿ فكانت سراباً ﴾ أي يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء ،

وبعد هذا تذهب ، فلا عين ولا أثر ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ أي مرصدة معدة ﴿ للطاغين ﴾ وهم المردة العصاة المخالفون للرسل ﴿ مآباً ﴾ أي مرجعاً ومنقلباً ومصيراً ونزلاً ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ أي ماكثين فيها مدة من الزمان ، والحقب : ثمانون سنة ، كل سنة اثنا عشر شهراً ، كل شهر ثلاثون يوماً ، كل يوم ألف سنة . والصحيح أنها لا انقضاء لها ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ﴾ أي لا يجدون في جهنم برداً لقلوبهم ، ولا شراباً طيباً يتغذون به ﴿ إلا حميماً وغساقاً ﴾ استثنى من البرد الحميم ، ومن الشراب الغساق ، فأما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره وحموه ، وأما الغساق فهو ما اجتمع فيه من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم فهو بارد لا يستطاع من برده ولا يواجه من نتنه ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ أي هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا .

﴿٢٧﴾ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ أي لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون ﴿ وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾ أي وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله ﷺ ، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة ﴿ كذاباً ﴾ أي تكذيباً ، وهو مصدر من غير الفعل ﴿ وكل شيء أحصيناه كتاباً ﴾ أي وقد علمنا أعمال العباد كلهم ، وكتبناها عليهم ، وسنجزيهم على ذلك ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ أي يقال لأهل النار : ذوقوا ما أنتم فيه ، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه ، وآخر من شكله أزواج .

﴿٣١﴾ ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ ﴿٣٦﴾

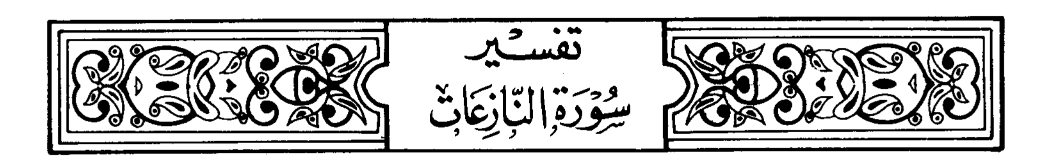
يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعدَّ لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم فقال تعالى ﴿ إن للمتقين مفازاً ﴾ تنزهاً ، فازوا فنجوا من النار ﴿ حدائق ﴾ بساتين من النخيل وغيرها ﴿ وأعناباً وكواعب أتراباً ﴾ أي وحوراً كواعب ، أي نواهد ، يعنون أن ثديهن نواهد ، لم يتدلين . لأنهن أبكار عرب أتراب ، أي في سن واحد ﴿ وكأساً دهاقاً ﴾ مملوءة متتابعة

﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ﴾ كقوله ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ أي ليس فيها كلام لاغ عار عن الفائدة ، ولا إثم كذب ، بل هي دار السلام ، وكل ما فيها سالم من النقص . وقوله ﴿ جزاء من ربك عطاء حساباً ﴾ أي هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به ، وأعطاهموه بفضله ومنه وإحسانه ورحمته ﴿ عطاء حساباً ﴾ أي كافياً وافياً سالماً كثيراً ، تقول العرب : أعطاني فأحسبني ، أي كفاني ، ومنه حسبي الله أي الله كافيّ .

﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾ ﴿٤٠﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وأنه رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما وأنه الرحمٰن الذي شملت رحمته كل شيء وقوله تعالى ﴿ لا يملكون منه خطاباً ﴾ أي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه كقوله تعالى ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقوله تعالى ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون ﴾ والمراد بالروح هنا أرواح بني آدم ، أو هم بنو آدم ، أو أنهم خلق من خلق الله على صور بني آدم ، وليسوا بملائكة ولا ببشر ، وهم يأكلون ويشربون ، أو هو جبريل ، ويستشهد لهذا القول بقوله عز وجل ﴿ نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ ، أو الروح هو القرآن ، كقوله تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ أو أنه ملك من الملائكة يقدر جميع المخلوقات ﴿ إلا من أذن له الرحمٰن ﴾ كقوله تعالى ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ وكما ثبت في الصحيح « ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل » ﴿ وقال صواباً ﴾ أي حقاً ، ومن الحق « لا إلٰه إلا الله » ﴿ ذلك اليوم الحق ﴾ أي الكائن لا محالة ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً » أي مرجعاً ، وطريقاً يهتدي إليه ، ومنهجاً يمر به عليه وقوله تعالى ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ﴾ يعني يوم القيامة ، لتأكد وقوعه صار قريباً ، لأن كل ما هو آت آت ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ أي يعرض عليه جميع أعماله خيرها وشرها قديمها وحديثها ، كقوله تعالى ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ وكقوله تعالى ﴿ ينبأ الانسان يومئذٍ بما قدم وأخر ﴾ ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ أي يود الكافر يومئذٍ أنه كان في الدار الدنيا تراباً ، ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود ، وذلك حين عاين عذاب الله ، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد

سطرت عليه بأيدي الملائكة ، السفرة الكرام البررة ، وقيل : إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء ، فإذا فرغ من الحكم بينها ، قال لها كوني تراباً ، فتصير تراباً ، فعند ذلك يقول الكافر ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ أي كنت حيواناً فأرجع إلى التراب .



تفسير سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ ﴿١٤﴾

﴿ والنازعات غرقاً ﴾ الملائكة حين تنزع أرواح بني آدم ، فمنهم من تأخذ روحه بعسر ، فتفرق في نزعها ، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة ، وكأنما حلته من نشاط ، وهو قوله ﴿ والناشطات نشطاً ﴾ ، ﴿ والسابحات سبحاً ﴾ الملائكة ، أو النجوم ، أو السفن ﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ هي الملائكة سبقت إلى الإيمان والتصديق ، أو هي النجوم ، أو هي الخيل في سبيل الله ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ هي الملائكة تدبر الأمر من السماء إلى الأرض بأمر ربها ﴿ يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة ﴾ هما النفختان : الأولى والثانية ، روى ابن أبي حاتم كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس، اذكروا الله ، جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » ﴿ قلوب يومئذٍ واجفة ﴾ خائفة ﴿ أبصارها خاشعة ﴾ أي أبصار أصحابها ، وإنما أضيفت اليها للملابسة ، أي ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال ﴿ يقولون أئنا لمردودون في الحافرة ﴾ يعني مشركي قريش ومن قال بقولهم في انكار المعاد ، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة ، وهي القبور ﴿ أئذا كنا عظاماً نخرة ﴾ أي بالية ﴿ تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ قالت قريش : لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن . ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ فإنما هو أمر من الله ، لا

مثنوية فيه ، ولا تأكيد ، فإذا الناس قيام ينظرون ، وهو أن يأمر تعالى إسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث ، فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب عز وجل ينظرون ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ الساهرة الأرض كلها .

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ﴾

يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه ابتعثه إلى فرعون، وأيده الله بالمعجزات ، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به ، ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ أي هل سمعت بخبره ؟ ﴿ إذ ناداه ربه ﴾ أي كلمه نداء ﴿ بالواد المقدس ﴾ أي المطهر ﴿ طوى ﴾ وهو اسم الوادي على الصحيح .

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾

﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أي تجبر وتمرد وعتا ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى ﴾ أي قل له : هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكى به ، أي تسلم وتطيع ﴿ وأهديك إلى ربك ﴾ أي أدلك على عبادة ربك ﴿ فتخشى ﴾ فيصير قلبك خاضعاً له ، مطيعاً خاشعاً بعدما كان قاسياً خبيثاً بعيداً من الخير ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية ، ودليلاً واضحاً على صدق ما جاءه به من عند الله ﴿ فكذب وعصى ﴾ أي فكذب بالحق ، وخالف ما أمره به من الطاعة ، وحاصله أنه كفر قلبه فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره وعلمه بأن ما جاء به حق لا يلزم منه أنه مؤمن به لأن المعرفة علم القلب ، والايمان عمله ، وهو الانقياد للحق ، والخضوع له . وقوله تعالى ﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ أي في مقابلة الحق بالباطل ، وهو جمعه السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات ﴿ فحشر فنادى ﴾ أي في قومه ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ بأربعين سنة ، قال تعالى ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ أي انتقم الله منه انتقاماً

جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا ﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ أي لمن يتعظ وينزجر .

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ (٣٣)

يقول تعالى محتجاً على منكري البعث في اعادة الخلق بعد بعثه ﴿أأنتم﴾ أيها الناس ﴿ أشد خلقاً أم السماء ﴾ يعني بل السماء أشد خلقاً منكم ﴿ بناها ﴾ فسره بقوله ﴿ رفع سمكها فسواها ﴾ أي جعلها عالية البناء بعيدة الفناء ، مستوية الأرجاء ، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء . وقوله تعالى ﴿ وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ أي جعل ليلها مظلماً أسود حالكاً ، ونهارها مضيئاً مشرقاً نيراً واضحاً ﴿ وأخرج ضحاها ﴾ أي أنار نهارها . وقوله تعالى ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ فسره بقوله ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ فقد خلق الله الأرض قبل خلق السماء ، ولكن إنما دحيت بعد خلق السماء بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل . وعن ابن عباس ﴿ دحاها ﴾ ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار ، وجعل فيها الجبال والرمال والسيل والآكام . ﴿ والجبال أرساها ﴾ أي قررها وأثبتها وأكدها في أماكنها ، وهو الحكيم العليم ، الرؤوف بخلقه ، الرحيم ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ أي دحا الأرض ، فأنبع عيونها ، وأظهر مكنونها ، وأجرى أنهارها ، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها ، وثبت جبالها لتستقر بأهلها ، ويقر قرارها ، كل ذلك متاعاً لخلقه ، ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم اليها في هذه الديار إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل .

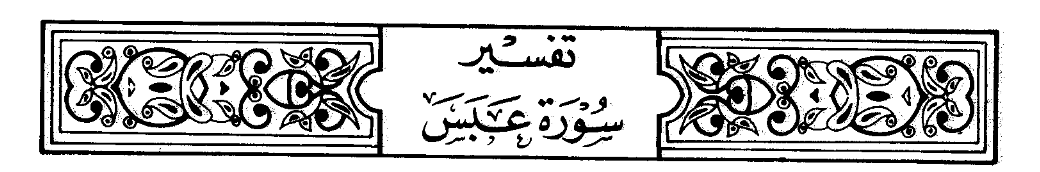
﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (٣٩)

﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ وهو يوم القيامة ، سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع كما قال تعالى ﴿ والساعة أدهى وأمر ﴾ ﴿ يوم يتذكر الانسان ما سعى ﴾ أي حينئذٍ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره كما قال تعالى ﴿ يومئذٍ يتذكر الانسان وانى له الذكرى ﴾ ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ أي أظهرت للناظرين فرآها الناس عياناً ﴿ فأما

من طغى ﴾ أي تمرد وعتا ﴿ وآثر الحياة الدنيا ﴾ أي قدمها على أمر دينه وأخراه ﴿ فإن الجحيم هي المأوى ﴾ أي فإن مصيره إلى الجحيم ، وإن مطعمه من الزقوم ومشربه من الحميم .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾

﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ﴾ أي خاف القيام بين يدي الله عز وجل ، وخاف حكم الله فيه ، ونهى نفسه عن هواها ، وردها إلى طاعة مولاها ﴿ فإن الجنة هي المأوى ﴾ أي منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء . ثم قال تعالى ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ ليس علمها اليك ، ولا إلى أحد من الخلق ، بل مردها ومرجعها إلى الله عز وجل ، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين ﴿ ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ﴾ وقال ههنا ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ ولهذا سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال: « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » وقوله تعالى ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ أي إنما بعثتك لتنذر الناس ، وتحذرهم من بأس الله وعذابه ، فمن خشي الله ، وخاف مقامه ووعيده اتبعك فأفلح وأنجح ، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك . وقوله تعالى ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ أي إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو من ضحى من يوم .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يخاطب بعض عظماء قريش ، وقد طمع في اسلامه ، فبينما هو يخاطبه ، ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم ، وكان ممن أسلم قديماً ، فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء، ويلح عليه، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعاً ورغبة في هدايته ، وعبس في وجه ابن أم مكتوم ، وأعرض عنه ، وأقبل على الآخر فأنزل الله تعالى ﴿ عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى ﴾ أي يحصل له زكاة وطهارة نفس ﴿ أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ أي يحصل له اتعاظ وازدجار عن المحارم ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى ﴾ أي أما الغني فأنت تتعرض له لعله يهتدي ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ أي ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة .

﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾ ﴿١٦﴾

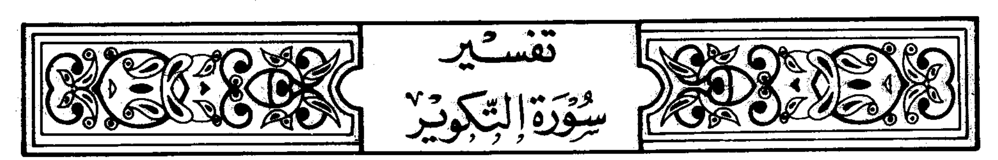
﴿ وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى ﴾ أي يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له ﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ أي تتشاغل ومن ههنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يخص بالانذار أحداً ، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف والفقير والغني ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء ، والصغار والكبار ، ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدافقة ﴿ كلا إنها تذكرة ﴾ أي هذه السورة أو الوصية بالمساواة بين الناس في ابلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم ، أو ﴿ إنها تذكرة ﴾ يعني القرآن ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أي فمن شاء ذكر الله عز وجل في جميع أموره ، ويحتمل عود الضمير إلى الوحي لدلالة الكلام عليه . ﴿ في صحف مكرمة . ﴾ أي هذه السورة أو العظة ، وكلاهما متلازم ، بل جميع القرآن في صحف مكرمة ، أي معظمة موقرة ﴿ مرفوعة ﴾ أي عالية القدر ﴿ مطهرة ﴾ أي من الدنس والزيادة والنقص . وقوله تعالى ﴿ بأيدي سفرة ﴾ هي الملائكة ، ومنه يقال : السفير الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير ﴿ كرام بررة ﴾ أي خلقهم كريم ، حسن شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة ، ومن ههنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد ، روى الامام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ «الذي يقرأ القرآن ، وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرؤه ، وهو عليه شاق ، له أجران » أخرجه الجماعة .

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم ﴿ قتل الانسان ﴾ لعن الانسان ، وهذا لجنس الانسان المكذب لكثرة تكذيبه بلا مستند ، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم ﴿ ما أكفره ﴾ أي ما أشد كفره ، ويحتمل أن يكون المراد ، أي شيء جعله كافراً ، أي ما حمله على التكذيب بالمعاد ؟ ﴿ من أي شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره ﴾ أي قدر أجله ورزقه وعمله وشقي أم سعيد ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ يسر عليه خروجه من بطن أمه ﴿ ثم أماته فأقبره ﴾ أي إنه بعد خلقه له أماته فأقبره ، أي جعله ذا قبر ، ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ أي بعثه بعد موته ، ومنه يقال : البعث والنشور ﴿ كلا لما يقض ما أمره ﴾ كلا ، ليس الأمر كما يقول هذا الانسان الكافر من أنه قد أدّى حق الله عليه في نفسه وما له ﴿ لما يقض ما أمره ﴾ لم يؤد ما فرض عليه عز وجل من الفرائض لربه عز وجل ﴿ فلينظر الانسان إلى طعامه ﴾ فيه امتنان ، وفيه استدلال باحياء النبات من الأرض الهامدة على احياء الأجسام بعدما كانت عظاماً بالية ، وتراباً متمزقاً ﴿ أنا صببنا الماء صباً ﴾ أي أنزلناه من السماء على الأرض ﴿ ثم شققنا الأرض شقاً ﴾ أي أسكناه فيها ، فدخل في تخومها ، وتخلل في اجزاء الحب المودع فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض ﴿ فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً ﴾ فالحب كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة ، ويقال لها : القت أيضاً ، أو القضب العلق ﴿ وزيتوناً ﴾ وهو معروف ، وهو أدم ، وعصيره أدم ، ويستصبح به ويدهن به ﴿ ونخلاً ﴾ يؤكل فجاً ، ويسراً ورطباً وتمراً ونيئاً ومطبوخاً ، ويعتصر منه رب وخل ﴿ وحدائق غلباً ﴾ أي بساتين ، قال الحسن وقتادة : ﴿ غلباً ﴾ نخلاً غلاظاً كراماً ، أو ﴿ غلباً ﴾ طوالاً ﴿ وفاكهة واباً ﴾ أما الفاكهة فكل ما يتفكه به من الثمار ، واما الأب فهو ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ، ولا يأكله الناس ، وفي رواية هو الحشيش للبهائم . ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ أي عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة .

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ (٤٢)

﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ الصاخة اسم من أسماء يوم القيامة ، عظمه الله وحذر عباده منه ، أو هي صيحة يوم القيامة ، سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع ، أي تبالغ في أسماعها حتى تكاد تصمها . ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴾ أي يراهم ويفر منهم ، ويبتعد منهم ، لأن الهول عظيم ، والخطب جليل ﴿ لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه ﴾ وقوله تعالى ﴿ وجوه يومئذٍ مسفرة ضاحكة مستبشرة ﴾ أي يكون الناس هنالك فريقين : وجوه مستنيرة مسرورة فرحة ، قد ظهر البشر على وجوههم ، وهؤلاء هم أهل الجنة ﴿ ووجوه يومئذٍ عليها غبرة . ترهقها قترة ﴾ أي يعلوها ، وتغشاها قترة أي سواد ﴿ أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ أي الكفرة قلوبهم ، الفجرة في أعمالهم ، كما قال تعالى ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ .



تفسير سُورَةُ التَّكوِير

روى الإمام أحمد ، قال رسول الله ﷺ « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ ، و﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ و﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وهكذا رواه الترمذي .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ (٤)

﴿ إذا الشمس كورت ﴾ يعني أظلمت ، وذهب ضوؤها ، أو جمع بعضها إلى بعض ، ثم لفت فرمي بها ، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها . ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ أي انتثرت كما قال تعالى ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ وأصل الانكدار الانصباب ﴿ وإذا الجبال

سيرت ﴾ أي زالت عن أماكنها ونسفت فتركت الأرض قاعاً صفصفاً ﴿ وإذا العشار ﴾ الإبل ﴿ عطلت ﴾ تركت وسيبت .

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ ﴿١٤﴾

﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ أي جمعت ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ فإذا هي نار تتأجج ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ أي جمع كل شكل إلى نظيره ﴿ وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت ﴾ أي سألت ، والموءودة هي المدفونة في التراب كراهية البنات . جاء قيس بن عاصم ، إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني وأدت بنات لي في الجاهلية قال : « أعتق عن كل واحدة منهن رقبة » قال : يا رسول الله ، إني صاحب إبل ، قال : « فانحر عن كل واحدة منهن بدنة » ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ أعطي كل إنسان صحيفته بيمينه ، أو بشماله ﴿ وإذا السماء كشطت ﴾ اجتذبت ، أو تتكشط فتذهب ﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ أحميت ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ أي قربت إلى أهلها ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ هذا هو الجواب ، أي إذا وقعت هذه الأمور حينئذٍ تعلم كل نفس ما عملت ، وأحضر ذلك لها .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿ فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس ﴾ هي النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل ، أو هي النجوم الدراري التي تجري تستقبل المشرق ، وإنما قيل للنجوم الخنس ، أي في حال طلوعها ، ثم هي جوار في فلكها ، وفي حال غيبوبتها يقال لها : الكنس من قول العرب : أوى الظبي إلى كناسه إذا تغيب فيه ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ إذا أقبل بظلامه ، أو

إذا أدبر وذهب وتولى ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ أي إذا طلع ، وأضاء ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ يعني إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم أي ملك شريف حسن الخلق بهي المنظر ، وهو جبريل عليه السلام ﴿ ذي قوة ﴾ كقوله تعالى ﴿ علمه شديد القوى . . ذو مرة ﴾ أي شديد الخلق ، شديد البطش والفعل ﴿ عند ذي العرش مكين ﴾ أي له مكانة عند الله عز وجل ، ومنزلة رفيعة ﴿ مطاع ثم ﴾ أي له وجاهة ، وهو مسموع القول ، مطاع في الملأ الأعلى ﴿ أمين ﴾ صفة لجبريل بالأمانة ، وهذا عظيم جداً أن الرب عز وجل يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشري محمداً ﷺ بقوله ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ يعني ولقد رأى محمد جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التي خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ﴿ بالأفق المبين ﴾ أي البين ، وهي الرؤ ية الأولى التي كانت بالبطحاء ، وهي المذكورة في قوله : ﴿ علمه شديد القوى . ذو مرَّة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ والظاهر والله أعلم أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الاسراء لأنه لم يذكر فيها غير هذه الرؤ ية ، وهي الأولى . وأما الثانية وهي المذكورة في قوله تعالى ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى ﴾ فتلك إنما ذكرت في سورة النجم ، وقد نزلت بعد سورة الاسراء ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ أي وما محمد على ما أنزله الله عليه ببخيل، بل يبذله لكل أحد ، قال قتادة : كان القرآن غيباً فأنزل الله على محمد ﷺ ، فما ضن به على الناس ، بل نشره وبلغه وبذله لكل من أراده ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم أي لا يقدر على حمله ولا يريده ، ولا ينبغي له ، كما قال تعالى ﴿ وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ وقوله تعالى ﴿ فأين تذهبون ﴾ أي فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه ، وبيان كونه حقاً من عند الله عز وجل ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أي هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتعظون ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ أي من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن فإنه مناجاة له وهداية ، ولا هداية فيما سواه ﴿ وما تشاؤ ون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ أي ليست المشيئة موكولة إليكم ، فمن شاء اهتدى ، ومن شاء ضل ، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين . قال أبو جهل : الأمر إلينا ، إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم فأنزل الله تعالى ﴿ وما تشاؤ ون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ .



تفسير سُورَةِ الإنفِطَارِ



روى النسائي عن جابر قال : قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطول فقال النبي ﷺ : « أفتان أنت يا معاذ ؟ أين كنت عن ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ، ﴿ والضحى ﴾ ، و ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ » وأصل الحديث مخرج في الصحيحين ، ولكن ذكر ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ في إفراد النسائي . وعن عبدالله بن عمر عن النبي ﷺ قال : « من سره أن ينظر إلى القيامة رأي العين فليقرأ ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ ، و ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ ، و ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١٢)

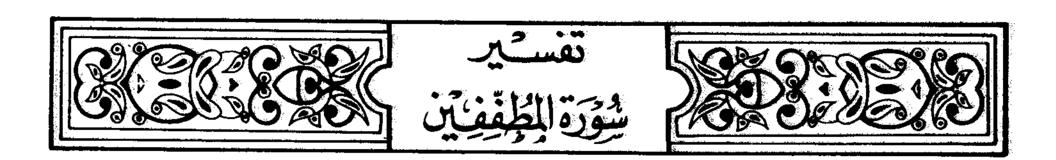
﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ أي انشقت ، كما قال تعالى ﴿ السماء منفطر به ﴾ ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ أي تساقطت ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ فجر بعضها في بعض فذهب ماؤها ، أو اختلط عذبها بمالحها ، أو ملئت . ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ بحثت ، قال السدي : تبعثر : تحرك فيخرج من فيها ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ أي إذا كان هذا حصل هذا . وقوله تعالى ﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ﴾ ؟ هذا تهديد ، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب حيث قال : ﴿ الكريم ﴾ حتى يقول قائلهم : غره كرمه ، بل المعنى في هذه الآية : ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم ، أي العظيم حتى أقدمت على معصيته وقابلته بما لا يليق ، كما جاء في الحديث « يقول الله تعالى يوم القيامة : يا ابن آدم ، ما غرك بي ؟ يا ابن آدم ، ماذا أجبت المرسلين ؟ » وقوله تعالى ﴿ الذي خلقك فسواك فعدلك ﴾ أي ما غرك بالرب الكريم الذي جعلك سوياً

مستقيماً معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال . روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه ، فوضع عليها أصبعه ، ثم قال : « قال الله عز وجل : يا ابن آدم ، أنى تعجزني ، وقد خلقتك من مثل هذه ؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين ، وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق ، وأنى أوان الصدقة » ؟ ﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ أي في أي شبه أب أو أم أو خال أو عم . في الصحيحين عن أبي هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إن امرأتي ولدت غلاماً أسود ، قال : « وهل لك من إبل ؟ » قال : نعم ، قال : « فما ألوانها ؟ » قال : حمر ، قال : « فهل فيها من أورق ؟ » قال : نعم ، قال : « فأنى أتاها ذلك ؟ » قال : عسى أن يكون نزعة عرق ، قال : « وهذا عسى أن يكون نزعة عرق » وقال عكرمة في قوله تعالى ﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ إن شاء في صورة قرد ، وإن شاء في صورة خنزير ، أو في صورة كلب ، ومعنى هذا أن الله قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام حسن المنظر والهيئة . وقوله ﴿ كلا بل تكذبون بالدين ﴾ أي إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب . ﴿ وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون ﴾ يعني وإن عليكم لملائكة حفظة كراماً ، فلا تقابلوهم بالقبائح ، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم . روى ابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ قال : « أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين : الجنابة والغائط ؛ فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم حائط ، أو ببعيره ، أو ليستره أخوه » وروى البزار عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من حافظين يرفعان إلى الله عز وجل ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفاراً إلا قال الله تعالى قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة » .

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم ، وهم الذي أطاعوا الله عز وجل ، ولم يقابلوه بالمعاصي ، روى ابن عساكر عن النبي ﷺ قال : « إنما سماهم الله الأبرار ، لأنهم بروا الآباء والأبناء » . ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم ولهذا قال

﴿ يصلونها يوم الدين ﴾ أي يوم الحساب والجزاء والقيامة ﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾ أي لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ، ولو يوماً واحداً . وقوله تعالى ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة ، ثم أكده بقوله ﴿ ثم ما أدراك ما يوم الدين ﴾ ثم فسره بقوله ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ أي لا يقدر أحد على نفع أحد ، ولا خلاصه مما هو فيه إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، وفي الحديث « يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، لا أملك لكم من الله شيئاً » ﴿ والأمر يومئذٍ لله ﴾ كقوله تعالى ﴿ لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ﴾ وكقوله ﴿ الملك يومئذٍ الحق للرحمن ﴾ قال قتادة ﴿ والأمر يومئذٍ لله ﴾ والأمر واللهِ اليوم لله ، لا ينازعه فيه يومئذٍ أحد .



تفسير سُورَةُ المُطَفِّفِين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾

روى النسائي وابن ماجه عن ابن عباس قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً ، فأنزل الله تعالى ﴿ ويل للمطففين ﴾ فحسنوا الكيل بعد ذلك . والمراد بالتطفيف ههنا البخس في المكيال والميزان ، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس ، وإما بالنقصان إن قضاهم . ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك ، وهو الويل بقوله تعالى ﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس ﴾ أي من الناس ﴿ يستوفون ﴾ أي يأخذون حقهم بالوافي الزائد ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ أي ينقصون ، وقد أمر الله تعالى بالوفاء في الكيل والميزان فقال تعالى ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ وقال تعالى ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف

نفساً إلا وسعها ﴾ وقال تعالى ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال . ثم قال تعالى متوعداً لهم ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم ﴾ ؟ أي ما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر في يوم عظيم الهول ، كثير الفزع ، جليل الخطب ، من خسر فيه أدخل ناراً حامية ؟ وقوله تعالى ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ أي يقومون حفاة عراة غرلاً ، في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم ، ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه،روى الإمام مالك عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه » رواه البخاري ، ورواه مسلم .

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴿١٧﴾

يقول تعالى حقاً ﴿ إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ أي إن مصيرهم ومأواهم لفي سجين ، فقيل من السجن ، وهو الضيق ، يقال : فسيق ، وخمير وسكير ونحو ذلك ، ولهذا عظم أمره فقال تعالى ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ ؟ أي هو أمر عظيم ، وسجن مقيم ، وعذاب أليم ، ثم قد قال قائلون : هي تحت الأرض السابعة ، قال تعالى ﴿ وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ﴾ وقوله تعالى ﴿ كتاب مرقوم ﴾ ليس تفسيراً لقوله ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين ، أي مرقوم مكتوب مفروغ منه . لا يزاد فيه أحد ، ولا ينقص منه أحد ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ أي إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السجن والعذاب المهين . ثم قال تعالى مفسراً للمكذبين الفجار الكفرة ﴿ الذين يكذبون بيوم الدين ﴾ أي لا يصدقون بوقوعه ، ولا يعتقدون كونه ، ويستبعدون أمره . قال تعالى ﴿ وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ﴾ أي معتد في أفعاله من تعاطي الحرام ، والمجاوزة في تناول المباح ، والأثيم في أقواله إن حدث كذب ، وإن وعد أخلف ، وإن خاصم فجر . وقوله تعالى ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال

أساطير الأولين ﴾ أي إذا سمع كلام الله تعالى من الرسول يكذب به ، ويظن به ظن السوء ، فيعتقد أنه مجموع من كتب الأوائل ، كما قال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ وقال تعالى ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ، ولا كما قالوا ، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا ، والرين للكافرين ، والقيم للأبرار ، والغين للمقربين . وقد روى ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه عن النبي ﷺ قال : « إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب منها صقل قلبه ، وإن زاد زادت ، فذلك قول الله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ وقال الترمذي : حسن صحيح، وقوله تعالى ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾ أي لهم يوم القيامة منزل ، ونزل سجين ، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤ ية ربهم وخالقهم . قال الإمام أبو عبدالله الشافعي : وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذٍ ، وهذا الذي قاله الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في غاية الحسن ، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية ، كما دل عليه منطوق قوله تعالى ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤ ية المؤمنين ربهم عز وجل في الدار الآخرة بالأبصار في عرصات القيامة ، وفي روضات الجنان الفاخرة .

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول تعالى : حقاً إن كتاب الابرار ، وهم بخلاف الفجار لفي عليين أي مصيرهم إلى عليين ، وهو بخلاف سجين . عن ابن عباس ﴿لفي عليين ﴾ يعني الجنة ، ولهذا قال تعالى معظماً أمره ، ومفخماً شأنه ﴿ وما أدراك ما عليون ﴾ ثم قال تعالى مؤكداً لما كتب لهم ﴿ كتاب مرقوم . يشهده المقربون ﴾ وهم الملائكة . ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾ أي يوم القيامة ، هم في نعيم مقيم ، وجنات فيها فضل عميم ﴿ على الأرائك ﴾ وهي السرر تحت الحجال ﴿ ينظرون ﴾ قيل : معناه ينظرون في ملكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد ، وقيل : معناه ينظرون إلى الله عز وجل ، وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾ فذكر عن هؤلاء

أنهم يباحون النظر إلى الله عز وجل ، وهم على سررهم وفرشهم .

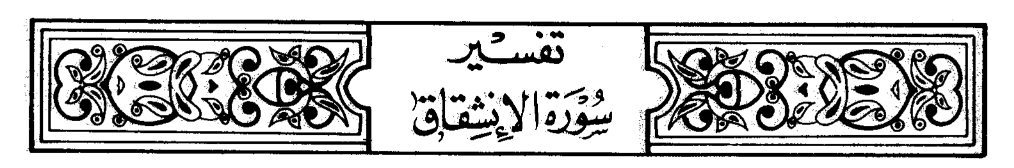
﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ أي صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة مما هم فيه من النعيم العظيم ﴿ يسقون من رحيق مختوم ﴾ أي يسقون من خمر من الجنة ، والرحيق من أسماء الخمر . روى الامام أحمد عن النبي ﷺ قال « أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة ماء على ظمأ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عرى كساه الله من خضر الجنة » ﴿ ختامه مسك ﴾ أي خلطه مسك ، وعن أبي الدرداء قال : شراب أبيض مثل الفضة يختمون به شرابهم ، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل اصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها . رواه ابن جرير . ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ أي وفي مثل هذه الحال فليتفاخر المتفاخرون ، وليتباه المتباهون ، ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون كقوله تعالى ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ أي ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم أي من شراب يقال له : تسنيم ، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه ﴿ عيناً يشرب بها المقربون ﴾ أي يشربها المقربون صرفاً ، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً .

﴿٢٩﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين ، أي يستهزئون بهم ويحتقرونهم ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم محتقرين لهم ﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ﴾ أي وإذا رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم انقلبوا اليها فاكهين ، أي مهما طلبوا وجدوا ، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم ، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين ، يحقرونهم ويحسدونهم ﴿ وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ أي لكونهم

على غير دينهم ، قال الله تعالى ﴿ وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ أي وما بعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر منهم من أعمالهم وأقوالهم ، ولا كلفوا بهم ، فلم اشتغلوا بهم ، وجعلوهم نصب أعينهم ؟ كلما قال تعالى ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون . إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ ، ولهذا قال ههنا ﴿ فاليوم ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ أي في مقابلة ما ضحك بهم أولئك ﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ أي إلى الله عز وجل ﴿ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ أي هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا ؟ يعني قد جوزوا أوفر الجزاء، وأتمه ، وأكمله .



تفسير سورة الانشقاق

روى مالك أن أبا هريرة قرأ بهم ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد بها ، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها . رواه مسلم والنسائي من طريق مالك به . وروى البخاري عن أبي رافع قال : صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد ، فقلت له ، فقال : سجدت خلف أبي القاسم ﷺ ، فقلت : فلا أسجد بها حتى ألقاه .

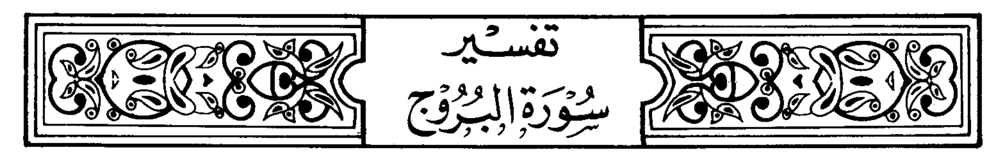
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) ﴾

﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ وأذنت لربها ﴾ أي استمعت لربها ، وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق ، وذلك يوم القيامة ﴿ وحقت ﴾ أي وحق لها أن تطيع أمره ، لأنه العظيم الذي لا يمانع ، ولا يغالب ، بل قد قهر كل شيء ، وذل له كل شيء . ثم قال ﴿ وإذا الأرض مدت ﴾ أي بسطت وفرشت ووسعت ﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ أي ألقت ما في بطنها من الأموات ، وتخلت منهم ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ ﴿ يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ أي إنك ساع إلى ربك سعياً وعامل عملاً ﴿ فملاقيه ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر ، ويشهد لذلك ما رواه الطيالسي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « قال جبريل : يا محمد ، عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه » أو فملاق ربك ، ومعناه فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك . ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ أي سهلاً بلا تعسير أي لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله ، فإن من حوسب كذلك هلك لا محالة ، روى الامام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « من نوقش الحساب عذب » قالت : فقلت : أفليس قال الله تعالى ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ قال « ليس ذاك بالحساب ، ولكن ذلك الرضى ، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب » وهكذا رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير ﴿ وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنة ﴿ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ أي بشماله من وراء ظهره ، تثنى يده إلى ورائه ، ويعطى كتابه بها كذلك ﴿ فسوف يدعو ثبوراً ﴾ أي خساراً وهلاكاً ﴿ ويصلى سعيراً . إنه كان في أهله مسروراً ﴾ أي فرحاً لا يفكر في العواقب ، ولا يخاف مما أمامه ، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ أي كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ، ولا يعيده بعد موته ، والحور هو الرجوع. قال الله تعالى ﴿بلى إن ربه كان به بصيراً﴾ يعني بلى سيعيده الله كما بدأه ، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها ، فإنه كان به بصيراً ، أي عليماً خبيراً .

(١٦)﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ (١٦) وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) ۩ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (٢٥)

﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ الشفق : حمرة الأفق ، إما قبل طلوع الشمس ، وإما بعد غروبها . وصح عن مجاهد أنه النهار كله ﴿ والليل وما وسق ﴾ أي جمع ، كأنه أقسم بالضياء والظلام ﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ أي اذا اجتمع واستوى . قال قتادة إذا استدار ، ومعنى كلامهم أنه إذا تكامل نوره وأبدر ، جعله مقابلاً لليل وما وسق ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ روى البخاري عن ابن عباس : حالاً بعد حال ، قال هذا نبيكم ﷺ . ﴿ فما لهم لا يؤمنون . وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ أي فماذا يمنعهم من الايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، وما لهم إذا قرأت عليهم آيات الله وكلامه ، وهو هذا القرآن لا يسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ أي من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق ﴿ والله أعلم بما يوعون ﴾ يكتمون في صدورهم ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ أي فأخبرهم يا محمد بأن الله عز وجل قد أعد لهم عذاباً أليماً ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ هذا استثناء منقطع ، يعني لكن الذين آمنوا أي بقلوبهم ، وعملوا الصالحات ، أي بجوارحهم ﴿ لهم أجر ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ غير ممنون ﴾ غير مقطوع ، كما قال تعالى ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ أو غير منقوص ، أو غير ممنون عليهم فيه ، وهذا القول الأخير عن بعضهم قد أنكره غير واحد ، فإن الله عز وجل له المنة على أهل الجنة في كل حال وآن ولحظة ، وإنما دخلوها بفضله ورحمته ، لا بأعمالهم ، فله المنة دائماً سرمداً ، والحمد لله وحده أبداً ، ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .



روى الامام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في النساء بالسماء ذات البروج ، والسماء والطارق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ (٣)

يقسم تعالى بالسماء وبروجها ، وهي النجوم العظام ﴿ واليوم الموعود . وشاهد ومشهود ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ واليوم الموعود ﴾ يوم

القيامة ﴿ وشاهد ﴾ يوم الجمعة وما طلعت ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياها . ولا يستعيذ من شر إلا أعاذه ﴿ ومشهود ﴾ يوم عرفة .

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ ﴿١٠﴾

﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ أي لعن أصحاب الأخدود ، وجمعه أخاديد ، وهي الحفر في الأرض ، وهذا خبر عن قوم من الكفرة عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عز وجل فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم فحفروا لهم في الأرض أخدوداً ، وأججوا فيه ناراً ، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به ، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم فقذفوهم فيها ، ولهذا قال تعالى ﴿ قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ أي مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين . ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ أي وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذ بجنابه المنيع الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به فهو العزيز الحميد ، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس . ثم قال تعالى ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ أي لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض ، ولا يخفى عليه خافية . ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي حرقوا ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ أي لم يقلعوا عما فعلوا ، ويندموا على ما أسلفوا ﴿ فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، قال الحسن البصري ؛ انظروا إلى هذا الكرم والجود ؛ قتلوا أولياءه ، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ

ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴾ ﴿١٨﴾

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق ، والجحيم ، ولهذا قال ﴿ ذلك الفوز الكبير ﴾ ثم قال تعالى ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ أي إن بطشه وانتقامه من اعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد عظيم قوي ، فإنه تعالى ذو القوة المتين ، ما شاء كان كما يشاء في مثل لمح البصر ، أو هو أقرب . ولهذا قال تعالى ﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ أي من قوته وقدرته التامة يبدي الخلق ويعيده كما بدأه بلا ممانع ولا مدافع ﴿ وهو الغفور الودود ﴾ أي يغفر ذنب من تاب إليه ، وخضع لديه ، ولو كان الذنب من أي شيء كان . والودود هو الحبيب ﴿ ذو العرش المجيد ﴾ أي صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق . ﴿ فعال لما يريد ﴾ أي مهما أراد فعله ، لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقهره ، وحكمته وعدله ، عن أبي بكر الصديق أنه قيل له : ـ وهو في مرض الموت ـ هل نظر اليك الطبيب ؟ قال : نعم ، قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال لي : إني فعال لما أريد . وقوله تعالى ﴿ هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود ﴾ أي هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس ، وأنزل عليهم من النقمة التي لم يردها عنهم أحد ، وهذا تقرير لقوله تعالى ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ أي إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً أليماً شديداً ، أخذ عزيز مقتدر .

﴿١٩﴾ ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿ بل الذين كفروا في تكذيب ﴾ أي هم في شك وريب وكفر وعناد ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ أي هو قادر عليهم قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ أي عظيم كريم ﴿ في لوح محفوظ ﴾ أي هو في الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص ، والتحريف والتبديل .

* * *



تفسير سُورَةُ الطَّارِق



روى عبدالله بن الامام أحمد عن أبي حبل العدواني عن أبيه أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف ، وهو قائم على قوس او عصا حين أتاهم يبتغي عندهم النصر فسمعته يقول « والسماء والطارق » حتى ختمها ، قال : فوعيتها في الجاهلية ، وأنا مشرك ، ثم قرأتها في الاسلام ، قال : فدعتني ثقيف ، فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم ، فقال : من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا ، لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه . وروى النسائي عن جابر قال : صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء ، فقال النبي ﷺ : « أفتان أنت يا معاذ ، ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق ، والشمس وضحاها ، ونحوها ؟ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

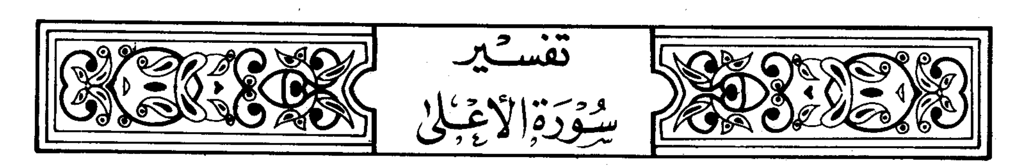
﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ ﴿١٠﴾

يقسم تبارك وتعالى بالسماء ، وما جعل فيها من الكواكب النيرة ، ولهذا قال تعالى ﴿ والسماء والطارق ﴾ ثم قال ﴿ وما أدراك ما الطارق ﴾ ثم فسره بقوله ﴿ النجم الثاقب ﴾ قال قتادة وغيره : إنما سمي النجم طارقاً ، لأنه إنما يرى بالليل ، ويختفي بالنهار ، ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح : نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً ، أي يأتيهم فجأة بالليل ، وفي الحديث الآخر المشتمل على الدعاء « إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمٰن » وقوله تعالى ﴿ الثاقب ﴾ المضيء ، أو يثقب الشياطين إذا أرسل عليها ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ أي كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ فلينظر الانسان ممَّ خلق ﴾ تنبيه للانسان على ضعف أصله الذي خلق منه ، وإرشاد له الى الاعتراف بالمعاد ، لأن من قدر على البداءة فهو قادر على الاعادة بطريق الأولى كما قال تعالى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقوله تعالى ﴿ خلق من ماء دافق ﴾ يعني الذي يخرج وفقاً من الرجل ومن المرأة

فيتولد منهما الولد بإذن الله عزّ وجلّ ، ولهذا قال ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ يعني صلب الرجل ، وترائب المرأة ، وهو صدرها ﴿إنه على رجعه لقادر ﴾ فيه قولان أحدهما على رجع هذا الماء الدافق الى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك ، والثاني أنه على رجع هذا الانسان المخلوق من ماء دافق ، أي اعادته وبعثه الى الدار الآخرة لقادر . لأن من قدر على البداءة قدر على الاعادة . ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ أي يوم القيامة تبلى فيه السرائر ، أي تظهر وتبدو ، ويبقى السر علانية ، والمكنون مشهور، وقد ثبت في الصحيحين عن ابن عمران رسول الله ﷺ قال : «يرفع لكل غادر لواء عند أسته ، يقال : هذه غدرة فلان ابن فلان ﴿ فماله ﴾ أي الانسان يوم القيامة ﴿ من قوة ﴾ أي في نفسه ﴿ ولا ناصر ﴾ أي من خارج منه ، أي لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله ، ولا يستطيع له أحد ذلك .

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ ﴿١٧﴾

﴿ ذات الرجع ﴾ هو المطر ، أو هو السحاب فيه المطر ، أو ترجع رزق العباد كل عام ، ولولا ذلك لهلكوا ، وهلكت مواشيهم ، أو ترجع نجومها وشمسها وقمرها يأتين من ههنا ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ هو انصداعها عن النبات ﴿ إنه لقول فصل ﴾ حق ، أو حكم عدل ﴿ وما هو بالهزل ﴾ أي بل هو جد حق . ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله فقال ﴿ إنهم يكيدون كيداً ﴾ أي يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن ، ﴿ وأكيد كيداً ﴾ ثم قال تعالى ﴿ فمهل الكافرين ﴾ أي أنظرهم ولا تستعجل لهم ﴿ أمهلهم رويداً ﴾ أي قليلاً ، أي وسترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك ، كما قال تعالى ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ .



تفسير سُورَةِ الأعلى

والدليل على ذلك ما رواه البخاري عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم فجعلا يقرءاننا القرآن ، ثم جاء عمار بن ياسر ، وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ، ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا

رسول الله ﷺ قد جاء ، فما جاء حتى قرأت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ في سور مثلها .
وروى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ تفرد به أحمد . وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قرأ في العيدين بسبح اسم ربك الأعلى ، وهل أتاك حديث الغاشية ، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً ، وقد رواه مسلم في صحيحه وأبو داود والترمذي والنسائي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ ﴾

روى الإمام أحمد لما نزلت ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قال لنا رسول الله ﷺ « اجعلوها في ركوعكم » فلما نزلت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال : « اجعلوها في سجودكم » ورواه أبو داود وابن ماجه ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ أي خلق الخليقة وسوّى كل مخلوق في أحسن هيئة ﴿ والذي قدر فهدى ﴾ هدى الإنسان للشقاوة والسعادة ، وهدى الأنعام لمراتعها ، كقوله تعالى ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » ﴿ والذي أخرج المرعى ﴾ أي من جميع صنوف النباتات والزروع ﴿ فجعله غثاء أحوى ﴾ هشيماً متغيراً ، قال ابن جرير : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم ، وأن معنى الكلام ، والذي أخرج المرعى ، أحوى ، أخضر إلى السواد فجعله غثاء بعد ذلك ، ثم قال ابن جرير : وهذا وإن كان محتملاً إلا أنه غير صواب لمخالفته أقوال أهل التأويل وقوله تعالى ﴿ سنقرئك ﴾ أي يا محمد ﴿ فلا تنسى ﴾ وهذا إخبار من الله تعالى ووعد منه له بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ أي إلا ما يشاء الله رفعه فلا عليك أن تتركه ﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ أي يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم

وأفعالهم ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ أي نسهل عليك أفعال الخير ، وأقواله ، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً مستقيماً عدلاً ، لا اعوجاج فيه ، ولا حرج ولا عسر .

﴿٩﴾ ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ ﴿١٣﴾

﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ﴾ أي ذكر حيث تنفع التذكرة ، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم ، فلا يضعه عند غير أهله ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ أي سيتعظ بما تبلغه يا محمد من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه ﴿ ويتجنبها الأشقىٰ . الذي يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ أي لا يموت فيستريح ، ولا يحيى حياة تنفعه ، بل هي مضرة عليه ، لأنه بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب ، وأنواع النكال .

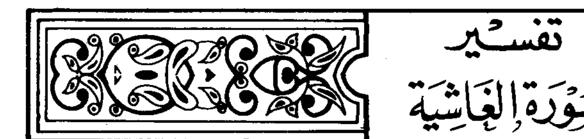
﴿١٤﴾ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ ﴿١٩﴾

﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ أي طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة ، وتابع ما أنزل الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ أي أقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضوان الله ، وطاعة لأمر الله ، وامتثالاً لشرع الله ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ أي تقدمونها على أمر الآخرة ، وتبدونها على ما فيه نفعكم ، وصلاحكم في معاشكم ومعادكم ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا ، وأبقى ، فإن الدنيا دانية فانية ، والآخرة شريفة باقية ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ، ويهتم بما يزول عنه قريباً ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد ؟ روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى ﴾ روى أبو بكر البزار عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﴾ قال النبي ﷺ « كان كل هذا ، أو كان هذا في صحف إبراهيم وموسى » .

* * *



تفسير سُورَةِ الغَاشِيَة



عن النعمان بن بشير : كان النبي ﷺ يقرأ بسبح اسم ربك الأعلى والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ﴿٢﴾

﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ الغاشية من أسماء يوم القيامة . روى ابن أبي حاتم عن عمرو بن ميمون قال : مر النبي ﷺ على امرأة تقرأ ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ فقام يستمع ويقول : « نعم قد جاءني » وقوله تعالى ﴿ وجوه يومئذٍ خاشعة ﴾ أي ذليلة ، تخشع ولا ينفعها عملها .

﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ ﴿٧﴾

﴿ عاملة ناصبة ﴾ أي قد عملت عملاً كثيراً ، ونصبت فيه ، وصليت يوم القيامة ناراً حامية ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أي قد انتهى حرها وغليانها ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ هو شجر من نار ، أو هو الزقوم ، أو هو الحجارة ، أو هو الشبرق ، وتسميه قريش في الربيع الشبرق ، وفي الصيف الضريع ، وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض ، وهو سم ﴿ لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ يعني لا يحصل به مقصود ، ولا يندفع به محذور .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ ﴿١٦﴾

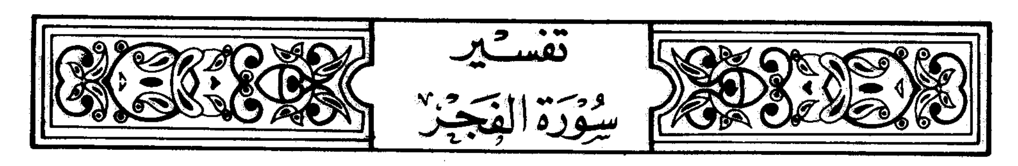
لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بحال السعداء فقال ﴿ وجوه يومئذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ناعمة ﴾ أي يعرف النعيم فيها ، وإنما حصل لها ذلك بسعيها ، وقال سفيان :

﴿ لسعيها راضية ﴾ قد رضيت عملها ﴿ في جنة عالية ﴾ أي رفيعة بهية في الغرفات آمنون ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ أي لا تسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو ، كما قال تعالى ﴿ لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ﴾ وقال تعالى ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ وقال تعالى ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ ﴿ فيها عين جارية ﴾ أي سارحة ، وهذه نكرة في سياق الاثبات ، وليس المراد بها عيناً واحدة ، وإنما هذا جنس ، يعني فيها عيون جاريات ﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ أي عالية ناعمة ، كثيرة الفرش ، مرتفعة السمك ، عليها الحور العين ، قالوا : فإذا أراد ولي الله أن يجلس على تلك السرر تواضعت له ﴿ وأكواب موضوعة ﴾ يعني أواني الشرب معدة مرصدة لمن أرادها من أربابها . ﴿ ونمارق مصفوفة ﴾ النمارق : الوسائد ﴿ وزرابي مبثوثة ﴾ الزرابي : البسط . مبثوثة : أي ههنا ، وههنا لمن أراد الجلوس عليها . روى أبو بكر بن أبي داود عن أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل من مشمر إلى الجنة ، فإن الجنة لا خطر لها ، هي ورب العكبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سليمة ، وفاكهة خضرة ، وحبرة ونعمة ، في محلة عالية بهية ؟ » قالوا : نعم ، يا رسول الله ، نحن المشمرون لها ، قال : قولوا : « إن شاء الله » قال القوم : إن شاء الله . ورواه ابن ماجه .

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ ؟ فإنها خلق عجيب ، وتركيبها غريب ، فإنها في غاية القوة ، والشدة ، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل ، وتنقاد للقائد الضعيف ، وتؤكل ، وينتفع بوبرها ، ويشرب لبنها . ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل ، وكان شريح القاضي يقول : اخرجوا بنا حتى ننظر ﴿ إلى الإبل كيف خلقت ﴾ ﴿ وإلى السماء كيف رفعت ﴾ ، أي كيف رفعها الله عز وجل عن الأرض هذا الرفع العظيم كما قال تعالى ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ ﴿ وإلى الجبال

كيف نصبت ﴾ أي جعلت منصوبة ، فإنها ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها ، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن . ﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ أي كيف بسطت ومدت ومهدت ﴿ فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر ﴾ أي فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وقوله ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ كقوله ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ أي لست تخلق الإيمان في قلوبهم ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ أي تولى عن العمل بأركانه ، وكفر بالحق بجنانه ولسانه ﴿ فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ روى الإمام أحمد أن أبا أمامة الباهلي مر على خالد بن يزيد بن معاوية ، فسأله عن كلمة سمعها من رسول الله ﷺ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله » تفرد بإخراجه الإمام أحمد . ﴿ إن علينا إيابهم ﴾ أي مرجعهم ومنقلبهم ﴿ ثم إن علينا حسابهم ﴾ أي نحن نحاسبهم على أعمالهم ، ونجازيهم بها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .



تفسير سُورَةُ الفَجْرِ

روى النسائي عن جابر قال : صلى معاذ صلاة ، فجاء رجل فصلى معه فطول ، فصلى في ناحية المسجد ، ثم انصرف فبلغ ذلك معاذاً ، فقال : منافق ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى ، فقال : يا رسول الله ، جئت أصلي معه فطول علي ، فانصرفت وصليت في ناحية المسجد فعلفت ناقتي ، فقال رسول الله ﷺ : « أفتان يا معاذ ؟ أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والفجر ، والليل إذا يغشى » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

أما الفجر فمعروف ، وهو الصبح ، قيل : هو فجر يوم النحر خاصته ، وهو خاتمة الليالي العشر ، وقيل : المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده ، وقيل : المراد به جميع النهار . والليالي العشر : هي عشر ذي الحجة ، وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعاً « ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام » يعني عشر ذي الحجة ، قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ، ثم لم يرجع من ذلك بشيء » روى الإمام أحمد عن جابر عن النبي ﷺ قال : « إن العشر عشر الأضحى ، والوتر يوم عرفة ، والشفع يوم النحر » ورواه النسائي ﴿ والليل إذا يسر ﴾ إذا ذهب . ﴿ هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾ أي الذي عقل ولب وحجا ، وإنما سمى العقل حجراً لأنه يمنع الانسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال ، ومنه حجر البيت ، لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجدار الشامي ، ومنه حجر اليمامة ، وحجر الحاكم على فلان إذا منعه من التصرف ﴿ ويقولون حجراً محجوراً ﴾ كل هذا من قبيل واحد ، ومعنى متقارب ، وهذا القسم هو بأوقات العبادة ، وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه عباده المتقون ، المطيعون له ، الخائفون منه ، المتواضعون لديه الخاشعون لوجهه الكريم .
ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ ؟ وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين خارجين عن طاعته مكذبين لرسله ، جاحدين لكتبه ، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم ، وجعلهم أحاديث وعبراً فقال ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ وهؤلاء عاد الأولى ، وقوله ﴿ إرم ﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم وقوله ﴿ ذات العماد ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد . وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة ، وأقواهم بطشاً ، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة ، وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم ﴿ فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ وقال ههنا ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم ﴿ وفرعون ذي الأوتاد ﴾ يقال : كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها ﴿ الذين طغوا في البلاد . فأكثروا فيها الفساد ﴾ أي تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالافساد والأذية للناس ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ أي أنزل عليهم رجزاً من السماء ، وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ يسمع ويرى ، يعني يرصد خلقه فيما يعملون ، ويجازي كلا بسعيه في الدنيا والأخرى . وسيعرض الخلائق كلهم عليه فيحكم فيهم بعدله ، ويقابل كلا بما يستحقه ، وهو المنزه عن الظلم والجور .

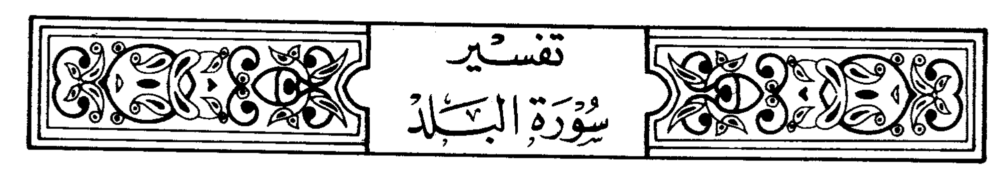
﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى منكراً على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك ، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له ، وليس كذلك ، بل هو ابتلاء وامتحان ، كما قال تعالى ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق يعتقد أن ذلك من الله إهانة له ، قال الله تعالى ﴿ كلا ﴾ أي ليس الأمر كما زعم ، لا في هذا ، ولا في هذا ، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب ؟ ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، وإنما المراد في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك ، وإذا كان فقيراً بأن يصبر . وقوله تعالى ﴿ بل لا تكرمون اليتيم ﴾ فيه أمر بالإكرام له كما جاء في الحديث « خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه ، ثم قال بأصبعه ، أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » ﴿ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ يعني لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء ، والمساكين ، ويحث بعضهم على بعض في ذلك ﴿ وتأكلون التراث ﴾ يعني الميراث ﴿ أكلاً لماً ﴾ أي من أي جهة حصل لهم من حلال أو حرام ﴿ وتحبون المال حباً جماً ﴾ أي كثيراً ، زاد بعضهم فاحشاً .

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة فقال تعالى ﴿ كلا ﴾ أي حقاً ﴿ إذا دكت الأرض دكاً دكاً ﴾ أي وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال وقام الخلائق من قبورهم لربهم ﴿ وجاء ربك ﴾ يعني لفصل القضاء بين خلقه ، وذلك بعدما يستشفون إليه بسيد ولد آدم على الاطلاق محمد صلوات الله وسلامه عليه بعدما يسألون أولي العزم من

الرسل واحداً بعد واحد ، فكلهم يقول : لست بصاحبكم حتى تنتهي النوبة إلى محمد ﷺ فيقول : « أنا لها ، أنا لها » فيذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء ، فيشفعه الله تعالى في ذلك ، وهي أول الشفاعات ، وهي المقام المحمود ﴿ وجيء يومئذٍ بجهنم ﴾ روى مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » وهكذا رواه الترمذي ﴿ يومئذٍ يتذكر الإنسان ﴾ أي عمله ، وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه ﴿ وأنى له الذكرى ﴾ أي وكيف تنفعه الذكرى ﴿ يقول يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ يعني يندم على ما كان سلف منه من المعاصي إن كان عاصياً ، ويود لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعاً . ﴿ فيومئذٍ لا يعذب عذابه أحد ﴾ أي ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه ﴿ ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ أي وليس أحد أشد قبضاً ووثقاً من الزبانية لمن كفر بربهم عز وجل ، وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين ، فأما النفس الزكية ، وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق ، فيقال لها : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك ﴾ أي إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته ﴿ راضية ﴾ أي في نفسها ﴿ مرضية ﴾ أي قد رضيت عن الله ، ورضي عنها ، وأرضاها ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ أي في جملتهم ﴿ وادخلي جنتي ﴾ وهذا يقال لها عند الاحتضار وفي يوم القيامة أيضاً ، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره ، وعند قيامه من قبره ، فكذلك ههنا . روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة رواحة بنت أبي عمرو الأوزاعي عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال لرجل « قل : اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنة ، تؤمن بلقائك ، وترضى بقضائك ، وتقنع بعطائك » .



تفسير سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ ﴿١٠﴾

هذا قسم من الله تبارك وتعالى بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حلالاً ، لينبه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها . عن مجاهد ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ ﴿ لا ﴾ رد عليهم ﴿ أقسم بهذا البلد ﴾ يعني مكة ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ قال : أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل به ، أو ما أصبت فيه فهو حلال لك ، أو أنت به من غير حرج ولا إثم ، أو أحلها الله له ساعة من نهار ، وهذا المعنى قد ورد به الحديث المتفق على صحته « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شجره ، ولا يختلى خلاه ، وإنما أحلت لي ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب » وفي لفظ آخر « فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم » وقوله تعالى ﴿ ووالد وما ولد ﴾ الوالد الذي يلد ، وما ولد : العاقر الذي لا يولد له ، وقيل : الوالد العاقر ، وما ولد : الذي يلد ، وقيل : الوالد : آدم ، وما ولد : ولده ، وهذا حسن قوي ، لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى ، وهي المساكن ، أقسم بعد بالساكن ، وهو آدم أبو البشر ، وولده ﴿ لقد خلقنا الانسان في كبد ﴾ يعني منتصباً ، والكبد الاستواء والاستقامة ، ومعنى هذا أنا خلقناه سوياً مستقيماً ، كقوله تعالى ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ ، أو في شدة خلق ، أو ﴿ في كبد ﴾ نطفة ثم علقة ، ثم مضغة ، يتكبد في الخلق ، أو في مشقة ، أو يكابد أمراً من أمر الدنيا ، وأمراً من أمر الآخرة ، أو يكابد مضايق الدنيا ، وشدائد الآخرة ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ أيظن ابن آدم أن لن يسأل عن هذا المال من أين اكتسبه ، وأين أنفقه ؟ ﴿ يقول أهلكت مالاً لبداً ﴾ أي يقول ابن آدم : أنفقت مالاً كثيراً ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ أي أيحسب أن لم يره الله عز وجل ﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ أي يبصر بهما ﴿ ولساناً ﴾ أي ينطق به فيعبر عما في ضميره ﴿ وشفتين ﴾ يستعين بهما على الكلام ، وأكل الطعام ، وجمالاً لوجهه وفمه ﴿ وهديناه النجدين ﴾ الطريقين : الخير والشر ، ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ .

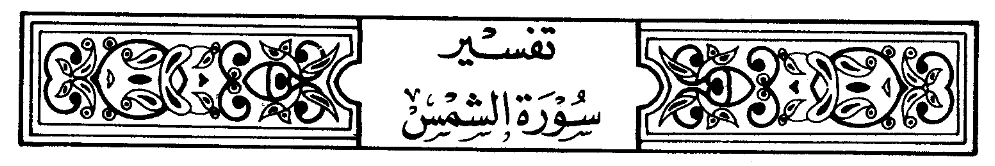
(١١) ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ (١٧)

﴿ فلا اقتحم ﴾ أي دخل ﴿ العقبة ﴾ جبل في جهنم ، قال قتادة : إنها عقبة قحمة شديدة

فاقتحموها بطاعة الله تعالى أو ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ أي أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير ، ثم بينها فقال تعالى ﴿ وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴾ ذي مجاعة ، والسغب الجوع ﴿ يتيماً ذا مقربة ﴾ أي ذا قرابة ، روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ يقول : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم اثنتان : صدقة ، وصلة رحم » وقد رواه الترمذي والنسائي ، وهذا إسناد صحيح ﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ أي نقيراً مدقعاً لاصقاً بالتراب ، وهو الوقعاء ، أو هو المطروح في الطريق الذي لا يبيت له ، ولا شيء يقيه من التراب ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ أي ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة مؤمن بقلبه ، محتسب ثواب ذلك عند الله عز وجل ﴿ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾ أي كان من المؤمنين العاملين صالحاً ، المتواصين بالصبر على أذى الناس ، وعلى الرحمة بهم ، كما جاء في الحديث « الراحمون يرحمهم الرحمٰن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » وفي الحديث الآخر « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿ أولئك أصحاب الميمنة ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين ﴿ والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة ﴾ أي أصحاب الشمال ﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ أي مطبقة عليهم ، فلا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها .



تفسير سُورَةِ الشَّمْسِ

في الصحيحين عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

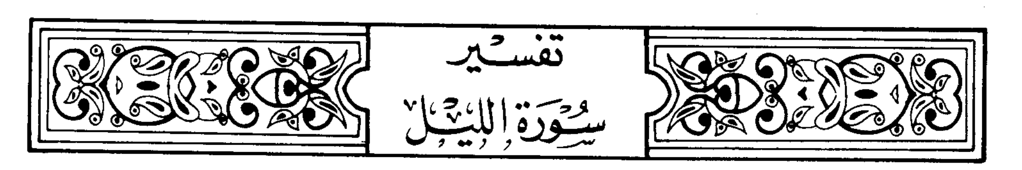
وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ ﴿١٠﴾

﴿ والشمس وضحاها ﴾ هو ضوؤها ، أو النهار كله ، والصواب أن يقال : أقسم الله بالشمس ونهارها ، لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ تبعها ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ إذا غشيها النهار ﴿ والسماء وما بناها ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ ههنا مصدرية بمعنى والسماء وبنائها ، ويحتمل أن تكون بمعنى ﴿ من ﴾ يعني والسماء وبانيها ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ أي خلق فيها ، أو بسطها ، وهو الأشهر ﴿ ونفس وما سواها ﴾ أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ أي فأرشدها إلى فجورها وتقواها ، بين لها ذلك ، وهداها إلى ما قدر لها . ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى نفسه ، أي بطاعة الله ، وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ أي أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي ، وترك طاعة الله عز وجل ، ويحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه ، وقد خاب من دس الله نفسه ، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول في الله عز وجل ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ قال النبي ﷺ « أفلحت نفس زكاها الله عز وجل » وروى الطبراني عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية ﴿ ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها ﴾ وقف ثم قال : « اللهم آت نفسي تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وخير من زكاها » .

﴿١١﴾ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴾ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان ، والبغي قال محمد بن كعب ﴿ بطغواها ﴾ أي بأجمعها ، والأول أولى ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ أي أشقى القبيلة ، وهو قدار بن سالف عاقر الناقة ، قال الله تعالى ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم ، شريفاً في قومه نسيباً رئيساً مطاعاً . . ﴿ فقال لهم رسول الله ﴾ يعني صالحاً عليه السلام ﴿ ناقة الله ﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ﴿ وسقياها ﴾ أي لا تعتدوا عليها في سقياها ، فإن لها شرب يوم ، ولكم شرب يوم معلوم . قال الله تعالى ﴿ فكذبوه فعقروها ﴾ أي كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم ، وحجة عليهم ﴿ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ﴾ أي غضب عليهم ، فدمر عليهم ﴿ فسواها ﴾ أي فجعل العقوبة نازلة عليهم

على السواء . قال قتادة : بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم ، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنبهم فسواها ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ أي لا يخاف الله من أحد تبعة ، أو لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع ، والأول أولى لدلالة السياق عليه .



تفسير سورة الليل

تقدم قوله ﷺ لمعاذ « فهلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ (١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣) إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ (١٠) وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ (١١) ﴾

أقسم الله تعالى ﴿ بالليل إذا يغشى ﴾ أي إذا غشى الخليقة بظلامه ﴿ والنهار إذا تجلى ﴾ أي بضيائه وإشراقه ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ كقوله تعالى ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ وقوله ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان المقسم عليه أيضاً متضاداً . ولهذا قال تعالى ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ أي أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة ، ومتخالفة ، فمن فاعل خيراً ، ومن فاعل شراً ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ أي أعطى ما أمر بإخراجه ، واتقى الله في أموره ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أي بالمجازاة على ذلك ، أو بلا إله إلا الله ، أو بما أنعم الله عليه ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ يعني للخير ﴿ وأما من بخل ﴾ أي بما عنده ﴿ واستغنى ﴾ أي بخل بماله ، واستغنى عن ربه عز وجل ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ أي بالجزاء في الدار الآخرة ﴿ فسنيسره للعسرى . وما يغني عنه ماله إذا تردى ﴾ أي إذا مات ، أو إذا تردى في النار .

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ ﴿٢١﴾

﴿ إن علينا للهدى ﴾ أي نبين الحلال والحرام ، أو من سلك طريق الهدى وصل إلى الله ، وهو كقوله تعالى ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ أي االجميع ملكنا ، وأنا المتصرف فيها ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى ﴾ أي توهج . روى البخاري عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه » ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى ﴾ أي لا يدخلها دخولاً يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى ، ثم فسره فقال ﴿ الذي كذب ﴾ أي بقلبه ﴿ وتولى ﴾ أي عن العمل بجوارحه وأركانه . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل النار إلا شقي » وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى » قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : « من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى » ورواه البخاري ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ أي وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى ، ثم فسره بقوله ﴿ الذي يؤتي ماله يتزكى ﴾ أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله ، وما وهبه الله من دين ودنيا ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفاً ، فهو يعطي في مقابلة ذلك ، وإنما دفعه ذلك ﴿ ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ أي طمعاً في أن يحصل رؤ يته في الدار الآخرة في روضات الجنات ، قال الله تعالى ﴿ ولسوف يرضى ﴾ أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات . وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حتى إن بعضهم حكى الاجماع من المفسرين على ذلك ، ولا شك أنه داخل فيها ، وأولى الأمة بعمومها ، فإن لفظها لفظ العموم . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة : يا عبدالله هذا خير » فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ما على من يدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم » .



تفسير
سورة الضحى



بسم الله الرحمن الرحيم

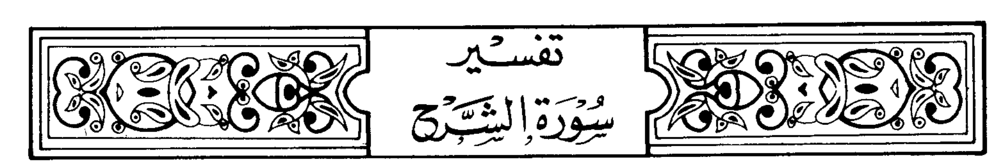
﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ﴿٣﴾

روى الإمام أحمد عن جندب يقول : اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتت امرأة فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فأنزل عز وجل ﴿ والضحى والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى ﴾ رواه.البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير . وهذا قسم منه تعالى بالضحى ، وما جعل فيه من الضياء ﴿ والليل إذا سجى ﴾ أي سكن فأظلم وادلهم ﴿ ما ودعك ربك ﴾ أي ما تركك ، ﴿ وما قلى ﴾ أي وما أبغضك .

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ﴿١١﴾

﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ أي وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار ، ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا ، وأعظمهم لها اطراحاً ، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته ، ولما خير عليه الصلاة والسلام في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ، ثم الجنة ، وبين الصيرورة إلى الله عز وجل اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية ، روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه ، فلما استيقظ جعلت أمسح جبينه ، وقلت : يا رسول الله ، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً ، فقال رسول الله ﷺ : « ما لي وللدنيا ، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها » ورواه الترمذي وابن ماجه ، وقال الترمذي : حسن صحيح . وقوله تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ أي في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته ، وفيما أعده له من الكرامة ، ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، وطينه مسك أذفر » ثم قال تعالى يعدد نعمه على عبده ورسوله محمد

صلوات الله وسلامه عليه ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ وذلك أن أباه توفي ، وهو حمل في بطن أمه ، ثم توفيت آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين ، ثم كان في كفالة جده اعبدالمطلب إلى أن توفي ، وله من العمر ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب ، ثم لم يزل يحوطه وينصره ، ويرفع من قدره ويوقره ، ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره ، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان ، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل ، فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج ، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم الأكمل ، فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين ، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به . وقوله تعالى ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ كقوله ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ وقوله تعالى ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ أي كنت فقيراً ذا عيال فأغناك الله عمن سواه فجمع الله له بين مقام الفقير الصابر والغني الشاكر ، صلوات الله وسلامه عليه . وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه » ثم قال تعالى ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ أي كما كنت يتيماً فآواك فلا تقهر اليتيم ، أي لا تذله وتنهره وتهنه ، ولكن أحسن إليه ، وتلطف به ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ أي وكما كنت ضالاً فهداك الله فلا تنهر السائل في العلم المسترشد ، ولا تكن جباراً ولا متكبراً ولا فحاشاً ، ولا فظاً على الضعفاء من عباد الله ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ أي وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله فحدث بنعمة الله عليك .



تفسير سُورَةُ الشَّرْحِ

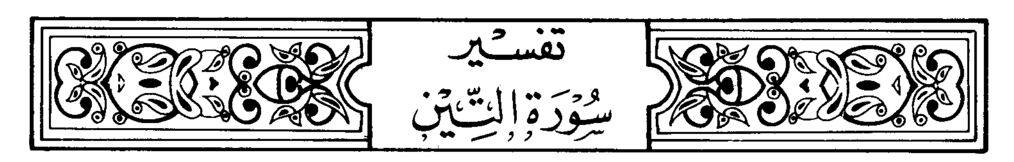
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ﴿٦﴾

﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ أي نورناه ، وجعلناه فسيحاً رحباً واسعاً ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ بمعنى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴿ الذي أنقض ظهرك ﴾ أي أثقلك حمله ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ لا أذكر إلا ذكرتَ معي ، أشهد أن لا إلَه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﴿ فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً ﴾ أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر ، ثم أكد هذا الخبر . روى ابن أبي حاتم عن أنس قال : كان النبي ﷺ جالساً ، وحياله حجر فقال : « لو جاء العسر فدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه » فأنزل الله ﴿ فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً ﴾ ورواه أبو بكر البزار . وفي الحديث « لن يغلب عسر يسرين » .

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾

﴿ فإنها فرغت فانصب ﴾ أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها ، وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة ، وقم إليها نشيطاً فارغ البال ، وأخلص إلى ربك النية والرغبة ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ أي بعد فراغك من الصلاة ، وأنت جالس . عن ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل . قال زيد بن أسلم والضحاك : ﴿ فإذا فرغت ﴾ أي من الجهاد ﴿ فانصب ﴾ أي في العبادة ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ أي اجعل نيتك ورغبتك إلى الله عز وجل .



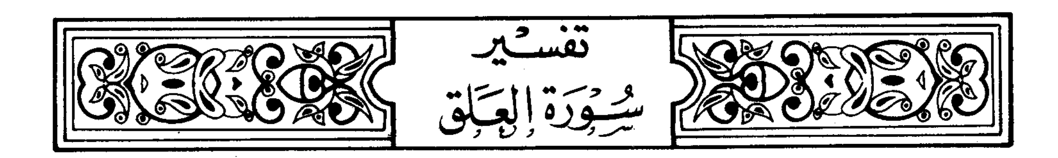
تفسير سُورَةِ التِّين

عن البراء بن عازب كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه . أخرجه الجماعة في كتبهم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

﴿ والتين ﴾ قال مجاهد : هو تينكم هذا ﴿ والزيتون ﴾ قال مجاهد وعكرمة : هذا الزيتون الذي تعصرون . ﴿ وطور سينين ﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ يعني مكة ﴿ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ﴾ هذا هو المقسم عليه ، وهو أنه تعالى خلق الانسان في أحسن صورة وشكل ، منتصب القامة ، سوي الأعضاء حسنها ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ أي إلى النار ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع ﴿ فما يكذبك ﴾ أي يا ابن آدم ﴿ بعد بالدين ﴾ أي بالجزاء في المعاد ، ولقد علمت البداءة وعلمت أن من قدر على البداءة فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى ، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد ، وقد عرفت هذا ؟ ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ أي أما هو أحكم الحاكمين الذي لا يجور ولا يظلم أحداً ، ومن عدله أن يقيم القيامة ، فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه ، وفي الحديث عن أبي هريرة مرفوعاً « فإذا قرأ أحدكم ﴿ والتين والزيتون ﴾ فأتى على آخرها ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين » .



تفسير سورة العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٥)

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزود لمثلها حتى فجأه الوحي ، وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : إقرأ ، قال رسول الله ﷺ « فقلت : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : إقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فغطني الثانية حتى بلغ مني

الجهد ثم أرسلني فقال : إقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق ـ حتى بلغ ـ ما لم يعلم ﴾ » قال : فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة . . . » .

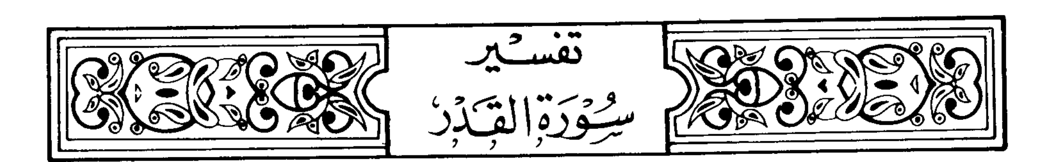
﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ ﴿١٦﴾

يخبر تعالى عن الانسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله ، ثم تهدده ، وتوعده ، ووعظه فقال ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ أي إلى الله المصير ، والمرجع ، وسيحاسبك على ما لك من أين جمعته ، وفيم صرفته . وفي الحديث « منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا » ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ نزلت في أبي جهل لعنه الله ، توعد النبي ﷺ على الصلاة عند البيت فوعظه تعالى بالتي هي أحسن أولاً فقال ﴿ أرأيت إن كان على الهدى ﴾ أي فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله ﴿ أو أمر بالتقوى ﴾ بقوله وأنت تزجره وتتوعده على صلاته ، ولهذا قال ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ أي أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ، ويسمع كلامه ، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء ﴿ كلا لئن لم ينته ﴾ أي لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿ لنسفعاً بالناصية ﴾ لنسمنها سواداً يوم القيامة ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ يعني ناصية أبي جهل ﴿ كاذبة ﴾ في مقالها ، ﴿ خاطئة ﴾ في أفعالها .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ ﴿١٩﴾

﴿ فليدع ناديه ﴾ أي قومه وعشيرته ، أي ليدعهم يستنصر بهم ﴿ سندع الزبانية ﴾ وهم ملائكة العذاب حتى يعلم من يغلب ، أحزبنا أم حزبه ؟ روى البخاري عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه ، فبلغ النبي ﷺ فقال : « لئن فعل لأخذته الملائكة » وكذا رواه الترمذي والنسائي . ﴿ كلا لا تطعه ﴾ يعني محمداً ﷺ أي لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها وصلي حيث شئت ، ولا تباله ، فإن الله حافظك وناصرك ، وهو يعصمك من الناس ﴿ واسجد

واقترب ﴾ في الصحيحين عن رسول الله ﷺ « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ ۝٥

يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر ، وهي الليلة المباركة ، قال الله عز وجل ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ وهي ليلة القدر ، وهي من شهر رمضان ، كما قال تعالى ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ . ثم قال تعالى معظماً لشأن ليلة القدر التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها فقال : ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ وقوله ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾ أي يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة ، لكثرة بركتها ، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ، ويحيطون بحلق الذكر ، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيماً له ، وأما الروح فقيل : المراد به جبريل عليه السلام فيكون من عطف الخاص على العام ، وقيل : هم ضرب من الملائكة ﴿ من كل أمر ﴾ قال مجاهد : سلام هي من كل أمر ، أي هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ، أو يعمل فيها أذى ﴿ سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾ عن الشعبي قال فيها : تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد حتى يطلع الفجر .



تفسير سُورَةُ البَيِّنَةِ



روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ قال : وسماني لك ؟ قال : « نعم » فبكى . ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾

أما أهل الكتاب فيهم اليهود والنصارى ، والمشركون عبدة الأوثان والنيران من العرب ومن العجم . قال مجاهد : لم يكونوا ﴿ منفكين ﴾ يعني منتهين حتى يتبين لهم الحق ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ أي هذا القرآن .

(٢) ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾

ثم فسر البينة بقوله ﴿ رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ﴾ يعني محمداً ﷺ ، وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتتب في الملأ الأعلى في صحف مطهرة ، كقوله ﴿ في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سفرة . كرام بررة ﴾.

(٣) ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾

﴿ فيها كتب قيمة ﴾ أي في الصحف المطهرة كتب قيمة عادلة مستقيمة ليس فيها خطأ لأنها من عند الله عز وجل .

(٤) ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾

﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ كقوله ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا بعدما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم ، واختلفوا اختلافاً كثيراً كما جاء في الحديث المروي من طرق « إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى اختلفوا على ثنتين وسبعين فرقة ، وستتفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة » قالوا : من

هم يا رسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي » .

(٥) ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾

﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ كقوله تعالى ﴿ وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون ﴾ ولهذا قال ﴿ حنفاء ﴾ أي متحنفين من الشرك إلى التوحيد ﴿ ويقيموا الصلاة ﴾ وهي أشرف عبادات البدن ﴿ ويؤتوا الزكاة ﴾ وهي الاحسان إلى الفقراء والمحاويج ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ أي الملة القائمة العادلة ، أو الأمة المستقيمة المعتدلة .

(٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾

يخبر تعالى عن مآل الفجار من كفرة أهل الكتاب والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة ، وأنبياء الله المرسلة أنهم يوم القيامة في نار جهنم خالدين فيها ، أي ماكثين لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ أولئك هم شر البرية ﴾ أي شر الخليقة .

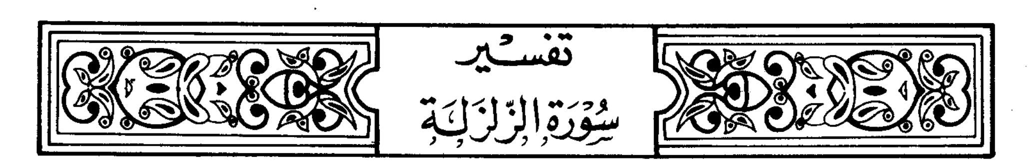
(٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾

ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملو الصالحات بأبدانهم بأنهم خير البرية ، وقد استدل بهذه الآية على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة ، لقوله تعالى ﴿ أولئك هم خير البرية ﴾ .

(٨) ﴿ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾

﴿ جزاؤ هم عند ربهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴾ أي بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم . ﴿ ورضوا عنه ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم . ﴿ ذلك لمن خشي ربه ﴾ أي هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله ، واتقاه حق تقواه ، وعبده كأنه يراه ، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة

رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بخير البرية ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما كانت هيعة استوى عليه ، ألا أخبركم بخير البرية ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « رجل في ثلة من غنمه يقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة ، ألا أخبركم بشر البرية ؟ » قالوا : بلى ، قال : « الذي يسأل بالله ولا يعطي به » .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

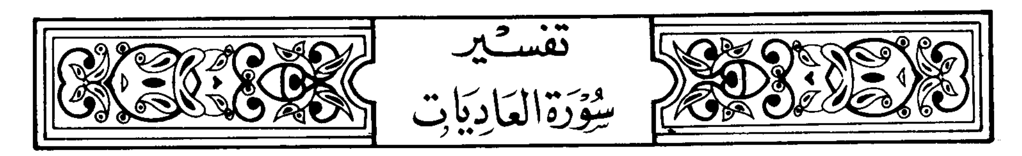
﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ ۝٦

﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ أي تحركت من أسفلها ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ يعني ألقت ما فيها من الموتى . روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل فيقول : في هذا قتلت ، ويجيء القاطع فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق فيقول : في هذا قطعت يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً » . ﴿ وقال الانسان ما لها ﴾ أي استنكر أمرها بعدما كانت قارة ساكنة ثابتة ، وهو مستقر على ظهرها ، أي تقلبت الحال فصارت متحركة مضطربة ، قد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعده لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه ، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين ، وحينئذٍ استنكر الناس أمرها ، وتبدلت الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار . وقوله تعالى ﴿ يومئذٍ تحدث أخبارها ﴾ أي تحدث بما عمل العاملون على ظهرها . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ يومئذٍ تحدث أخبارها ﴾ قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها أن تقول عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا . فهذه

أخبارها » ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب . وفي الحديث « تحفظوا من الأرض ، فإنها أمكم ، وإنه ليس من أحد عامل فيها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة » .
﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ أي أذن لها ﴿ يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ﴾ أي يرجعون عن موقف الحساب أنواعاً وأصنافاً ما بين شقي وسعيد ، مأمور به إلى الجنة ، ومأمور به إلى النار ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ أي ليعملوا ويجازوا بما عملوه في الدنيا من خير وشر .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ۝٨

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر ، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال طيلها في مرج أو روضة ، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج والروضة كانت له حسنات ، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها ، وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن تسقى به كان ذلك حسنات له، وهي لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر . ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء فهي على ذلك وزر ، فسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال : « ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ . ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة ﴾ يعني وزن أصغر النمل .

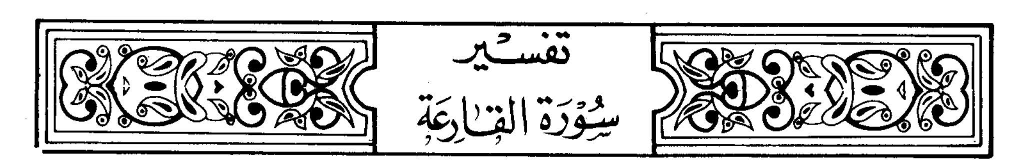


تفسير سُورَةُ العَادِيَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴾ ۝١١

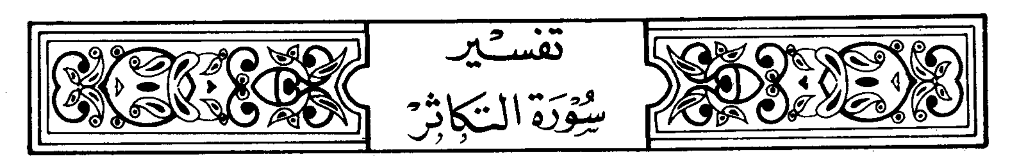
يقسم تعالى بالخيل اذا أجريت في سبيله قعدت ، وضجت ، وهو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ يعني اصطكاك نعالها للصخر فتقدح منه النار ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ يعني الاغارة وقت الصباح كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحاً ، ويستمع الأذان ، فإن سمع أذاناً وإلا أغار ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ يعني غباراً في مكان معترك الخيول ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ أي توسطن ذلك المكان كلهن جمع ﴿ إن الانسان لـربه لكنود ﴾ هذا هو المقسم عليه ، بمعنى إنه لنعم ربه لكفور جحود . قال الحسن : الكنود هو الذي يعد المصائب وينسى نعم الله عليه . روى ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ إن الانسان لـربه لكنود ﴾ قال : الكنود الذي يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفده » ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ وإن الله على ذلك لشهيد ، ويحتمل أن يعود الضمير على الانسان ، فيكون التقدير : وإن الانسان على كونه كنوداً لشهيد ، أي بلسان حاله ، أي ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله ، كما قال تعالى ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ أي وإنه لحب الخير ، أي المال لشديد ، وفيه مذهبان : أحدهما أن المعنى وإنه لشديد المحبة للمال ، والثاني وإنه لحريص بخيل من محبة المال . وكلاهما صحيح . ثم قال تبارك وتعالى مزهداً في الدنيا ومرغباً في الآخرة ، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال ، وما يستقبله الانسان من الأهوال ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ﴾ أي أخرج ما فيها من الأموات ﴿ وحصل ما في الصدور ﴾ يعني أبرز وأظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم ﴿ إن ربهم بهم يومئذٍ لخبير ﴾ أي لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء ، ولا يظلم مثقال ذرة .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْقَارِعَةُ (١) مَا ٱلْقَارِعَةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ (٦) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ (٨) فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ (١١)

القارعة من أسماء يوم القيامة ، كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية وغير ذلك ، ثم قال تعالى معظماً أمره' ومهولاً لشأنها ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ ثم فسر ذلك بقوله ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ أي في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم من حيرتهم مما هم فيه كأنهم فراش مبثوث ، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾ وقوله تعالى ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ يعني قد صارت كأنها الصوف المنفوش الذي قد شرع في الذهاب والتمزق . العهن : الصوف . ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين ، وما يصيرون إليه من الكرامة والإهانة بحسب أعمالهم فقال : ﴿ فأما من ثقلت موازينه ﴾ أي رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ يعني في الجنة . ﴿ وأما من خفت موازينه ﴾ أي رجحت سيئاته على حسناته . ﴿ فأمه هاوية ﴾ قيل : معناه فهو ساقط هاو بأم رأسه في نار جهنم ، وعبر عنه بأمه ، يعني دماغه ، وقيل : معناه فأمه التي يرجع اليها ، ويصير في المعاد إليها هاوية ، وهي اسم من أسماء النار ، وإنما قيل للهاوية : أمه ، لأنه لا مأوى له غيرها . كقوله تعالى ﴿ مأواهم جهنم ﴾ ولهذا قال تعالى مفسراً للهاوية ﴿ وما أداك ماهيه . نار حامية ﴾ عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » قالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ؟ فقال : « إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » . ورواه البخاري ، ورواه مسلم . وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « اشتكت النار إلى ربها فقالت : يا رب ، أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين : نفس في الشتاء ، ونفس في الصيف ، فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها ، وأشد ما تجدون في الصيف من حرها » وفي الصحيحين« إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة ،فإن شدة الحر من فيح جهنم » .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ ۝٨

يقول تعالى : أشغلكم حب الدنيا ونعيمها ، وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها ، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت ، وزرتم المقابر ، وصرتم من أهلها ؟ . روى الامام أحمد عن عبدالله بن الشخير عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ ، وهو يقول : « ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو ليست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » ورواه مسلم والترمذي والنسائي . وروى البخاري قال : قال رسول الله ﷺ « يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد : يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله » وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي . وروى الامام أحمد « يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان : الحرص والأمل » أخرجاه في الصحيحين . روى ابن أبيْ حاتم عن أبي بريدة في قوله ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ قال : نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار : في بني حارثة ، وبني الحارث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت احداهما : فيكم مثل فلان بن فلان ، وفلان ؟ وقال الآخرون : مثل ذلك ، تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت احدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان ، يشيرون إلى القبور ، ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك ، فأنزل الله ﴿ ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر ﴾ لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل . والصحيح أن المراد بـ زرتم المقابر أي صرتم إليها ، ودفنتم فيها ، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده فقال : لا بأس طهور إن شاء الله » فقال : قلت : طهور ؟ بل هي حمى تغور ، على شيخ كبير ، تزيره القبور ، قال : « فنعم اذن » وقوله تعالى ﴿ كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون ﴾ قال الحسن البصري : هذا وعيد بعد وعيد . وقوله ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ أي لو علمتم حق العلم لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة حتى صرتم إلى المقابر . ثم قال ﴿ لترون الجحيم . ثم لترونها عين اليقين ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم ، وهو قوله ﴿ كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون ﴾ توعدهم بهذا الحال ، وهو رؤية أهل النار التي إذا زفرت زفرة واحدة خر كل ملك مقرب ، ونبي مرسل على ركبتيه من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال على ما جاء به الأثر المروي في ذلك وقوله تعالى ﴿ ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم ﴾ أي ثم لتسألن يومئذٍ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك .



تفسير سُورَةُ العَصْرِ



ذكر الطبراني قال : كان الرجلان من اصحاب رسول الله ﷺ اذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ، ثم يسلم أحدهما على الآخر . وقال الشافعي رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ ﴿٣﴾

العصر : الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر فأقسم تعالى بذلك على أن الانسان لفي خسر ، أي في خسارة وهلاك ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي فاستثنى من جنس الانسان عن الخسران، الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ وهو اداء الطاعات ، وترك المحرمات ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ أي على المصائب والأقدار ، وأذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف ، وينهونه عن المنكر .

* * *



تفسير سُورَةُ الهُمَزَة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩ ﴾

الهماز بالقول ، واللماز بالفعل ، يعني يزدري الناس وينتقص بهم ، وقيل : المراد بذلك الأخنس بن شريق ، قال مجاهد : هي عامة . وقوله تعالى ﴿ الذي جمع مالاً وعدده ﴾ أي جمعه بعضه على بعض ، وأحصى عدده كقوله تعالى ﴿ وجمع فأوعى ﴾ قال محمد بن كعب في قوله ﴿ جمع مالاً وعدده ﴾ ألهاه ماله بالنهار : هذا إلى هذا ، فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة . وقوله تعالى ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ أي أيظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار ﴿ كلا ﴾ أي ليس الأمر كما زعم ، ولا كما حسب . ثم قال تعالى ﴿ لينبذن في الحطمة ﴾ أي ليلقين هذا الذي جمع مالاً فعدده في الحطمة ، وهي اسم صفة من أسماء النار لأنها تحطم من فيها ، ولهذا قال ﴿ وما أدراك ما الحطمة . نار الله الموقدة . التي تطلع على الأفئدة ﴾ قال ثابت البناني : تحرقهم إلى الأفئدة ، وهم أحياء ﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ أي مطبقة كقوله تعالى ﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ أي مطبقة . وقوله تعالى ﴿ في عمد ممددة ﴾ قال عطية العوفي : عمد من حديد ، وقال السدي : من نار ، وعن ابن عباس : يعني الأبواب هي الممددة ، أو هي القيود الثقال .



تفسير سورة الفيل



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾ ﴿٥﴾

هذه من النعم الذي امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ، ومحو أثرها من الوجود فأبادهم الله ، وأرغم آنافهم ، وخيب سعيهم ، وأضل عملهم ، وردهم بشر خيبة ، وكانوا قوماً نصارى ، وكان دينهم اذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان ، ولكن كان هذا من باب الارهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال ، ولسان حال القدر يقول : لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليهم ، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء . ﴿ طيراً أبابيل ﴾ شتى متتابعة مجتمعة قال الكسائي : سمعت بعض النحويين يقول : واحد الأبابيل إبيل . ﴿ من سجيل ﴾ السجيل : الشديد الصلب . والعصف : ورق الزرع الذي لم يقضب ، واحدته عصفة . والمعنى أن الله أهلكهم ودمرهم وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً ، وأهلك عامتهم ، ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح . لما أطل رسول الله ﷺ يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش بركت ناقته فزجروها فألحت ، فقالوا : خلأت القصواء ، أي حرنت فقال رسول الله ﷺ : « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل ، ثم قال : والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم خطة يعظمون فيها حرمات الله الا أجبتهم اليها » ثم زجرها فقامت . والحديث من افراد البخاري . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة « إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حرمتها اليوم لحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد النائب » .



تفسير سُورَةِ قُرَيْش



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ ۝٤

هذه سورة مفصولة عما قبلها في المصحف الامام ، كتبوا بينهما سطر « بسم الله الرحمٰن الرحيم » وإن كانت متعلقة بما قبلها ، لأن المعنى حبسنا عن مكة الفيل ، وأهلكنا أهله لايلاف قريش أي لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين . وقيل : المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك ، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم ، وأما في حال إقامتهم في البلد فكما قال الله تعالى ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ لايلاف قريش إيلافهم ﴾ بدل من الأول ومفسر له ، ولهذا قال : ﴿ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ قال ابن جرير : الصواب أن اللام لام التعجب كأنه يقول : اعجبوا لايلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك ، قال : وذلك لاجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان . ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ أي فليوحدوه بالعبادة ، كما جعل لهم حرماً آمناً ، وبيتاً محرماً ﴿ الذي أطعمهم من جوع ﴾ أي هو رب البيت ، وهو الذي أطعمهم من جوع ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ أي تفضل عليهم بالأمن والرخص فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً ، ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ، ومن عصاه سلبهما الله منه . ﴿ ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾.



تفسير سُورَةُ المَاعُون

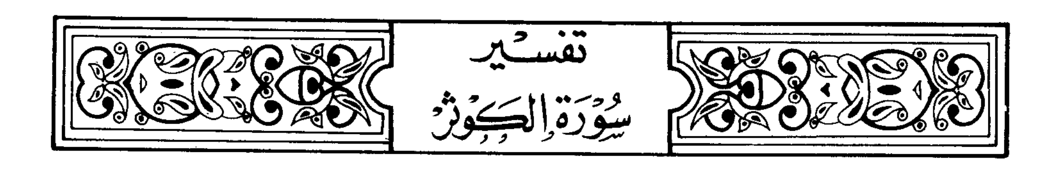


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ﴿٧﴾

يقول تعالى : أرأيت يا محمد الذي يكذب بالدين ، وهو المعاد والجزاء والثواب ﴿ فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ أي هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقه ، ولا يطعمه ، ولا يحسن إليه ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ كما قال تعالى ﴿ كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ يعني الفقير الذي لا شيء يقوم بأوده وكفايته . ﴿ فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ يعني المنافقين الذين يصلون في العلانية ، ولا يصلون في السر ، ولهذا قال ﴿ للمصلين ﴾ الذين هم من أهل الصلاة ، وقد التزموا بها ، ثم هم عنها ساهون ، إما عن فعلها بالكلية ، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً فيخرجها عن وقتها بالكلية ، وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو غالباً ، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به ، وإما عن الخشوع فيها ، والتدبر لمعانيها ، فاللفظ يشمل ذلك كله ، ولكن من اتصف بشيء من ذلك كان له قسط من هذه الآية ، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيبه منها ، وكمل له النفاق العملي كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس ، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » قال عطاء بن دينار : الحمد لله الذي قال ﴿ عن صلاتهم ساهون ﴾ ولم يقل : في صلاتهم ساهون . قال الله تعالى ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون

الله إلا قليلاً ﴾ وقال تعالى ههنا ﴿ الذين هم يراؤ ون ويمنعون الماعون ﴾ أي لا أحسنوا عبادة ربهم ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ، ورجوعه إليهم ، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى ﴿ الماعون ﴾ متاع البيت .



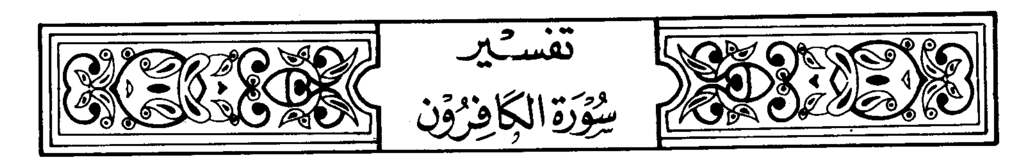
تفسير سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ ۝٣

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسماً ، إما قال لهم ، وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه أنزلت علي آنفاً سورة » فقرأ ﴿ بسم الله الرحمٰن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر ﴾ حتى ختمها ، فقال : « هل تدرون ما الكوثر ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب ، يختلج العبد منهم ، فأقول : يا رب ، إنه من أمتي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية ، وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة ، وأنها منزلة معها . ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ الكوثر نهر في الجنة كما جاء في الأحاديث . وروى البخاري عن ابن عباس : أنه الخير الذي أعطاه الله إياه . ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك النهر الذي تقدمت صفته فأخلص لربك صلاتك المكتوبة ، والنافلة ، ونحرك ، فاعبده وحده لا شريك له ، وانحر على اسمه وحده لا شريك له كما قال تعالى ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ وقوله

تعالى ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ أي إن مبغضك يا محمد ، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع ، والنور المبين هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع . كان العاصي بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : دعوه ، فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره ، فأنزل الله تعالى هذه السورة : روى البزار عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة ، فقالت له قريش : أنت سيدهم ، ألا ترى إلى هذا المنصر المنبتر من قومه ؟ يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج ، وأهل السدانة ، وأهل السقاية ، فقال : أنتم خير منه ، قال : فنزلت ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ وإسناده صحيح . ولما كان الأبتر الذي إذا مات انقطع ذكره توهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل قد أبقى ذكره الله على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمراً على دوام الآباد ، إلى يوم المحشر والمعاد. صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد .

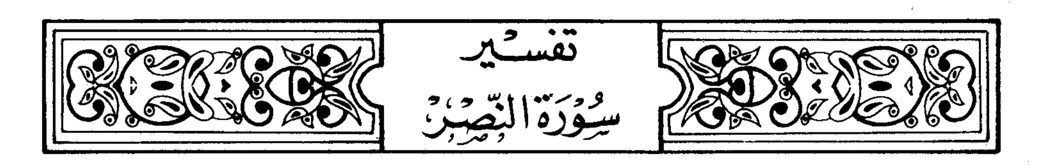


ثبت في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة ، وبقل هو الله أحد في ركعتي الطواف . وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر . وروى الإمام أحمد أنه قرأ بهما في الركعتين بعد المغرب . وروى الإمام أحمد عن الحارث بن جبلة قال : قلت : يا رسول الله ، علمني شيئاً أقوله عند منامي قال : « إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون . . . ﴾ فإنها براءة من الشرك » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (٦)

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون ، وهي آمرة بالاخلاص فيه ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض ، ولكن المواجهون بهذا الخطاب كفار قريش ، وقيل لجهلهم دعوا رسول الله إلى عبادة أوثانهم سنة ويعبدون معبوده سنة ، فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ وهو الله وحده لا شريك له ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أي ولا أعبد عبادتكم ، أي لا أسلكها ولا أقتدي بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه ﴿ لكم دينكم ﴾ الكفر ﴿ ولي دين ﴾ الإسلام .



تفسير سُورَةُ النَّصْرِ

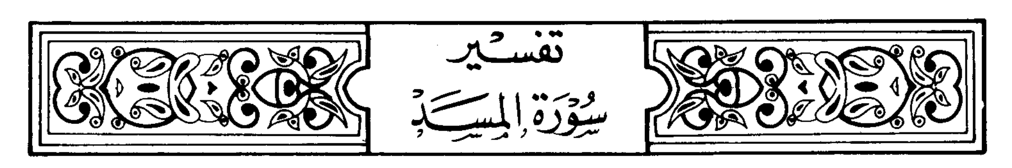
هذه السورة تعدل ربع القرآن ، وإذا زلزلت تعدل ربع القرآن ، وقيل : إنها آخر سورة نزلت ، عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال : « إنه قد نعيت إلي نفسي » فبكت ، ثم ضحكت ، وقالت : أخبرني أنه نعيت إليه نفسه فبكيت ، ثم قال : « اصبري فإنك أول أهلي لحاقاً بي » فضحكت . رواه الحافظ البيهقي ، ورواه النسائي بدون ذكر فاطمة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ ﴿٣﴾

روى البخاري عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال : لم يدخل هذا معنا ، ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه ممن قد علمتم ،

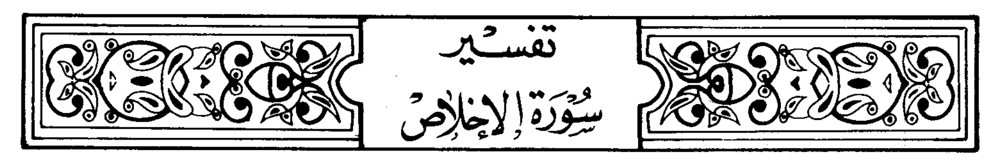
فدعاهم ذات يوم ، فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذٍ إلا ليريهم ، فقال : ما تقولون في قول الله عز وجل ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم ، فلم يقل شيئاً ، فقال لي : أكذلك تقول ، يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ﷺ ، أعلمه له ، قال ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فقال عمر بن الخطاب : لا أعلم منها إلا ما تقول . تفرد به البخاري .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ (٤) فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ (٥) ﴾

روى البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش فقال : « أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني ؟ » قالوا نعم ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ تباً لك ، فأنزل الله ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ إلى آخرها . أي خسرت وخابت وضل عمله وسعيه ﴿ وتب ﴾ أي وقد تب أي تحققت خسارته وهلاكه . ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ يعني ولده ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ أي ذات شرر ولهب وإحراق شديد ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ وكانت زوجته من سادات نساء قريش وهي أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب ، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده ، فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في نار جهنم ، ولهذا قال تعالى ﴿ حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد ﴾ يعني تحمل الحطب فتلقي على زوجها ليزداد على ما هو فيه ، وهي مهيأة لذلك مستعدة له . أو ﴿ حمالة الحطب ﴾ كانت تمشي بالنميمة ، واختاره ابن جرير . وقال مجاهد : ﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ أي طوق من حديد .



تفسير سورة الإخلاص

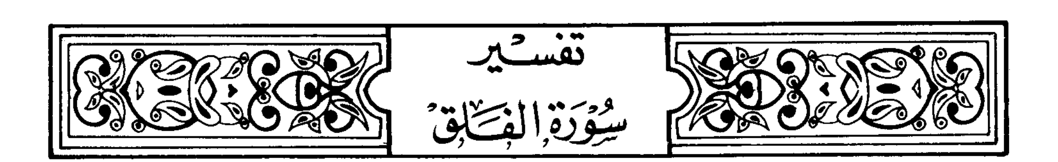
روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد ، انسب لنا ربك ، فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ وكذا رواه الترمذي وابن جرير وروى البخاري عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات » وهكذا رواه أهل السنن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾

قال عكرمة : لما قالت اليهود نحن نعبد عزيرا بن الله، وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح ابن مريم ، وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر ، وقالت المشركون : نحن نعبد الأوثان أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ، ولا وزير له ، ولا نديد له ، ولا شبيه ولا عديل . ولا يطلق هذا اللفظ على أحد إلا على الله عز وجل ، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله . وقوله تعالى ﴿ الله الصمد ﴾ يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم ، وعن ابن عباس هو السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه هذه صفته ، لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء ، وليس كمثله شيء ، سبحان الله الواحد القهار . أو ﴿ الصمد ﴾ الذي لا يخرج منه شيء ولا يطعم ، والذي لا جوف له ، أو هو الذي لم يلد ولم يولد ، وهو تفسير جيد ، لأنه جعل ما بعده تفسيراً له . ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة ﴿ ولم يكن له كفواً

أحد ﴾ يعني لا صاحبة له ، وهذا كما قال تعالى ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء ﴾ أي هو خالق كل شيء ومالكه ، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه ، أو قريب يدانيه ؟ تعالى وتقدس وتنزه .



تفسير سُورَةِ الفَلَقِ

روى الإمام مالك عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين ، وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات وأمسح بيده عليه رجاء بركتها . ورواه البخاري .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ ﴿٥﴾

﴿ الفلق ﴾ الصبح ، أو الخلق ، أو بيت في جهنم ، أوجب في قعر جهنم ، أو من أسماء جهنم ، والصواب هو القول الأول . ﴿ من شر ما خلق ﴾ أي من شر جميع المخلوقات ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال مجاهد : غاسق الليل إذا وقب غروب الشمس . حكاه البخاري عنه ، أو الشمس إذا غربت ، أو ﴿ إذا وقب ﴾ الليل إذا ذهب ، أو الكوكب ﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾ يعني السواحر إذا رقين ونفثن في العقد . وفي الحديث أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ فقال : اشتكيت يا محمد ؟ فقال : « نعم » فقال : باسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك ، ومن شر حاسد وعين ، الله يشفيك ، ولعل هذا كان من شكواه حين سحر ، ثم عافاه الله تعالى وشفاه ، ورد كيد السحرة الحساد من اليهود في رؤوسهم ، وجعل تدميرهم في تدبيرهم ، وفضحهم ، ولكن مع هذا لم يعاتبه يوماً من الدهر أي فما ذكر ذلك لليهودي الذي سحره ولا رآه في وجهه حتى مات بل كفى الله وشفا وعافى . واليهودي اسمه لبيد بن أعصم . وحديث سحره ﷺ رواه البخاري ورواه مسلم ورواه الإمام أحمد .



تفسير سُورَةُ النَّاسِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ ﴿٦﴾

هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل ، الربوبية ، والملك ، والإلّهية ، فهو رب كل شيء ومليكه وإلّهه ، فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة عبيد له ، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس ، وهو الشيطان الموكل بالإنسان ، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش ، ولا يألوه جهداً في الخبال ، والمعصوم من عصمه الله . وقد ثبت في الصحيح أنه « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه » قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال : « نعم إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير » وثبت في الصحيحين عن أنس قصة زيارة صفية للنبي ﷺ وهو معتكف ، وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها ، فلقيه رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا ، فقال رسول الله ﷺ : « على رسلكما ، إنها صفية بنت حيي » فقالا سبحان الله يا رسول الله ، فقال : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً » ، أو قال : شراً ﴿ الوسواس الخناس ﴾ عن ابن عباس قال : إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر الله خنس ﴿ من الجنة والناس ﴾ تفسير للذي يوسوس في صدور الناس من شياطين الإنس والجن .

انتهى هذا المختصر ولله الحمد والمنة ، وله الفضل في البدء والختم .

صبيحة يوم الخميس ٢٣ / ربيع الأول / ١٤٠٢

محمد كريم راجح



فهرست